مكتبة

الحب في القرن الجديد

مكتبة ٨٠٤

تسان شُيِّيه

رواية

ترجمة

يارا المصري

مكتبة | 804
سُر مَن قرأ

الحبُّ في القرنِ الجديد

新世纪爱情故事
残雪 (Can Xue)

الحبُّ في القرنِ الجديد - رواية
تأليف: تسان شُيِّه
ترجمتها عن الصينية: يارا المصري
تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 26 - 9
الطبعة الأولى: 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

BNUP

Arabic translation copyright ©2021 by Beijing Normal University Press (Group) Co., Ltd.
The translation is in collaboration with the Beijing Normal University Press (Group) Co., Ltd.
ALL RIGHTS RESERVED.
B&R Book Program

تسان شُيِّيه

مكتبة | 804
سُر مَن قرأ

الحبُّ في القرنِ الجديد

رواية

ترجمتها عن الصينية:
يارا المصري

مقدّمة

الغرفةُ الصغيرةُ المُظلمة

مكتبة
t.me/t_pdf

النموذج الأصلي

«قبل أن أبدأ الكتابة، أكون قد هيّأتُ الشروط الأساسية لأدائي، لكن حين أدخلُ في العالم الاستثنائي لروايتي، أدركُ أنه أداءٌ ذو صعوبةٍ فائقة ومن دون نموذجٍ أوّلي. وما أقصده بالنموذج الأوّلي أنّه ليس نموذجاً أصلياً ينتمي إلى هذا العالم، فنموذجي الأصليّ يقبع في أعماق الفوضى والظلام. وعليّ أن أغوص، وأغوص، ثم أقوم بجهدٍ مضاعف لأُظهر هذه المشاهد التي لا مثيل لها، والتي لم تُرَ من قبل على الورق، لذلك يرى العديد من القرّاء أن أعمالي شديدة الغرابة وأنها تشبه السحر، ولكن لها، في الآن نفسه، جاذبيةً تفوق الوصف».

هذا بعض ما تقوله الكاتبة «تسان شُيِّيه»، في نصٍّ لها بعنوان «الأداء»، لتصف الرحلة الإبداعية من التصوّر الذهني للعمل الإبداعي، إلى كتابته، ولعلّ ذلك ما يخوضه كل كاتب، وإن كانت الكاتبة هنا تعود بما تسمّيه

«النموذج الأصلي» إلى أعماق الفوضى والظلام، فلربما كانت تشير إلى عملية الخَلق ذاتها، التي لا خطوط واضحة فيها، وإنما جهد الكاتب في بناء عمله، حتى يراه القرّاء «شديد الغرابة والسحر»، وهو ما قد نراه بالفعل في هذه الرواية: «الحبّ في القرنِ الجديد».

الغرفةُ الصغيرةُ المُظلمة

لكن الغرابة والسحر قد نجد لهما جذوراً في سيرة حياة الكاتبة، سواء على صعيد الواقع بعملها في مهنٍ منها الخياطة، أو في علاقتها بجَدّتها التي كانت تمارس «طرد الأرواح»، أي تمارس عملاً من أعمال السحر حسب تقاليده الصينية، وفي السيرة الذاتية للكاتبة نقرأ أن اسمها الحقيقي «دينغ شياو هوا»، وقد وُلدت في الثلاثين من أيار (مايو) عام 1953 في مدينة تشانغشا بمقاطعة هونان في الصين. والتحقتْ عام 1961 بالصف الأول الابتدائي، وتركت المدرسة عام 1966 بعد إنهاء المرحلة الابتدائية، بسبب اندلاع الثورة الثقافية في الصين.

عاشت «دينغ شياو هوا» أو «تسان شُيِّه» جزءاً من طفولتها مع جَدّتها، بسبب ظروف عائلتها، وهذا ما سنرى له تأثيراً لاحقاً في أعمالها. كان والداها يعملان في صحيفة «هونان اليومية»، وكان والدها رئيساً لتحرير الصحيفة آنذاك، وفي عام 1958 اعتُبرَ يمينياً ومناهضاً للحزب، وانتقل وعائلته عام 1959 من منزلهم إلى غرفتين في جامعة هونان للمعلّمين عند جبال يوي لو، غرب حوض النهر الأصفر. أُرسلت والدتها إلى «هينغ شان – جبال هينغ» للإصلاح من خلال العمل، كما خُفّضت رُتبةُ والدها إلى عامل عام. وفي عام 1962 عادت والدة تسان شُيِّه للعمل في الصحيفة، وعادت العائلة للعيش في السكن الخاص بالصحيفة. ثم اعتُقل والدها مرّةً

أخرى أثناء «الثورة الثقافية»، وبعد أن جاب الشوارع معروضاً في شاحنة في حملة تشهير، سكن في «زريبة البقر»، والمقصود بـ«زريبة البقر» هي بعض الغرف المخصصة في آخر الرواق في سكن الطلبة حيث يمكن للعائلات زيارتهم. وهكذا ظلَّ والدها في سكن الطلبة، وانتقلت تسان شُيِّيه إلى غرفة في جامعة هونان للمعلّمين لتعتني بوالدها، وقد سمّتها في ما بعد: «غرفتي الصغيرة المظلمة»، ورُحِّلَ باقي العائلة إلى الضواحي.

في عام 1970 وُزّعت من قبل مكتب الحيّ للعمل في العديد من المهن، فعملت في أشغال الفرز والتجميع، وبعد أن أنجبت ابنها عملت مدرّسةً بديلة. ثم قرّرت أن تتعلّم الخياطة لأنها لم تستطع الحصول على عمل رسمي، وفتحت مع زوجها محل خياطة واستمرّا في العمل لمدة خمس سنوات. وفي عام 1985 بدأت نشر كتاباتها، وانضمّت إلى اتحاد كتّاب الصين عام 1988.

للكاتبة العديد من المجموعات القصصية والروايات والنوڤيلات والكتب النقدية، من أهمّها: نوڤيلا «الغيمة القديمة الطافية»، رواية «شارع البهارات الخمسة»، رواية «الحبيب الأخير»، و«قلعة الروح» وهو كتابٌ نقدي عن الكاتب التشيكي فرانز كافكا. تُعتبر من أهم روّاد تيار «أدب الطليعة»، وهي إحدى أكثر الكاتبات الصينيات اللاتي تُرجمت أعمالهن إلى اللغات الأخرى. كما أنّ رواياتها تُدَرّس في سياق دراسة الأدب في جامعات هارفارد وكورنيل وكولومبيا وجامعات أخرى في الولايات المتحدة، إضافةً إلى جامعتي طوكيو ونيهون في اليابان. وقد وصلتْ روايتها «شارع البهارات الخمسة» إلى القائمة الأخيرة لجائزة «نيوستاد» الدولية للأدب عام 2016، ورُشّحَت لجائزة «الرواية الأجنبية المستقلة» في لندن. ووصلت روايتها «الحبّ في القرن الجديد» إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر الدولية عام 2019.

وبالعودة إلى طفولتها مع جَدّتها، نقرأ في بحث بعنوان «في العلاقة بين روحانية ممارسات سحر منطقة تشو وروايات تسان شُيِّيه»(*):

> «ظلّت تجربة الطفولة الغامضة تُلاحق تسان شُييه، حتى أصبحت ذكرياتٍ عجزت عن محوها بعد أن كبرت، وتقول تسان شُييه إنّ تجربة طرد الأرواح مع جَدّتها عدّة مرّات من فناء المنزل مطبوعةٌ في روحها. تجربة النمو الفريدة تلك، جعلت تسان شُييه متأثرة بالعناصر الغامضة لثقافة ممارسات السحر في منطقة تشو(**)، التي انصهرت شيئاً فشيئاً في مزاجها الروحي الفريد. وقد توفّيت جدّتها بسبب الجوع وتسان شُييه عمرها سبع سنوات».

لذا يمكن القول إنّ طفولة تسان شُيِّيه، سواء السنوات القصيرة التي عاشتها مع جَدتها أو مع عائلتها في ما بعد، وتجربة موت جَدّتها وأخيها، و«الغرف الصغيرة المُظلمة» التي تنقّلت بينها، والتي كتبت فيها نصاً عنوانه «أنا وغرفتي الصغيرة المظلمة»، وقضية اعتبار والدها يمينياً ومناهضاً للحزب، إن كلّ ذلك له تأثير بيّن في أعمالها، فهي كأيّ كاتب، يحمل تجاربه وخبراته ويستبطنها بشكلٍ أو بآخر، أو تتجلّى في أعماله. وتقول تسان شُيِّيه في أحد الحوارات:

> «أنْ أرى الناس يدفعون والدي إلى شاحنةٍ ضخمة ويُعلّقون في عنقه لافتة كبيرة، فقد كان لذلك تأثيرٌ حاسمٌ على طفولتي ومراهقتي وشبابي».

(*) كتب البحث البروفيسور «يانغ جينغ جيان» حاصل على دكتوراه في الأدب، ومتخصّص في الأدب الصيني الحديث والمعاصر، و«دونغ واي بينغ» وهو باحث في الأدب الصيني المعاصر. (م).

(**) منطقة تشو: اسم يطلق على مقاطعتي هونان وخوبيّ، ولا سيما خوبيّ.(م).

تقول تسان شُيِّيه في حوارٍ آخر معها:

«كتبتُ الرواية في مدّة تزيد عن عام، وتقريباً هي المدّة نفسها التي كتبتُ فيها كلّاً من رواياتي. أكتبُ كلّ يوم ساعة واحدة فقط، وأقلّ من ألف رمز. كما أنني أكتبُ بخط اليد ولا أستخدم الكومبيوتر، وهذا سريع. رواية «الحب في القرن الجديد» هي «كتابة تلقائية»، وما يُسمّى «الكتابة التلقائية»، هي الكتابة من دون تصوّر مُسبق، تُطلق العنان لأفكارك، بالضبط مثل فنون الأداء، حالما يبدأ، يتحرّك القلم تلقائياً، وتُشكّل اللغة مُستوياتها وتراكيبها الخاصة، لأن ثمّة قوّةً مظلمة تتحرك داخلي وتقود جسدي. لذلك لم أفكّر مُطلقاً في أيّ بداية أو نهاية، كلّ شيء كان تلقائياً، ولهذا لا يستطيع أحد تقليد أسلوب كتابتي. و«الكتابة التلقائية» ليست سهلة، لأنّ عليك أن تصقل نفسك باستمرار وليس أن تنتظر أكثر من مرة في عملك، فأنا أكتب منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، وأصبحتُ ماهرة، فلا حاجة إلى أن أزن كلماتي أو أفكّر فيها، فما أكتبه بطبيعة الحال هو شِعر».

تدور الرواية التي نُشرت عام 2013 حول عدد من الرجال والنساء معظمهم أعمارهم متوسطة، أو هم في الغالب غادروا مرحلة الشباب إلى التفكير في مصائرهم النهائية مع أنهم لم يصلوا إلى الشيخوخة، وإذ هم كذلك فإنهم يدخلون في علاقات عاطفية وجسدية متعدّدة، فيما يبدو كلٌّ منهم وكأنه مرآة للآخر، حتى لتظنّ أن الكاتبة تدير مصائر شخصياتٍ متعدّدة من منطلقٍ واحد، هو مغزى الحياة في علاقتها بالحب

والجنس ومسقط الرأس والعمل والتقاليد الصينية القديمة والطبيعة والطب التقليدي الصيني، وإذ تتشكّل الرواية من فصول، فإنّ كلّ فصلٍ يعيد الحكاية انطلاقاً من شخصية من الشخصيات، وليس بوسعنا إلّا أن نقول إن جميع شخصيات الرواية رجالاً ونساءً هم أبطالٌ في المتن الذي تسرده الكاتبة عن كلّ شخصية، وتتبدّى فيه كذلك مصائرُ الجميع كلّها أو معظمها.

هل هم حقّاً بهذا الجمال؟

تقول تسان شُيِّه:

«أنا أيضاً كنت في القاع في الماضي، وكنت أعمل في مصانع الحيّ، وكنتُ معرّضة للأخطار في أيّ وقت، لذلك أستطيع فهمهم. وقد لا يكونون حقاً بهذا الجمال في الواقع لأن البيئة تُقيّدهم، ولا يستطيعون تطوير هذا الجمال. على أن ثمة مَواطنَ مضيئةً من الجمال تكشفها الرواية».

تتحدّث الكاتبة عن ماضيها في علاقته بأبطال روايتها، وكأنها تشير إلى أنهم قادمون من القاع الذي أتت هي منه، وتضيف:

«أنا مولعة بمسقط رأسي. نشأتُ في الجبل أثناء صغري، وتعرّضت عائلتي لمحنة، ولم نكن نجد شيئاً لنأكله، وكنت آخذ أخويّ الصغيرين ونذهب إلى الجبل ونبحث طيلة اليوم عن الأعشاب البرية الصالحة للأكل. الجبل بالنسبة لي كالأم، أنا وهو واحد. بمجرّد أن يتاح لي الوقت أرتمي في أحضانه بحثاً عن مختلف الوجبات الخفيفة. أحبّ الطبيعة

منذ صغري، هذه طبيعتي، وإيماني، لم يعلّمني أحد. ما دام حيواناً أو نباتاً، فأنا أحبّه».

وسوف نلاحظ في الرواية أنّ ثمة أسماء شخصيات لها معنى نباتات كذلك، مما يعكس تلك البيئة التي تتحدّث عنها الكاتبة في مسقط رأسها. كما ألفت النظر هنا إلى أنّ ترجمة الأسماء في الرواية جاءت استناداً على المنطوق الصوتي للاسم في اللغة الصينية، أو ترجمة معنى الاسم حسبما يقتضيه السياق، وفعلتُ هذا بالاتفاق مع الكاتبة.

كما أودُّ الإشارة إلى أن بعض الأسماء ترد كاملة مثل «لونغ سي شيانغ» «آسي» «نيو تسوي لان»، أو ترد باختصار الاسم كالتالي: «سي شيانغ»، «سي»، «تسوي لان».

كلّهن جميلات

وإذ تتحدّث الكاتبة عن روايتها «الحبّ في القرن الجديد»، فإنها تكشف أكثر عمّا تريد قوله، وإن كان ذلك لا ينفي، بالطبع، المغزى الذي سيخرج به كلّ قارئ حسب قراءته للرواية..

وعلى سبيل المثال، تقول الكاتبة تسان شُيِّه عن مفهومها للحرّية:

«أكتب عن الحبّ الحقيقي، الحب الحرّ. والغرض من الكتابة عن مهنة خاصة هو وضع الشخصيات في حالة يائسة والسماح لهم بأداء الأدوار بأنفسهم. وهذه الحالة اليائسة ليست العالم الحقيقي، لكنها تعكس جوهر العالم الحقيقي. أريد للقرّاء أن يروا كيف يمكن أن يكون الحبّ الحرّ الحقيقي، ربما يكون غير تقليدي، لكنّه يظهر جمال الحرية. النساء في الرواية «لونغ سي شيانغ، جين تجو،

آسي» كلّهن جميلات، وقع في غرامهن الرجال لأنهنّ حُرّات، لا لأن أرواحهن حرّة فقط، بل أجسادهن كذلك، وهنّ يمثّلن وحدة الروح والجسد».

ولأن الرواية في معظم أحداثها قد تبدو وكأنّها تعكس سلوكاً لا أخلاقياً لشخصياتها، فإنّ الكاتبة تدافع عن الشخصيات انطلاقاً من مفهومٍ تسمّيه «تماسك النفس الداخلي» وتقول:

«كلّ شخصية في هذه الرواية أخلاقية. وِيّ بو على سبيل المثال، دخل السجن بإرادته، لأنه أحسّ بأنه غير مثالي، أليس هذا أخلاقياً؟ كلّ شخصية في الرواية في حالة من تماسك النفس الداخلي، يفضّلون الانغلاق على أنفسهم، على أن يجرّبوا شيئاً عكس طبيعتهم. وفي ظنّي، أنّه كلّما كان المرء على طبيعته، كان أكثر أخلاقية. المجتمع المثالي الحقيقي هو حيث يكون الكلّ على طبيعته، وهذا بالطبع من الصعب جداً تحقيقه، لكن يُمكن السعي إلى تلك الوُجهة، الأمر الذي يتطلب القوة».

الحفاظ على الفراغ وتشكيله

وإذا كان ثمّة ما تسعى إليه الكاتبة، ليس من عملها هذا فحسب، وإنما من مجمل أعمالها، فإنّه يتبدّى في اقتباسٍ من نصٍّ لها بعنوان «العمق»، تقول تسان شُيِّه:

«عندما كنتُ مراهقة، كان ثمّة شيء لا يُمكن مسُّه، وهو الكرامة الشخصية. لكنه كان الوقت الأشدّ هدراً للكرامة، لذلك كنتُ أنفجر دائماً في نوباتِ غضبٍ عنيفة. وتحت تأثير

> تلك النوبات المستمر، كان الفراغ الداخلي يتشكّل تدريجياً.
> لم يلاحظ أحدٌ الاختلاف بيني وبين الآخرين. أنا، عملت في شبابي بين الطبقات العاملة الفقيرة، تزوّجت، أنجبتُ طفلاً وربّيته، وبحثتُ عن عمل... ربما كنتُ في الأساس شخصاً عادياً، ولِمَ لا؟ ما أقصده هو أنّ الأشخاص العاديين بوسعهم أيضاً الحفاظ على هذا الفراغ وتشكيله. وهذا هو أساس الكرامة. إذا علم الشخص بوجود هذا الفراغ المسمّى بالنفس، واستطاع دراستها واستكشافها وتنميتها، فمن الممكن جداً أن يكون هذا الشخص مبدعاً».

وإذ وجدت الكاتبة تسان شُيِّه ذاتها في الكتابة، فإنها إلى جانب الكتابة الإبداعية، كتبت الكثير من النصوص النقدية عن الكتابة الإبداعية، وعن رأيها في كتابة الرواية وتجربتها الشخصية في الكتابة. وكنتُ قد ترجمتُ قصّتين قصيرتين لهذه الكاتبة التي أعتبرها من أهم الكاتبات الصينيات المُعاصرات، ولعلّ هذه الترجمة العربية لروايتها «الحبّ في القرن الجديد» تفتح للقارئ العربي نافذةً يرى من خلالها المصائر الإنسانية بعيون كاتبة صينية معاصرة.

يارا المصري

آب (أغسطس) 2020

مكتبة
t.me/t_pdf

- 1 -

«تسوي لان» وَ«وِيّ بُوَ»

استيقظت الأرملة نيو تسوي لان قبل طلوع الصباح، لتغتسل وتسرّح شعرها وتتزيّن، لأن حبيبها وِيّ بُوَ ربما يزورها اليوم. عمرها خمسة وثلاثون عاماً، وهي تعتقد أنه العمر الأفضل في حياة المرأة، توفّي زوجها منذ ثماني سنوات. وِيّ بُوَ عمره ثمانية وأربعون عاماً، يعمل في مصنعٍ للصابون، وحاصل على تعليمٍ جيّد بالنسبة لعاملٍ عامّ.

تعارفا قبل سنة في منتجع للينابيع الحارة يقدّم خدماتٍ جنسية ضمن خدماته. في ذلك اليوم ذهبت تسوي لان للاستحمام في الينبوع الحار، ثم ما لبثت أن خرجت بتكاسل وذهبت إلى غرفة تغيير الملابس، وارتدت ملابسها استعداداً للعودة إلى المنزل. كان الوقت مبكراً للغاية، وبدا روّاد المنتجع في بخار الماء الكثيف كالأطياف، يظهرون حيناً ويختفون حيناً آخر، وكان منهم مَن يتعمّد أن يلمس مرفقيها بطريقة مُغرضِة، دفعتها إلى البصقِ بغضب شديد عدّة بصقاتٍ على الأرض. وفي تلك اللحظة لمحت وِيّ بُوَ، المريب، المتلصّص، ذا المظهر البائس، وكان يرتدي قميصاً رياضياً أرجوانيّ اللون. أدركت تسوي لان، ما إن رأته، الغرضَ من مجيئه إلى هذا المكان، فظهرت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت في نفسها: «بِمَ يفكّر بارتدائه قميصاً رياضياً في مكانٍ كهذا؟!».

دفعته تسوي لان بحنق وغيظ بمرفقها حين تلامس كتفاهما في هذا الممرّ الضيّق (بينما كان ذاهباً إلى قسم «الخدمات الخاصة»)، إلى حدّ أنه صرخ واصطدم بالجدار.

لم يكن مُتوقّعاً أن يصبح هذا الداعر عشيقها. أخبرها وِيّ بُوَ في ما بعد أنه قد حصل على خدمة جنسية ذاك اليوم، إلّا أنه لم يشعر بعد خروجه بالخواء كعادته، وخالياً من أيّ رغبة، بل أحسّ بالحيرة، وكان ذلك بالنسبة له أمراً جللاً. عرف السبب على الفور، فذهب إلى قاعة الاستقبال ليسأل عن معلومات تسوي لان، وبعد أن سأل هنا وهناك انطلقَ إلى منزلها. وهكذا ذهب المتمرّسان فوراً إلى السرير، وأمضيا وقتاً ممتعاً تركهما مغمورَين بالعرق.

كان لـ وِيّ بُوَ عائلةٌ وعدّة مصادر دخل غير مشروعة تتيح له الذهاب إلى أماكن مثل منتجعات الينابيع الحارّة من وقتٍ إلى آخر. كان فحلاً في ما يخصّ ذلك الأمر ومتمرّساً. في البداية كانت تسوي لان راضية تماماً بحياتها الجديدة، وتخلّت على الفور عن عُشّاقها السابقين، لتستمتع، بابتهاج، بعاطفةٍ هي الأخرى جديدة. أمّا عن وِيّ بُوَ نفسه، فلا يمكن القول إنها كانت مفتونةً به، بل إن وجود هذا العشيق كان كافياً بالنسبة لها. كانت تهتمّ بجودة حياتها الجنسية. وكان يزورها وِيّ بُوَ مرّتين أو ثلاثاً في الشهر.

ومع مرور الوقت اعتبرته تسوي لان زوجها السرّيّ. كانت امرأةً مستقلّة، ترى أنه من الجيّد أن يكون لها زوجٌ سرّي، أليس هذا ما تعنيه الحياة؟ لا بأس أن يحظى المرء بشيء من السعادة. اسم وِيّ بُوَ الحقيقي هو ويَ سي تشيانغ، اسمٌ شائع، ولأنه كان رجلاً رصيناً ومتمرّساً بالرغم من صِغرِ سنّه، فقد لقّبه الناس منذ أن كان عمره ثلاثين عاماً بـ وِيّ بُوَ أو العم ويَ. وكانت تسوي لان تحبّ أن تناديه بـ وِيّ بُوَ.

تناولت تسوي لان فطورها على عجل، ثم نظّفت الشقّة المكوّنة من غرفتين وصالة، وأعادت رسمَ كحلها في المرآة. كانت تشعر اليوم بقلق دونما سبب، وتفزع كلّما تناهى إلى سمعها صوت خطواتٍ تقترب في الردهة في الخارج، معتقدةً أن عشيقها وصل. وكان الصوتُ كلّ مرّة صوتَ جيرانها وليس هو. أحسّت بالضيق من فقدها لوقارها، إذ لم تكن من النساء اللاتي يخضعن، ولم ترغب في إعطاءِ أهميةٍ كبيرة لرجل ما. فتحت الثلاجة وأخذت بضع ثمرات مانجو، غسلتها، وقشّرتها وتناولتها كلّها، ولطّخت وجهها وأفسدت مكياجها. كانت لا تزال منزعجة، ولم تعدّل زينتها، بل أرادت أن يرى وِيّ بُوَ تسوي لان الحقيقية.

قُربَ الظّهر طرق شخصٌ بحذر البابَ أربع طرقات، أيكونُ هو؟ كانت تسوي لان ممتلئةً بالشكوك إذ لم تسمع صوت خطوات وِيّ بُوَ. هل يقوم بلعب حيلة عليها؟ نظرت إلى هذا الشخص واسترجعت عذابها الشبيهَ بالجحيم هذا الصباح، وأحسّت فجأة بأنها في مأزق.

- تسوي لان، جئت أخبرك أنني سأرحل على الفور، لأنّ هناك أمراً طارئاً في المنزل.

بدا الصدقُ على وجهه.

ردّت تسوي لان بحيرة: «حسنٌ، إن كان الأمر هكذا، كان من الأفضل أن تتصل بي!».

ردّ وبدا مُفاجَأً: «أتصل بك؟ كيف يُعقل؟! هذه إهانة كبيرة لك، ألسنا عاشقَين؟! أحبّك!».

كان عليه أن يرحل بعد أن أنهى كلامه، وهذا ما حدث.

جلست عند الطاولة كأنها في حلم، ولم تتحرّك لمدة طويلة. كانت في أشدّ درجات التوتّر منذ الصباح، وحركاتها مبهمة غريبة. تذكر أنها

تفحّصت نفسها في المرآة عدّة مرات، وأنها عدّلت تسريحة شعرها مرّتين، حتى إنها مسحت مكياجها. ولكن الآن كانت نتيجة هذا الانتظار هي زيارة ذلك الرجل التي دامت دقيقتين. بدا ضجراً للغاية لدرجة أنه لم ينظر إليها نظرة واحدة. لا بدّ أن أمراً مهماً حدث في المنزل، لكن تسوي لان كانت في غنى عن المتاعب وتجنّبت التخمين كذلك. آه، إنّ حظّها سيّئ، يومُ إجازتها ضاع سدىً، وستذهب غداً إلى عملها في مصنع الأجهزة والعدّادات، حيث كانت تعمل أمين مستودعٍ هناك.

عادت تسوي لان في اليوم التالي إلى المنزل في وقتٍ متأخر قليلاً بسبب ساعات العمل الإضافية، وقرّرت ألّا تطبخ العشاء، وذهبت إلى مطعم صغير للشّعرية في شارع قريب من بيتها يُدعى «الجنّة على الأرض». ولأن الوقت كان متأخراً، لم يكن في المطعم غير زبونين أو ثلاثة سرعان ما غادروا. جلست في إحدى زوايا المطعم طلباً للراحة، ولم يمرّ وقتٌ طويل حتى أُفسدَت سكينتُها.

رُكِلَ باب المطعم الزجاجي وفُتِحَ، ودخل رجلٌ مسرف الأناقة، كان واحداً من مُثمّني التحف في هذه المدينة وتعرفه تسوي لان. لم ترَه مطلقاً يتصرّف بهذه الوقاحة.

حيّاها الرجل المدعو يو، وجلس أمامها. تطلّعت تسوي لان إلى الشارع عبر النافذة الزجاجية، ولم تكن راغبة في الحديث، لأنها متعبة أولاً، وثانياً لأنها لم تكن في مزاجٍ رائق.

- هل ذهبتِ إلى منتجع الينابيع الحارّة مؤخراً؟ لقد أضافوا خدمةً متميّزة تدعى «حوض الأسماك»، الكثير من الأسماك الصغيرة تقضم وسخ جسمك. طريقة جديدة ومُبتكرة للاستجمام.

كشف السيد يو أثناء حديثه عن صفٍّ من الأسنان ناصعة البياض،

وبدا لتسوي لان وكأنه كلبٌ ذئبيّ. نخرت ولم تجبه، وتوجّسَت أنه يحاول إغاظتها.

- ثمّة شخص تعرفينه كان معي في الحوض.

في تلك اللحظة جاء طبق الشعرية بالفطر والخضراوات، فدفنت تسوي لان وجهها في الطبق وبدأت تأكل.

قال السيد يو محدّقاً إليها بتمعّن: «ألستِ مهتمّة على الإطلاق بما أريد أن أخبرك به؟».

- نعم، لست مهتمّة على الإطلاق.

ردّت تسوي لان، ثم نهضت ذاهبة إلى الصندوق لتدفع الحساب. سمعت السيد يو يتنهّد بحزن خلفها، فكبحت رغبتها في النظر إليه رغم شعورها بالفضول. ربما كان السيد يو يحدّق إلى ظهرها في تلك اللحظة، وأحسّت بألم وكأن إبراً تَخِزُها.

عقدت نيو تسوي لان العزم على أن تعود حياتها إلى مسارها الطبيعي، أي تلك الحياة الهادئة نسبياً التي كانت تحظى بها قبل أن يكون لها عشيقٌ دائم. ورغم وجود بعض العلاقات القصيرة، فقد كانت تنهيها متى رغبت، لم ترَ نفسها مطلقاً شخصاً يراوغ في إنهاء العلاقات، ورغم أن وِيّ بُوَ كان شخصاً جيداً، إلّا أنه لم يكن شيئاً يُؤكل، ولا بدّ للمرء أن يأكل، لا بدّ أن يبحث عن متعة أخرى. كما أنه لم يحدث أيّ شيء، ولم يكن بينهما أيّ وعود على الإطلاق. العشاق المؤقتون كالندى هم أفضل شيء. لم يظهر وِيّ بُوَ منذ يوم إجازتها ذلك، وكان قد مرَّ عليه شهران إلى الآن. أحسّت تسوي لان أنها مفعمة بطمأنينةٍ وسكينة أدهشتها.

كان إيقاع العمل في المصنع رتيباً وسلِساً، لا يشكّل لها أيّ صعوبة،

وعلاقتها ودودة بزملائها. كانت هوايتها الوحيدة هي الغطس في الينابيع الحارّة، إلّا أن منتجع الينابيع الحارّة الوحيد في المدينة كان أيضاً بيتَ دعارة، ورغم نفورها من بيوت الدعارة، فلم تعارضها أيضاً، لذلك قرّرت أن تذهب يوم الأحد القادم. وفكّرت أنه سيكون من الأفضل ألا تصادف السيد يو.

راودها حلم ليلة يوم السبت. حلمت أنها بينما تسبح في مسبح الينابيع الحارة سباحة صدر، أمسكت قدمَ أحدهم، فانتصبت خائفة، ونظرت عبر البخار المحيط بها، ثم سمعت صوتاً يناديها من بين أحراج البامبو المجاورة: «نيو تسوي لان! نيو تسوي لان!».

اندفعت إلى غرفة الملابس لتغيّر ملابسها ونظرت في ساعتها، فإذا بها الثانية بعد منتصف الليل. لم تذكر لِمَ جاءت إلى المنتجع في هذا الوقت. سارت عبر قاعة الاستقبال إلى البوابة الموصدة. ذُعرت وتصبّبت عرقاً بارداً، وفي تلك اللحظة، ظهر خيال رجل، بالطبع كان وِيّ بُوَ، ولاحت على وجهها ابتسامة فاترة وقالت: «هل أنت هنا للإنفاق؟! حسنٌ، مَن يستطيع مساعدتي في فتح البوابة الأمامية؟».

ردّ وِيّ بُوَ بأنه سيأتي بأحدهم، والتفت ودخل المبنى. جلست تسوي لان على مقعد في الممرّ منتظرةً. انتظرت طويلاً ولم يأتِ أحد، وكادت أن تغفو. ثم ظهر أحدهم بغتةً خلفها ووضع يداً وراء خصرها وحملها. ورأت قميصاً رياضياً ورديّ اللون يتأرجح أمامها، وحاولت أن تُخلّصَ نفسها صارخةً: «النجدة!» وفي تلك اللحظة استيقظت.

أوشكت تسوي لان على إلغاء ذهابها إلى المنتجع بسبب هذا الحلم العجيب. لكنّها مع ذلك قرّرت الذهاب ما إن حلّت الساعة التاسعة صباحاً.

لم يكن ثمة زبونات كثيرات في حوض الاستحمام المخصّص للنساء، بل ثلاث سيدات فقط يسبحن على ظهورهن مثل جثث طافية. وخُيّل لـ تسوي لان للحظة أن سيدةً منهن جثة حقاً. كانت ساكنة، بطنها منتفخ وعيناها جاحظتان، تمكّنت تسوي لان بصعوبة من مقاومة رغبتها في الصراخ. إلّا أنه لم يمرّ وقت طويل حتى علت أصوات دردشتهن، وأدركت أنهن صديقات، وحينئذٍ شعرت بالارتياح. جلست بمحاذاة الحافة وأغلقت عينيها لتستمتع بالمياه الساخنة. كانت نظافة الحوض جيدةً للغاية، ومياهه جارية وقاعه مفروشاً بطبقة كثيفة من الرمال الناعمة، وإلى جانبِ الحوض تنتصب أشجار صفيران اليابان عتيقة.

كان جسدها مسترخياً بالكامل بينما تستمع إلى هؤلاء النساء يتحدّثن. في البداية لم تفهم ماذا يقلن، ثم شيئاً فشيئاً بدأت تستشفّ موضوع حديثهن، الذي كان عن إحدى بائعات الهوى التي عادت إلى الحياة الشريفة وتزوّجت. كنّ عاملاتٍ في مصنع غزل القطن، يشتغلن في أعمال شاقة. وكنّ معجبات بفتاة كانت تعمل في المصنع، ثم جاءت إلى المنتجع وعملت بائعة هوى لمدة أربع سنوات، ثم تزوّجت بعدها. ويقال إن عدداً من الرجال ساعدوها واشتروا لها عقاراً في أحد المجمّعات السكنية.

غفت تسوي لان وهي تسمعهن يتحدّثن، ثم ما لبثت أن أفاقت فجأةً على ذكر اسم «وِيّ بُوَ». رفعت عينيها وإذ بالنساء الثلاثة يهممن بالخروج من حمّام السباحة إلى غرفة الملابس. وفكّرت، هل يتحدّثن عن وِيّ بُوَ بالفعل؟ هل وِيّ بُوَ مَن ساعد تلك العاملة في مصنع القطن واشترى لها شقّة؟ هل هو قادر إلى هذه الدرجة؟ وتذكّرت أنها سمعت وِيّ بُوَ بشكل غير واضح يقول إنّ لديه عملاً آخر يجني منه قليلاً من المال. حينذاك ظنّت أنه يتباهى أمامها ليس أكثر. كان كثيرون الآن لديهم طرق كسب غير

مشروعة. وتسوي لان لا تريد أمواله، فلم تكن العلاقة بينهما علاقة قائمة على المال.

اكتنفها شعورٌ بالكآبة. كانت قادمة للاستجمام والاسترخاء، لكنها سمعت أخباراً عن وِيّ بُوَ، كحُلمها الغريب به ليلة البارحة، وكأن وِيّ بُوَ هو صاحب هذا المنتجع. ازداد عدد الأشخاص في الحمّام، فخرجت تسوي لان بمزاجٍ مغموم.

تفحّصت البوابة الكبيرة أثناء مرورها، وحاولت جاهدة تذكّر تفاصيل الحلم. وبدا لها أن هذه البوابة لا تشبه البوابة التي رأتها في الحلم. وسمعت إحداهن تتحدّث خلفها.

- أنا واثقة من أنها مشاعر صادقة، لكنّهم لا يصدّقون هذه الأمور.

كانت عاملة مصنع غزل القطن ذات البطن المنتفخ تتحدّث.

ابتسمت تسوي لان لها وكأنّ كلّاً منهما تعرف الأخرى.

- اسمي لونغ سي شيانغ، لقد رأيتك عدّة مرات هنا، أنتِ نيو تسوي لان. هل تأتين مثلنا هنا طلباً للسكينة؟ أنا وزميلتي نتردّد مؤخراً على المنتجع، نريد أن نعمل في قسم الخدمات الخاصة، لكنّهم يرون أننا عجائز. نحن نعرف وِيّ بُوَ، إنه رجل محبوب، كما أننا سمعناه يتحدّث عنك.

- ماذا قال عني؟

- قال إنّك امرأة شريفة، وفي الحقيقة نحن أيضاً شريفات، لكننا لا نريد أن نكون كذلك، لقد أدركنا متأخراً أنه من الأفضل أن نكون نساءً منحلّات، وقد كبرنا في السن الآن ولا يريدنا أحد.

زلّ لسانها وقالت: «أنا أيضاً أريد أن أكون منحلّة، لكنني عجوزٌ أيضاً».

- أفهم ما تفكّرين فيه، كلّ النساء اللواتي يقع وِيّ بُوَ في غرامهن من

هذا الصنف. لقد تعمّد القول إنك امرأة شريفة، لكنّني لم أصدّقه مطلقاً. إلى جانب ذلك، كيف لامرأة شريفة أن تأتي دائماً إلى مكان كهذا؟!

كانت لونغ سي شيانغ تقلب عينيها أثناء حديثها، وكأنها تريد أن تكبحَ ماضياً ما مزعجاً. ولا تعتقد تسوي لان أنها جذّابة، لكن عليها أن تعترف بأن أسلوب هذه المرأة الثرثارة في الحديث أضفى عليها سحراً ما.

«إذاً، هل أقمتِ علاقة مع وِيّ بُوَ؟!»، سألت تسوي لان مازحة.

«لا!». هزّت رأسها بأسف، ثم أردفت قائلة: «لقد أردت ذلك، لكن قلبه معلّق بالآنسة سي. يفضّلهن شابّات، بقرة عجوز تفضّل الشتلات البكر. وسمعت أنه استدان قدراً كبيراً من المال من أجلها».

مشَتا معاً ثم افترقتا. ورأت تسوي لان في لونغ سي شيانغ امرأة تشبهها، وعقدت العزم أن تبقى على تواصل معها إن أتيحت لها الفرصة.

داهمتها حيرة أشدّ بعد أن عادت إلى المنزل: لماذا يحيطها طيف وِيّ بُوَ في هذين اليومين؟ ألَم ترضَ بواقع العلاقة بينهما؟ كانت لها علاقة مع عامل عامّ في مصنع الصابون لفترة، ثم انفصلا وذهب كلٌّ منهما إلى حاله بحثاً عن متعة أخرى. هكذا الأمر. لم يكن وِيّ بُوَ قد خطر ببالها قبل أن تذهب إلى المنتجع، كانت قلقة فقط من مصادفة السيد يو. كان جليّاً أن وِيّ بُوَ لم يعد في قلبها. ومع ذلك فهو لم يتركها وشأنها، سواء في الأحلام أو في وضح النهار. وكما قالت لونغ سي شيانغ، كان وِيّ بُوَ محبوباً بين النساء وبارعاً في التعامل معهن.

حين ترمّلت تسوي لان تودّد لها الكثير من الرجال وسعوا وراءها. كانت ترى أنها شخص أناني، ولم ترغب في التضحية بأيّ شيء لأجل هؤلاء، لهذا أصرّت أن تبقى من دون زواج. ورغم أنها لم تكن تفعل ما يحلو لها، وتعيش حياة تسودها السكينة وراحة البال خلال تلك السنوات

الطويلة، فإنّها لم تشعر بالظلم تجاه نفسها. بالطبع وِيّ بُوَ أفضل بقليل من الآخرين، إلّا أنه لم يكن جيداً لدرجة تجعلها راغبةً في شنق نفسها على شجرته. لم تكن في حاجة إلى الاعتماد على أحد. وما بال هؤلاء العاملات في مصنع القطن؟! كلّهنّ يُردن أن يعملن عاهرات، ويروق وِيّ بُوَ لهن. يبدو أن وِيّ بُوَ ليس رجلاً عادياً. تشابكت الأفكار في ذهنها، وكلّها تدور حول وِيّ بُوَ.

تناولت عشاءها مثقلة الذهن، وغسلت الأطباق، وانتبهت إلى أن الظلام قد حلّ. كان أطفالٌ يركضون هنا وهناك أسفل نافذتها، وبائعو شوربة الجياوتزي يصيحون في السوق، وأضواء الشارع أمام السكن مضاءة، وثمة مجموعة من الأشخاص يجلسون في العتمة كما يجلسون كلّ يوم، ساكنين لا يلعبون الماجيانغ(*) ولا يدردشون. وخلال سنوات كثيرة كانت تسوي لان ترى أنهم يجتمعون ويجلسون إلى جانب الطريق لأنهم يشعرون بالوحدة في المنزل. كانوا جالسين قبالة نافذتها، ولم يحدث من قبل أن اهتمّت بهم، وكأنهم أوتاد، إلّا أنها اليوم ولسببٍ ما، لم ترغب في أن يراها هؤلاء الناس، لذلك أغلقت النافذة وجلست في غرفة النوم الخلفية.

رتّبت محفظتها ولم يبقَ شيء لتفعله، وكان الوقت مبكراً على النوم. جذبت انتباهها صورة امرأة جميلة معلّقة على الجدار، كانت صورة مقرّبة لإحدى ممثّلات الأفلام. شعرت أن تلك المرأة تنظر إليها، فأشاحت بوجهها بعيداً. وحينما تأملت الصورة من جديد، لم تجد شيئاً ممّا تخيّلته.

قبيل النوم فكّرت تسوي لان: هل يعرف السيد يو كلّ تفاصيل حياتها؟

(*) هي لعبة صينية تشبه الدومينو، تتكوّن من 144 قطعة. طُوِّرَت خلال عهد أسرة تشينغ في الصين، وانتشرت في جميع أنحاء العالم منذ أوائل القرن العشرين. (م).

مرَّ وقتٌ طويل منذ أن تسلّل وِيّ بُوَ إلى منزلها. وحدث أن صادف قبل ذلك في حفلة من الحفلات أحد عشاق تسوي لان. وكان هذا الرجل يعرف سرّ وِيّ بُوَ بشكلٍ ما، لأنه وما إن وصل حتى تحدّث معه عنها قائلاً: «إنها شريرة وفي غاية القسوة، وامرأة لا تهتمّ إلا بالمال». وحذّر وِيّ بُوَ من أن استمراره في علاقته بها سيكون خطراً. أصاب كلامُ هذا الرجل وِيّ بُوَ بالذهول ورفض تصديقه، فأخرج الرجل خطاباً مجعّداً متسخاً وأعطاه لـ وِيّ بُوَ. كان الخطاب مكتوباً بخط تسوي لان، تأمره بأن يرسل لها عشرين ألف يوان إلى حسابها البنكي، واعتبارها «مصاريف فقدان شبابي»، ثم هدّدته بكلام مقذع.

قرأ وِيّ بُوَ الخطاب وتفحّص المظروف مرّة أخرى. هذا صحيح، تسوي لان كتبته. انكمش فؤاده وتصبّب منه عرقٌ بارد.

سأله وِيّ بُوَ: «هل انفصلتما بسبب ذلك؟».

- أنّى ذلك؟ لم أكن أريد هجرها، أرسلت لها المال رغبة مني في مواصلة مواعدتها، لكن ماذا فعلت؟ أرسلت لي أفراد عصابة وهدّدوني وأرادوا قتلي!

لاحظ وِيّ بُوَ أن الرجل أثناء سرده لهذا الأمر كان شارد الذهن، وأنه يبتسم بين حين وآخر ابتسامة عذبة، ولم يبدُ مُحرجاً على الإطلاق. وشكَّ وِيّ بُوَ أنه ربما يعاني مرضاً نفسياً. وفجأة، أمسك الرجل يدي وِيّ بُوَ وقال بلهفة: «هل تعتقد أن هناك أملاً؟ أعتقد أن حكمك سيكون الأكثر موضوعية. أخبِرني، هل هناك أمل؟ لقد جهّزت عشرين ألف يوان أخرى، سأرسلها لها إن كان ثمة فرصة».

أحسّ وِيّ بُوَ بيدي الرجل باردتين ودبقتين، وحاول أن يسحب يديه ولم يستطع، فأصبح هو الآخر عصبيّ المزاج، وردَّ رداً مبهماً: «لا أعرف، كيف يمكنني أن أعرف؟ أنت أدرى بالأمر. لديّ ابن أخ بعيد القرابة ارتكب

جريمة قتل بسبب الحب، أمرٌ تافه، ما هو رأيك؟ إن الحب أمر جميل، كم مرة يمكن للمرء أن ينعم بهذا الأمر الجميل؟ صحيح؟».

أصيب العاشق السابق بخيبة أمل ساحقة من إجابته، فترك يدي وِيّ بُوَ ساخطاً.

كانت الحفلة في منزل أحد زملاء العمل، ولم ينتبه أحد إلى حديث هذين الاثنين وسط الصخب المحيط. أراد وِيّ بُوَ أن يغيّر مكانه بشدة، فذهب إلى الحمّام. وحين عودته كان الرجل قد اختفى، فتنفّس وِيّ بُوَ الصعداء. لكن ما إن رفع رأسه حتى رأى ضيفاً متطفّلاً يفتح الباب ويدخل. كان السيد يو مُثمّن التحف. كان وِيّ بُوَ يعرفه لكنّهما لم يكونا صديقين. اتجه السيد يو مباشرة صوبه وجلس إلى جانبه. ذُهل وِيّ بُوَ حَالمَا تكلّم، لأنه تحدّث كما لو أنه صديقٌ مُقرّب.

- السعي وراء الحب غير موفّق مؤخراً، إنه مثل الوصول إلى نهاية العالم. أعتقد أنك اختبرت ذلك. يا للنساء! إن العالم مفعم بالبهجة بوجودهن، ألا تظن ذلك؟

كانت تفوح من السيد يو رائحة عطر أصابت وِيّ بُوَ بالدوار.

- لكن أين هنّ؟ لا أعثر عليهن أبداً، أُنظر إلى هذه الغرفة كم هي مليئة بالنساء الفاتنات! لكنّهن يختفين دونما أثر بعد انتهاء الحفلة. في بعض الأحيان أستيقظ في منتصف الليل وأتطلّع من نافذتي في الطابق الثالث إلى فوج نساء مارٍّ من الغرب إلى الشرق، يمشينَ الهوينى، ونيو تسوي لان من بينهن.

ضحك السيد يو كاشفاً عن أسنانه الكريهة البيضاء، فقطب وِيّ بُوَ جبينه باشمئزاز. وسئمَ من هذا الكائن العجيب المُتغندِر وعجزَ عن احتماله، فاستأذن وودّع المُضيف. وحين نهض ليغادر، كان السيد يو مطرقاً رأسه وبدا شديد الحزن.

هجر وِيّ بُوَ تسوي لان بعد هذه الحفلة. شعر أحياناً أنّ الطريقة التي هجرها بها كانت شديدة الدماثة، أما في أحيان أخرى، فقد شعر بأنه شخص خسيس ودنيء. وفي كلتا الحالتين كان هناك أمرٌ عجز عن تبيّنِه: هل هجرها حقاً؟ وراوده شعور مبهم بأن هذا السؤال لم يكن بسيطاً، فتسوي لان ليست من النساء اللواتي بوسعك أن تهجرهن متى أردت، وقد أدرك ذلك في بداية تعارفهما، وهذا أيضاً كان سبباً لهجرانها. أراد أن يختبر قلبه، وكان يرى نفسه شخصاً غريباً، لولعه بلعبة كالاختبار.

كانت العلاقة بين وِيّ بُوَ وزوجته نوعاً من اتفاق شرف فيما يخفي كلٌّ منهما أسراره الخاصة، وإنْ حافظا بحرص شديد على عائلة منسجمة ومستقرّة. كان ابناهما يعيشان بعيداً عنهما، ولا يأتيان إلّا في الأعياد مع زوجتيهما والأطفال. وفي رأي وِيّ بُوَ، كانت زوجته بحاجة لأن تُختبر. بالطبع ليس اختبارها، بل اختبار وجهة نظره عنها. زوجته مدرّسة للمرحلة الإعدادية، على درجة جيدة من التعليم، وتتحدّث بطريقة غير مباشرة، لدرجة أنه من المستحيل فهم فحوى كلامها. كانت علاقتهما حبّاً من النظرة الأولى، ودامت علاقة الحب هذه بعد زواجهما لسبع سنواتٍ أو ثمانٍ، ثم بدأت تفترُ تدريجياً واتسمت بالجفاء، ربما لأنّ كلاً منهما يعرف الآخر أكثر من اللازم.

واكتشف وِيّ بُوَ، رغم أنه غير متأكّد منذ متى، أنه محبوبٌ بين النساء. وكان يلقى ردّ فعلٍ من بعضهن في أيّ مجموعة من النساء سواء كنّ شابّات أم متوسّطات السن. كان رجلاً رقيق العاطفة حذراً، لهذا بدأ في المواعدة. كان يغطّي سلوكه بالغموض والسرّية، ولم يُكشَف أمره مُطلقاً.

كانت نيو تسوي لان عشيقته الرابعة تقريباً. كانت تثيره، رغم أنه لم يكن واثقاً ممّا يعجبه فيها على وجه التحديد، إن فكّر ملياً في الأمر. وكان

في الأصل ذاهباً إلى منتجع الينابيع الحارة ذلك اليوم لمقابلة عشيقته الشابّة، لكنّه عثر على فريسة جديدة عوضاً عن ذلك، إذ أُخِذَ بغتةً ودار رأسه. وأدرك في ما بعد أن علاقته الغرامية الجديدة استثنائية، ونسي أمر تلك العشيقة الشابّة لشهرٍ كامل. وأثناء علاقته بتسوي لان كان يُحدّث نفسه دائماً: «وِيّ بُوَ يا وِيّ بُوَ، لا تفقِدْ صوابَك! إن حياتك في فوضى!» ولم يكن يعرف ما وراء رغبته المُلحّة في الهروب والعودة إلى حياته السابقة.

يجلس وِيّ بُوَ الآن في منزله منهمكاً في مراجعة الحسابات (كان يعمل محاسباً، في وظيفتين). اشتغل قليلاً ثم توقّف، وسرح لبعض الوقت مستعيداً علاقته بتسوي لان، ونهايتها المخزية. كان هو مَن تصرّف بطريقة مخزية، يمكن القول إنّ خسّته مُبتكرة. وقد أربكه عشيقها السابق بالطبع، إلّا أنه لم يكن السبب وراء هجره لها. لم يكن ساذجاً ليظنّ أنه فهم العلاقة بين تسوي لان وهذا الرجل. إذاً، هل هجرها (مثل زوجته) لأنه ألفها؟ ليس تماماً. وبعد تفكيرٍ عميق، رجّح أنّ سبب انغماسه في حياة اللذّة والمتعة يعود إلى استحواذِ هذه الحياة عليه. كان شخصاً يخشى أن يُجرَح، وفي إحدى المرّات جرح ذراعه، فذُعر وسقط مغشيّاً عليه. كان جباناً، رقيقاً، ويحظى بحبّ النساء بسهولة.

كان الليل قد حلّ حين أنهى وِيّ بُوَ مراجعة الحسابات. سخّن طعام الغداء وتناوله ثم نظّف المطبخ، وحينئذٍ، لمح ظلّاً خارج النافذة يمدّ عنقه.

« مَن هناك؟!»، سأل وِيّ بُوَ بصوت خفيض.

– أنا، مُثمّن التحف السيد يو، افتح الباب بسرعة، ثمّة أمرٌ عاجل!

دخل ووجهه تعلوه علامات الاضطراب، وسحب كرسيّاً وجلس من دون أن ينتظر دعوة.

- هل زوجتك في المنزل؟

- لا. ما الأمر؟!

أحس وِيّ بُوَ بقلبه يخفق بشدّة.

- وِيّ بُوَ، هل هناك علاقة بينك وبين نيو تسوي لان؟ أعلم أنك لا تريد الإجابة عن هذا السؤال، لكنّي أودّ إعلامك أن تسوي لان تعمل مومساً في منتجع الينابيع الحارّة، لقد أخبرتني صديقة لها، وهي عشيقتي. قالت تسوي لان إنها تريد أن تتعلّم فنّ الجنس هناك.

رآه وِيّ بُوَ يكشف مرة أخرى عن أسنانه البيضاء الكريهة، فشعر لا إرادياً بالاشمئزاز.

- ستعود زوجتي قريباً.

رمقه السيد يو بنظرة، ثم اتجه إلى الباب والتفت صارخاً: «الفوضى تغمر العالم، الفوضى تغمر العالم! النساء يختفين من الأرض! كلّ ما يمكنك رؤيته غربانٌ سود إن خرجت ليلاً!».

غادر، وساد السكون في الغرفة وكأنه لم يكن موجوداً.

غرق وِيّ بُوَ في تفكيرٍ عميق. مَن هذا السيد يو؟ ولمَ يُنشِب فيه أسنانه؟ وعلى وِيّ بُوَ الاعتراف بأنه جلب أخباراً صادمة. ربما يكون كاذباً بالطبع. لكنْ، ثمّة أمرٌ جليّ: أنه يعلم العلاقة التي تربط بينه وبين تسوي لان، لذلك يراقبه ولا يدعه وشأنه. إذاً، هل هو أحد عشّاق تسوي لان السابقين؟

لقد رأى هذا الرجل أمسِ أيضاً. كان قد انتهى من دوام عمله متّجهاً إلى المنزل، وليس بعيداً عن بوابة المصنع، حين شاهد امرأةً قويّة البنية تدفع رجلاً إلى الأرض وتركله، بعد ذلك غادرت. وحين اقترب وِيّ بُوَ أمامه اكتشف أنه السيد يو. التقط السيد يو نظّارته التي تحطّمت عدساتها

ونظر يميناً ويساراً، ثم وضع نظّارته مرتجفاً ونهض. بالطبع لم يميّز وِيّ بُوَ بنظارته المكسورة. تفحّص حوله بقلق، ونفض الغبار عن قميصه وبنطلونه وانسلّ إلى دكّان الحلّاق المجاور. شعر وِيّ بُوَ بالفضول، فاختبأ خارج الباب واسترق السمع إلى السيد يو يغازل زوجة صاحب الدكان ويضحكان.

حين تذكّر وِيّ بُوَ هذا الأمر أحسّ بالظلال القاتمة في قلبه تتضاعف. هل يمكن القول إن ثمّة شيئاً ضخماً يحدث في الخفاء وهو لا يعرفه؟ وإن كان وِيّ بُوَ لا يعرف هذا الأمر ولم يهتمّ به، أليس هذا كما لم يحدث شيء؟ إذاً، هل يجب عليه أن يقلق حيال هذا الأمر الذي ربما يحدث في الخفاء وله علاقة مباشرة به؟ أحسّ وِيّ بُوَ بنفسه ضائعاً في الظلال، وحائراً، فخرج لاستنشاق هواءٍ منعش.

كان السكن الخاص بمصنع الصابون عبارة عن صفوف منازل من طابقٍ واحد قديمة الطراز، وأمام كلّ منزل شجرة صفيراء اليابان عتيقة ضخمة، تحتها طاولة ومقاعد حجرية. كان وِيّ بُوَ يحب طراز هذه المنازل. تجوّل أسفل الشجرة شابكاً يديه خلف ظهره. وهبَّ نسيم الصيف المنعش حاملاً مدّاً من الحزن جعله يفكّر فجأة في حبيبته تسوي لان. هل من المعقول أنها استقالت من عملها وعملت مومساً في المنتجع؟ أليس هذا القرار متأخراً بعض الشيء؟ وكان وِيّ بُوَ يعلم أن أيّ قرار تتخذه لن يكون له علاقة مباشرة به، فهو يفهمها جيداً. ولا يعتقد وِيّ بُوَ أن في عملها عاهرةً شيئاً خطأً، لكنّها ليست أيّ امرأة، بل تسوي لان. هذا الواقع -إن كان حقيقياً- أربكه. كانت تسوي لان التي يتذكّرها مثل شخص متعدّد الوجوه، إنه لا يفهمها بما فيه الكفاية، ربما أقل من السيد يو.

ذات مرة، استيقظَ وتسوي لان في منتصف الليل، واختبرا أمراً غريباً.

حينذاك نزل من السرير وذهب إلى غرفة الطعام لشرب الماء. صبَّ كوبَ ماءٍ ساخناً من التُّرمُوْس وجلس متنظراً أن يبرد. في تلك اللحظة سمع صوت رجلٍ يأتي من ظلالٍ في زاوية الحجرة، كان صوته مبهماً، وكأنه يتحدّث بلهجة ما. فنهض وِيّ بُوَ ليتفحّص الخزانة الكبيرة الموضوعة في الزاوية.

كان من دون شكّ رجلاً متوسّط العمر، بدا دمثاً، يقف خلف الخزانة. أشار بحركة من يده لوِيّ بُوَ ألّا يخاف.

قال بهدوء: «أنا صديقها، أختبئ دائماً في منزلها. أنا واثقٌ من أنك ترى الأمر غريباً، لكنّه شيء عليّ فعله، أرجو ألّا تغضب. إن تسوي لان جوهرة في هذه المدينة القذرة!».

- إنه «المُؤرَّق».

سألها وِيّ بُوَ ببلاهة: «كيف دخل؟!».

- أنا أعطيته المفتاح طبعاً!

- ألا تخشين أن أغضب؟!

- إنّ «المُؤرَّق» يتجوّل في المدينة طيلة الليل، أليس علينا أن نتعاطف مع شخص مثله؟

وقف على أطراف أصابعه، وبتصنّع وتكلّف مبالغين سار إلى الباب وفتحه وغادر. وقف وِيّ بُوَ مشدوهاً، وراوده شكّ فيما إذا كان يحلم أم لا. إلّا أن صوت تسوي لان رنّ في الغرفة.

كانت عيناها تلمعان بتوهّج قاتم في هالتين سوداوين. خلد وِيّ بُوَ إلى الصمت.

تحدّثا إلى وقت متأخر من الليل عن أيام طفولتهما البعيدة، حين كانت هذه المدينة مختلفة، كانا يتجوّلان في ذاكرتيهما عبر تلك الأمكنة

الأيقونية. يتجوّلان ويتفقان على أنهما سيذهبان، حالما يطلع الصباح، لزيارة تلك الأماكن، لِيَرَيا كيف أصبحت الآن.

حين فكّر وِيّ بُوَ في ذلك جلس على المقعد الحجري. رأى من بعيد ظلاً يتجه صوب المنزل، وميّز زوجته عندما اقتربت منه. عادت في وقت متأخر جداً.

لتصرف تفكيرها عن علاقتها المعقدة بـ وِيّ بُوَ، استغلّت تسوي لان أيام إجازتها المتراكمة وذهبت إلى الريف، إذ كان لديها هناك ابن عمّ يعيش في الريف الشرقي وحيداً مع زوجته، بعد أن كبرا في السنّ ورحل أبناؤهما. ويقع منزلهما قريباً من حقل أرزّ مساحته ثلاثة مو(*)، وقطعة أرض لزراعة خضراوات، حيث يربّيان دجاجاً وبطّاً ويعيشان حياة هادئة.

نزلت تسوي لان من حافلة الرحلات الطويلة، وسارت في الطريق الضيّق المرصوف بالحجارة. كان عليها أن تسير مسافة خمسة أو ستة لي(**) لتصل إلى منزل ابن عمّها. هذه المنطقة مسقط رأسها أيضاً، وقد زارتها مرّتين في الماضي. كان مسقط رأسها يبعث في نفسها الدفء والألفة، رغم أنه لم يبقَ من عائلتها هناك الآن سوى ابن عمّها. لكن لسببٍ ما، وجدت أن المشاهد أمامها غريبة، فما عدا الطريق الحجري، لم تميّز أيّ شيء آخر. على سبيل المثال؛ أين اختفت التلّتان المحاذيتان للطريق؟ وأشجار الكافور العتيقة وأشجار اللبلاب متهدّلة الأغصان؟ والقرية المتداعية أسفل الأشجار؟ كلّ هذا اختفى. نظرت إلى جانبي الطريق فلم ترَ إلّا أرضاً قفراً وأعشاباً برّية. وثمة لحظة ظهر فيها كلبان ضخمان جائعان

(*) وحدة مساحة صينية = 0.0667 هكتار. (م).

(**) لي: نصف كيلومتر. (م).

على مرمى بصرها، واتجها مباشرة نحوها، وحين وصلا أمامها التفتا فجأة، وركضا عائدين إلى أن اختفى أثرهما. ذُعِرَت تسوي لان وتصبّبت عرقاً بارداً. وداهمها شعورٌ غامض بأن ابن عمها وزوجته لم يعودا على قيد الحياة، وبأن شيئاً غريباً سيحدث لها في هذه الرحلة.

حين رأت ذلك البيت المبنيّ من الطوب المألوف، المتداعي نصف جداره، كانت منهكة القوى. ووفقاً لحساباتها، فقد سارت مسافة عشرة لي. كان ثمة شجرة كافور ضخمة عتيقة، عجيبة الشكل، ترخي بظلالها على المنزل الصغير وكأنها تنّين شرّير. وأخيراً أحسّت تسوي لان بالألفة.

«نيو يي تشينغ! نيو يي تشينغ!»، صاحت متجاهلةً كلّ شيء آخر.

في البداية سمعت صوت فتح الباب الخشبي العتيق، ثم خرج ابن عمّها وزوجته بعد قليل على مهلٍ من المنزل، ووقفا أسفل الإفريز المنخفض. رأت تسوي لان أنهما ضئيلان بشكل غير طبيعي، سوداوان كالفحم، ملامحهما باهتة، لم تستطع رؤيتهما بوضوح. وفكّرت في سرّها، ربما شجرة الكافور التي تشبه تنّيناً شرّيراً قد جرّدتهما من الحيوية، رفعت رأسها إلى الشجرة العالية الضخمة، فرأت أوراقها قاتمة كحبر أسود، وتلمع ببريقٍ معدني.

«ادخلي، ادخلي واجلسي!» - وبدا صوت زوجته كالزيز.

كان هذا المنزل المسقوف بالقرميد مكوّناً في الأساس من خمس غرف، هُدِمت غرفتان وبقيت ثلاث، جُعلت واحدة غرفة للطعام، والأخريين غرفتي نوم. كانت كلّ غرفة ضيّقة جداً ومعتمة. عرجت زوجته إلى خلف المنزل وانهمكت في المطبخ هناك، وقد كُسرت ساقها حين كان فريق عمل يبني خزّاناً مائياً. كان ابن عمّها جالساً يدخّن بصمت، وكأنه نسي تسوي لان. تأملت تسوي لان غرفة الطعام المألوفة، والتي كانت

على ترتيبها السابق، لكن ثمة ما جعلها تشعر أن شيئاً تغيّر. فكّرت ملياً في أنه -وحتى زيارتها السابقة- كانت هناك صورة كبيرة مؤطّرة معلّقة على الجدار، ويُزعَمُ أنها صورة والد ابن عمّها الراحل. شعرت تسوي لان أنها تشبه كثيراً هذا العجوز. لكن الجدار خالٍ الآن.

«يي تشينغ، يبدو أنك تتدبّر حياتك على نحو جيد!»، لم يسعها إلّا أن تقول كذلك.

وضعت زوجته بيض العيون الذي أعدّته على المائدة قبل أن يتسنّى له الردّ. ألقت تسوي لان نظرة على البيضات الأربع، وغمرتها الذكريات الدافئة واعتصرها حزنٌ طاغٍ، فتناولت الطعام وهي تمسح دموعها. وبعد أن انتهت جفّفت دموعها بمناديل ورقية جلبتها معها، والتفتت وسألت ابن عمها: «لماذا لم تتقاعد إلى الآن؟».

فأجاب بسرعة: «لم يحن الوقت بعد. يُمكن لأمنياتي أن تتحقق هنا في مسقط رأسنا».

كانت زوجته تصدر صوتاً كالزيز خلال حديثه. ولم تستطع تسوي لان أن تميّز ما إن كانت تضحك أم لا، لكنّها كانت متأكّدة من أنها تُبدي موافقتها. شعرت تسوي لان أن زوجة ابن عمها سعيدة للغاية. أعطتها هديّتها فأخذتها وعرجت إلى غرفتها.

سألت تسوي لان بصوت خفيض: «ماذا تفعل كلّ يوم؟».

- أعاين مكوّنات التربة. وأعالج الأرض والمحصول يومياً لأتعرّف تدريجياً على جودة التربة، كما أن الطقس أكثر ما أهتمّ به. إن زوجتي أشدّ حماساً مني، أحياناً لا تنام: تجلب مقعداً صغيراً وتجلس في الأثلام طوال الليل.

توقّف عن الكلام عندما جاءت زوجته.

أشار ابن عمّها إلى زوجته وسأل: «تسوي لان، ما رأيك؟ ألا تُشبه الزيز؟ إنها تقلّده كلّ يوم!».

ضحكت تسوي لان بفرح، رغم أنها كانت تُضمرُ ذهولها وتفكّر في اللحظةِ ذاتِها: «يا لها من حياة جميلة في الريف!»، نظرت إلى تلك المرأة الضئيلة داكنة البشرة مسترجعةً هيئتها منذ سنوات طويلة، عندما لم تكن قصيرة ولا داكنة البشرة، بل امرأة ريفية قوية مكتنزة الجسم. هل تسبّبت إصابة ساقها في مثل هذا التغيّر الكبير؟ ومع ذلك لم يكن هذا التغيّر للأسوأ. فقد أحسّت تسوي لان أن ثمة روحاً غيرَ عادية تستولي عليها. لا يوجد الكثير من الأشخاص في العالم الذين يستطيعون تقليد صوت الزيز بهذه المهارة. تنهّدت تسوي لان قائلة: «إن طقس المدينة خانق وموبوء مقارنةً بمسقط رأسنا».

ردّ ابن عمها على الفور: «لكن حلمي الحقيقي في المدينة!».

في تلك الليلة، أشعلا كمية ضخمة من أوراق الشيح لطرد البعوض. جلست تسوي لان بين الدخان المتبقي وكأنها في أرض العجائب، وندمت على أنها لا تزور مسقط رأسها إلا نادراً. وقفت في الجُرن أسفل نور القمر وتطلّعت بعيداً. رأت في أبعد نقطة كرات نارية حمراء قاتمة تتدحرج، بدت غامضة ومثيرة للانتباه. فسألت ابن عمّها عن ماهيّتها.

- إنه شخص يحرق العشب في الأرض البور ليرسل بعض الإشارات.

- إشارات إلى مَن؟

- على الأرجح إلى لا أحد، إن الريفيين جميعاً يفعلون هذا الآن.

- رائع!

- لكنه قاتل. يقتلون الناس ثم يشعرون بالوحدة، لذا يستخدمون حرق

العشب في الأرض البور وسيلةً لإرسال الإشارات والتواصل. حين أراه في النهار يخفض عينيه خوفاً.

صمت مطبق يسود الأرجاء. عجزت تسوي لان عن النوم لفترة طويلة، وفي النهاية غفت، لكن سرعان ما استيقظت على صوت أشخاص يتحدّثون في الخارج.

- يمكننا أن نحرق الأعشاب أيضاً، أولاً نقطعها قطعاً رقيقة، ثم نتركها لتجفّ في الشمس، ثم نشعل فيها النار. الأمر ليس صعباً، سنفعل مثلما يفعل وِيّ بُوَ.

شدّد ابن عمّها على لفظ اسم «وِيّ بُوَ».

انتفضت تسوي لان من مكانها، فقد كانت المرة الأولى التي تسمع فيها اسم وِيّ بُوَ منذ أن جاءت إلى مسقط رأسها. عجيب! كيف يعرف ابن عمّها وِيّ بُوَ؟ واربت الباب الخشبي ورأت ابن عمها وزوجته جالسَين في الظل الكثيف لشجرة الكافور الضخمة، وأرجلهما الأربع تتأرجح. وكانت زوجته تصدر بين حين وآخر صوت الزيز بينما يُكمل حديثه.

- ستهبّ الرياح الجنوبية بعد ظهر غدٍ وستنظّف كلّ الأراضي البور. نحن لسنا قتَلة، لا حاجة إلى أن نخفض أعيننا أمام الناس.

سمعت صوت ارتطامين مكتومين ناتجٍ عن سقوطهما من الشجرة. وصدر عنهما أنين مرتفع. فهرعت تسوي لان لمساعدتهما.

«لماذا أبعدت المقعد؟ لماذا؟!»، سألت زوجته.

ذُهلت تسوي لان من كون هذين الشخصين منيعين ضد السقوط. لكانت فقدت حياتها إن سقطت من ارتفاع كهذا.

خشيت أن تساعدهما على النهوض، فإن كان لديهما عظامٌ مكسورة فعليهما ألّا يتحرّكا. كان عليها أن تتأكّد أولاً.

بينما همّت بالسؤال كانا قد نهضا بعد جهد. يا لها من معجزة حقاً!

عرجت زوجة ابن عمها مباشرة إلى المنزل ودخلت. وقف ابن عمها ساكناً في مكانه، ونظر إلى اليمين وإلى اليسار، فألقت تسوي لان نظرة حولها ولم تكتشف أيّ شيء خارج عن المألوف. حينئذٍ أشعل ابن عمّها الولاعة ورفعها عالياً، ثم ما لبث أن أطفأها بعد ثوان ووضعها في جيبه.

– إلى مَن ترسل إشارة؟

ضحك ابن عمّها وقال: «لا لأحد».

استجمعت تسوي لان شجاعتها وسألته: «ألا يأتي أحدٌ لزيارتك في هذا الريف الهادئ؟!».

– تريدين حقّاً معرفة ماضيّ، أنا آسف يا تسوي لان، أريد أن أحتفظ بهذا الأمر لنفسي. ثمة العديد من المحرّمات في ما له علاقة بالعيش هنا. أعرف أنكِ تريدين معرفة لماذا كنا نجلس أنا وزوجتي فوق الشجرة، الأمر هكذا: كنا نريد أن نبتعد عن صخب الأرض قليلاً، لنهدأ ونتخذ قرارات بشأن عدة أمور.

«صخب الأرض؟!»، طرفت بعينيها وسألت.

– نعم، حتماً سمعتِه، لماذا استيقظتِ إذاً؟!

– استيقظت لأنكما كنتما تتحدّثان بصوتٍ عالٍ.

– آه، هذا ما تظنّينه، لكنّك في الحقيقة استيقظتِ قبل ذلك.

صمتت تسوي لان. فكّرت قليلاً ثم قالت: «ابن عمي، هل يمكنني أن أعيش في الريف؟ ربما أبني بيتاً هنا؟».

– لا يا تسوي لان، لا يمكنك، تأخرتِ جداً. هل يمكن للمرء أن يفعل ما يحلو له؟

بزغ الفجر وهو يتحدّث، وتعجبت تسوي لان، لأن الصبح أدركها

ولم تنم بعد. رأت ابن عمّها يزرّ عينيه متطلّعاً بعيداً، فنظرت أيضاً، ورأت الكرات النارية القاتمة تتدحرج في الضباب الخفيف. هل كان وِيّ بُوَ حقاً؟

وعندما دخلا المنزل، قال ابن عمّها وكأنه يتحدّث عَرَضاً: «كلٌّ حسب مقدرته، كلٌّ يأخذ ما يحتاجه».

وضعت زوجة ابن عمّها طبقاً كبيراً من العصيدة وطبقين من الخضار المخلّل على الطاولة، ثم جلست على مقعد وبكت. قال ابن عمّها: «تذكّرت شبابها». انحنى وربت على ظهرها لمواساتها إلى أن هدأت شيئاً فشيئاً، وجلست إلى طاولة الطعام. وفجأة، صدر عنها صوت الزيز مرّتين، كان رنّاناً إلى درجة أفزعت تسوي لان.

استمرّت وجبة الإفطار فترة طويلة، لأن ابن عمها وزوجته استمرّا في وضع أعواد الطعام والخروج للنظر عبر الباب، وتبعتهما تسوي لان أيضاً، لكنها لم ترَ شيئاً غير كرة النار البعيدة، والتي اختفت في ما بعد.

- يأتي الكثير من الغرباء هنا لحرق العشب في الأرض البور، يشترون ويبيعون تلك الأراضي، ثم يختفون بلا أثر. بمقدوري فهم ضجرهم.

قال ابن عمّها هذا الكلام مبتسماً. حدّقت إلى هذا الوجه الطويل الذي عركته الحياة وقالت في سرّها: «لَكَم هو شغوفٌ بحياته!»، ثم خجلت من نفسها لتفكيرها في ذلك.

ذهب الاثنان في الصباح إلى الحقل وانهمكا في العمل، وجلست تسوي لان أسفل شجرة الكافور تفكّرُ في أمورها الخاصة.

كم هو هادئٌ الريف وموحش! ربما ثمة خطب ما في أذنها، لأنها لم تسمع صخب الأرض الذي تحدّث عنه ابن عمها، ممّا أشعرها بالخجل من نفسها أيضاً. شيءٌ آخر لم تفهمه: كانت هنا قرية في السابق تقع شرق منزل ابن عمها، عاش فيها أبواها، وعاشت فيها تسوي لان في صغرها كذلك.

كان المنزل القديم موجوداً عندما زارت ابن عمها منذ عشر سنوات. أين هذه القرية الآن؟ عزمت على سؤال ابن عمها لاحقاً. طفت في ذهنها غابات القيقب الكثيفة، والمنازل الواسعة المسقوفة بالقرميد التي تتصل في ما بينها بممرّات. نظرت إلى جهة الشرق، إلى حيث لم تكن غابات أشجار القيقب ولا البيوت القديمة. لا شيء سوى القفر.

فجأةً خطرت في بالها فكرة: كيف سيكون الأمر إذا عاشت هي ووِيّ بُوَ هنا مثل ابن عمّها وزوجته؟ يا للأسف، يا للأسف، قال ابن عمّها إنها لا تستطيع العيش هنا، فات الأوان. لديه أسبابه بالتأكيد. ثم إن وِيّ بُوَ رجل لديه مسؤوليّات. ماذا عن السيد يو؟ أحسّت تسوي لان أن مشاعرها تغيّرت في هذا الريف البعيد عن المدينة، ولم تعد تجد السيد يو بغيضاً. ربما كان إسرافه في التأنّق مظهراً زائفاً، فالكلّ يرتدون أقنعة. تسوي لان على سبيل المثال، ربما يراها الآخرون مومساً محترفة، وهذا من المُحال تأكيده.

لم تفكّر تسوي لان في الترتيبات التي ستتم بعد موتها، فهي لا تزال في الخامسة والثلاثين. وحين يخطر في بالها هذا الأمر تواسي نفسها قائلة: لا تخافي، وأسندي إلى أحد جيرانك أو زميلك في العمل أن يحرق جثّتك ويتخلّص من الرماد! لكن في هذه اللحظة انبعثت في قلبها دفقة من التوق لأن تموت هنا. لِمَ لديها هذه الرغبة؟ عجزت عن معرفة السبب. كانت هذه المشاعر غير متوقعة بالنسبة لها. تطلّعت بعيداً عبر ظلال الشجرة، حيث كانت أشعة الشمس الذهبية تغمر الأرجاء، وخطر ببالها أن هذا المشهد هو ما ستبدو عليه نهاية العالم، ووجدت ذلك مؤثّراً. استمرّ تأثّرها الآن وقد أمضت أكثر من يوم في الريف، رغم أنها لم تكن شخصاً من السهل إثارة عواطفه في الحياة اليومية.

لم تصدّق أن ابن عمها ووِيّ بُوَ التقيا بالمصادفة. إذاً، فهي ووِيّ بُوَ

مسيّرين بقدرٍ محتوم. ولطالما كرّست تفكيراً لرباط الحب الأبدي الموغل في القدم أوقات المغيب. بالطبع، لقاؤها به العام الماضي في المنتجع كان مُدبّراً.

جهّزت تسوي لان الطعام وانتظرت عودة ابن عمّها وزوجته. وبخّرت المنزل وخارجه بأوراق الشيح وعبّقت رائحتها المكان. لكنهما لم يعودا. كان القمر قد ارتفع في السماء، وظهرت من بعيد كرة النار من جديد. هذه المرة كانت الكرة ساكنة، تتحوّل من أحمر إلى أسود، ثم من أسود إلى أحمر، ولا تبدو وكأن شخصاً يحرق العشب في الأرض البور. وخطر ببال تسوي لان: إن كان وِيّ بُوَ، فهل كان سيزور المنزل الليلة؟

لم تتناول الطعام، وخرجت من المنزل مُثقلة بالهموم. وعلى بعد أميال حولها لم يكن ثمة أشخاص أو كلاب. كان بإمكانها فقط السير باتجاه الكرة النارية. لكنّها خشيت أن تفقد الطريق. أَلَم تكن على وشك أن تفقد طريقها وهي قادمة إلى هنا؟ وكان هذا في وضح النهار. واصلت سيرها رغم قلقها.

سارت لفترة ثم سمعت أحداً ينادي اسمها: مَن؟ ليس ابن عمّها وليس وِيّ بُوَ. وحينما ردّت توقف عن مناداتِها. تولّاها شعور بالخوف، فبدأت في العودة أدراجها. ثم شعرت أن شخصاً يتبعها، ولم تجرؤ على الالتفات، وانطلقت راكضة إلى المنزل المظلم وأوصدت الباب بقوة.

– تسوي لان، تسوي لان! أنا عمّك الرابع!

قال الشخص في الخارج بنفاد صبر.

نظرت تسوي لان من النافذة ولم ترَ أحداً.

– أريد أن أقول لكِ شيئاً، أنا ووِيّ بُوَ ننام معاً كلّ ليلة.

قال طيف الرجل الميت منذ سنوات طويلة.

- إذاً، ماذا أخبرك وِيّ بُوَ؟!

قالت تسوي لان بصوت مرتجف.

- لا شيء يُذكر، لكنّه قال إنه لن يتخلّى عنكِ.

أنهى العم الرابع حديثه ثم خلد إلى الصمت. رأت تسوي لان الهواء في الخارج مشوباً بلون أخضر باهت، وشعلة صغيرة تطفو معه. لم تجرؤ على إشعال الضوء، وراحت تتنفّس برفق في الظلام. وفجأة راودها شكّ بأن ابن عمها وزوجته ليسا على قيد الحياة. كيف للأحياء أن يقعوا من فوق الشجرة من دون أن يتعرّضوا للأذى؟ ألَم تشعر بهذا الإحساس المبهم بأنهما ليسا على قيد الحياة حين وصلت؟ أيعقل أن يكون هذا دليلاً على ذلك؟ كانت تسوي لان ترتجف من دون توقف، وتشعر بالإثارة رغم خوفها، توّاقة إلى نقطة تحوّل معيّنة تغيّر مجرى الأحداث.

انتظرت طويلاً ولم يحدث شيء. وفجأةً، تفتّح ذهنها. فتحت مزلاج الباب بثقة وخطت إلى شجرة الكافور العتيقة. بسطت ذراعيها وانحنت بجسدها على اللحاء الخشن لجذع الشجرة، تغمرها الطمأنينة.

ظهرت من بعيد هيئاتٌ ضئيلة الحجم، بدت كالأقزام تحت ضوء القمر. كان ابن عمها وزوجته ورجل آخر. خفق قلبها بشدّة، هل هو وِيّ بُوَ؟

اقتربوا على مهل. للأسف، ليس وِيّ بُوَ، بل رجلاً كبير السن يرتدي ملابس رثّة.

«لقد تأخرتما في العودة!»، قالت تسوي لان بعتاب.

- تأخرنا قليلاً. إن هذا الرجل مُحسنٌ لعائلتنا، وقد واجه مشكلة صغيرة وساعدناه في حلّها، كلّ شيء على ما يرام. هل تعرفينه يا تسوي لان؟

نظرت إلى وجه الرجل، ورأت عبر الضوء الخافت عينيه تلمعان ببريق أخضر كعيني قطّة، فقالت من دون تفكير: «هل أنت العم الرابع؟».

«لا، أيّتها الفتاة، أنا لست من عائلتكم، أنا سمكري»، ردّ بسرعة.

دخلوا المنزل معاً، ثم سرعان ما خرج الرجل الغريب. فسألت تسوي لان ابن عمها إلى أين ذهب، فقال إنه ذاهب إلى أعلى الشجرة.

- ثمة ما يزعجه، والجلوس فوق شجرة الكافور سيخفّف من ألمه.

في اليوم الثاني لها في الريف، نامت تسوي لان نوماً عميقاً، لكنّها استيقظت مرة أخرى. كان السمكري يتحدّث بصوت عالٍ مع امرأة، وبدا من نبرته أنه حديث رومانسي. نهضت تسوي لان لأنها لم تستطع العودة إلى النوم، وحينما طفح الكيل بها، دفعت الباب الخشبي قليلاً، وأفزعها ما رأته: كان الرجل والمرأة يمسكان كلٌّ منهما خنجراً لامعاً كالثلج وكأنهما على وشك أن يتقاتلا. أغلقت الباب بسرعة وتراجعت، ونادت على ابن عمها بهدوء: «بي تشينغ! بي تشينغ!».

سعل ابن عمّها في غرفته وردّ ببطء بعد فترة: «ماذا هناك يا تسوي لان؟».

خرج ولم يشعل الضوء، وسألها في العتمة ما إن كانت تريد أن ترى ما يحدث في الخارج بوضوح، وفتح الباب.

كان الرجل والمرأة قد تحوّلا إلى تمثالين من الفضة مُنتصبَين أمام المنزل في الوضع ذاته، وكلٌّ منهما يمسك خنجراً، وجسداهما يلمعان بومضات بريق كالثلج الأبيض.

«هذا ما يتحوّلان إليه في النهاية»، قال ابن عمّها بخيبة أمل بينما يغلق الباب.

- من هذا الشخص حقاً؟

- لقد كان بالفعل سمكرياً، ثم اختفى أثره، وقال الجميع إنه هرب مع امرأة إلى الجبال، وبعد مرور سنوات طويلة، صادفناه أنا وزوجتي في النهار، وقال إنه هرب من الجبال.

نظر عبر شقّ الباب، ثم التفت إلى تسوي لان وقال: «هه، إنهما يتسلّقان الشجرة! مثل القرود! ها ها!».

فرك يديه وبدا في غاية السرور، ثم أوصد الباب.

سألته تسوي لان بحيرة: «لماذا لا تدعوهما إلى الداخل؟».

– ما أسهل الكلام! أدعوهما! هل تعلمين كم هي مرتفعة حرارة جسديهما؟ إن كان بمفرده من السهل التعامل معه، لكن حين تأتي امرأته يتحوّلان إلى قطعتين من الحديد المُحمّى! من الأفضل أن يظلّا فوق الشجرة. لا يمكن للشجرة أن تموت!

أصدرت زوجة ابن عمها صوت زيز حزين وحادّ في الغرفة الخلفية، فسرت قشعريرة في جسد تسوي لان. ولم تهدأ إلّا حين عاد إلى الغرفة الخلفية.

قال بصوت عالٍ: «خذي قسطاً من الراحة يا تسوي لان، عليكِ العودة إلى المنزل غداً!».

– لماذا تريد أن أرحل؟

– لسنا نحن من نرغب في رحيلك، بل وِيّ بُوَ سيزورك غداً.

– أين رأيتَ وِيّ بُوَ؟

– عند العم الرابع، لا تلحّي في السؤال وارتاحي! هل تريدين أن يذهب وِيّ بُوَ ويجد المنزل خالياً؟ إنه رجل طيّب.

عمّ السكون، ونعست تسوي لان. إلّا أنها حاولت أن تستمع إلى حوار الرجل والمرأة على الشجرة، كان صوتهما مسموعاً، لكنها لم تستطع تمييز ما يقولانه، لأن شجرة الكافور العتيقة تُرجّعُ صدى صوتيهما بحفيفٍ معدنيّ. وبدا لها وكأن طائرةً تحوم حول رأسها. وفكّرت تسوي لان، بغيرة، قبل نومها، في مدى سعادة هذين الاثنين. وفي حلمها، سمعتهما يشيران

إليها بـ«اليتيمة»، فانهمرت دموعها وبلّلت الوسادة. كان حلمها مشوباً بالعاطفة في معيّة هذين الطيفين الفضيّين اللذين يطوفان حولها. وحين ألقت نظرة أخرى، كانت تحيطها أزهار القتاد، يحوم حولها النحل، وعلى يمينها المنزل الريفي القديم الذي اختفى، وأوراق القيقب تحترق كأنها نار، وابن عمّها وزوجته يقفان أمام باب المنزل القديم ويبدوان كقزمين.

كانت زوجة ابن عمّها قد وضعت طعام الفطور على الطاولة حين استيقظت تسوي لان. بدا الزوجان في غاية النشاط والحيوية. وخرجت تسوي لان لتفقّد المكان لبعض الوقت، واكتشفت أنه لم يبقَ أيُّ أثرٍ لما حدث بالأمس. خرج ابن عمها أيضاً وقال: «إن الليل والنهار هنا مُتفاوتان كُليّاً، إن عشتِ هنا من دون أن ترحلي فستشعرين بذلك، مؤسفٌ أنْ ليس لديك الفرصة!».

غادرت تسوي لان بعد وجبة الإفطار. وقف الزوجان أسفل شجرة الكافور يشيّعانها بنظراتهما.

التفتت تسوي لان بعد أن خرجت من حقل الأرزّ ذاك، فاكتشفت، بذهولٍ، أن المنزل وشجرة الكافور قد تلاشيا من على الأرض. كان الطريق الضيّق المرصوف بالحجارة أسفل قدميها، يمنحها شعوراً ما بالألفة. وخطر ببالها أن الشجرة السامقة ذات الأوراق الذهبية، ورائحة أوراق الشيح الكثيفة العطرة، والطيفين اللذين يشبهان تمثالين من الفضة، وكرة النار المتدحرجة، ستظل تلازم ذاكرتها إلى الأبد. لا حاجة إلى أن يخشى المرء المحظوظ بمسقط رأس كهذا من فقدان الطريق.

عادت تسوي لان إلى منزلها. وفي اليوم التالي زارها وِيّ بُوَ بالفعل.

كانت تنظّف المنزل، تصعد على حافة النافذة وتمسح زجاجها بخرقة.

غمرها النشاط والحيوية وهي تشمّ رائحة النظافة المنعشة تنتشر في الغرف. دخل وِيّ بُوَ المنزل من دون أن يلقي التحية، وأخذ المكنسة وبدأ يكنس الأرض.

- هل ذهبت إلى مسقط رأسي وأحرقت العشب في الأرض البور؟

سألته تسوي لان بصوت منخفض.

- أجل.

- إذاً، فهل تعرف ابن عمّي من قبل؟

- إن مسقط رأسك بديع.

- لماذا جئت؟

- لم أنوِ المجيء. إن هذه المدينة خانقة، إلى أين يمكنني الذهاب؟

حضّرا معاً وجبة من البطاطس واللحم المحمّر، وتناولاها بشهيّة.

سألته تسوي لان ما إن كان قابل عمّها الرابع.

- إنه رجل شريد بلا مأوى، لكنّه يمتلك حرفة فريدة، وهي حفر الجحور. يتجوّل طوال اليوم حاملاً تلك الأدوات على ظهره، يكفي فقط أن يختار بقعة، سواء أكانت أرضاً قفراً أو صخوراً، ويكون مخبؤه جاهزاً خلال ساعتين فقط.

- هل تمكث معه في جحر؟

- أجل. كلٌّ منا يسمع أنفاس الآخر بوضوح. إن عمّك الرابع يمنح المرء السكينة. هناك كثيرون من عائلتكم مثله.

وتحدّث وِيّ بُوَ عن أشياء أخرى أيضاً. أغمض عينيه نصف إغماضة أثناء حديثه، ثم انكفأ بعد ذلك على الطاولة وبدأ في الشخير. وفكّرت تسوي لان: لا بدّ أن الأيام الفائتة كانت منهكة له!

وضعته تسوي لان في السرير بعد جهد. نظرت إلى حبيبها وانتابها شعور بالإثارة والكآبة في آنٍ. تذكّرت شجرة الكافور العتيقة الضخمة والمعتمة، ربما كانت تحميها في الخفاء؟ وأيّ نوع من الحماية تلك؟!

بعد أن استيقظ، مارسا الحبّ بمتعةٍ فائقة، أفضل بكثير من المرة الأولى التي تصبّبا فيها عرقاً. ورغم روعة ممارستهما تلك، إلّا أن تسوي لان بدت شاردة وكأن روحها انفصلت عن جسدها. لاح أمامها السيد يو، هذا الرجل الغندور. وفكّرت: ما العلاقة بين وِيّ بُوَ والسيد يو؟ ربما هما أخَوان؟ وانفجرت ضاحكة.

«هل لديكِ حبيبٌ آخر؟»، قال وِيّ بُوَ ممعناً النظر فيها.

– لا، هناك مَن يريد مواعدتي، لكن مظهره يثير الاشمئزاز.

– هذا ليس عيباً، فكلّ شخصٍ لديه ما يثير اشمئزاز الآخرين.

كان الوقت منتصف الليل، ارتدى وِيّ بُوَ ملابسه قائلاً إنه يجب أن يعود إلى المنزل. نظرت إليه تسوي لان، ورغبت أن تقول شيئاً، لكنّها لم تتفوّه بكلمة، بل قالت ما لم تتوقع قوله.

– وِيّ بُوَ، أخبِرني، كيف صادفتُك في هذه القرية النائية؟ لقد استخدمت حزماً كبيرة من أوراق الشيح لطرد البعوض، بخّرت وبخّرت حتى خرجت من مخبئك. أشعر دائماً أن هذا المكان ليس مسقط رأسي، فأنا لا أفهم أيّ شيء عنه. وحين رأيتك، كنت تهيم عند الأفق وتدفع بعجلة مشتعلة. لا بدّ أنك ذقتَ معاناةً ومرارة.

لم تكمل حديثها، وظلّت تحدّق أمامها.

– لم أكُن أعاني، كيف لي أن أعاني وأنتِ هناك؟ إن هذه العجلة لاسعة بعض الشيء، ولم يكن سهلاً دفعها، لكن هواء الريف أحيا كلّ ذرة في جسدي! وهناك أيضاً تلك الجحور، وفوائدها التي لا يمكنكِ تخيّلها!

أغلق الباب بهدوء وغادر.

سمعت تسوي لان نفسها تهتف قائلة: «السيد يو! السيد يو!».

ارتعبت تسوي لان حين تجلّت لها الحقيقة. حاولت جاهدةً أن تتخيّل تلك الجحور التي يختبئ فيها وِيّ بُوَ والعم الرابع. أيّ نوع من الجحور هي؟ لن يهدأ لها بال إلّا عندما تعثر عليها المرة القادمة وترى ما هي عليه في الواقع. لماذا لم تفكّر في التحدّث مع عمّها الرابع وجهاً لوجه حين هتف باسمها من النافذة؟

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد عودتها من الريف، أحسّت تسوي لان بالضجر، وذهبت إلى منتجع الينابيع الحارة في يوم إجازتها.

كان العمل راكداً في المنتجع، وخاصة في الحوض الخاص بالنساء، حيث كانت تغطس بمفردها، بينما أسماك ملوّنة ذات أجسام رقيقة تسبح في الماء، وتحفّز تسوي لان على استدعاء هلوَسات عجيبة وكأنها في بلدٍ غريب. وفي حالة الخمول تلك سمعت شخصاً يناديها خلسةً وبإصرار: «تسوي لان! تسوي لان! كيف نسيتِني؟!». فتحت عينيها بصعوبة ونهضت وتفحّصت المكان. بدت منطقة الاستحمام كامرأة وحيدة ساخطة. ثم تناهى إلى سمعها صوت بكاء خافت، وكأن امرأة شابة تبكي، ينقطع تارة ويستمرّ تارة أخرى. صاحت تسوي لان بسخط: «مَن يمارس الألاعيب؟».

مَن كان يمارس الألاعيب؟ لا أحد. فاندفعت إلى غرفة تغيير الملابس في غضبٍ عارم.

لم تجد أحداً بعد خروجها من غرفة تغيير الملابس. وسمعت أخيراً صوت ضحكات مرحة عند مكتب الاستقبال. آه، كانت لونغ سي شيانغ وصديقتها. كانت المرأتان في أبهى زينتهما، تفوح منهما رائحة العطر، فيما

بدا وكأنهما تركتا العمل اليدوي في مصنع غزل القطن لتعملا مومسات. ورأت تسوي لان أنهما كبيرتا السنّ على هذا العمل، إلّا أنهما كانتا على قدر كبير من الثقة. كانت المرأتان في تلك اللحظة تغازلان رجلاً ما، يديرُ ظهره لتسوي لان، وحينما التفت، كان السيد يو.

«إنّ لونغ سي شيانغ عشيقتي!» -قال لتسوي لان بنبرة مُتملّقة- «إنّ علاقتنا ليست منذ سنة أو سنتين، يعرف كلٌّ منّا الآخرَ منذ عشرين عاماً. أثار عملها في هذه المهنة الآن عاطفتي السابقة لها».

سقط الاثنان معاً على كنبة طويلة يتأبّط كلٌّ منهما ذراع الآخر. لم ترغب زميلتها أن تكون مُهملة، فاندسّت من الجانب الآخر للكنبة، وأحاط السيد يو كُلّاً منهما بذراع.

وفي غمرة صخبهم، اتجهت تسوي لان بسرعة إلى الخارج. ثم سمعت صوت السيد يو يصيح باضطراب بالغ خلفها: «إلى أين أنت ذاهبة أيتها السيدة نيو تسوي لان؟ أريد التحدّث معك بشأن أمرٍ ما».

هرع إلى الباب ولحق بها. وعندما رأت هيئته القلقة ووجهه الذي أصبح أرجوانياً، سألته بنفاد صبر: «يا للغرابة! ماذا تريد مني؟».

«إنه أمرٌ مهمّ!»، ردّ باستحياء وأخفض رأسه.

قطّبت تسوي لان حاجبيها حينما شمَّت رائحة الماكياج، ثم وكأن قوة خفية دفعتها قالت: «حَسن، إن كان الأمر هكذا، فلنذهب إلى مقهى الشاي عبر الشارع ونتحدّث».

- شكراً لكِ!

جلسا في مقهى الشاي الصغير. بدا السيد يو قلقاً، يتنهّد بينما يمدّ عنقه هنا وهناك مُتطلّعاً. سألته تسوي لان بحزم، وقد نفد صبرها: «هل لديك ما تقوله بالفعل؟ إن لم يكن، سأغادر!».

أشار لها بالجلوس وكأنه أفاق من حلم.

- هذا أمر يطول شرحه يا سيدة نيو تسوي لان. قبل سنوات عديدة، كان لديّ اتفاقٌ مع والديك، اتفاق لا تعرفين عنه شيئاً، لكن هناك مَن يعرف في مسقط رأسك. وحين فارقا الحياة لم يكن بوسعي ذكر الأمر، لأنه كان سيبدو فظّاً. لكنك أصبحت امرأة عزباء الآن، ولا عيب في التودّد إليكِ!

«لتفعل ذلك إذاً!»، قالت تسوي لان من دون تفكير.

- تمهّلي! لا أقصد أنني سأكون وقحاً وملحّاً، ما أقصده هو أن السبب وراء إعجابي بك هو مسقط رأسك.

- ماذا عن مسقط رأسي؟ أخبِرني!

- آه، حكاية طويلة، كيف أصفها؟ لقد ذهبت إلى الكثير من الأماكن النائية، لم أرَ مطلقاً قرية كتلك القرية التي تتغيّر في طرفة عين... إنه منزل ريفي عادي بالطبع، بجرار ماء ضخمة ومدقّة للأرزّ في الردهة، وجُرن في الخارج لتجفيف الأرز. يكفي أن يذهب الواحد مرّةً إلى مكان كهذا ليفقد اتزانه في الحياة اليومية.

شعرت تسوي لان أثناء حديثه عن مسقط رأسها، أن مظهره مسرف الأناقة يتلاشى، ويتحوّل إلى رجل متحضّر بذهنٍ مضطرب. كان من بين عشّاقها السابقين رجالٌ متحضّرون وعلى درجة عالية من التعليم، لكنّهم لم يكونوا مضطربين كالسيد يو. وكان ثمة أمر عجزت عن فهمه: كيف لوالديها أن يظنّا أنها والسيد يو ملائمين أحدهما للآخر؟ ترى تسوي لان في نفسها شخصاً بسيطاً وعملياً، كوالديها، أما الأشخاص مثل السيد يو فطباعهم مختلفة وبعيدة عنها كبعد السماء عن الأرض. ثمة العديد من الأشياء في العالم من الصعب فهمها. ومن بينها هذا الرجل اللعوب، واهتمامه الغريب بمسقط رأسها الريفي الموحش.

«يبدو أن مسقط رأسي ترك انطباعاً كبيراً في نفسك»، قالت مازحة.

تطلّع إليها السيد يو وأظلم وجهه. ظلَّ جالساً من دون أن يتفوّه بكلمة، يلوح على وجهه تعبيرٌ مخيف بين حينٍ وآخر، وكأنه تحوّل إلى شخص آخر.

تفارقا من دون وفاق.

أحسّت تسوي لان بالخوف والغرابة الشديدين، وعقدت العزم على أن تتجنّب هذا الشخص متى رأته. ربما كان مريضاً نفسياً، ثم خطر ببالها أن لونغ سي شيانغ عشيقته، كيف العلاقة بينهما؟ كما أن والديها لن يزوّجاها لشخصٍ مريض نفسياً. وشعرت تسوي لان أنها تفرط في القلق بتفكيرها في كلّ هذه الأمور.

كانت تساورها شكوكٌ الآن حيال ذهابها إلى منتجع الينابيع الحارة. وكأنها إن ذهبت هناك ستقابل أشخاصاً مثل السيد يو أو لونغ سي شيانغ، وستعلَقُ في ورطة. كانت امرأةً عزباء، ولم يكن لديها الكثير لتفعله لتزجية الوقت. لهذا حلّت الأيام المضجرة. ولتخفّفَ هذا الضجر تعلّمت التطريز، وكانت على درجة عالية من المهارة. وفي وحدتها باغتتها وحشة التقدّم في العمر. كانت تجلس في حالة تبلُّد حين جاء عشيقها القديم وناداها من الخارج.

ذات ليلة عاصفة، كانت تسوي لان تستمع إلى صوت المطر، وتذكّرت فجأةً تلك الجملة التي قالها ابن عمّها من دون تفكير: «كلٌّ حسب مقدرته، كلٌّ يأخذ ما يحتاجه»، وشعرت أنها أدركت معنى هذه الجملة على نحو عميق، واثقة من أن على المرء أن يعيش على هذا المِنْوال، سواء في المدينة أم في الريف.

لم تتوقّع تسوي لان أن يكون لـ وِيّ بُوَ الرأي ذاته. لهذا استعادا علاقتهما.

سألته تسوي لان: «في أيّ عام تعرّفت على عائلتي لأوّل مرّة؟».

قلّب وِيّ بُوَ عينيه وفكّر لوقت طويل، ثم أجاب في النهاية: «من الصعب القول بالضبط. يُخيّل لي هو أنني لطالما عرفت ابن عمّك وعمّك الرابع، لكنني لم أتواصل معهما مطلقاً. تسوي لان، دعيني أسألك، هل ستتذكّرينني إن دخلت السجن في يوم من الأيام؟».

- بالطبع، لكنك لن تدخل السجن، أليس كذلك؟

- أنتِ مخطئة. أعتقد أنني خرقت القانون.

لم تُلحّ تسوي لان في السؤال، وشعرت بأنه يجِبُ عليها ألّا تلحّ. لم تعد تسوي لان التي كانت من قبل.

ولكن لم يمرّ وقتٌ طويل إلى أن زُجّ بـ وِيّ بُوَ في السجن بالفعل.

كانا في الحديقة ذلك اليوم، حين جاءت فجأةً مجموعة من أفراد الشرطة. كان وِيّ بُوَ يحدّثها وينهض ويتجه صوبهما. مدّ يديه ليضعوا فيها الأصفاد.

«ماذا تفعلون؟ لماذا؟»، صرخت تسوي لان في هياجٍ شديد.

«إنه عضو في عصابة إجرامية»، قال ضابط شابّ.

وهكذا قبضوا على وِيّ بُوَ. بدا مبتهجاً، وكأنه تَخفّف من حجرٍ ثقيل يجثم على صدره.

انفجرت في البكاء بعد عودتها إلى المنزل. أصبحت وحيدة من جديد. وقبل هذه الحادثة، كانت قد عقدت العزم على أن تكون العلاقة بينهما علاقة طويلة الأمد. بالطبع، يمكنها دائماً زيارته في السجن. شعرت

تسوي لان أن ثمة شيئاً ما غامضاً يميّز حبيبها، لكنّها لا تستطيع تحديده، ربما له علاقة برائحة الشيح؟

«وِيّ بُوَ، آه يا وِيّ بُوَ!» -قالت في سرّها- «لماذا أردت مواعدتي إن كنتَ مهتمّاً بأمورٍ كهذه وانضممت إلى عصابة إجرامية؟ إن كانت امرأة مثلي غير قادرة على إشباع رغباتك الغريبة، إذاً، ألست تضيّعُ وقتك معي؟».

غشَت الدموع عينيها، ثم شعرت فجأة بأنها منافقة وغير عقلانية، فتوقّفت عن البكاء.

تذكّرت السيد يو فور توقفها عن البكاء. ما الذي يعجبه فيّ هذا الرجل مسرف الأناقة؟ لكم كانت تكره هذا الصنف من الأشخاص في السابق، وتشعر بالاشمئزاز والقرف لدى رؤيتهم. لكنّها حين تفكّر فيه الآن تشعر بشيء من الفضول وبقليل من البهجة. يبدو أن طبعها تغيّر منذ أن عادت من الريف.

كانت تريد استفزازه ليفصح عن كلّ الأسرار المخبّأة. وكانت تريد استيضاح بعض الأمور: هل كان لهذا السيد يو علاقة بوالديها الراحلين أم لا؟ وإن كان ثمة علاقة بينهم، فلماذا لم ترَه من قبل؟ وإن لم يكن ثمة علاقة، كيف استطاع أن يصف مسقط رأسها ومسقط رأس أبويها بهذا التفصيل؟

ثم جلست واتصلت بـ لونغ سي شيانغ.

- أين أنتِ يا لونغ سي شيانغ؟

- أين سأكون يا ترى؟ أنا مع زبون تعرفينه.

- هل هو السيد يو؟

- نعم، سأعطي له الهاتف.

«سيطري على حزنك أيتها السيدة تسوي لان!»، سمعَت صوته

الخامل، وأكمل: «يوجد العديد من الخيارات الأخرى في الحياة، مثلي، هل أخذتِني في اعتبارِك من قبل؟».

- هذا ما أفعله الآن.

- جيد، ربما ثمة شرارةٌ بيننا.

فكّرت تسوي لان مليّاً في كلام السيد يو لمدّة طويلة بعد إنهائها المكالمة. كان يتحدّث مثل والدها. كانت تظن دوماً أن لديها تاريخاً مظلماً، وأن هذا الرجل قد انبثق من هذا التاريخ. شخص لا يمكن تصنيفه.

كان والدها رجلاً صامتاً، وكان لديها انطباعٌ مبهم عن هذا الوالد، وعجزت عن سبر أغوار ما يفكّر فيه. وكانت علاقتهما متذبذبة، جيدة أحياناً وسيئة أحياناً أخرى، وأحياناً شديدة الألفة. على أنه في تلك الأيام التي تكون علاقتهما شديدة الألفة، ظلّت تسوي لان تشعر بأن كلّاً منهما ينطوي على نفسه، وأنّه يحاول جاهداً أن يمنح الآخر انطباعاً زائفاً. شعرت تسوي لان بذلك في شبابها، وفكّرت أن السبب يرجع إلى أنها ووالدها غير راضيَين عن نفسَيهما، ويريدان أن يكونا أشخاصاً آخرين. لكن مع تقدّمها في العمر، نظرت إلى الأمر من زاوية أخرى؛ إذ رأت أنّ على المرء إعطاء هذه الانطباعات الزائفة لتضليل الآخرين، لأن الحقيقة مخيفة، ولن يستطيعوا احتمالها. يبدو أنها ووالدها يتشابهان في طريقة التفكير، وفي الطباع كذلك. لذا خمّنت تسوي لان أن الانطباع الذي تتركه للآخرين على الأرجح مبهم أيضاً. كمديرة الورشة في المصنع مثلاً، تقف دوماً جانباً وتتأملها طويلاً، صامتة لا تتفوّه بكلمة. ولم تسمعها تسوي لان تعطي أيّ تقييم عن عملها. ربما عدم التقييم هو تقييم في حد ذاته؟ لا تكترث تسوي لان لآراء الناس، إلّا أن هذا النوع من الغموض بعث فيها قليلاً من التوتر. ماذا لو خرج ثعبان خبيث من الأحراج المعتمة يوماً ما؟

عادت للتفكير في والدها من جديد. لربّما السيد يو هو ذلك الثعبان الخبيث؟ ألم يعقد والدها اتفاقاً معه؟ كان الاتفاق سخيفاً، لأن والدها يعرف بشكل قاطع أنه سيعجز عن التحكّم في حياة تسوي لان. وحين زواجها لم تطلب موافقته، بل أعلنت الخبر في ذاك اليوم، ولم يقل والدها شيئاً. كان ينفر من الكلام.

فكّرت تسوي لان في أن الحياة الهانئة التي تعيشها لونغ سي شيانغ ليست سيئة على الإطلاق، تلك المرأة حين تصمّم على فعل شيء تفعله حتى النهاية، وليست في حاجة أن تخفي شيئاً، ليست مثل تسوي لان. أتكون طباعها تلك هي التي جذبت السيد يو لها؟ وعند هذه الفكرة، أحسّت بأنه يتمتع بقدر من الوجاهة. آه، هل ستتغيّر مشاعرها حيال وِيّ بُوَ لأنه دخل السجن؟

بعد أسبوعين، ذهبت تسوي لان إلى السجن في الضواحي لزيارته.

كانت إدارة السجن في غاية اللطف، وطلب منها رجلٌ كبير السن الجلوس في غرفة الاستقبال قائلاً: «كم عمرك؟ 35 عاماً؟ يا للأسف. أرى أن تقطعي علاقتك به قبل فوات الأوان. لا فائدة تُرجى من هذا الرجل. كم طفلاً لديكما؟ لا أطفال؟ من الأفضل أن تهجريه».

ثم غادر غاضباً.

كانت غرفة الاستقبال فارغة، في منتصفها سرير ضيّق فقط، من دون طاولة ولا كراسي. وكان السرير مفروشاً بلحاف وملاءة بيضاء غير مرتبة، وكأنّ أحدهم كان نائماً هنا للتو. لم تجلس تسوي لان على السرير، بل وقفت هناك جامدة، ومستاءة قليلاً.

دخل وِيّ بُوَ بعد قليل. ذكّرها مظهره الخَنوع بالمرة الأولى التي رأته في

منتجع الينابيع الحارة. احتضنها وِيّ بُوَ ودفعها إلى السرير ولمسَ جسدها بجنون. لم تستطع تسوي لان تحمّل ذلك، فدفعته عنها بعنف وصرخت: «يا لك من مجنون!».

ذُهِلَ وِيّ بُوَ، ولاح على وجهه تعبير دالٌّ على الفطنة وقال: «إنني أفكّر فيك طيلة الوقت هنا، ألا يجدر بي أن أنتهز الفرصة؟ يا للأسف، لقد جاء الرجل العجوز».

التفتت تسوي لان ورأت العجوز يدخل وخلفه امرأة. وسمعتها تقول بحدّة: «إنني أرى حثالة المجتمع هذه فأشعر بالدوار. هيّا بنا!».

خرجا بسرعة، وأغلقا الباب.

«يا لها من فرصة سانحة!»، ثم أردف بأسف: «لماذا ترفضين؟».

- أشعر بالقرف.

- إنك صعبة الإرضاء.

أعطته الأطعمة والكتب التي جلبتها. ولمعت عيناه مثل عيني فأر حين تصفّح مجلة «السينما الشعبية». وفكّرت تسوي لان بألم: «إن السجن يغيّر المرء حقاً». وكان وِيّ بُوَ يبدو لها الآن وكأنه ينتمي إلى عصابة إجرامية.

- هل تعرف متى سيُنطق بالحكم؟

- هه، لا داعي للتفكير في هذا! بمجرّد أن تدخلي هذه الأبواب، عليكِ أن تخضعي للحياة في الداخل. السأم طريق مسدود.

- لكنّك لم ترتكب أيّ جريمة! أليس كذلك؟

- بالتأكيد لم أرتكب أيّ شيء. لكن هذا مصيري.

أخفض عينيه وفرك يديه وبدا شارداً.

- بما أنكِ لست راغبة الآن، غادِري! ليس مناسباً أن نقف هنا ونتحدّث، أخشى أن يترصّدني أحدٌ ويضاعف جرائمي.

ضمّها وِيّ بُوَ بشدّة ثم دفعها بعيداً.

حثّها على المغادرة سريعاً، فخرجت في ارتباك.

سارت تسوي لان على الطريق الأسفلتي في الضاحية، وأنعش النسيم البارد ذهنها قليلاً. وقفت والتفتت تتأمل ذلك السجن، وكان غريباً، أن شجرة ضخمة عالية خلف مبناه القديم المكوّن من طابقين، تشبه الشجرة أمام منزل ابن عمّها، حتى أوراقها الكثيفة سوداء تلمع بوميض معدني تحت أشعة الشمس. أوقعت هذه الصلة في نفسها الخوف، وارتخت قدماها فجأة، فجلست في الأجمة على جانب الطريق. كان وجه وِيّ بُوَ اليائس ماثلاً في قلبها. هل كانت تتظاهر بمشاعر زائفة؟ وهل تعني الطريقة التي عاملته بها منذ قليل -إن كان حقاً فقدَ حرّيّته- أنها لا تحبّه؟

أصبح مزاجها أشدّ كآبة عمّا كان قبل مجيئها. أحسّت بنفسها خائرة القوى، وكانت المسافة التي سارتها صباحاً دون أيّ جهد من محطة الباص نحو خمسة أو ستة لي. لكن كلّ شيء تغيّر الآن، فقد بدا لها طريق العودة أشدّ صعوبة. أحسّت بالألم في كلّ جزء من جسدها، وتورّمت لثّتها، كما أنها لم تجلس طويلاً في الأجمة، خوفاً من العقارب السامة أو الأفاعي. أرغمت نفسها من جديد على السير على الطريق الأسفلتي، وتقدّمت بخطوات بطيئة، فأصبحت، بعد فترة قصيرة، على حافة الانهيار العصبي. وفجأة سمعت صوت صرير خلفها، كان عجوزاً يسحب عربةً بعجلتين.

«تريدين عربة؟ الأجرة ثمانية كواي»، قال بصوت خفيض مكتوم.

شكرته تسوي لان وركبت.

على مدّ بصرها كان السجن ماثلاً دائماً، وكذلك الشجرة الضخمة. ورغم أن العربة ابتعدت وانعطفت مرّتين، فقد كانت لا تزال قادرة على رؤية ذلك المبنى القديم، حتى الملاءات المعلّقة لتجفّ أسفل المبنى

كانت تراها بوضوح. أحسّت بخطبٍ ما. كان العجوز يتقدّم بتؤدة، وشمّت تسوي لان رائحة العرق التي تفوح من قميصه. ذكّرها هذا الرجل بوالدها. أنقذها من الأخطار مرات عديدة. لا تزال أسنانها تؤلمها، وكانت العربة غير مريحة. والأمر الأسوأ، أنه كان بوسعها دوماً رؤية ذلك المبنى القديم والشجرة الضخمة. أيُعقَل أنها لن تخرج من هذه الدائرة السحرية؟ دفعتها تلك الفكرة إلى أن تشعر بارتباكٍ أشدّ.

تذكّرت أنهما لم يسلكا طريقاً خاطئاً، فليس هناك أيّ شيء غير الطريق الأسفلتي في هذا المكان، لكن لماذا لم يصلا إلى محطة الحافلات بعد مرور ساعة ونصف؟ اختفى مبنى السجن الآن، لكن المشاهد على جانبي الطريق غير مألوفة، عبارة عن بعض التلال الجرداء التي لم ترَها عند مجيئها، فانتابها قلقٌ مفاجئ.

- يا عمّي، هل اقتربنا؟!

- أجل. لكن من الأفضل أن نستريح هنا قليلاً، منزل ابنة أخي على اليمين.

أنزل العجوز العربة، واندسّ مسرعاً بين الأجمة على جانب الطريق واختفى أثره بعد قليل. وقفت تسوي لان على سطح العربة وتطلّعت حولها، ولم ترَ أيّ محطّة حافلات على مدّ بصرها، ولا مباني المدينة. وفي أبعد نقطة، كان الطريق الأسفلتي يختفي في ضبابٍ خفيف.

ترجّلت من العربة وسارت إلى سفح أحد التلال. لم يكن على التل أيّ أشجار، فقط حشائش قليلة تحيط بقبرين مُهملَين. انصرف تفكيرها مرة أخرى إلى السجن، وشعرت بالحزن الشديد. هل كان أمراً سيئاً أم جيداً بالنسبة لها، أن يتحوّل الرجل الذي تحبّه إلى رجلٍ همجيّ؟ ربما كان الأفضل له، وإلّا سيكون من الصعب عليه تحمُّل تلك الليالي الطويلة. لم

تدرِ لماذا لم تكن متلهّفة للعودة إلى منزلها، إلى تلك الشقة الخاوية التي فقدت سحرها. وقرّرت أن تظلّ هنا وتتسلّق التل، فلن تذهب إلى العمل غداً على أيّ حال. وهكذا اختفى ألم أسنانها، وسرى النشاط فيها.

في منتصف الطريق أعلى التل، كانت قد اقتربت من القبرين، وحينئذٍ رأت شخصاً يجلس في الحشائش. وحين التفت إليها اكتشفت أنه عمّها الرابع.

– هل كلّ العالم بيتك أيها العم الرابع؟

– ليس العالم كلّه، أنا أتجوّل دائماً في مكان قريب.

كان صوته يُشبه صوتاً منبعثاً من ميكروفون، وقدماه المعلّقتان على تلّة القبر بشعتين، وكان بنطلونه مرفوعاً، كاشفاً عن ساقين مغطّاتين بالتقرّحات. وخمّنت تسوي لان أن جسده بالتأكيد متعفّن بسبب عيشه في أماكن متعفّنة ورطبة.

– إذاً، أنتَ أيضاً تعرف بمشكلة وِيّ بُوَ؟

– وأيّ مشاكل لدى وِيّ بُوَ؟ إنه ليس رجلاً بسيطاً. عودي إلى المنزل، الظلام وشيك! عليكِ بوضع خططٍ طويلة الأمد أيتها الفتاة!

نزل من القبر متجهاً إلى ما وراء التل. أرادت تسوي لان اللحاق به، لكنّه توقف فجأة وحدّق فيها بغضب، وعيناه تلمعان في النور الذي ينحسر بلمعان أخضر مثل عيني الوشق. خافت تسوي لان وهبطت التل مرغمة.

كان الليل قد حلّ، كانت تتلمّس طريقها إلى العودة. سمعت أصوات عويلٍ حادّة قادمة من السجن، بدت شيئاً فشيئاً كما لو أن هناك مَن يتعرّض لتعذيبٍ وحشيّ. أصغت تسوي لان بانتباه لتميّز صوت وِيّ بُوَ، لكنها لم تستطع. وقفت بألم، وفؤادها يموج باضطرابٍ شديد. ثم تحدّث إليها صوتٌ مألوف في الظلام.

- إن هذا الأمر يحدث كل يوم، لا تأخذيه على محمل الجدّ!

كانت لونغ سي شيانغ جالسة في العربة التي جاءت بها تسوي لان.

- لونغ سي شيانغ، ماذا تفعلين هنا؟!

- أنا عشيقة هذا الرجل، وأقصد سائق العربة. لا تظنّي أنه رجلٌ عاديّ لمجرّد أنه يجرّ العربات! إن مَن أعرفهم ليسوا أشخاصاً عاديين. مثل هذا الرجل، أظنّ أنه مالكُ أراضٍ ثريّ، ينفق الأموال كالماء. لا أستطيع التعامل مع هذا الرجل بمفردي، تسوي لان، لنعمل معاً! وارتفع صوتها شيئاً فشيئاً.

كبحت هلعها، وقالت: «لم أفكّر في الأمر بعد، وحتى لو عملت في هذه المهنة، سأعمل بمفردي، لن أعمل مع أحدٍ آخر».

أطلقت لونغ سي شيانغ نخرة، وظلّت صامتة لفترة. حينئذٍ جاء سائق العربة ورائحة الخمر تفوح منه، ويتلفّظ بشتائم مقذعة.

- يا مومس، هل تريدين سرقتي؟! هراء!

دقّ بقدمه الأرض ورفع يده ليضربها، لكن لونغ سي شيانغ استغلّت كونها في موضع أعلى وانقضّت عليه وطوّقته، فسقط الاثنان في الحشائش على جانب الطريق.

سمعتهما تسوي لان يتدحرجان هنا وهناك لفترة طويلة، ولم يبدُ أنهما سوف يستسلمان. وقرّرت أن تسير إلى المحطة، وما إن خطت الخطوات الأولى حتى صاحت فيها لونغ سي شيانغ: «توقفي! لا يُمكنكِ المغادرة!».

توقفت تسوي لان ذاهلة.

اندفعت لونغ سي شيانغ صوبها وأمسكت ذراعها، وقالت وهي تكزُّ على أسنانها: «تريدين الهرب؟ تريدين التظاهر بالبراءة؟! أوهام!».

وأمرت تسوي لان أن تركب معها العربة.

جرَّ العجوز العربةَ سائراً في الأعشاب على جانب الطريق. لم تعرف تسوي لان هل كان ثمة طريق أسفلها أم لا، ولم تهتم لذلك أيضاً. مالت على كتف لونغ سي شيانغ وشمّت رائحة الصنوبر التي تفوح منها، ثم ما لبثت هذه الرائحة أن جعلتها تغفو. سمعتها في حالتها الضبابية تعبث بولّاعة وهي تدخّن. كانت هادئة. يبدو أنها امرأة جديرة بالثقة، وواثقة من نفسها. شعرت وهي بين اليقظة والنوم أنها تعرف لونغ سي شيانغ منذ وقت طويل جداً، وأنها رأتها مرّاتٍ عديدة في منزل أحد معارفها لا تتذكّر اسمه الآن. كانت حينذاك امرأة شابّة متزوّجة، تنثني عيناها إلى هلالين عندما تضحك. لكن حين رأتها مُجدّداً، كانت قد أصبحت منهكة من عملها في مصنع غزل القطن، وكبيرةَ السن.

وصلتا إلى جانب صفٍّ من مبانٍ ذات طابقين.

– هذه «مساكن المتزوّجين حديثاً». خامس منزل من المكان فيه الشقّة التي نسكن فيها أنا ولاو يونغ.

ضمّتها لونغ سي شيانغ وهما تدخلان، وأصبح صوتها أكثر غنجاً.

«لكنّي لا أريد أن ألعب هذه اللعبة الثلاثية»، قالت تسوي لان بصوت خفيض.

«أنتِ تبحثين عن حتفك!»، ثم دفعتها لونغ سي شيانغ إلى اليمين.

دُفعت تسوي لان إلى الغرفة الرئيسة، وحبستها لونغ سي في الداخل، ثم دارت خلف المنزل مع هذا الرجل الذي يُدعى لاو يونغ، وسمعته تسوي لان يدندن بأغنية بذيئة.

لحسن الحظ كانت هناك لمبة 3 وات في الغرفة، فاستطاعت تسوي لان تمييز أثاثها المصنوع من خشب سميك متين لم يُطلَ بعد، ويعطّرُ الغرفة برائحة منعشة. كانت هناك أيضاً بعض الخزائن الكبيرة تستند إلى

الجدار نُقِشت على أبوابها طيورٌ وأزهار. جلست تسوي لان إلى جانب الطاولة وسمعت الرجل والمرأة يصعدان من خلف المنزل. كان جسداهما شديدي الثقل، وكأن الدرج سيتداعى مع كلّ خطوة يصعدانها. والأمر الأسوأ، أنها كانت تسمع أصوات العويل الحادة من جهة السجن بوضوح مثلما سمعتها في الطريق منذ قليل. كان ثمة لحظة استطاعت تمييز صوت وِيّ بُوَ؛ متحشرجاً في البداية، متردّداً، ثم منفجراً في هستيريا حادّة. لم تستطع منع نفسها من البكاء.

طرقت امرأةٌ بعنفٍ على الباب وصاحت، وبدا صوتها مألوفاً. أخبرتها تسوي لان أن الباب موصد من الخارج، فركلت المرأة الباب على الفور. وذُهلت تسوي لان من قوّتها.

كانت صديقة لونغ سي شيانغ العاملة في مصنع غزل القطن والتي عملت مومساً معها. بدا وجهها في النور الخافت أكثر شباباً عن ذي قبل، جذّاباً، ربما بسبب المكياج.

- اعتاد أن يكون زبوني، وأخذته مني لونغ!

قالت وهي تنظر إلى السقف. لاحظت تسوي لان أن الخطوات في الأعلى لا تزال مسموعة، وكأن كل خطوة ستخترق السقف.

«ماذا يفعلان؟»، سألت تسوي لان بذعر.

- ما تُراهما يفعلان؟ يتشاجران بالطبع! لن تكُفّ لونغ سي شيانغ إلّا بعد إنهاكِ زبونها كلياً! إيه، لماذا تقفين كحمقاء هناك؟ هنا كرسي مريح، تعالي واجلسي معي لندردش قليلاً!

كانت تجلس في ظلّ الخزّانات الكبيرة، فذهبت تسوي لان وجلست إلى جانبها. أمسكتْ المرأة يدها وضغطت عليها بقوة وجسدها ينتفض.

- ما اسمُكِ؟

- جين تجو (اللؤلؤة الذهبية).

- هل تشعرين بالبرد؟

- لا، أنا قلقة. ثمة شيء مُروّع يحدث في الأعلى. إن ساءت الأمور بين الرجال والنساء، تنتهي بجريمة قتل. إنّ عملنا هو الأشدّ خطورة.

- إن كنتِ خائفة، فانفضي يدك من هذه المهنة!

- أنتِ حمقاء حقاً! إن الأمر ممتع لأنه خطير. هل تعلمين كيف كانت حياتنا أنا ولونغ سي شيانغ في مصنع غزل القطن؟

لم ترفع جين تجو عينيها لحظة واحدة عن السقف، بينما كان الغبار يتساقط من جهة يسار السقف المغمورة بالظلال. وكان بوسعهما سماع الاثنين يقفزان إلى الأعلى والأسفل. تخيّلت تسوي لان المشهد الذي يحدث في الأعلى، فتحوّل حزنها شيئاً فشيئاً إلى فضول، وارتخت أعصابها. قبضت جين تجو بقوة على يدها، وجسدها يتلوى في مقعدها بعصبية. كانتا تجلسان في بقعة شديدة العتمة، إذ لم تستطع تسوي لان تمييز ملامحها.

- هل جئتِ إلى مصنع غزل القطن من قبل؟ لا داعي، لا يختلف كثيراً عن حوض خلط الإسمنت! عندما بدأتُ أتقيّأ دماً، أخبرتُ لونغ سي شيانغ، لن أغادر المصنع مطلقاً، سأموت هنا. وهكذا هربنا. فكّري في الأمر! نحن لسنا شابّتين، وليس لدينا أيّ خبرة، وصحّتنا عليلة، فأيُّ عمل يمكننا القيام به؟ أرادت لونغ سي شيانغ أن تعمل مومساً، لكنّهم رأوا أننا لا نصلح لأننا عجوزان. لكن هذه المرأة عنيدة، لا تستسلم، تنتهز أيّ فرصة. ثم حصلنا على فرصة في هذه المهنة، وأحببناها في النهاية. هل يمكنكِ تخيّل ذلك؟ نغدو أكثر نشاطاً كلّما عملنا، ولدينا شبكة زبائن خاصة بنا، والدخل جيد. لكن هذه المرأة شديدة الطموح وغير قنوعة بواقعها!

كان صوتها مفعماً بالإعجاب في جملتها الأخيرة. وتساءلت تسوي لان: ما هي علاقة جين تجو الحقيقية بـ لونغ سي شيانغ؟

«ما رأيك في لياقتي الصحية الآن؟»، سألتْ تسوي لان فجأة.

– تبدو جيدة، لا تشبه عاملات المصنع الأخريات.

– حَسنٌ! هذا ما أردت سماعه منك. إن حياتي الآن مختلفة عن حياتي السابقة اختلاف الجنة عن الجحيم.

– هل تحاول لونغ سي شيانغ أن تحصل على مال من العجوز لاو يونغ؟

– هه! لا تكوني مبتذلة! هل يستحق كسب قليل من المال بذل كل هذا الجهد؟ أقول لكِ، ذلك هو الحب! من يمكنه خداع أشخاص مثلنا؟ لا شيء إلّا الحب الحقيقي يمكنه هزيمتنا. لقد أحببتُ لاو يونغ أولاً، ثم سرقته هي مني. لكنني لا أحسدها، لماذا؟ لأن عاطفتها أقوى مني. سُحقاً لهذا! كفى حديثاً عن هذا الأمر! كلّما فكّرتُ كيف تركتُ المصنع، هاويةَ البؤس تلك، أشعر بفرحة عامرة تجعلني أثب وأرقص حتى وأنا أسير في الشارع! إن عودنا متين الآن، ونعلم ما نحن قادرتان على فعله، وأن بوسعنا أن نحب!

تغيّر مزاج جين تجو فجأة، وتحوّل نظرها عن السقف، وتركت يد تسوي لان، وضمّت رأسها بيدها.

– ماذا حدث؟

«لقد غادرا» -كان ثمة تعاسة في صوتها- «لقد نزلا بسرعة ورحلا بعيداً. هل الحب عابرٌ حقاً؟».

– لِمَ تقولين هذا؟

– آه، نثار القطن، نثار القطن! هل تعلمين كم في رئتينا من نثار القطن؟

عشرون سنة كاملة.. كوّنت حبيبات صغيرة والتصقت فيها. كان من غير المحتمل أن نعيش إلى الآن. لطالما تمنّيت أن تنعم إحدانا بالسعادة.

- هل لاو يونغ مالكُ أراضٍ ثريّ حقاً؟

- هو ثريّ بالنسبة لنا. لقد وضعنا خطة لنوقع به.

تذكّرت تسوي لان وِيّ بُوَ، وسألتها ما إن كان تعرف شيئاً عن سجن قريب منها يُحتَجزُ فيه الكثير من المجرمين.

- أعرفه بالطبع. أليس هذا المكان هو «مساكن المتزوّجين حديثاً»؟ لا مناص من تجنّب الجرائم حين يتشاجر الرجال والنساء، لذلك السجن موجود.

- خيالك خصب.

- أنا في مزاج متشائم. لقد قتلت شخصاً. هل ينبغي أن أسلّمَ نفسي؟ لن أستطيع نسيان هذا الرجل وهو ينازع من أجل حياته.

ربتت تسوي لان على ظهرها وسألتها هل أحبّته أم لا؟

- نعم، أنا حمقاء! هل يمكن أن تساعديني في فتح الباب؟

حين فتحت الباب رأت عاشقين متعانقين يعبران من أمامه، وبدا الرجل من الخلف مثل وِيّ بُوَ. فخرجت لتلقي نظرة، لكن موجة غبار ورمل غشيت بصرها. وكانت جين تجو داخل الغرفة تصيح بيأس: «رئتيّ! سأختنق». عادت تسوي لان إلى الكرسي ومسحت على ظهرها بلطف.

حين استعادت أنفاسها، سألتها جين تجو ما إن كانت تسمع خطوات الأقدام في الأعلى أم لا. أصغت تسوي لان بتركيز وقالت إنها لا تسمع شيئاً.

- لقد عاد هذان الاثنان كطيفين. هذا النوع من الحب ليس له مستقبل، لكنني أتمنّى أن تنعم لونغ سي شيانغ بالسعادة.

«يا له من لطف بالغ منك!»، قالت تسوي لان بصدق.

- لا تتحدّثي عمّا لا تعرفينه، لستُ لطيفة على الإطلاق، لقد أوشكت على قتل لونغ شيانغ أكثر من مرة. نتنافس بيننا في الحب والغيرة. وأتمنى لها السعادة، لأنني لن أتنازل.. لماذا لا نستطيع أن نحظى بالسعادة؟

لم تسمع تسوي لان أيّ حركة في الأعلى، وخطر ببالها أن جين تجو ربما تهذي.

شدّتها جين تجو بيدها المتعرّقة وأجلستها، وقالت: «يأتي الناس هنا لأجل شيء واحد. أنت وسي شيانغ لديكما أسبابكما، لكن أنا، ماذا عني؟ إنني مشوّشة قليلاً، ونسيت لِمَ أنا هنا. لقد ركضت وركضت إلى أن أخذتُ عربة، ووصلتُ إلى هنا. وفي العربة، شعرتُ أنني حرّة كعصفور صغير. أَلَم أهرُب من حوض خلط الأسمنت؟ أليس لديّ حياتي الخاصة؟ لماذا أنا متشائمة إلى هذا الحد؟ أعلم أن هذا المرض ينشط بين حين وآخر. آه يا رئتي!» - صرخت جين تجو بأسى.

- جين تجو، جين تجو، لا تحزني، ستعثرين على سعادتك!

أحسّت تسوي لان بالضياع بعد أن قالت هذا الكلام، وفكّرت: أيّ هراءٍ تتفوّه به؟ لم تردّ جين تجو، لكنّها لم تعاود الصراخ.

ظلّتا صامتتين في العتمة لوقت طويل، وكادت تسوي لان أن تنام في كرسيّها، وبينما هي في هذه الحالة مدّت يدها لتلمس المرأة الجالسة في الكرسي الآخر، لكنّها لم تجد أحداً، فاستيقظت مذعورة.

- جين تجو! أين أنتِ؟

- أنا في الخارج، تعالي بسرعة!

تلمّست تسوي لان طريقها إلى الخارج ووقفت إلى جانبها. كان الصمت يعمّ المكان، ولا يوجد أحد. كان القمر يتوسّط السماء، ولم ترَ

تسوي لان قمراً ضخماً كهذا القمر، كان كبيراً مثل طست. قرصت فخذها بقوة لتتأكّد أنها لا تحلم. نظرت إلى اليمين حيث كانت صفوف «مساكن المتزوّجين حديثاً» تمتد إلى البعيد مثل تنّين أسود.

- يوجد باب جانبي يمكننا أن نصل عبره إلى خلف المبنى ونصعد من هناك، سنقوم بهجوم مفاجئ عليهما.

بدت جين تجو متحمسة، لكن تسوي لان كانت متردّدة، متشبّثة بمكانها. لذا قالت جين تجو: «لاو يونغ تاجر أسمنت، يبيع أسمنتاً من درجة رديئة، ويحقق أرباحاً طائلة من تجارته. ثلاثون بالمئة من المباني المشيّدة حديثاً في مدينتنا من الأسمنت الذي يورّده. وكنت أخطط أن أزيد السعر وأحصل على حصة من المال، لكن لم أتوقع أن تتغيّر مجريات الأحداث هكذا. إنّ لـ لونغ سي شيانغ تأثيراً جيداً عليه. هل سترافقينني أم لا؟ سأذهب بمفردي إن لم تأتِ».

لم تستطع تسوي لان مقاومة إغراء الذهاب معها.

صعدتا واحدةً تلو الأخرى. بدا هذا الدرج الضيق وكأنه على وشك الانهيار، وبعد لحظات، صرخت تسوي لان صرخة حادة، وتعرّقت عرقاً بارداً، لأنها وجدت نفسها في الهواء. ولحسن الحظ أمسكتها جين تجو من ظهر ملابسها بتلك اليد الشبيهة بالمخالب الحديدية وسحبتها إلى الدرج من جديد.

«اللعنة!»، قالت جين تجو وهي تكزُّ على أسنانها بغيظ.

كان السقف في الطابق العلوي مائلاً، مُضاءً بلمبة صغيرة. ويتوسط الغرفة سريرٌ ضيّق، ذكّر تسوي لان بشكل الغرفة في السجن. وكان لحاف السرير مطويّاً.

قالت تسوي لان: «ليسا هنا».

- لا تنخدعي بالمظاهر!

ثم فتحت جين تجو تلك الدواليب والخزانات، ونظرت أسفل السرير مستخدمةً مصباحاً يدوياً.

بينما وقفت تسوي لان في النور الخافت بارتباك، أحسّت فجأة بأحدٍ يشدّها من طرف ملابسها. خفضت رأسها فرأت ذراعاً أبيض ممدوداً من صندوق خشبي ضخم إلى جانبها. آه، هما هنا! كان رجلاً وامرأة يرتديان ملابس خفيفة، الرجل في الأسفل والمرأة أعلاه، ملتصقين معاً.

جاءت جين تجو ووقفت إلى جانب تسوي لان ونظرتا إلى الصندوق.

قالت لونغ سي شيانغ بصوت ممزوج بالبكاء: «ليس لديّ خيار! جين تجو، لقد فررتِ من وكر العفاريت! لو كنا في البداية...».

«لا تتحدّثي عن البداية! يا لكِ من دمية! لن أسمح لكِ بالتراجع! لماذا لا يمكننا أن نحظى بحياة هانئة؟» - رقّ صوتها، ثم تحوّل إلى نبرة توبيخ: «يا سي شيانغ، يا سي شيانغ، هل نسيتِ كلّ ما خطّطناه له منذ البداية؟ عليكِ أن تكافحي، لن أسمح لك بالتكاسل! انظري إلى تلك الأخت الواقفة إلى جانبك، انظري كم هي قوية! لقد سُجِنَ حبيبُها ولكنّ عزيمتها لم تفتر، وبالمقارنة معها، لا بدّ أن تخجلي من نفسك، لاو يونغ إلى جانبك، وتقولين هذا الكلام؟! لاو يونغ! لاو يونغ! هل تسمعني؟».

ردّ بصوت خفيض: «نعم، أسمعك».

- إنها لا تقدّر بثمن!

قالت جين تجو ذلك، ثم دفعت تسوي لان وغادرتا، وبعد لحظات كانتا في الأسفل.

وقفتا من جديد أسفل القمر الضخم.

«لماذا أشعر بالخواء؟»، همست جين تجو.

- لأنك تحبّين لاو يونغ أيضاً.

- ربما. على كلّ حال، لا بدّ أن نعود إلى المدينة.

عادت تسوي لان وجين تجو إلى المدينة سيراً على الأقدام. كان النهار قد طلع، وقالت جين تجو إنها ستعود إلى منتجع الينابيع الحارة، لهذا ودّعت تسوي لان عند جانب الطريق. تأمّلتها تسوي لان، إذ بدت مفعمةً بالنشاط، وكأنها لم تسهر طوال الليل، ولا تبدو كشخصٍ عليل. ما إن تركتها تسوي لان حتى رأت السيد يو واقفاً أمام باب مطعم ماكدونالد مُشرئبّاً بعنقه.

سألته تسوي لان مبتسمة: «ماذا تفعل هنا؟».

- أنتظركِ يا سيدة تسوي لان. هل يمكن لهذا المرشّح أن يدخل الملعب الآن؟

- لماذا لا تلحق بجين تجو؟

- جين تجو تسعى إلى شخصٍ آخر، وهي في أوج حماسها ولا أستطيع مقاطعتها الآن.

كان مسرفاً في الأناقة كما هو، حتى أظافره مشذّبة بعناية كامرأة. دعاها للجلوس في مقهى في الجهة المقابلة.

لم تشرب قهوة، كانت جائعة، فتناولت فطيرتَيْ بيضٍ دفعةً واحدة. لاحظت أنه شارد، ونظراته مشتّتة. ربما كان ينتظر امرأة أخرى؟

قالت تسوي وهي تنهض: «إن لم يكن هناك أمر مهمّ، فسأغادر!».

«لا، لا!»، أشار لها باضطراب أن تجلس، ثم قال: «لقد دعوتك لأنني أرغب في سؤالك عن وضع وِيّ بُوَ».

- آه، دعِ الأمر، إنّه سيّئ للغاية! لا أستطيع إلى الآن أن أفهم كيف يوجد مكان كهذا لحبس الأشخاص؟ والأشدّ فظاعة أن هذا المكان ليس موثوقاً ولا يمنح شعوراً بالأمان، وكأنك، وكأنك دخلت عالم الأوهام! أعتقد أنه فقد الأمل.

امتقع وجهها بشدة بعد أن انتهت من حديثها، وأصبح ما تراه أمامها مشوّشاً، وشعرت وكأنها تغرق. سمعت صوت السيد يو المرتبك: «تسوي لان! تسوي لان! ماذا بكِ؟».

انحنت على الطاولة بضع ثوانٍ، وشيئاً فشيئاً استعادت بصرها.

قالت بوهن: «أنا بخير!».

فردّ السيد يو باهتمام شديد: «اشربي قليلاً من الشاي!».

نظرت إلى ظهره بينما يصبّ الشاي، وخُيّل لها أنه يشبه تلك الأسماك المفلطحة في حوض الاستحمام. لم يكن ثمّة الكثير من الرجال الصموتين في هذه المدينة.

بعد الشاي، أوصلها السيد يو إلى المنزل، وخطر ببالها أنه ربما يريد ممارسة الحبّ معها.

إلّا أن تلك لم تكن نيّته، وجلس إلى جانب الطاولة يحدّق إليها ووجهه خالٍ من أيّ تعبير.

«أردت منذ وقت طويل أن آتي إلى منزلك، لكنك كنتِ متكبّرة للغاية»، قال بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، ثم أكمل: «لقد وصلت إلى المتجر مجموعة من المزهريات الخزفية الخضراء من لونغ تشيوان. أخشى من البقاء في الطابق العلوي للمتجر ليلاً».

لم تتمالك تسوي لان نفسها من الضحك.

احمرّ وجهه وقال: «لا تضحكي! دعيني أخبرك: إن عملنا أن نتواصل

مع الأرواح، لا مناص للأشخاص الذين هم مثلي أن يكون عمرهم قصيراً ليعملوا هذا العمل، أنا يائس. كما ترين، لم أتزوّج إلى الآن لأنني أشعر دائماً أنني سأموت فجأة».

- إنك متشائم للغاية. تبدو صحتك جيدة.

- هذا ما يبدو في الظاهر. لقد عشت دائماً في العالم السفلي، وأرى العالم على السطح وكأن ثمة طبقة من الزجاج تفصل بينهما، كنت أرى العالم ولا أفهمه، لكنني لن أفقد الأمل. فأنا أنتمي إلى صِنفِ الأشخاص الذين «مَن لا يكون قلبه قانعاً، يكون مثل ثعبان يبتلع فيلاً». تجوّلتُ في تلك المدن القديمة المهجورة، الخالية من البشر، واستنفدت طاقتي الداخلية كلّها. دعنا من الحديث عني، لنتحدّث عن وِيّ بُوَ. لقد أخبرتني أن وضعه سيّئ، ربما قد أسأتِ فهمَ وضعه؟ لقد فهمت شخصية وِيّ بُوَ بطريقة غير مباشرة، وأرى أنه لن يفعل شيئاً يضعه في مأزق.

- هه! كلامك يبهجني!

- لقد جئت إلى منزلك لأبهجك. لقد كنتِ معبودتي في شبابي. إن وضع وِيّ بُوَ طبيعي، لكنهم لن يطلقوا سراحه على الفور. إذاً لماذا لم تغتنمي الفرصة؟

صاحت تسوي لان: «ماذا؟».

ظنّت أنه يشير إلى كونها لم تمارس الجنس مع وِيّ بُوَ في السجن.

- أقصد أنه في التعامل مع أشخاص مثله، لا بدّ أن تبحثي المسألة من جذورها، وأن تتحرّي تحرّكاته ونشاطه بدقّة، وبذلك سيكون بيدِكِ زمام المبادرة.

- آه، هذا ما تقصده إذاً! أخبرني يا سيد يو، لماذا أنت مولع بالنساء هكذا؟ هل تُراك تعتبرنا كائنات مختلفة عنكم أنتم الرجال؟

- هاها، هذا بالضبط ما أراه، تخمينك صحيح! النساء غامضات، لونغ سي شيانغ على سبيل المثال، واعدتُها لسنواتٍ كثيرة، لكنّني لم أتبيّن أبداً نيّتها. هذا هو السحر. أصيبت عيناها بحروق في تلك السنوات وكنت أقابلها دائماً عند بوابة مصنع غزل القطن، ولم نتحدّث حينذاك عن الرغبات الجسدية، كانت الحميمية أن نجلس معاً ونتناول الطعام.

قال السيد يو وهو ينهض ليعود إلى منزله، إلّا أن تسوي لان كانت تأمل أن يتحدّث معها أكثر عن علاقته بـ لونغ سي شيانغ.

- مؤسف أن علاقتكما لم تستمرّ!

- وماذا هنالك لأشعر بالأسف حياله؟ ألَم أخبرك للتو أن إحساساً بالموت المفاجئ يراودني دائماً؟

ومثل السمك في حوض الاستحمام الدافئ انسلّ إلى الخارج.

في تلك اللحظة فقط أحسّت تسوي لان بأنها عادت إلى المنزل. هذا منزلها، وقد عادت إليه. كم غابت؟ يوماً وليلة. ولسبب مجهول تلاشى يأس البارحة، وانبثق في حياتها عالمٌ عاطفيّ داخلي يختلف عن السابق. لكنّها لم تقرّر ما إن كانت ستغوص في مجازفات هذا العالم، لكن ما كان مؤكّداً، أنها لن تعود إلى حياتها السابقة، الهانئة. فكّرت في مدى حُمقها لظنّها أن هذا السيد يو يريد استغلالها. ثم أيّ نوع من الأشخاص هم السيد يو ولونغ سي شيانغ وجين تجو؟ والسؤال الأكثر أهمية: أيّ نوع من الأشخاص هو وِيّ بُوَ؟ وماذا كانت علاقته بالآنسة سي عاملة مصنع غزل القطن؟ أظلم كلّ شيء أمام عينيها حينما فكّرت في هذا الأمر. ربما كان عالماً لن تستطيع استيعابه وفهمه. لِمَ عليها أن تفكّر في أمور لا تخصّها؟ كزّت على أسنانها وقرّرت أن تهتمّ بما في قلبها وحسب.

استغرقت تسوي لان في النوم. وكلّ ما حَلُمت به أثّر فيها، من دون سبب: شوارع رمادية، على جانبيها بيوت رمادية، على أرصفة المشاة مارّةٌ رماديون وأشجار رمادية، وسرب حمامٍ رمادي يحلّق في السماء، وسيارة عائلية رمادية تعبر في الشارع، وثمة فتاة تمدّ نصف جسمها من النافذة وترتدي قبعة رمادية... سارت تسوي لان في الطريق بمحاذاة الحاجز النهري حيث رأت وِيّ بُوَ يتجه نحوها. سألها هل ستذهب معه إلى مصنع الصابون؟ أومأت برأسها مراراً، وفؤادها يهتزّ مبتهجاً. أشار وِيّ بُوَ إلى النهر قائلاً إن مصنع الصابون هناك في القاع، ولا بدّ أن يغطس في الماء كل يوم ليذهب إلى العمل. وجدت تسوي لان الأمر فكاهياً، فانفجرت ضاحكة. أيقظتها ضحكاتها وقالت: يا لك من ممثّل بارع!

نظرت إلى ساعة الحائط. كان الوقتُ منتصفَ الليل. وسمعت ضوضاء في الخارج وعدة أشخاص يصيحون معاً: «المركب الشراعي الأحمر! المركب الشراعي الأحمر! العمل مزدهر!». كان هناك مقهى قريب للعشّاق يدعى «المركب الشراعي الأحمر»، وقد ذهبت مرّتين، وبدا لها المكان مشبوهاً ويلفّه الغموض، لأن الكثير من الرجال ذوي الوشوم كانوا يخرجون ويدخلون. نهضت ووقفت عند النافذة، لكن الصمت كان يعمّ الأرجاء، ولا يوجد أحد، ثم نظرت من جديد ورأت شخصاً يقف عند صندوق البريد. انتظرت بصبر لبعض الوقت، رغم أن الضوضاء توقفت. وفجأة رفع الشخص بيده صندوقاً مربعاً، على الأرجح كان مُسجّلاً، انبعثت منه هذه الضوضاء. كانت لديه وشومٌ على ذراعه، وبدا جسده كبرجٍ حديدي. خافت تسوي لان، فأطفأت النور على الفور وعادت إلى السرير. أرادت أن تعود إلى حلمها، لكنّها لم تستطع. أغلقت عينيها، لكن الضوضاء في الخارج لم تتوقف، وراودتها أفكار غريبة بسببها. وقررت

أن تذهب إلى المقهى ما إن يطلع الصباح لترى ما يجري هنا. وتذكّرت أن المركب الشراعي الأحمر مرسومٌ على جدار بالكامل.

رغم أنها حاولت بكلّ جهدها أن تستجمع تركيزها، فإنها ارتكبت بعض الأخطاء في العمل لعدّة أيام على التوالي. وأرادت مديرة الورشة أن تتحدّث معها.

جلست قلقة في المكتب، وهي تفكّر فيما إذا كانت ستذهب إلى منتجع الينابيع الحارة لتعمل موظفة بعد أن تُحال إلى «إجازة من دون مرتّب». كانت تعلم أن المنتجع بحاجة إلى موظفين.

دخلت مديرة الورشة من دون أن تبدو على وجهها أيّ ملامح لَوم، بل بدأت الدردشة معها. كانت تسوي لان مُتيقظة، إذ شعرت أن كلمات هذه المرأة، المتوسطة العمر والجذّابة، تحمل شركاً خفيّاً.

- عملتُ أمين مستودع في شبابي أيضاً، وكنت لا أحب هذا العمل مثلك تماماً، كان عملاً مُمِلّاً، خالياً من أيّ متعة، لذلك أفهم معاناتِك!

- إذاً، ماذا سيكون عقابي؟

أجابتها المديرة باستنكار واتسعت عيناها مثل جرس نحاسي: «عقابُك؟! لا تسيئي فهمي يا تسوي لان، إن تعاطفنا تجاهك ليس كافياً، فكيف نعاقبك؟!».

- لكنّني ارتكبت خطأً في العمل، ويجب أن أنال العقاب المُتّبع.

- مَن منا لم يخطئ في شبابه؟ تسوي لان، أعرف أن هناك رجالاً حقودين ينتظرون انكسارك، لكنّي سأخيّب أملهم. عندما تعودين، لا تحملي أيّ همّ، وارفعي رأسك كشخصٍ شريف!

قرصتها المديرة في كتفها عدة مرات بيدها المكتنزة وكأنها ترسل لها إشارات جنسية. حدّقت تسوي لان فيها بذهول.

أبعدت المديرة يدها وقالت وكأن شيئاً لم يحدث: «لن أسجّل ما حدث في سجلّك».

بعد أن خرجت تسوي لان من المصنع أخذت الباص المتجه إلى منزلها. وطوال الطريق، كانت تفكّر ملياً في كلام المديرة، وشعرت بأن تغييراً سوف يطرأ على حياتها. كانت قلقة، متحمّسة، متلهّفة للتجربة. وكانت قد سئمت العمل في المصنع على كلّ حال؛ الروتين المعتاد، وتلك الوجوه المألوفة، بعثا فيها شعوراً مفاجئاً بالنفور.

تلقّت مكالمة هاتفية من المديرة مساء تخبرها بأن تأخذ إجازة لمدة أسبوعين بمرتّب. وظنّت تسوي لان أنها سمعت بشكل خاطئ، وسألتها ثلاث مرّات إلى أن تأكّدت. لكنّها شعرت بالقلق.

قالت المديرة بصوت غريب: «سأخبرك سرّاً يا تسوي لان؛ إنني أتلقّى إحسان السيد الذي يعمل في متجر التحف. أعرف أنكِ لا تحبّينه، لكن هذا لن يمنعه من حبّك».

- إنه لا يحبّني على الإطلاق.

- لا يحبّك؟! توقّفي عن المزاح!

بدت المديرة غاضبة عندما أنهت المكالمة. تأملت تسوي لان بذهول صورة ممثّلة الأفلام المعلّقة على الجدار، كان ذهنها مضطرباً، عاجزة عن استيعاب ما يجري. كان كلّ شيء في فوضى. وقد مُنحت هذه الإجازة المفاجئة بفضل السيد يو. ورئيستها مقتنعة بأنه يُكنّ لها مشاعر خاصة، ولكي تردّ له الجميل كونها تتلقى إحسانه، أعطتها إجازة. ماذا يجري؟ هل جُنّ العالم؟!

لديها الآن أسبوعان من الحرية، يتعيّن عليها أن تزور وِيّ بُوَ، فهو على كل حال عائلتها الوحيدة في هذا العالم. وما إن تذكّرت حماقةَ الزيارةِ السابقة، وأنّ عليها أن تذهب إلى هذا المكان مرة أخرى، حتى سيطر عليها التردّد. هي واثقة من حبها لـ وِيّ بُوَ، لكنها لم تكن معتادة على الطريقة التي يتصرّف بها، وكأنه تحوّل إلى شخصٍ آخر منذ أن دخل السجن، خشناً، فظّاً، كحيوان. إن أحببت شخصاً لا بدّ أن تحبّه حتى النهاية، إذاً، فهل يمكنها أن تحبّ حيواناً؟ ثم خطرت ببالها الآنسة سي عاملة مصنع غزل القطن، هل كان يتصرّف وِيّ بُوَ معها هكذا؟ كانت تحتقر نفسها كلّما أطالت التفكير في هذه الأمور. في تلك اللحظة طرق أحدهم الباب.

كان عشيقها السابق شياو خه.

- لستُ هنا لأدخل، بل أحمل لكِ رسالة.

ابتسم بعذوبة، ثم أكمل قائلاً: «إنهم ينقلون وِيّ بُوَ إلى السجن عند جبل الكمّثرى، رأيتهم في الطريق وقد بدا وِيّ بُوَ غير متّزن. اتصلي وتفقّدي الأمر، 228153».

دعته تسوي لان للدخول. ولم يكن بمقدورها تمييز ما إذا كان يكذب أم لا.

جلس شياو خه بفظاظة عند الطاولة. وأدركت تسوي لان أنه يتظاهر بالتعاسة، لكن هذا لم يؤثّر فيها.

- جبل الكمّثرى باردٌ وموحش، وهناك ذئاب تعوي في القَفر.

ردّت تسوي لان: «لقد وصلتني النقود التي أرسلتها، عشرون ألفاً».

- أنا سعيد للغاية. على كل حال لا بدّ أن أغادر، سجّلي الرقم: 228153.

- لا تعبئ دماغك بأرقام عشوائية، ليس جيداً من أجل صحتك. هل هو جبل الكمثرى الذي ذهبنا إليه معاً من قبل؟

- أجل، بالضبط.

رحل، وخلّف حيثما كان جالساً رائحةَ أرضٍ قَفر.

قبل سنوات طويلة، كانت تسوي لان وشياو خه يتجوّلان دائماً في المدينة، يتجوّلان في الأسواق، يذهبان إلى مطاعم الوجبات الخفيفة ومقاهي الشاي، ويقابلان الأصدقاء في المطاعم الصغيرة. كانت البهجة في شبابها تتخطّى القلق. استمرت علاقتهما لمدة عام. وحين أوشك الخريف على الانقضاء، ذهبا إلى جبل الكمثرى بالباص.

كان جبلاً أجرد، بلا أشجار، مغطّى بالأحجار المبعثرة. وقفا أسفله متأملَين القمة الغارقة في الضباب والغيوم، قال شياو خه إن هناك ذئاباً، فاكتفيا بالتجوّل حوله، وخشيا تسلّقه. وكان الأمر الغريب أنه لم يكن ثمة قرى أو بيوت ريفية قريبة، وكأن الجبل انبثق من أعماق الأرض فجأة. لم يكن سوى أرض قاحلة شاسعة إلى الغرب.

سار الاثنان من دون أن ينطقا بكلمة، وكلٌّ منهما خاوي الذهن، إلّا أن تسوي لان رأت أن هذا الدرب الصغير المتعرّج لافتٌ للانتباه. لم يكن واضحاً مَن شقّ هذا الدرب الممهّد المُلتفّ حول الجبل بمسافة مناسبة، غير قريب وغير بعيد.

الشمس على وشك المغيب، وقد هبّ نسيم الخريف البارد، وسار الاثنان في طريق العودة متشابكي الأيدي. كانت تسوي لان تلتفت باستمرار وتنظر إلى الجبل، لكنّ قمّته كانت دائماً غارقة في الضباب والغيوم. فسألت شياو خه: «لماذا هذا الدرب هناك؟».

- كنتُ أفكّر في ذلك. يبدو أن جبل الكمثرى جذب العديد من الناس. وأثناء سيرنا هناك منذ قليل، راودني إحساس أنني في قلب الأرض. رغم أنني شرطي مرور، أليس عملي مثيراً للضحك؟ يا للسخف!

منذ ذلك الوقت لم تذهب تسوي لان إلى جبل الكمثرى، وسرعان ما نسيت هذا المكان.

بينما كان حاضراً في ذاكرة شياو خه.

لَكَم تاقت تسوي لان في هذه اللحظة أن يتحدّث معها أحد عن جبل الكمثرى. هل ستتصل بهذا الرقم؟ ربما شياو خه يخدعها. لم يكن بمقدورها أبداً أن تخمّن بما يفكّر فيه هذا الشرطي ورأسه المليء بالحيل. وكان هذا هو السبب الذي جذبها له في الماضي، إلى أن توصلت تسوي لان إلى نتيجة مفادها أن فعل ما يقوله، في أغلب الأحيان، هو الاختيار الأفضل.

- ألو، هل هذا السجن رقم 3؟

- لماذا تتّصلين في منتصف الليل! أنا المناوب، ماذا تريدين؟

- هل ويَ سي تشيانغ محتجز للاستجواب عندكم؟

- نعم، لدينا شخص بهذا الاسم، ماذا تريدين منه؟ آه، عرفت، أنتِ تسوي لان؟

- كيف تعرف اسمي؟

ردّ المناوب بحماس: «لستُ أنا الوحيد، بل الجميع في السجن! كتب ويَ سي تشيانغ أغنية لكِ، ويغنّيها بأعلى صوته كلّ يوم. وعُوقب عدّة مرات بسبب هذا».

أنهت تسوي لان المكالمة وقد احمّر وجهُها. نهضت وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بارتباك. كزّت على أسنانها لشدّة كرهها له، إذ كانت منذ صغرها، لا تحبّ اقتحامَ خصوصيتها، ولكن الآن، فقد أصبحت أخبارها متداولة. سيراها هؤلاء الناس عاهرة بالطبع، لكنها لا تكترث، الأمر فقط أنها لم تستطع أن تتحمّل مطلقاً فكرةَ أن تكون حياتُها الخاصة متداولة بين الناس.

لم يكن عليها الذهاب إلى العمل غداً، ولم تستطع النوم، لذلك خرجت في نزهة.

بدت المدينة كالموت في الليل العميق، حتى إن مصابيح الشوارع أخفقت في إنارة زواياها المعتمة. فجأة أحسّت تسوي لان أن أشياءً ما تتحرّك باضطراب في غَور الظلال القاتمة، تصدر صوتاً كالصفير. رأت تسوي لان أنه موحش بعض الشيء ومبهج في الآن نفسه، استرجعت عبره حوارها مع جين تجو في «مساكن المتزوّجين حديثاً». وتساءلت أيّ نوع من الأشخاص هي جين تجو؟ وبدا وكأن لديها توقعات مختلفة لحياتها ولنفسها. إذاً، ما هذه التوقعات؟ هاتان العاملتان تركتا المصنع وشقّت كلٌّ منهما طريقها في العالم، ويبدو وكأنهما مرّتا بالكثير من التقلّبات. كانت تسوي لان تكن لهما إعجاباً شديداً، وتعلم في قرارة نفسها أنها لن تستطيع أن تكون مثلهما. إذاً، إلى أي صنف تنتمي؟ قالت بصوت عالٍ: إلى «ليس نوعٌ واحد أو آخر» هذا مناسب.

ناداها شخص يقف أسفل ظلّ مبنى عالٍ قائلاً: «يا أخت!»، ناداها ثلاث مرات ثم سار باتجاهها. كان عسكرياً شابّاً طويل القامة.

– مَن أنت؟

– أنا الرجل الذي ردّ على الهاتف منذ قليل.

– ألست في جبل الكمّثرى؟ هل تخدعونني؟

حملقت تسوي لان فيه بغضب شديد، وودّت لو تصفعه.

– أنا اليوم في إجازة، لذلك لستُ هناك لكن وِيّ بُوَ في جبل الكمثرى. أنا صديق مقرّب لشياو خه، وقد أخبرني عن وِيّ بُوَ وعنكِ، وطلب مني مُساعدتك.

– اغرب عن وجهي! اذهب إلى الجحيم!

التفتت ساخطة لتعود إلى منزلها، ونادمة على خروجها في منتصف الليل.

- اسمي يوان خِيّ، وأنا حارس في السجن رقم 3. لا تغضبي! ما أقوله عن أمر وِيّ بُوَ حقيقي، أنا لا أكذب أبداً.

تبعها بإصرار.

وصلت تسوي لان إلى منزلها، وصعدت إلى الطابق الثاني، فصعد وراءها.

فتحت الباب وقالت: «تفضّل بالدخول!».

فبدا عليه الخجل وقال: «هل هذا لائق؟!».

وحين همّت تسوي لان بإغلاق الباب، انسلّ ودخل.

لم يجلس، بل وقف في منتصف الحجرة وهو يفرك يديه. بدا حقاً شاباً صادقاً، لكنها لم تعرف ما هو هدف مجيئه إلى هنا.

- الأخت تسوي لان، اسمي يوان خِيّ.

- لقد قلت اسمك بالفعل.

- وِيّ بُوَ أخبرني أنكِ لم تكوني راضية مطلقاً عن المكان المخصص لزيارته، وقد أُخطرت السلطات العليا بالأمر، وسيجري تحسينه في المستقبل.

- إذاً، هل سيبقى وِيّ بُوَ محتجزاً بشكل دائم؟

- لا أعلم، لكن لا بدّ أن تضعي خططاً طويلة الأجل!

- هل يريد البقاء في الداخل؟

- لم أسأله. يمكنكِ أن تسأليه بنفسك المرة القادمة.

سكت قليلاً ثم غيّر الموضوع قائلاً: «الأخت تسوي لان، إن شياو خه رجل مستقيم وجدير بالثقة، الأشخاص مثله نادرون هذه الأيام».

- ماذا تقصد؟ تقصد أن أستعيد علاقتي السابقة به؟ لكنّك مع ذلك تنقل رسائل وِيّ بُوَ، ما هذا بالضبط؟ إنني مشوّشة.

«لا لا، لم أقصد ذلك!» -كان في غاية الارتباك وبدا وجهه مضرّجاً بحمرة في الضوء- «ما أقصده أن شياو خه رائع، سأحاول جاهداً منذ الآن أن أكون مثله. هل تعتقدين أنّ لديّ أمل؟».

ردّت تسوي لان بحزن: «لا أدري، إنني مشوّشة».

- آه، يجب أن أعود، إلى اللقاء!

ظلّت تسوي لان تفكّر في الأمر الذي حدث للتو بعد أن أطفأت النور بفترة طويلة. في أي سنة انفصلت عن شياو خه؟ لا تذكر. ورغم أنّ علاقتهما الجنسية انتهت، إلّا أنها شعرت وكأنهما لم ينفصلا انفصالاً نهائياً. كانا يتواصلان مرّة أو مرّتين في العام بمبادرةٍ منه، ولم يزعجها ذلك، لأنه كان دائماً يثير فيها شعوراً بالفضول والإثارة يدفعها إلى سماع ما يريد قوله. في بعض الأحيان تخاله عنكبوتاً، ينسج إلى ما لا نهاية خيوطاً من الأدلة العشوائية، لدرجة أنها لمست الردهة بعد أن غادر شياو خه لترى ما إن كان خلّف وراءه خيوط عنكبوت. ظنّت في البداية أنه يغار من وِيّ بُوَ، ثم أدركت في ما بعد أن الأمر لم يكن كذلك، ممّا برهن على أن شياو خه لم يعد يحبها، رغم أنه ظلَّ مهتمّاً بها، ولم تعرف لأيّ غرض.

يكون الذهن أشدّ صفاءً قبل الفجر. تخيّلت تسوي لان أنها على الدرب الضيق المتعرج أسفل جبل الكمثرى، وهكذا تذكّرت دفعة واحدة كلّ المشاهد التي حجبتها ذاكرتها طوال هذه السنوات: حيوانات الوشق تظهر وتختفي من بين الأحجار، أكثر من اثنين أو ثلاثة.. كما أنها شمّت رائحة دخان طبخ ورائحة طعام. وهذا يعني أن الجبل على قيد الحياة.

أرادت أن ترتقي الجبل وترى ما يجري، لكن شياو خه أوقفها قائلاً: «ثمة بعض الأشياء التي لن تفهميها إن شاهدتِها لعشرين أو لثلاثين عاماً». وأراد العودة بسرعة، فتخلّت عن رغبتها.

همست عدة مرّات: «شياو خه، شياو خه، أيها الرجل المكّار!»، ثم انتبهت إلى زجاج النافذة الذي يغمره البياض شيئاً فشيئاً.

استسلمت للنوم في نور الشمس.

أسفل المبنى، شابّ يقرفص بين زهور شبّ الليل ويدخّن، وهو حارس السجن يوان خِيّ. كان قد أضناه الحب من قبل، وفكّر في الانتحار. وهو الحب الأول للآنسة سي التي تعمل في مصنع غزل القطن، وقد هجرته منذ زمن. والآن وقع في حبّ حارسة سجن عمرها 43 عاماً، والتي ربما ستهجره أيضاً.

خطّط شياو خه ما حدث البارحة لأجل أن يحثّ يوان خِيّ. وفي الحقيقة لم يعرف شياو خه بأيّ شكلٍ سيحثّ يوان خِيّ. ألَم يكن كل شيء يسير على ما يرام في حياة يوان خِيّ؟ لكن بعد أن بدأ الشرب والحديث، لم يستطع شياو خه منع نفسه من التباهي وأخبره بخطّته.

وهكذا استغرقت تسوي لان في نوم عميق وسط آثار هذه الألغاز.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 2 -

ما حدثَ في الماضي بين وي بو والآنسة سي

كانت العلاقة بين وي بو والآنسة سي معروفة إلى حدٍّ ما، إذ عدا زوجته، كان الجميع يعرف عن علاقتهما. ولعلّ زوجته كانت تعرف أيضاً، لكنها لا تكترث. كانت لديها همومها الخاصة.

رأى وي بو الآنسة سي أثناء عمله في مصنع غزل القطن بدوامٍ جزئي، وفُتِنَ بها من أوّل نظرة. ولعدّة أيام متواصلة، اقتفى خطوات تلك الفتاة داخل المصنع. أما الآنسة سي التي أدركت ملاحقتَه لها منذ فترة، فأبقت على مسافة بينهما لِتزنَ شخصيّتَه. وفي الأيام التي تلت ذلك، اجتاحتها موجة من المشاعر وأصابها الأرق. وذات يوم، اتجهت صوبه مباشرة وسألته: «كم ستدفع لتُبقي عليّ؟».

رفّ وي بو بجفنيه وفكّر قليلاً، ثم أجابها بنبرة صادقة: «لستُ رجلاً ثريّاً، لكنّي سأبذل ما في وسعي لمساعدتك».

تأبّطت الآنسة سي ذراعه على الفور، وخرج الاثنان من المصنع بطريقة لافتة للنظر.

كانت لدى الآنسة سي رغبة في أن تعمل بائعة هوى في منتجع الينابيع الحارة. في البداية أراد وي بو الاعتراض، لكنّه، بعد أن ذهب عدّة مرات إلى ورشة عملها في المصنع، لم يتفوّه بكلمة.

بذل وي بو أقصى جهده في العمل بدوام جزئيّ، آملاً في انتشالِ الآنسة سي في أقرب وقت. لكنّه أدرك بعد سنتين أنها لا تكره عملها الجديد، بل كانت هادئة، تدير عملها بثقة، وتبدّد القلق الذي كان يلازمها أثناء عملها في المصنع. كانت شابّة وجميلة، وتجني مالاً كثيراً، وتخطّط لشراء شقّة في مجمّع سكنيّ.

ما جذب وي بو إليها تلك النظرة المتقدة في عينيها، ولم يسبق له أن رأى فتاة ذكية ولطيفة مثلها. وأحسّ أن لكلّ نظرة أكثر من معنى، دفعت رجلاً ناضجاً مثله إلى أن يفقد مسار أفكاره المتشابكة. لذلك حين كان معها لم يستطع مطلقاً أن يحزم أمره، بينما كانت الآنسة سي تتحدّث معه بصراحة ومن دون مراوغة. وكان وي بو يعرف أن لديها على الأقل عشيقين آخرَين.

بشكلٍ عامّ، من النادر أن تقع بائعةُ هوى في حبّ زبونها، «لأن عملها صفقة ماليّة». لكن يبدو أن الآنسة سي، لافتقارها إلى الخبرة، كانت تدخل في علاقة مرّةً تلو الأخرى مع زبائنها، حتى وإن لفت الآخرون الانتباه إلى خطئها، إلّا أنها لم تقتنع بما يقولون.

«لا أدري ما الخطأ الذي أرتكبه» -قالت لـ وي بو- «وإن يكن العمل صفقة؟ أليست الحياة صفقة؟ ما يُظهر قدرةَ المرء هو كونه قادراً على فعلها أم لا. بالطبع ليس لديّ القدرة، لكنني لا ألوم الآخرين أيضاً!».

قالت ذلك وابتسامة متألقة تلوح على وجهها، أثّرت فيه للغاية.

«أكثرُ ما ندمت عليه هو أنني لم أرحل عن مصنع غزل القطن في وقت أبكر»، ثم تابعت قائلة: «إن ما أعمله الآن أفضل بكثير من ذاك العمل. سأحظى الآن بمزيد من السيطرة على عملي بعد أن ساعدتني أنت وأصدقائي في شراء الشقة. نصحني أحدهم أن أتوقف عن العمل، وأحياناً

أفكّر في ذلك، لكن ماذا سأفعل بعدئذٍ؟ سأضيع في وحدة شديدة. أُفضّلُ أن أحافظ على حياتي الحالية، فأنا مغرمةٌ بشكلٍ ما بالمجازفات».

ذات مرة، أساء أحد المجرمين معاملتها، وضربها حتى تورّم وجهها، وقصّ جزءاً من شعرها، فاضطرّت إلى حلاقته وارتداء قبعة. جلس وي بو في شقّتها الدافئة المكوّنة من غرفتين ناظراً إليها، وصورة المرة الأولى التي رآها فيها تومض أمام عينيه، وبدا وكأنه في حلم. بالطبع، كانت جميلة، رغم أنها عانت من الحياة الكثير. ثم سمعها فجأةً تقول: «أنا مِن هؤلاء الذين هم على استعداد للموت من أجل الحب، لكن لماذا أخطئ دائماً في الحكم على الأشخاص؟!».

أجابها وي بو بهدوء: «لا تخطئين في الحكم على الأشخاص، بل تتصرّفين وفق ما يمليه عليه قلبك».

«إنك جيد للغاية، أحبّك يا وي بو!» - كانت عيناها التي تشبه الباندا (نتيجة للعنف) تلمعان.

- أحبّك أيضاً يا آسي!

في تلك الليلة تحدّثا عن أمور كثيرة، واكتشفا أشياء مشتركة بينهما، كما لو أنهما توأم.

ما إن فكّر وي بو في الآنسة سي حتى شعر بألمٍ خفيف في جزء ما في قلبه.

آه، الأوقات التي تمرّ كالزهور! آه، هاوية لا يُسبرُ غورُها! آه، مستقبل مشؤوم! آه، اضطراب وضياع أبدي! آه... هذه صيحات الإعجاب التي أطلقها في قلبه إزاء الحياة التي تعيشها الآنسة سي. لطالما كان يشعر بالكآبة من قلقه الدائم عليها. والأمر الغريب أنه قلّما فكّر فيما إذا كانت

تحبه أم لا، وربما عقد العزم منذ البداية على أن هذا السؤال لا معنى له. الفتاة غاية في الجمال، جسدها مشبوب كالأسماك الاستوائية، شعَرَ وي بو بأنه نال جائزة لا يستحقّها، ولم يترك له ذلك فرصة للتفكير.

همس مكرّراً: «آسي، آسي، أحبّك!».

ردّت لاهثة: «أحبّك أيضاً يا وي بو! يا لها من خسارة إن لم يكن في العالم رجال مثلك!».

لمرّات عديدة رأى وي بو تلك الشعلة السوداء المتقدة بهدوء في عينيها. كان مدركاً للطاقة الداخلية لهذه المرأة الشابّة، ومدركاً للأخطار التي ستفضي إليها هذه الطاقة. كان الكثيرُ من الناس يعلمون أنها تعمل بائعةَ هوى سرّية في هذه المنطقة، وقد تختفي فجأة في يوم من الأيام.

لم تكن امرأةً حسناء فحسب، بل كانت ذكيّة، مُتمكّنة من إدارة حياتها، ذات طبع دافئ يراعي مشاعر الآخرين. ولم يحتمل وي بو أن تُصاب بأيّ سوء.

وذات يوم صادف وي بو لونغ سي شيانغ في المجمّع السكني الذي تسكن فيه آسي، فأسرعت صوبه وتأبّطت ذراعه ووجهها مفعم بالغِبطة.

- وي بو، وي بو، يا لك من ساحر! إن الآنسة سي تُكنّ لك مشاعرَ ولا بدّ أن تقتنص الفرصة! وعلى حدّ علمي، لم تستمرّ علاقتها بعشّاقها الآخرين أكثر من عام. لكنّك حظيتَ بسنوات.

- أحبّها يوماً بيوم، في اليوم الذي لا أحبّها فيه، سأتركها.

- ماذا عن تسوي لان؟ هل نسيتها؟ أرى أنها مناسبة لكَ أكثر!

- ربما، لكنّ تسوي لان لن تستمرّ معي طويلاً.

- ألا تزال تؤمن بالحب الخالد؟ أليسَ هذا هراء؟!

- آسف يا سي شيانغ، لقد أخطأت التعبير مجدّداً.

أبعدت لونغ سي شيانغ ذراعه بغضب، وابتعدت عنه قليلاً.

احتقن وجهه، وشعر أنه حقاً أحمق. فكم من مرّة عقد العزم على ألّا يأتي إلى هذا المجمّع السكني، لكنّه وبلا سبب، كان يهرع إلى هنا ما إن يتلقى مكالمة منها. إنها تشعر بالوحدة، إذ من الصعب على فتاة مثلها أن تعثر على حبيبٍ مناسب. هكذا كان وي بو يلتمس لنفسِه العذرَ، لمجيئه مرة بعد الأخرى إلى هنا.

اسم المجمّع السكني «مجمّع الكاميليا»، ورأى وي بو أنه اسمٌ يلائمُ منزل الآنسة سي. أليست مثل زهرة كاميليا حمراء قاتمة؟ كان وي بو برفقتها أثناء بحثها عن شقّة وانتقالها إليها. وبينما كان بضعة رفاق يشربون معاً، كان وي بو يتأمل وجهها المتورّد، ويفكّر في أزهار الكاميليا. إلّا أن هذا المكان ليس جديراً باسمه، فلم يمضِ وقت طويل حتى اكتشف أن الآنسة سي مُراقبة.

«أعرف منذ فترة» -قالت بهدوء وابتسامة تلوح على وجهها- «الأشخاص مثلي دائماً مكشوفون تحت الأضواء. آه، دعنا من هذا الأمر، لا يهمّ!».

- يا لكِ من شجاعة!

- ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ أشعر منذ أن تركت مصنع القطن أن بوسعي التكيّف مع أيّ بيئة مهما كانت، حتى لو كانت وكر ذئاب.

كانت ستائر الغرفة دائماً مُسدلةً، مع فتحة متروكة في الجانب. وأكثر ما تحبه أن تسترق النظر عبر هذا الشقّ إلى الخارج. وكلّ مرة يراها وي بو جالسة إلى جانب النافذة، لا يسعه إلّا أن يتنهّد مرة تلو الأخرى. حينئذٍ تضحك الآنسة سي وتقول إنه «لا يفهم كيف يفكّر الفقراء». سألها: ماذا

تعنين بـ«الفقراء»؟ فردّت: إن الفقراء هم المُجرّدون من خصوصيّتهم. وقالت كذلك إن الفقراء يمكنهم الاستمتاع بوقتهم أيضاً، وكانت هي الأكثر درايةً بأسرار ذلك. ورأى وي بو أنها مذهلة لتتحلّى بالحكمة في سنٍّ مبكرة.

وأخيراً اعتُقلت لعملها عاهرةً من دون رخصة وأُرسلت للتأديب. وأخبرت عاهرةٌ أخرى وي بو أنها كانت شاردة الذهن حين استجوبها المحقّق، وتجيب بما ليس له علاقة بالموضوع، ولهذا وُبّخت مرّاتٍ عديدة، وعُوقبت بحمل أكياس الرمال، وكان عملاً شاقاً. وتلك المرة أنفق وي بو وبعض الرجال الآخرين مبلغاً كبيراً من المال لكفالتها.

- دائماً ما يقولون إنني منحطّة، لكنني لا أرى مطلقاً أنني منحطّة لهذه الدرجة. هذه كلّها أحكامٌ مُسبقة، وقوانين متعنّتة نمطية.

ابتسم وي بو بمرارة. كانا يعلمان أن الذي أبلغ عنها هو العجوز الذي يسكن في الطابق الأسفل، لكنّها لم تحمل تجاهه أيّ ضغينة، بل قالت إنه ليس عجوزاً إلى هذه الدرجة، وإنه وحيد، من دون صحبة امرأة، وهو أمر مثير للشفقة.

- بالطبع، لم أتمنَّ أن يُبلّغ عني. الذهاب إلى السجن ليس مناسباً لي، فهناك يمكن أن تنتابني هلوسات، وكأنني لن أخرج للأبد، وسيبدو كأنني عدت إلى ورشة العمل في مصنع غزل القطن. أثناء استجوابي، كنت أسمع دائماً فقط طنين الآلات، وقد اعتقدوا أنني أقاوم، لكن لم أفعل ذلك عن عمد.

وكلّما تذكّر وي بو كلامها يدرك أيّ ذكريات غرسها فيها مصنع غزل القطن، ويندهشُ في الوقت ذاته من صمودها. ولولا مقابلته للآنسة سي، لم يكن بوسعه أن يتخيّل شخصاً آخر يتحلى برباطة جأش كهذه في موقف

كموقفها. ورأى أن هذه الفتاة قادرة على التفكير ملياً وبعمق في ما يصيبها، وفي هذه الناحية كانت أكثر خبرة منه.

رغب بشدّة أن يعودا إلى مصنع غزل القطن، ويعثرا على المقعد الخشبي الطويل الذي جلسا عليه أول مرة وتحدّثا. وفي النهاية وافقت الآنسة سي على مضض.

اختار الاثنان يوماً كان المصنع فيه مغلقاً وانسلّا إلى الداخل، وتفحّصا المكان هنا وهناك، مفعمين بشتّى المشاعر. جلسا على المقعد الخشبي وخلفهما شجرة ماغنوليا. في تلك اللحظة لمعت في رأسه فكرة، واقترح أن يذهبا إلى ورشة العمل، وقال إنه رأى بابها مفتوحاً. تردّدت الآنسة آسي لكنّها وافقت أخيراً.

ووقع ما سيندم عليه وي بو إلى الأبد: فقدت الآنسة سي وعيها بين الآلات وجرحت رأسها، فحملها راكضاً من المصنع وأخذ تاكسي إلى قسم الطوارئ. ظنّ أنها ستموت على الفور، لأن الجرح بسبب الآلة كان عميقاً للغاية.

اتضح في ما بعد أنه كان إنذاراً خاطئاً، إذ قال الطبيب إن الجرح عميق بالتأكيد، لكنها ليست إصابة خطيرة، وقال إن الآنسة سي تتمتع بصحة غريبة، إذ لو كان شخصاً آخر، فربما أُصيب بإصابة جسيمة. قلّب الأمر في ذهنه مراراً وتكراراً ولم يفهم ماذا يعني كلام الطبيب. وقف في الردهة خارج غرفة الملاحظة موبّخاً نفسه، نادماً أشدّ الندم.

أذن لها الطبيب بالعودة إلى المنزل بعد يومين في غرفة الملاحظة. ما هذا؟ جرح كبير كهذا، من دون تقطيبٍ أو مضادات للالتهاب، وبهذه السهولة... تُصرَفُ من المستشفى؟ أراد وي بو معرفة معلوماتٍ أكثر، لكن الطبيب لوّح له وحثّهما على المغادرة.

سألها بصوت مرتجف: «آسي، هل أنتِ بخير؟».

- يا وي بو، إنك تستخفّ بـ آسي! لقد أردت أن أجرح نفسي، لذا أنا واثقة من أنني سأتعافى. لا داعي لأن تقلق على الإطلاق.

قالت ذلك بينما تزيح لحاف السرير الأبيض.

نظر وي بو إلى تلك الحفرة في رأسها، وسرى في ظهره عرق بارد.

انحنت كشخص طبيعي لتربط حذائها، ثم حملت حقيبتها قائلة إنها تريد العودة إلى المنزل. فأسرع وي بو وأسندها.

جلست آسي في السيارة ورأسها من الناحية غير المصابة يميل ناحية وي بو، وكانت تنظر إليه بين حين وآخر وتبتسم ببلاهة. ولم يخمّن وي بو سبب سعادتها إلى هذا الحد.

- هل يؤلمك الجرح؟

- وما أهمية ذلك؟ يمكنني تحمّل عشرة أضعاف هذا الألم.

حين عادا إلى شقّتها في «مجمّع الكاميليا السكني»، سألها وي بو لماذا تعمّدت جرح نفسها، فردّت إنها لم يكن بوسعها تحمّل الهلوسات التي انتابتها.

قضى برفقتها ثلاثة أيام لا تُنسى. لم يزعجهما أحد، كان مثل زوجها.

غطّت الآنسة سي جرح رأسها بشاش جعلته على هيئة وردة بيضاء. وكانت تشعر بالوهن لفقدانها الكثير من الدم. مالت برأسها على كتف وي بو وهمست قائلة إنهما حين كانا في ورشة المصنع، شعرت فجأة بأنها تنتمي إلى هذا المكان، تنتمي إلى هذا المكان إلى الأبد، ثم حدثت الإصابة. وعندما كانت تعمل في المصنع في السابق، كان الشباب يختبئون

في أشجار البَهْشِيّة أمام بوابة المصنع قبيل موعد انتهائها من العمل. وتذكر أنها كانت في عصرها الذهبي. على أنها لم تفضّل هذا النوع من الحياة، لأن على المرء أن ينضج. لكن لماذا آذت نفسها؟ فكّر وي بو ملياً في الأمر من دون أن يعثر على سبب. آسي شديدة الغرابة. إذا كانت تعتقد أنها تنتمي إلى هناك، فلتعد إذاً. لكنّها رغم ذلك ترى استحالة عودتها، فالبقاء في المصنع يفضي إلى طريق مسدود، مثلما حدث مع صديقتها (ماتت في ورشة العمل، جلست بوهن وانتهى الأمر). لا، لم تكن آسي حصاناً يرعى في المكان ذاته.

وقف الاثنان متكئين على الشرفة بعد تناول وجبة العشاء، يتأملان الليل يرخي عتمته على مهل. كان ثمة شخص في الحديقة المقابلة يحمل منظاراً مصوّباً تجاههما، فقالت آسي إن هذا هو «المُبلِّغ».

همست في أذنه: «هذا أكثر ما يفضّله! أليست هذه نهاية العالم؟ انظر، لقد وقف، ها، لقد قرفص من جديد. إلى جانبه شجرة سنط. قبّلني، لا، من هنا. آه، رائع جداً! أحب هذا العجوز، أتصدّق ذلك؟».

وبعد لحظة، تابعت: «لم أتحدّث معه مطلقاً! يتجنّبني دائماً. أرغب بشدّة أن أقول له لا داعي لأن يشعر بأيّ ذنب. وي بو، لا بدّ أن تذهب إلى العمل غداً، رغم أنني لا أقدر على مفارقتك! لقد أظلمت السماء الآن، ما الذي يستطيع هذا الشخص رؤيته؟».

في طريق عودته إلى المنزل، لم يتوقّف وي بو عن البكاء، ذلك المدّ القاتم في ذهنه أشعره باقترابِهِ من هوة سحيقة.

عاد إلى المنزل، ولم يبدُ على زوجته أنها لاحظت أيّ شيء غير طبيعي. وفرض على نفسه ألّا يذهب إلى زيارتها لفترة قصيرة، آملاً بأن يستطيع فعل ذلك.

على كلّ حال، لم يزُرها منذ فترة طويلة. وأصبح، كيف نصفه؟ مُنقبضاً. كانت أشياء كثيرة داخله تتلاشى تدريجياً، تحوّل إلى ماكينة عمل. وإلى جانب عمله الأساسي، عمل أيضاً في وظائف مختلفة بدوام جزئي، وبضمنها نقل الجثث من المستشفى. منحه نقل الجثث نوعاً من المواساة، مُفكّراً ومفعماً بالدفء والعطف تجاه تلك الأجساد التي توقّفت عن التنفّس، وهو يصفّها بحذر.

فكّرت الآنسة سي وهي تغلق الباب خلفه: لَكم هذا الرجل حصيف! إن كان للروح أن تُخلق ثانية، فهل كانا شخصاً واحداً في ما مضى؟

التقطت علبة الماكياج وبدأت في وضع زينتها، وغطّت وجهها الشاحب بطبقة كثيفة من البودرة. وبدت بوردة الشاش الأبيض على رأسها قليلاً مثل غايشا يابانية.

ذرعت الغرفة ذهاباً وإياباً بخفّةٍ كطَيف، منصتةً إلى ساعة الحائط تدقّ الساعة التاسعة.

طرق أحدهم الباب.

- من؟

- أنا، جارك.

دخل «المُبلِّغ». لم يبدُ عجوزاً كمعظم الوقت، وإنّما ظهرَ مفعماً بالحيوية في النور الخافت. كانت عيناه كخطافين معلّقين على الآنسة سي. غمغم بعدة جُمل، فاقتربت منه وسمعت أنه يطلب منها أن تخلع الوردة البيضاء وتريه الجرح.

خلعت الوردة البيضاء وقرّبت رأسها ناحيته.

سمعت العجوز يصرخ صرخة غريبة، ثم فرَّ من الشقّة، فابتسمت بفتور

وأغلقت الباب. وفكّرت: ماذا رأى هذا العجوز يا تُرى؟ ستسأله غداً إن صادفته. كان والدها قد طلب منها قبل موتِه بفترة قصيرة أن تبحث عن صديقٍ له، لكنّه لم يخبرها عن وسيلة الاتصال به، ألا يكون هذا العجوز الغريب صديق والدها المُقرّب؟

غرقت في ذكرياتٍ كئيبة. آه، ذاك الشتاء، والثلج الغزير المتساقط من السماء! كان والدها يتنفّس بصعوبة، ووالدتها تبكي إلى جانب السرير، وآسي تستعمل أنبوباً لتسحب بلغمه بشكل متكرّر، حتى إن بوسعها إلى الآن سماعَ صوتِها المرتعب: «أبي، هل تشعر بتحسّن؟»، أشار بإصبعه إلى خارج النافذة وقال مُكرّراً: «سي... سي...».

لم تفهم آسي مُطلقاً ما يريده والدها. كانت منزعجة وبكت مع والدتها وكلٌّ منهما تطوّق الأخرى بذراعها.

لم يُتوفَّ والدها تلك المرة، بل قاوم وتوفّي بعد عام. كان وقتاً كالجحيم. وكانت النوبات تبدأ بعد غروب الشمس وحلول المساء. تنشط الشياطين دوماً في معيّة الليل. ورغم هذا كان والدها صامداً. تمنّت موته ليتخفّف من الألم، لكنه رفض الرحيل. كان هذا العام هو الاختبار الأكبر للآنسة سي، فقد جعلت تلك النوبات المخيفة قلبها الرقيق صلباً.

ابتسم لها بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان راضياً عن ابنته.

نثرت مع والدتها رماد والدها هنا وهناك في الباحة، التي لم يمرّ وقتٌ طويل حتى هُدمَت وسُوّيَت بالجرّافة.

تحسّست الجرح بإصبعها، كان متورّماً قليلاً، وغير مؤلم. لكن لماذا ألقت بنفسها أمام الآلة؟ لا تعرف. ربما رغبت في أن تعرف من أي شيء مصنوع جسدها؟ لقد قام والدها بهذه التجربة في الماضي. تذكر أنها حين اصطدمت بهذا الشيء البارد كانت تهمس في سرّها: «يجب عليّ، يجب

عليّ...»، في ما بعد شعرت بالذنب تجاه وي بو، وأطلقت على نفسها: «امرأة تدمّر حياة الآخرين».

بعد أن تركت العمل في مصنع غزل القطن، اتسع فضاء نشاطاتها، فاندسّت في فجوات المدينة، في توق لتَشرُّب نسغِ الحياة. كانت تعرف بفطرتها أيّ الأماكن ذات فائدة. على أن الاصطدام بالجدار، بالطبع، أفضل مُعلّم. لا شيء سوف يُسرّعُ من نضجِها غير الاصطدام بالجدار والارتداد عنه. وشعرت أنها تتوق إلى هذا الرفض والارتداد. ولهذا اصطدمت بالآلة. ها، هذا هو السبب! إذاً، ألا تصبح أذكى يوماً بعد يوم؟

في ذاكرتها، سارت الآنسة سي عبر الظلال القاتمة التي ترخيها البيوت في البلدة. كانت والدتها أذكى أمّ في العالم، وقد انفصلت عنها في عمر السابعة عشرة، لأنها وجدت عملاً: غزّالةً في مصنع غزل القطن. وقد قالت هذه الأم إنها ذاهبة إلى الريف لزيارة أقاربها، وستغيب طويلاً.

- لم أزرهم منذ أن تزوّجت والدك. سمعت أنهم انتقلوا إلى منطقة بحيرة دونغ تينغ، وبنوا أكواخاً من القشّ قريباً من المياه الضحلة، واعتمدوا على تربية البطّ في المعيشة. أيّ ظروف للعيش هذه؟ لطالما وددت أن أذهب وأرى بنفسي.

تورّد وجه والدتها حينما قالت ذلك، ولمعت في عينيها لهفةٌ لحياة حرّة. أحسّت سي بشكل مبهم أن الفراقَ وداعٌ هذه المرة. وشعرت برغبة في البكاء، لكنها ابتسمت ببلاهة. ابتسمت أمّها كذلك قائلة: «لا بدّ أن تنضمّي إليّ قريباً!».

لم تتواصل معها منذ أن رحلت، وفكّرت في كم كانت مثل والدتها. كانت ممتنّة لأبويها حين تستعيد هذه الأمور الآن. ذهبت سي من قبل إلى منطقة البحيرة، كانت مارّة بالمصادفة. رأت أكواخ القشّ المتداعية مبعثرة

هنا وهناك. مُحالٌ أن يكون أيّ شخص يعيش هنا. ويبدو أن تلك الأكواخ التي عاش فيها الناس من قبل قد اختفت منذ سنوات عديدة. وأخبرها أحد الصيّادين العجائز: «كان هذا المكان ضاجّاً في الماضي وكأن المسرح في البلدة».

قبل أن تستغرق في النوم، تهادى إلى سمعها صوت رجلٍ عجوز يغني أغنية حبّ في الحديقة المقابلة، بدا شديد الشبه بـ«المُبلِّغ» الذي يعيش في الطابق الأسفل. كان صوت الغناء دافئاً ورنّاناً، لازم حلم الآنسة الكئيب الطويل. في الحلم، قالت للمغنّي الخفيّ: «حيث أسكن يدوّي رعد الشتاء، وأينما نظرت أرى أبراجاً مائلة. هل يمكن أن تصف المشهد في أغنية؟!»، لكنّها كانت في الواقع تقف عند ضفة بحيرة دونغ تينغ تزعزعها الرياح. همست لنفسها: «يا له من حلم جميل، لا أريد أن أستيقظ منه!».

استيقظت في منتصف ظهيرة اليوم التالي.

رأت «الرائد»، حبيبها السابق في مصنع القطن يجلس على حافة النافذة، سحب الستائر فغمرت أشعة الشمس الذهبية الغرفة.

– سمعتُ أنكِ أُصِبتِ، فجئتُ على الفور. إن بابك غير موصد، وفتحته بدفعة واحدة، ماذا يجري؟ رأيتُ رجلاً عجوزاً يعبث بقفل الباب، هل هو مَن فعل ذلك؟

ردّت بحزن: «هذا العجوز صديقي».

– ما إن علمتُ أنكِ أُصِبتِ، حتّى تجدّدت مشاعري السابقة تجاهك. هل تذكرين تلك الأيام التي قضيناها في حديقة المصنع؟ هل جرحك خطير؟!

تأملت الآنسة سي وجه الرائد الوسيم ببلادة، وشعرت بالإغراء الذي

شعرت به قبلاً، إلّا أن هذا الإغراء كما لو كان غشاوةً تفصله عنها، إذ لم يؤثّر فيها في تلك اللحظة. لَكم هو مفعم بالحياة! هل هو هنا لاختبارها؟ أحنت رأسها وضحكت.

انقضّ الرائد عليها، فالتقطت مقصّاً من على الطاولة وطعنته في ذراعه.

قال بينما يتراجع إلى الباب: «أنتِ مذهلة! آسي، أحبّكِ أكثر!».

- لِيكن كذلك، أحِبّني! بابي مفتوح، يمكنك أن تزورني في أيّ وقت.

بعد أن رحل الرجل، ظهر وجه جارها «المُبلِّغ» عند الباب.

قال متوسّلاً: «هل يمكن أن تغطّي جرحك بغطاء استحمام؟».

- يحتاج الجرح إلى تهوية. ما الذي رأيته بالضبط؟

- لقد رأيتُ... هوةً سحيقة!

صفق الباب في يأس.

استلقت الآنسة سي في حوض الاستحمام، منصتة بهدوء إلى الضجيج في الردهة، وخمّنت بحدسها أن الرائد لم يغادر. ربما كان يتحدّث مع العجوز. منذ سنوات مضت، كان هو مَن غيّر حياتها الخانقة وساعدها في الأوقات العصيبة. لكنها الآن تقابله بنكران الجميل. أشخاص مثل هذا العجوز يثيرون اهتمامها، وقد رأى هوةً سحيقة في جرحها وارتعب. إذاً، هل هو صديق والدها؟

ارتدت ملابسها ببطء. أحسّت أن حركاتها غير حقيقية في نور الشمس. سمعت صوت تمزيق قماش، ربما كان يضمّد جرحه - الرائد الصامد.

قبل سنوات عديدة، كان وي بو ولونغ سي شيانغ على علاقة لفترة قصيرة. حينذاك كانت لونغ سي شيانغ فتاة صغيرة لا تزال تخجل كلّما رأت رجلاً. ومن دون أن تدري كيف حدث، أحبت وي بو التائه، عن

اقتناع أنه من نوع الرجال المناسبين ليكون حبيباً. في البداية لم يحبّها وي بو، لكنه شعر على الفور بسحرها الفريد. كانت من نوع النساء المُنطلِق، وطاقتها تفوق البشر العاديين، مفعمة بالحيوية إلى درجة لا يصدّقها المرء. ولفترة طويلة، كان وي بو ما إن يفكّر فيها حتى يغلي دمه. وفي ما بعد تزوّجت، فابتعد عنها عن عمد، ولم تتواصل هي معه بعد زواجها أيضاً، لذلك ظنّ وي بو أنها وجدت سعادتها. وقد تركت له ذكريات حلوة.

وبعد سنوات، صادف وي بو هذه الحبيبة القديمة في منتجع الينابيع الحارة، وكانت صدمته شديدة. في ذلك اليوم، رأى «الفتاة سي شيانغ» المفعمة بالحياة وقد أصبحت امرأة في منتصف العمر، تبدّد جمالها وخطّت التجاعيد وجهها. كانت قد فقدت عائلتها، وأصبحت وحيدة من جديد.

- آه، وي بو، وي بو، أنا لا أناسبك الآن، لكنني أريد البحث عن سعادتي رغم ذلك.

كشفت عن أسنان بارزة حين نطقت كلمة «السعادة»، وكان ثمّة شقٌّ كبير في السنّين الأماميتين.

انكمش قلبه، وشدّ على يديها، لكنّها أبعدته فجأة وانفجرت ضاحكة.

- يا لك من مغفّل كبير! أنتَ بمنزلة أخٍ كبير لي الآن، لذلك عليك مساعدتي! أنا وصديقتي المقرّبة جين تجو تركنا مصنع غزل القطن بعد فوات الأوان، لكني أرى أن الأوان لا يفوت، بل هو كسلٌ شديد، أليس كذلك؟ يكفي أن يمتلك المرء إرادة كافية، فمهما كان ما يريد فعله فلن يكون الأوان قد فات.

أثنى وي بو على كلامها بحفاوة وبصوتٍ عالٍ: «حَسَنٌ قولك! حَسَنٌ قولك!».

في تلك اللحظة انتبه إلى جين تجو الواقفة خلفها.. عاملة أخرى سمراء ونحيفة وفي منتصف العمر، بدت مريضة. اتجهت إليه وتأبطت ذراعه بوقار. امرأتان، كلّ واحدة في جهة، وكأنهما معلّقتان في وي بو، واتجه الثلاثة بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال وتهاووا على الكنبة.

كان هذا اليوم تحديداً هو اليوم الذي ساعدهما فيه وي بو في الحصول على العمل بائعاتِ هوى في منتجع الينابيع الحارة. أحبّا وي بو في الوقت ذاته، لكنّه كان حبّاً خالياً من أيّ انجذابٍ جسديّ.

استولت على لونغ سي شيانغ غيرةٌ شديدة، لبعض الوقت، منذ أن علمت بعلاقة وي بو والآنسة سي، وحاولت قدر استطاعتها تشويه صورتها، ممّا ضايق وي بو. إلّا أن ما جعله مرتبكاً، أن هجمات لونغ سي شيانغ على الآنسة سي كانت غير تقليدية. على سبيل المثال، تحدّثت عن حبيب سرّيّ لـ آسي، وكان رجلاً نافذاً، وبوسعه تخليصها من حياتها الحالية، لتَعِيش حياة راقية. لكن من الصعب تغيير طبع آسي، إذ كانت راغبة في أن تكون بائعةَ هوى، أن تعاني بشقاء في قاع المجتمع. لماذا؟ لأنها امرأة لا يرضيها شيء. أما ذلك الحبيب فلم يتخلَّ عنها، وظلَّ صابراً بشقاء لعلّها تغيّر رأيها. وذات مرّة، قالت إن آسي تعاني من مرضٍ خفيّ، ولا يمكنها الإنجاب، لذا أقسمت أن تستمتع بمتع الجنس إلى أقصى حدٍّ ممكن. وكانت سي شيانغ غامضة ومتحمسة أثناء هجومها على آسي، فانتاب وي بو شعور مبهم بأن لكلامها معانيَ أخرى كثيرة. هل كانت تثني على آسي لتحريض وي بو؟ مضت لونغ سي شيانغ تثرثر عن هذه الأمور بكثرة إلى أن توقف وي بو عن الغضب بشأنها، وتعلّم شيئاً فشيئاً أن ينصت إلى الأخبار التي تجلبها له.

جلس وي بو في غرفتها الصغيرة المليئة بملصقات إعلانات لرجال وسيمين وقال لها: «أنتِ قلقة على آسي، أليس كذلك؟ لا تقلقي!».

فانهمرت دموعها على الفور وردّت بهدوء: «هُسّ، لا داعي لقول هذا الكلام!».

داعب وي بو شعرها الأسود الفاحم كأجنحة الغراب، مفعماً بفيض من المشاعر. كان يعلم أن حياتها الحالية تشبه حياة آسي، مليئة بالمصاعب والحظوظ العاثرة. وتمنّى لها من كل قلبه الصحة والحظ السعيد.

همست له: «وي بو، سآخذك إلى مكان».

- إلى أين؟

- إلى الجحيم، ألديك الجرأة؟ وأقصد بيت والدة آسي، إنه بعيد عن هنا قليلاً، في الضاحية. هل أنت مهتمّ بالأمر؟!

- بالطبع مهتمّ، لم تذكر أمها مُطلقاً من قبل، هل تعلم أين تسكن؟ يا له من أمر غير معقول!

- قطعاً غير معقول، وهي لا تعرف أين تسكن، لكنّي أعرف.

ولهذا ذهبا إلى بيت والدة آسي.

أيّ نوع من الأماكن هذا! منزل من غرفة واحدة مبنيّ بالطوب الطيني، ومحاط بزرائب الخنازير التي تنتمي لأصحابها، والتي بوسعكَ سماع خوارها المتواصل وأنت داخل المنزل، وكأنها جُوِّعت بشدة. كانت العجوز تربط غطاء رأس بزهور مطبوعة كالذي ترتديه الريفيات، وكان سلوكها مثل امرأة ريفية أيضاً. وما أدهش وي بو أنها أسدلت الستائر في وضح النهار، وحجبت داخل الغرفة تماماً. كان هناك طاولة بالية مائلة عليها تلفزيون، يعرض فيلماً إباحياً بصوت منخفض جداً. كانت العجوز تتفرج حين دخلا، ولم تُطفئ التلفزيون عندما جلسا. ألقى وي بو نظرة

ووجد أن المشاهد مثيرة، فأشاح ببصره على الفور، لكنّ التأوّهات كانت ترنّ في أذنه.

احتضنتها لونغ سي شيانغ وقالت: «ماما، هذا صديق مقرّب لـ آسي، أحضرته لزيارتك».

- مَن أنت؟

شعر وي بو بعيني فهد تحدّقان فيه، فخفق قلبه.

- أنا عامل في مصنع صابون، كما أنني أعمل في مهن أخرى بدوام جزئي.. وأنا، أنا صديق مقرّب لابنتك، يعرف كلٌّ منّا الآخر منذ...

«مَن أنت بالضبط؟»، قاطعته بنفاد صبر وقالت: «هل أوصلتني إلى المستشفى قبل ثمان وعشرين عاماً؟ إن وجهك مألوف».

همست لونغ سي شيانغ في أذنه: «أجِب ماما بصدق!».

هدأ وي بو وأجابها: «ربما يا أمي. ربما قمت بأمر كهذا. أعرف أن ابنتك آسي مميّزة».

- كُفّ عن التملُّق، لا فائدة منه. يبدو أنّ أمركَ ليس كارثياً، لكن لطالما كان أمرُ آسي هو الكارثيّ. سي شيانغ، برفقة مَن تتسكّعين الآن؟

- مع أكبر تاجر للأفيون في جنوب الصين، وهو مدمن، دخل السجن مرّتين.

- هل يقود التسكّع مع أشخاص مثله إلى نهاية طيّبة؟

فجأة سُمِعَت صرخة مخيفة في الخارج. صمت الثلاثة، وظلّوا لفترة لم ينطق أحدهم بكلمة، ولم يكن ثمة صوت غير أصوات شبقة للزوجين (امرأتان). ولفَّ الغرفة جوٌّ غريب.

تحدّثت لونغ سي شيانغ أولاً: «أمي، هل خرج مربّي الخنازير؟».

- آه هو، نعم ذهب إلى المدينة. هناك خنزيران اليوم جاهزان للذبح،

ولديه زبائن، لقد خرج منذ الصباح. لم يطعم الخنازير، ولم يدعني أساعده، إنه مثل قاتل!

قالت لونغ سي شيانغ له بصوت خفيض إن مربّي الخنازير العجوز هو عشيق والدة آسي، عجوز وسيم.

«لو كنت مكانك كنت سأقع في حبّه أيضاً!»، قالت فجأة بصوت عالٍ. ثم أضافت: «لا تظنّي أن تربية الخنازير مهنة سيّئة، فلكل مهنة مُعلّمُها!».

نظرت والدة آسي إليها ولم تكفّ عن الإيماء برأسها، وكأنها غرقت في ذكريات ماضية.

- لَكم كان بارداً شتاءُ ذاك العام؟ كانت الخنازير على وشك أن تنفق، لم يكن لدينا المال، وتحطّمت أبواب الزرائب ونوافذها بفعل الريح وتجمّدت الأحواض، لم أرَ في حياتي عاصفة ثلجية شديدة كهذه.

بعد هذه العبارات لم تتفوّه بكلمة أخرى، وبدا عليها الانزعاج.

- كيف له أن يظلّ في الخارج طيلة هذا الوقت؟ هذا الرجل اللعين! أريد قتله! لكني لستُ امرأة سريعة الغضب. هه، أنت يا عامل مصنع الصابون الكادح.. هل ترى، النساء في عائلتنا لسن سريعات الغضب! أنصحك أن تتخذ قرارك في أقرب وقت ممكن، همم!

حين رأت سي شيانغ أن الأمور تسير على نحو سيّئ، سحبته إلى الخارج.

ظلّا يتجوّلان بين زرائب الخنازير، ووي بو يغطّي أذنيه، وامتقع وجهه بسبب ذلك الخوار الحاد، وشعر أنه هو نفسه خنزير يُذبَح.

كانت لونغ سي شيانغ شديدة الهدوء، وكأنها لا تسمع شيئاً.

- هل فهمتَ كلّ شيء الآن؟

لكنه لم يفهم أيّ شيء. أي نوع من النساء والدة آسي؟ ولماذا جلبته

سي شيانغ إلى هنا؟ وكان انطباعه الوحيد عن هذه المرأة العجوز أنها ذات طبع حادّ.

- لا، لم أفهم يا سي شيانغ!

«حَسنٌ!»، صفّقت بيدها، ثم قالت: «ما دمتَ لم تفهم فأنت في الحقيقة قد فهمت!».

جنّ جنون الخنازير حين صفّقت بيدها، وشقّ خوارها السماء. اندفع خنزيران مرقّطان فجأةً من الزريبة صوبهما. أبعدهما وي بو بسرعة ليحميها، وسمع والدة آسي عن بُعد تسبّ وتضرب الأرض بقدميها.

بعد أن عبر الخنزيران الممسوسان عادا من جديد واتجها صوبهما، فسحبها وي بو والتصق الاثنان بسور المنزل، حيث كان ثمة خنازير أكثر في الداخل.

في النهاية اختفى أثر الخنزيرين. سألها وي بو وهو يتصبّب عرقاً بارداً: «هل بإمكاننا العودة أحياء؟».

- ما الذي تتحدّث عنه يا وي بو؟ ألا تخجل؟!

رأى عينيها تتّقدان بحماسٍ بالغ.

سارا قرابة نصف ساعة إلى أن خرجا من الزرائب ووصلا إلى الطريق العام. بدت لونغ سي شيانغ فاترة الهمّة، ولم تتوقف عن الشكوى طوال الطريق من خيبتها في الحب، وأنها تفكّر أحياناً في عجزها عن الاستمرار في العيش.

صاحت فجأة: «ليتني كنتُ والدة آسي!».

جذبت وي بو من ذراعه بقوة ليبطئ خطواته أثناء سيرهما بينما كانت تشكو. كان صوتها غير واضح، ولم يسمع وي بو ما تقول، لكن ذكرها المستمر لـ آسي جعله مضطرباً.

جاء باصٌ متجه إلى منتجع الينابيع الحارة، فساعدها وي بو على الصعود، ثم أسندها وهي تجلس. واستغرقت في النوم منحنية على ظهر الكرسي الذي أمامها.

حين وصلا إلى المحطة، اضطرّ وي بو إلى حملها أثناء نزوله، ومرافقتها إلى غرفتها الصغيرة في المنتجع. ولم تستيقظ من نومها إلّا حين وصلا أمام الباب، فأخرجت المفتاح من حقيبتها الصغيرة. وسألته بنبرة موبّخة: «ماذا تفعل هنا؟!».

- لقد أوصلتك إلى هنا.

- ها، لقد نسيت! لا يمكنك أن تدخل لأن آسي في الغرفة المجاورة، ولديها زبون جديد، لا يفصلني عنها غير حاجز خشبي، ويمكنني سماع كلّ شيء، أخشى أنك لن تتحمّل!

- سأغادر إذاً!

- عد إلى هنا! سأنادي عليها. آسي! آسي!

فُتِحَ باب صغير مجاور مُصدراً صوت صرير، وظهر وجه آسي الشاحب. بدت وكأنها لا تأخذ كفايتها من النوم وأكبر في السن بكثير. وكان الشاش الملفوف على رأسها على شكل زهرة مجعّداً.

تذكّر الجُرح في رأسها، وارتجف عدة رجفات، ولم يتفوّه بأيّ كلمة. كان أهمّ سؤال يدور في ذهنه: لماذا تستقبل زبائنها في الفندق ولديها شقّتها الخاصة؟ حينئذٍ دفعته لونغ سي شيانغ جانباً قائلة: «حَسنٌ، حَسنٌ، لقد رأيتها، اذهب الآن فـ آسي مشغولة!».

غادر على مضض، ورافقته لونغ سي شيانغ حتى باب الفندق، ثم سألته عن انطباعه حين رآها منذ قليل، فسألها عن سبب استقبالها للزبائن هنا.

- ربما تختبئ من شخص ما، إنها ذكية للغاية، فدائماً تستقبل زبائنها

هنا. يبدو أن إصابتها لم تمنعها من مزاولة عملها على الإطلاق. إنها تناديني، عد إلى منزلك الآن، بسرعة!

شعر وي بو وكأنه هُجر من هاتين المرأتين. كان غريباً، لا يندمج في عالمهما. ألَم ترمقه آسي للتو بنظرة خاوية؟ وهذا يعني أنهما ينتميان إلى عالمين مختلفين. وفجأة غمره إنهاكٌ شديد. كان يهدر وقته هنا وهناك من دون جدوى، عمّ كان يبحث؟ ألا يدلّ سلوك المرأتين للتو أنه شخص زائد عن الحاجة؟ كان ذهنه خاوياً، وخطواته شديدة البطء.. يجب أن يعود إلى المنزل.

من دون أن يعي ما جرى، لم يعد وي بو إلى المنزل، بل ذهب إلى حانة صغيرة.

طلب خمر الأرز لأنه قلّما يشرب. كان ثمّة شخصٌ آخر جالس في الطرف الآخر للطاولة المربعة الكبيرة، يرتدي قبعة أنزل حافتها حتى حجبت وجهه. كان هذا الشخص يشرب «خمر الحبوب الخمسة»، وعلى الأرجح كان ثريّاً. كان كلٌّ منهما جالساً يشرب شرابه ويتناول طعامه.

ارتفعت معنويات وي بو بعد شُرب كوبين من خمر الأرز، وتناول وجبة من كبد الخنزير بالكرفس. نظر إلى الخارج فإذا به وقت المغيب وفكّر: هل أعود إلى المنزل في الحال؟

«المنزل موجود دائماً، لكن إن فوّتَّ علاقة حب فلن تُعادَ أبداً!»، قال الشخص الجالس قبالته ثم رفع قبّعته. كان السيد يو مُثمّن التحف.

«أعلم أنك ذهبت برفقة سي شيانغ إلى زرائب الخنازير. لا، لا تُسِئْ فهمي، فأنا لا أحب آسي، بل أحب لونغ سي شيانغ، تلك البطلة».

ثم أردف قائلاً: «لقد كنت أشرب طيلة اليوم مع العجوز مربّي الخنازير، ونحن نثق كلٌّ منّا بالآخر أشدّ الثقة، ثمة أمر واحد لا أفهمه، إن والدة آسي

تسيطر على هذا العجوز، لكنها ليست مخلصة له، وقد جعلته غاية في البؤس والتعاسة، فما السبب؟».

فوجئ وي بو قليلاً لأن السيد يو كان يتحدّث معه دائماً كصديق حميم، ربما كان هذا كلّه بتأثير سي شيانغ.

- لا أعرف ما السبب بالضبط، لكن حسب ملاحظتي لها، فربما هذا هو الحب الحقيقي، وحتماً المربّي العجوز يشعر بحبّها. إنها أمّ استثنائية، لقد قضيت وقتاً لا يُنسى في منزلها.

تحدّثا معاً في بعض الأمور التافهة، ورأى وي بو القمر قد ارتفع، فاعتدل مزاجه، وأصبح أخيراً مستعداً للعودة إلى المنزل.

وجد زوجته تتناول الطعام بمفردها حين وصل. بدا الطعام لذيذاً، وكانت تتناوله باستمتاع بالغ. سألته ما إن كان قد تناول العشاء أم لا، فقال إنه تناوله مع صديق.

كانت زوجته شياو يوان قد انتهت من تناول الطعام حين انتهى من الاستحمام.

قالت وقد بدت مرتبكة: «وي بو، أعرف منذ وقت طويل أنك تقيم علاقة أخرى، وأنا أيضاً، لكنني لا أقوى على هجرانِك وهجرانِ هذه العائلة».

أجاب وي بو بتوتّر: «إذاً، لا تتخلّي عن كلّ شيء!».

- رأيت هذه الفتاة، والغريب في الأمر أنني لم أشعر بالغيرة، بل أُعجبتُ بها. ما رأيك في هذا؟ أنا معجبة بـ آسي، رغم أنني لا أستطيع أن أحيا حياةً كحياتها. بالطبع ولا يمكنك أنت أيضاً. وعلى كلّ حال، أرى أنكما مناسبان أحدكما للآخر.

- هذا سخف، لقد هجرتها! إنها ليست لي.

جلس وي بو في منزله مسترجعاً أحداث اليوم كلّها، وباغته شعور بتأنيب الضمير. لماذا لم يكن بوسعه أن يجيب والدة آسي عندما سألته عمّن يكون؟ بل ذكر، كأحمق، تلك المهن، التي بالطبع لم تبرهن على أي شيء، لذلك استشاطت العجوز غضباً، وعاملته باحتقار. والكلام الذي قاله مثل ماء مسكوب، لا يمكن استعادته مرة أخرى. إن هذا اليوم أكثر يوم في حياته يشعر فيه بالندم، ورأى أن أداءَه مخيّب للآمال، ولم يكن لديه الجرأة لمقابلة آسي مرّة أخرى.

استيقظ مجدّداً في منتصف الليل واستلقى في الظلام، وتأمّل الأمر. فكّر في أن علاقته بـ آسي هي أعظم فشل في حياته، وأنه صنف فظيع من الرجال. ثم فكّر في تسوي لان التي عرفها منذ وقت قصير، والتي يبدو أنها أكثر إثارة للاهتمام وأكثر براعة منه. ورغم أن علاقته بـ آسي وصلت إلى درجة مخزية، فبوسعِه أن يستمدّ الخبرة منها ليجيد التعامل مع نساء مثل تسوي لان. يراوده مؤخراً حلمٌ في المكان المألوف نفسه، مكان شبيه بزرائب الخنازير التي ذهب إليها في الصباح، وأحياناً يكون بمفرده، وأحياناً ترافقه تسوي لان، يتجوّلان هنا وهناك. لا يعلم عن أيّ شيء يبحث، لكنّه باختصار يبحث دائماً عن شيء ما. أما تسوي لان، فتبدو وكأنها تعرف عمّا يبحث، لكنّها تهزأ منه، ولا تريد مساعدته، وتقول إنه لا يرى الطريق أسفل قدميه. لعلّ هذا الشيء الذي يبحث عنه تحت قدميه؟ لكنه حين أحنى رأسه، لم يرَ حتى قدميه. وتذكّر وي بو ما قالته تسوي لان في الحلم، وراوده هاجس خفي: ربما، ربما قد وصل إلى منعطف في حياته، وربما، لن يكون سيّئاً إلى هذه الدرجة بعد اليوم. ولكن، وي بو هو وي بو، إلامَ سيتغيّر؟

- إلى أيّ شيء يمكنني أن أتغيّر؟

كان صوته عالياً أيقظ شياو يوان النائمة في الغرفة المجاورة.

ردّت: «بوسع المرء أن يتغيّر إلى ما لم يحلم به من قبل».

في العتمة، شعر وي بو بوجهه محموماً، فارتدى ملابسه بهدوء، وخرج إلى الطريق. تبعه رجل لم يكفّ عن الثرثرة.

- هناك الكثير ممّن يهيمون في المدينة في الليل مثلنا. انظر هناك، إلى ذلك المصباح المضاء في الطابق التاسع! مَن تنتظر؟ بالطبع تنتظر أشخاصاً مثلنا. إلى أين أنت ذاهب؟ يا لك من رجل طائش، تريد أن تغرق في الظلام... اتبعني!

دفع وي بو إلى حارة صغيرة إلى جانب المسرح، ودخلا مكاناً لتجمّع الكثير من المقامرين.

تركه وي بو يسحبه بخضوع، فهو على كلّ حال لا يرى شيئاً بسبب العتمة.

هبطا سلالم كثيرة إلى أن وصلا إلى أرضٍ مستوية. سمع وي بو الرجل يقول له: «اجلس!». فجلس معه على مقعد طويل. أشعل أحدهم شمعة واتجه صوبهما، وبدا قلقاً. ورأى وي بو أن هذا الوجه أعلى الشمعة يشبه عمّاً له. وقف أمامه وضغط بيده على رأسه، فخفّ الألم الذي يشعر به وي بو في الحال.

قال له: «عُد دائماً إلى مسقط رأسك! يجب على المرء ألّا ينسى جذوره!».

هبّت ريح وأطفأت الشمعة.

غرق وي بو في العتمة من جديد. جلس لبعض الوقت وشعر بخواء المكان حوله، مدّ يده ليتأكّد، لكنّه لم يلمس الشخص الذي كان جالساً إلى جانبه. وتساءل ما إن كان هذان الاثنان قد غادرا بهدوء. وخمّن أنه لن

يستطيع العثور على طريق العودة لبعض الوقت، فاستلقى على المقعد. إلّا أنه سمع على الفور صوت امرأة تبكي على مسافة قريبة، ورجلاً يواسيها بصوت أجشّ ويكرّر جملة واحدة: «آسي، آسي، لنرحل بعيداً!».

لكن هذه المرأة لم تكن آسي حبيبته. كم آسي توجد في هذه المدينة؟ وقد ذُهل حين طلب منه ذلك الشخص للتو أن يعود لزيارة مسقط رأسه بين حين وآخر. كان لديه بيت في مسقط رأسه، وكان والده حينذاك على قيد الحياة ويصطحبه إلى هناك كلّ عام. كان لوالده عادة غريبة، وهي أنّه في كلّ مرّة قبل أن يركبا القطار يضع غطاء للعين على عيني وي بو، ويطلب منه أن يتظاهر بالعمى. وكان يهدّده قائلاً إنه إن خلع غطاء العين فلن يصلا إلى البيت. كان وي بو يخضع ويسمح له بتغطية عينيه، ويجلس في القطار ساكناً من دون أن يتحرّك، كان راغباً بشدة في الذهاب إلى مسقط رأسه. ولم يُسمح له بخلع غطاء العين إلى أن يصلا إلى منزل عمّه، الأخ الأكبر لوالده. كانا يركبان القطار لمدة يوم وليلة، وكان وي بو الصغير عاجزاً عن تحمّل الوحدة، ولا يتوقف عن سؤال والده: هل البيت في الشمال أم الجنوب؟ وكان والده يكرّر الإجابة ذاتها: إنه في الجنوب. لكن لِمَ الباحة الواسعة لمنزل عمّه شديدة البرودة؟ فالجنوب دافئ. كان السور المحيط بالباحة مزدوجاً وعالياً كشخصين بالغين، كما كانت شاسعة، لدرجة أنه يستغرق نصف ساعة لقطعها من ناحية إلى ناحية أخرى. كان ثمّة عشبٌ برّي في كلّ مكان أطول من قامة وي بو، يغطّي الدرب الصغير. المنزل مكوّن من طابقين، فيه غرفٌ كثيرة جداً، لم يستطع وي بو أن يحصيها مطلقاً، لأن بنيان هذا المبنى القديم غريبٌ لدرجة أنه تاه ذات مرّة بين هذه الردهات والغرف الخاوية. سار وسار معتقداً كلّ مرّة أنه وصل إلى السُّلّم، لكنّه يجد نفسه محاطاً بالردهات الغريبة. إلى أن حلَّ المغيب، كان قد وصل إلى حافة

اليأس حين عثرت عليه زوجة عمه، ورافقته إلى المطبخ في الطابق الأسفل ليتناول طعام العشاء. ذهب ثلاث مرات قبل أن يتم العاشرة من عمره. كان لديه الكثير من الأسئلة عن موقع البيت وعن التضاريس خارج الباحة. لكن والده كان يجيبه بنفاد صبر، كما أن المنزل لم يكن فيه أحد غير عمّه الأكبر وزوجته، وباب الباحة دائماً موصد، والمفتاح مع الكبار فقط. ورغم أن وي بو عقد العزم على تحرّي الأمر، إلّا أنه لم ينجح في تحقيق مراده. كان عمّه وزوجته قليلي الكلام، ولم يجيبا عن أيٍّ من أسئلته. كانت المتعة الوحيدة للكبار الثلاثة هي الجلوس في الشرفة وتناول شاي المساء. كانت شرفة ضخمة، نظيفة، مليئة بالكراسي. كان نسيم الليل يهبّ وهم يشربون الشاي الأحمر ويتأملون القمر يرتفع على مهل في السماء. في ذاكرة وي بو، كان هذا القمر أضخم من قمر المدينة، حجمه كالطست النحاسي المستخدم لغسل الأيدي. إذاً، هل مسقط رأسه في الريف؟ لا، غير صحيح، لأنه كان يسمع أثناء جلوسه في الشرفة أصواتاً غير واضحة لسيارات تمرّ من بعيد، ويرى الأضواء الكشّافة لمواقع البناء. إذاً، إن كان مسقط رأسه في المدينة، كيف توجد باحة ضخمة كقصر الإمبراطور كهذه؟ كان الكبار الثلاثة يجلسون فقط لشرب الشاي، وتأمل القمر بصمت، يُعِدّون برّاد شايٍ أحمر تلو الآخر، جالسين إلى وقت متأخر في الليل. وفي منتصف كلّ جلسة كان النعاس يغلب وي بو. كان هذا بالنسبة له السحر الأبدي لهذا المنزل. وهل كان يشعر بذلك لأن عينيه كانتا معصوبتين في الرحلة إلى مسقط رأسه؟ كان يذكر بوضوح اللهفة العارمة التي تجتاحه كلّما عاد إلى مسقط رأسه. وأكثر ما يحبه هو شاي المساء في الشرفة، رغم أنه يجلس صامتاً طوال الليل، يتأمل القمر بشرود، لكن ما بقي في ذاكرته هو الأثر من فيض المشاعر. كان والده يشير إليه ويقول لعمّه: «انظر إلى هذا الصبيّ كَم

هو طموح!». وكانت زوجة عمه تضحك وتغطي فمها بيدها. وإلى الآن لا يعرف وي بو معنى كلام والده، أيّ طموح لديه؟ ألَم يصبح عاملاً في مصنع صابون؟ وربما كان بإمكانه أن يصبح محاسباً عاماً لما يتمتع به من ذكاء، لكنّه لم يبذل جهداً كافياً، معتقداً أن الوضع هكذا جيد أيضاً. ربما قصد والده أمراً آخر بالتأكيد.

استلقى وي بو على ظهره متأملاً تلك القطعة الصغيرة من السماء التي كانت نجومها خامدة، وتحجب طبقة الغبار الكثيفة بريقها عن سماء المدينة. شمّ رائحة كريهة، وتذكّر أن هذا المكان أكثر قذارة من زرائب الخنازير، لكنّه مع ذلك مُستلقٍ هنا! فَقَدَ حذرَه للحظة وأصبح واحداً من المقامرين، أو، ربما كان دائماً واحداً من هؤلاء؟

قبضت يد على بطنه. كان هناك شخص مُستلقٍ أسفل المقعد ويئنّ.

– يا لك من مرفّهٍ! تأخذ مقعداً كاملاً لنفسك، لو كنّا في الشتاء، سيكون هذا مكاني.

نهض مترنّحاً وتمطّى.

– طلب منك تشانغ فا (الشعر الطويل) أن تعود إلى مسقط رأسك، لماذا لم ترحل بعد؟

انتبه وي بو إلى لسانه الطّلق، إذاً فليس سكّيراً.

– لا بدّ أن أستقصي الأمر لأعرف مكان مسقط رأسي.

– هه، كلّكم هكذا، أعرف الناس أمثالك. هل أنت موظف حكومي؟

– لستُ موظفاً حكومياً، بل بائع حصير البامبو المُبرّد.

– الشيء ذاته. أعرف الأشخاص مثلك. هذا المكان ليس لك، غادِر ما إن يطلع الصباح. واسمع كلام «الشعر الطويل»، عد إلى مسقط رأسك!

فهمت الآنسة سي من تلميحات لونغ سي شيانغ أن والدتها تعيش في زرائب الخنازير في الضاحية. وفي وقت متأخر من الليل، حين سكن كلّ شيء، تخيّلت شكل والدتها وحياتها اليومية. وحين فكّرت في الأمر، راودها شعور بالتشاؤم حيال مستقبل والدتها، رغم أن حدسها يقول لها إنها ليست من نوعية النساء اللواتي يُسحقن أو يُهزمن. ثم سألت نفسها: «ماذا يعني أن تعيش في زرائب الخنازير؟ ما دام ذهنها متيقّظاً وصافياً، فلا يهمّ!». ألَم تنجُ والدتها ولم تتخلَّ عن والدها حين كان مريضاً لسنوات طويلة؟ أبهجتها تلك الفكرة. تحب والدتها البكاء، ليس عن ضعف، بل بسبب الوحدة. قبل سنوات طويلة، وبعد أن افترقت الآنسة سي عن والدتها التي كانت آسي تفهم طبعها جيداً، شعرت بشكل مفاجئ لها بأن ثمة صعوبة في حياتها قد حُلّت، وهَبطَ ذاك الحجر المعلّق في قلبها. والآن، بعد مدّة طويلة، وصلها خبر عن مكان والدتها. بالطبع لا داعي لزيارتها، لأن لونغ سي شيانغ لمّحت إلى أنها لا تأمل في رؤيتها. كانت الأخبار المُوارَبة كافية لتشجّع كلٌّ منهما الأخرى.

سألها تاجر الأفيون وهو في السرير: «آسي، أنتِ تبتسمين، ما الأخبار السعيدة؟!».

التفتت قائلة: «أرسلت لي أمي رسالة مع أحد الأشخاص».

– مبارك! لا شك أن والدتك امرأة مذهلة!

– لم تؤذِ أحداً قطّ.

– امرأة رائعة.

مكتبة
t.me/t_pdf

ظهر عليه انزعاج مفاجئ، وقال إنه سيغادر ليلحق قطار منتصف الليل.

ارتدى ملابسه وأخذ حقيبته، ووصل إلى الباب، وتوقّف وفكّر قليلاً، ثم التفت مُحدّقاً إليها وقال مشدّداً على كلّ كلمة:

- سأغيب لمدة ثلاثمئة يوم وليلة، هل بإمكانك الصمود أمام التجربة؟

قال ذلك وغادر.

فصاحت آسي باتجاه الباب: «ثلاثمئة يوم وليلة تُفضي إلى القبر!».

اندسّت في بقايا دفئه في اللحاف وأطفأت النور. وخطر ببالها أنه منذ اليوم سترسل لها والدتها رسائل. يا لها من سنوات طويلة! حينذاك كانتا تذهبان إلى حقل الفول عند سفح التل وتتأملان تلك الأزهار الصغيرة الأرجوانية - الزرقاء، وتضعان كثيراً من الخطط في ما يتعلّق بحياتهما! حتى إن والدتها شجّعتها على الانضمام إلى السيرك، وقالت إن بإمكانها أن تذهب معها وتكون مسؤولة عن المعدّات، وتعمل في أيّ شيء لتكسب لقمة عيشها، وقالت إنهما سيجوبان البلاد وستعتني كلٌّ منهما بالأخرى. وكانت والدتها تعلم أنها صبية لا تحتاج إلى رعاية. وحين فكّرت في الأمر الآن، بدا أن والدتها كانت تختبرها دائماً لتفهم طباعها. أو ربما تلك الأحاديث الطويلة في حقل الفول قد شكّلت شخصية آسي دون وعي منها؟

- آسي! آسي!

طرق وي بو الباب بخفّة.

فردّت بصوت عالٍ: «ادخل، الباب مفتوح!».

دخل وهو يردّد مكرراً: «لا تشعلي الضوء! لا تشعلي الضوء! أشعر بالخزي وأكاد أن أُجَن يا آسي!».

وقف في الظلّ المعتم للخزانة الكبيرة، محاولاً قدر استطاعته أن ينكمش على نفسه. وكان بإمكانها أن تتخيّل كم كان يشعر بالحزن، لأنه قال: «ما كان لي أن آتي، أنا وضيع!».

- هناك مقعد صغير إلى جانبك، اجلس!

جلس وي بو وقلبه يخفق وكأنه سيقفز من فمه.

- انظُري إليّ، لقد جئتُ إليكِ لأنني وحيد، يا لي من وضيع! ودائماً أسبّبُ لكِ المشاكل. لم أستطع منع نفسي من زيارتكِ.

- لا تكن شديد اللوم لنفسك، وي بو، في بعض الأحيان، يكون من الأفضل أن تتجاهلَ الأمور. كما أفعل أنا مثلاً، ورغم ذلك لستُ أفضلَ مَن تقتدي به. لن تتحمّل حياتي. وي بو! إنكِ رجل طيب، إن معرفتي بك هي أعظم سعادة في حياتي.

- سأغادر يا آسي. لقد منحتِني القوّة. دائماً تمنحينني القوة.

جاء وغادر مسرعاً. لمست آسي جرحها الذي كان يلتئم ويحكّها بشدة.

حينذاك، وبجانب حديقة مصنع القطن، منحها وي بو انطباعاً عذباً مثل الورود في الصباح! كانت تستخدم الورود لوصفه. وسواء كانا مفترقين أو معاً، سيظل وي بو دائماً وأبداً وردة تسكن زوايا فؤادها المظلمة. سيطلع الصبح عمّا قريب، وتعلم أن «المُبَلِّغ» لم ينم بعد، وأنه في الأسفل يسلّط كشّافاً على نافذتها، كان ذلك من أكثر الأمور التي يفضّلها. شدّت آسي اللحاف بذراعيها وغرقتْ في الشغف المنساب من الشفق وهي تدندن قائلة: «يا شفق الكاميليا! يا شفق الكاميليا! آه!»، وغمرتها أمواجٌ من السعادة.

زارتها لونغ سي شيانغ في اليوم التالي.

قالت آسي بحزن: «لقد أصبح وي بو غريباً، أخشى أنه يتخذ مواقف جامحة».

«بالتأكيد لا، ليس هذا النوع من الأشخاص. حتى وإن كان يتخذ مواقف جامحة، ألن يصنع لنفسه مأثرة؟»، أجابتها لونغ سي شيانغ وعيناها

تتسعان ببراءة.

- سي شيانغ! سي شيانغ! إنكِ مثل أخت لي!

قبّلتها بتأثر على خدّها، ثم أضافت: «يجب أن أدعوك لشرب كأس في بار "المقصورة الغربية"».

وبعد نصف ساعة، ظهرتا في البار.

اتجه إليهما السيد يو ما إن جلستا.

- آه، نساء حسناوات! يا لحظّي السعيد. إنها تمطر مطراً خفيفاً في الخارج، هل لديكما مظلّة؟ أنا هنا لأعطيكما مظلّتين. من اللائق أن نحمي امرأتين نبيلتين جميلتين مثلكما.

بدت عليه الكآبة، وانطفأت عيناه الجميلتان في وجهه الشاحب، وبدا وكأنه يتجنّب نظراتهما. وخمّنت لونغ سي شيانغ أنه على الأرجح قضى ليلة مؤرقة.

الأضواء مطفأة دائماً في بار «المقصورة الغربية»، إذ لا يشعلون إلّا الشموع. الظلال تتأرجح على الجدران الرمادية. وفي نشوة الخمر، أصبح الثلاثة شخصاً واحداً، لا يمكنهم أن يميّزوا أنا وأنت من بين أنفسهم. ومن دون سبب، ظنّ الثلاثة أنهم كبروا معاً في باحة صغيرة مُظلّلة بتعريشة قرع، وقفوا أسفلها متأملين الشمس، وكأنها توقّفت على سطح القرميد حيث يسكنون. قال السيد يو: «ثمة صوت يناديني في الريح: عُدْ، يا شياو فينغ (العنقاء الصغيرة)! عُدْ!».

عجزت سي شيانغ وآسي عن كبت دموعهما تأثراً بقصة السيد يو، وانكفأتا على الطاولة وانفجرتا في البكاء. وقالت لونغ سي شيانغ باكية: «العزيز يو، العزيز يو، كيف وقعت في حبّ شخص مثلك في الماضي؟».

- لأننا إخوة، من جسد واحد. كلٌّ منا خرج من باحتنا الصغيرة، يمكننا

تمييزه من نظرة واحدة في المجتمع. هل تتذكّران الأفعى السوداء؟ تلك التي كانت إلى جانب البئر.

ردّت الاثنتان بصوت واحد، ومن دون بكاء: «بالطبع نذكرها!».

حدّقتا فيه بانتظار أن يحكي عنها.

فتح السيد يو فمه أوسع وأوسع، ولكن لم تخرج أيّ كلمة. كان ذهنه خاوياً. ضرب على رأسه بقوة ودقّ بضيقٍ الأرض بقدميه، ثم صبّ كأساً وشربه. تضرّج وجهه وهتف قائلاً: «إنها.. إنها.. لقد نسيت ما هي!».

اقترب منه الساقي البدين وربّت على كتفه وقال بلطف: «مَن سيكون غيرها؟ بالطبع تلك المرأة التي رحلت!».

قبض السيد يو على ياقة قميصه وسأله: «كيف عرفت؟».

– أخبرني وي بو. أعرف كلّ شيء عن مجموعتكم.

أطلق السيد يو ياقته ونظر ببلادة إلى النافذة المعتمة.

حين سمعته يقول وي بو، غمرتها دفقةٌ من دفء. فأمسكت يد الساقي وقبّلتها، وقالت له والدموع تحجب عينيها: «كلّ شيء فيك يذكّرني بوالدي».

ابتهج الساقي لدى سماعه ذلك، ودندن لحناً بينما يمشي مترنّحاً صوب منصّة الحانة.

مشى الثلاثة في الشارع مترنّحين، يسند أحدهم الآخر. ولا يعرف أيٌّ منهم مَن بادر وقال إنهم ذاهبون لزيارة وي بو. وتذكّروا أن الساقي قال لهم هذا: «وي بو في السجن يخضع لإعادة تأهيل».

ومن العتمة ظهر جرّار زراعي، سائقه شابٌّ فظّ.

وضعت لونغ سي شيانغ يدها حول خصرها وسألت: «هل أرسلك لاو يونغ؟ نريد استخدام هذا الجرّار!».

لم يتفوّه الشاب بكلمة، فركب الثلاثة الجرّار وجلسوا أعلى المقطورة.

كانت الآنسة سِي ترتجف طوال الوقت، فاقتربت منها لونغ سي شيانغ وقالت بحماس في أذنها: «مَن كان يتوقع أن يرسل لاو يونغ لنا عربة؟ إنه يجلس في جُحر العنكبوت مُتنبّئاً كنبيّ. في ما مضى، حين كنا في «مساكن المتزوّجين حديثاً»، أردت مرّاتٍ كثيرة أن نكون واحداً، ما رأيك يا آسي، ألا تعتقدين أنني حمقاء؟ تحمّلي قليلاً، سنصل إلى السجن خلال ساعتين. لكنني لست متأكدة، ربما وي بو لا يريدنا أن نزعجه. إنه يخضع لإعادة التأهيل، وحتماً هذا شيء مبهج. ربما يستمتع بوقته».

«كان دائماً غير راضٍ عن نفسه». ضغطت آسي بشدّة على يد سي شيانغ وأضافت قائلة: «لا أستغرب أن يدخل شخص مثله طواعية إلى السجن. هل ثمة فئران هناك؟».

أجابها السيد يو: «بالطبع هناك فئران. أفهم لماذا يعتبر وي بو آسي مَثَله الأعلى. إنه محظوظ حقاً!».

لم يتجه الجرّار إلى السجن في الضاحية. استيقظ الثلاثة من نومهم فزعين، مدركين أن الجرّار يدور حول تلّة صغيرة. كان هذا المكان قَفراً، غارقاً في العتمة، ولم يعرفوا هل ثمة طريق أم لا، إذ لم يستطيعوا أن يروا أيّ شيء بوضوح، بل شعروا أنهم يدورون في دائرة. كان الشاب يمسك عجلة القيادة ويجلس مستقيماً.

– لاو يونغ، يا لك من ماكر!

صاحت لونغ سي شيانغ، رغم أنه لم يكن واضحاً أكان صياحاً عن غضب أم إعجاب. علا هدير الجرّار فجأة، وغطّى في لحظة على صوت لونغ سي شيانغ.

هبّت ريح شديدة، وانكمشت الآنسة سي في مكانها، وتناثر الرمل على

وجهها، واختنقت بدخان الديزل حتى كادت أن تتقيّأ. وسمعت السيد يو إلى جانبها يقول: «سأقفز، سأقفز، لا تخبروا وي بو! واحد، اثنان، ثلاثة! سأقفز!».

لم ترَ الآنسة سي ما إن كان قفز أم لا، كانت تعرف فقط أن سي شيانغ ليست إلى جانبها. شعرت أنها في مأزق، وأنها قريبة من الموت لا محالة. وكانت فكرتها الأخيرة: أنّ هَلاكَها في طريق البحث عن وِيّ بُوَ، يبدو سبباً جيداً للموت.

ثم انقلب الجرّار في البركة.

خرجت إلى الضفّة بسهولة ومن دون معاناة، لكنها قلقت حين هبّت الريح على ملابسها المبلّلة الملتصقة بجسدها، وخشيت أن تموت بسبب نزلة برد. أعطاها أحدهم ثياباً. كانت أسنانها تصطكّ وجسدها يرتجف كغربال. وأمضت وقتاً طويلاً حتى بدّلت ملابسها.

– هل أنت لاو يونغ؟

– مَن سيكون غيري؟ هذا كلّه جزء من خطة لونغ سي شيانغ، إنها امرأة ذات أفكار عظيمة! قالت لي البارحة إن ارتباطها بي مثل ارتباطها بالموت. أُنظري، ستكون هناك في الحال تقوم بحيلها! لا يخيفها شيء على الأرض ولا في السماء.

– ألهذا السبب تحبّها؟

– هه! أحبّها؟ إنها قمامة!

– كيف أعود إلى البيت يا عمّي؟

– ها، لقد نسيت أنك تريدين العودة إلى المنزل. هل ترين هذا النور الخافت أمامك إلى اليمين؟ سيري صوبه، لا تخافي!

لكنها لم ترَ نوراً جهةَ اليمين، وما دام لاو يونغ قد قال إن هناك ضوءاً،

إذاً، فهو هناك. سارت إلى الجهة التي هُيّئَ لها أنها جهة اليمين، والأمر الغريب أنها بينما سارت بيسر على الأرض المستوية، سمعت صوت لاو يونغ خلفها يقول: «هذا صحيح، هذا صحيح».

أشرق الصباح وعادت الآنسة سي إلى «مجمّع الكاميليا السكني» مرتدية ملابس غريبة. شعرت بالخزي، وتمنّت فقط ألّا يراها أحد.

كان المُبَلِّغ يقف أمام بوابة المبنى الذي تسكن فيه، وبدا وكأن العجوز ينتظرها حاملاً سلّة زهور أقحوان، ومرتدياً بذلة رسمية مجعّدة.

صعدت المبنى، فتبعها متثراً.

- لماذا ارتكبتِ فعلاً مخالفاً للقانون؟ إنّ عشيقَ صديقتِكِ تحت المراقبة، وقد أُخضع للاستجواب مؤخراً بسبب بيعه للصُّلب الرديء. آه، غشاواتُ التواطؤِ إذاً؟ هل اعتقدتِ أنكِ ذاهبة في نزهة حين ركبتِ هذا الجرّار؟ لقد اتخذوكِ ذريعة لنقل تلك البضاعة الرديئة. لم أستطع اللحاقَ بكم، حتى إنني كنت أركب دراجة نارية!

- مثيرٌ للاهتمام! غشاوات التواطؤ، يا له من تعبير أدبي، ألست تحت المراقبة كذلك؟

فتحت الآنسة سي الباب ودعته للدخول، لكنه لم يوافق وأصر على الوقوف أمام الباب.

- آه، يا آنسة سي، لماذا تحكمين على نفسك هكذا؟ هذا سيّئ. دائماً أعتقد.. وسأكون صادقاً معك، أعتقد أنكِ واحدة من أهم الأشخاص في هذا المُجمّع السكني.

«لكن ثمة ندبة كبيرة الآن في رأسي الحليق، انظر» - ثم خلعت قبعتها لينظر إليها وقالت: «ما رأيك؟ هل لا تزال تظن أنني مهمة جداً؟».

ما إن جلست الآنسة سي حتى ذوت عيناها، ونظرت إلى قبعة القش القذرة في يدها، واسترجعت ما حدث في الليل. أين ذهبت سي شيانغ والسيد يو؟ يبدو أنهما فقط مَن يستطيعان الهبوط إلى الجحيم. لم تذكر كيف عادت إلى المنزل. وبدا وكأن الطريق كان مزدحماً بعربات اليد التي تدفعها جانباً، حتى إنها وقعت مرة في مصرف. ألَم يتفق الثلاثة في البداية على أن يذهبوا لزيارة وي بو؟ كيف نسيت الأمر تماماً؟

– إن هذه الندبة لن تؤثّر على مكانتك إطلاقاً في المجمّع السكني.

وضع العجوز سلة الأقحوان على الطاولة، ثم غادر.

كانت ممتنّة للعجوز لأنه الوحيد الذي يهتم بها في المجمّع السكني، وبوسعها أن تسامحه لإبلاغه عنها. سيكون دائماً ثمة مَن يبلّغ عن شخص معروف مثلها. سمعته للتو يقول إنها من أهم الأشخاص في هذا المجمّع، ما معنى ذلك؟ بالطبع ترى نفسها مهمّة، لكنّها لم تفكّر مطلقاً فيما إن كانت مهمّة في المجمّع السكني أم لا، فلم تكن على علاقة مع أحد في مجمّع الكاميليا، فيما عدا هذا المُبَلِّغ. وخُيِّل لها أن مجمّع الكاميليا مثل جنّة للسعادة، لأن ثمة بعض الأحداث السعيدة التي وقعت هنا. وبالمقارنة مع مصنع غزل القطن، تلك العربة المغلقة، فبوسعها أن تطلق على هذا المكان «جنة السعادة».

خرجت إلى الشرفة ورأت الشمس قد أشرقت، ورأت كذلك عدة رجال حاسري الرؤوس يخرجون من المجمّع السكني، يرتدون بذلات سوداء، وأجسادهم طويلة ونحيفة، ويمشون كما لو كانوا مُزعزعين. تأملتهم بتركيز وتنهّدت. وتذكّرت الشباب في شبابها، كانوا يبدون كهؤلاء الرجال أمامها. وخامرَتْها هلوسات بأن الزمن يعود إلى الخلف. ولَكم وقعت الكثير من الأمور منذ ذلك الوقت! قالت لنفسها: «آسي، لا تنسي الوردة!».

أعدّت طبقاً من الشعرية، ودندنت بلحن مبتهجةً بينما تشاهد الشعرية تُسلَقُ في القِدر. كانت أغنية أطفال علّمها لها والدها، وكان يغنّيها من فترة إلى أخرى في اليوم الذي سبق وفاته. كانت كلماتها تحكي عن حياة وحيدة لدُبٍّ بنّيّ، وكانت تبكي في صغرها كلّ مرّة تغنّي فيها الأغنية، ولا سيما حين كانت تغنّي «وفراؤه». وفجأة أدركت أنها تغنّي هذه الأغنية لأن وي بو دخل السجن. أليس وي بو هو ذلك الدُبُّ البنّي؟

وبامتنان وعرفان تأملت حياتها وحظّها السعيد وهي تتناول طبق الشعرية بالسبانخ. كان نور الشمس يلمع في الهواء. ورغم أن وي بو في زنزانته المعتمة، لكن بوسعه أيضاً أن يستمتع بنور الشمس، إذ كان يملك هذه المقدرة على صنع عالم جميل لنفسه، وبالنسبة لهذه النقطة، فقد اختبرتها آسي. تحت أيّ قمر وفي أيّ قفر يهيم وي بو الآن؟ وفي الواقع، ألَم يدخل السجن ليعيش حياة أكثر طموحاً؟ ربما لم تفهم وي بو مطلقاً، فطبعه له جانب آخر. إذاً، كيف تردّ الجميل لـ وي بو الآن عرفاناً للدفء الذي منحه لها؟ فكّرت مليّاً ورأت أن أفضل شيء هو نسيانه. هكذا فقط ستردّ له الجميل.

دفنت الآنسة سي وي بو في هوّةِ قلبها، وتوقفت عن التفكير فيه.

حين استيقظت من حلمها الطويل، تذكّرت تاجر الأفيون الرشيق المفعم بالنشاط. أين ذهب هذا الرجل الذي يأتي ويرحل كطيف؟ عندما يكون هنا، يرغب دائماً في أخذها إلى الحدود، لتختبر متعة الموت. لكن ذلك لم يكن مثيراً لاهتمامها، ورأت أن أيّ مجازفة في مقابل المال لا معنى لها، لذا كان يتشاجران دائماً بسبب هذا الأمر. كان يتهمها بأنها ذات اهتمامات محدودة، ثم يصفق الباب خلفه، لكن لا يمرّ وقت طويل حتى يعود مرة أخرى. هو في نظرها بريء كالأطفال. وخطر في بالها أنه إذا

بحث أحدهم عن الموت بملء إرادته، فيجب ألّا يمنعه أحد. شعرت آسي بشيء من الحزن، لكنّها تمنّت أن يحظى بسعادة قصوى قبل موته. ومضت تتخيّل باستمرار مشهد هجوم دورية الشرطة عليه في شاحنته. كان من الرجال الشجعان الذين يضعون خطة لأنفسهم، ولهذا كانت مفتونة به.

ارتجف قلبها حين أعلنت لونغ سي شيانغ أنها ستأخذها لزيارة أحدهم. لقد مرّت سنوات كثيرة، هل هذا ضروري؟

- لا، ليست والدتك، بل شخص آخر. إنه زبون لي وأنتِ تعرفينه.

إذاً، قابلت آسي في غرفة الشاي المظلمة في منتجع الينابيع الحارة، جار طفولتها، الذي يصغرها بعامين، والذي أصبح الآن رجلاً وسيماً. وزعم أنه لم ينسَها مطلقاً.

ما إن غادرت سي شيانغ، حتى غامت ملامح وجهه. وشعرت آسي بأن هناك خديعة ما.

- هل أنتَ شياو تشي؟

- ما رأيك هل أبدو مثله؟

- لا أدري، تشبهه قليلاً، ولا تشبهه. إن ملامحَ وجهك كَثِيرة التقَلُّب. تبدو كشخصين مختلفين إذا نظرت إليك من اليمين أو من اليسار. إن الضوء هنا خافت جداً، تعال أسفل المصباح! آه! آه!

وأطلقت صرخة حادّة.

ظهرت لونغ سي شيانغ على إثر صرختها، وفرَّ الرجل هارباً.

قالت آسي وهي ترتجف: «إنه ليس شياو تشي، إنه شرطيّ، إنه شخص مخيف».

ضحكت سي شيانغ وضمّتها قائلةً بلطف: «ربما، ربما. لكنّه زبوني

على كلّ حال، ولا يمكنني أن أخاف منه. مع أشخاص مثلنا، مَن يخاف مِن مَن؟ يمكنني أن أقول له أن يذهب إلى الجحيم بعد أن أخلع ملابسي! هل تريدين أن أساعدك على الانتقام منه يا آسي؟ لكن دعيني أخبرك، إنه شخص حنون جداً!».

ردّت آسي: «ربما». وغرقت في تفكير عميق، ثم قالت: «لقد أدركنا بعد عملنا لفترة طويلة في هذه المهنة أن لكلّ إنسان وجوهاً كثيرة».

- «هذا صحيح».

نظرت إليها سي شيانغ بإعجاب وربتت على كتفها.

- هو مَن طلب رؤيتك، ويشعر بالندم تجاهك. وقال إنه جارك شياو تشي، هل هو حقاً؟

«هل هو حقاً؟»، كررت آسي السؤال المزعج كصدى.

- أعتقد أنه شياو تشي! أخبرني من قبل أنه تحوّل إلى نمر أسود، ثم إلى إنسان مرة أخرى. يا إلهي! إن المطر يهطل بشدّة، خرج في المطر، يا له من مسكين! وقال أيضاً إنه تحوّل إلى نمر أسود لأنه كان خائفاً، وكان يقول طيلة اليوم: «اجعلني أتحوّل إلى نمر أسود! اجعلني أتحوّل إلى نمر أسود!»، وقد كان.

غمغمت آسي قائلة: «كيف يُعقَلُ هذا؟».

- ولِمَ لا؟ إن هذه طبيعته! ألَم تلاحظي ذلك؟ لا عجب أنكِ لا تحبّينه، مع أنه لطالما كان يحبك.

في غرفة الشاي الضيقة، أصغت إلى صوت المطر الشديد يضرب الطريق الأسفلتي الصغير، وكانت أفكار المرأتين معلّقة في كلّ المخاطر التي مرّتا بها. كان ثمة شيء ما مُرضٍ في استرجاع المخاطر بينما تقف في منطقة آمنة، لهذا كانتا متلهفتين لسرد كل هذه القصص الغريبة، واستمتعت

الاثنتان بدفء الأخوّة في تلك المحادثة. إلّا أنّ لونغ سي شيانغ قالت فجأة في ما بعد: «أظن أنه لا يزال في الخارج، هل تريدين رؤيته؟».

ارتجفت آسي بشدة من جديد من دون توقف. وخرجت لونغ سي شيانغ.

دخل الشرطي مرة أخرى، وجلس بخجل في إحدى زوايا غرفة الشاي.

- لماذا تظاهرت بأنك ستقطع يدك في غرفة الاستجواب ذلك اليوم؟

كان الشرطي في البداية مطرق الرأس، لكنه ما لبث أن رفع عينيه ورمقها بنظرة بعد سؤالها.

ارتجفت آسي بشدة حين رأت ذلك البريق البارد في عينيه.

- بسبب الخوف بالطبع. إنني أخشى النساء مثلك. ولقد جرحت نفسي مرات كثيرة، كنت أريد أن أجرّب الشعور بنفسي. انظُري!

ثم شمّر بنطاله وكشف تلك الجروح في ساقيه. أحصتهم، ست ندبات، ندبة وراء الأخرى. وبدت ساقه المصابة أنحف بكثير من الأخرى بسبب الجروح.

- حين رأيتُكِ انتابتني تلك الرغبة في التظاهر. لا يناسبني العمل في الشرطة، لأن العاهرات مثلكن يجذبنني. لقد استقلت وخسرت وظيفتي، وآمل أن تغيّري رأيك فيّ!

- هل أنت شياو تشي بحقّ؟ لقد كنت نحيفاً كقرد في السابق.

- أسأل نفسي هذا السؤال دائماً، ولكن ما دمت عجزتِ عن التعرّف عليّ، فيبدو أنه من الصعب أن أتغيّر وأعود كما كنتُ في السابق. شعرتُ بالضيق حين سمعتُ سي شيانغ تتحدّث عنك البارحة، وقلت لها لا بدّ أن أراك وأعتذر لك شخصياً.

- ماذا تعمل الآن؟

- آه لا تقلقي! أعمل مستقلاً. فتحت مخبزاً لفطائر السمسم، وأرتدي نظارة سوداء حين أخدم الزبائن، والعمل يسير على ما يرام. أعتقد أنّ نظرة الأشخاص لا تتغيّر سريعاً، إِلّا أنّ ارتداء النظارة السوداء لا يسبّب مشكلة.

قالت آسي وقد أصبحت أكثر هدوءاً: «لا تفقد عزيمتك! ليس هناك ما يخيف، عُدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، وستواتيك الشجاعة. هكذا كنت أفعل في الماضي».

- شكراً يا آسي، لقد حُلّت العقدة في قلبي. تذكّري! لديكِ صديق في مخبز الفطائر في الشارع الفسيح، مرحباً بكِ في أيّ وقت!

كان وي بو مغتمّاً لأنه لم يتواصل مع تسوي لان منذ عدة أيام. كان يذهب إلى الزقاق المجاور للمسرح، من دون أن تواتيه الجرأة على الغوصِ في أعماقه، إذ كانت تخيفه تلك الحارة المظلمة بمبانيها العالية التي تحجب السماء. كان ثمة عدة فجوات على جانبي الطريق المسَفلت تفضي إلى بقع خالية. أمضى تلك الليلة في واحدة منها، لكنّ عمال النظافة أعادوه بعدها إلى العالم في الأعلى. عَدّ الدرجات فكانت أكثر من مئة درجة من الشارع العام إلى هذه البقعة، التي تؤدّي بعدها إلى طابق أرضي يشبه السوق المفتوح مزدحمٍ بالكثير من التجّار المريبين، وكانوا كلّهم بائعي سجائر، ويعلم الله فقط ما الذي يبيعونه بالضبط. وكانت البقعة محاطة بظهور عدة مباني، من دون أيّ أبواب، بل نوافذ فقط، وكانت هذه هي الحارة الوحيدة.

فُتن وي بو بهذا المكان بعد زيارته الأولى، حتى إنه فكّر أن يذهب مع تسوي لان. وحين يَجِنّ الليل، سيحكي لها في تلك البقعة المظلمة عن علاقته الماضية بالآنسة سي، وعن كرهه لنفسه، أو لن يتحدّث عن

ذلك، بل سيحكي لها عن مسقط رأسه الغامض، وعن العلاقة التي تربط بين مسقط رأسه ومسقط رأسها. على أنه لم يكن يعرف في الحقيقة أي علاقة تربط بين المكانين، لكنه كان يشعر بشكل مبهم، بأنه ما إن يلفّه مناخ الحارة العميق، فسوف ينبعث هذا اللغز من ذهنه. لكنّه بالطبع لن يدعو تسوي لان للمجيء إلى هنا، ألَم ينوِ الابتعاد عنها شيئاً فشيئاً؟

اقترب منه بائع متجوّل يرتدي قبعة من القش، متحدّثاً بلهجة مقاطعة شان شي، ووضع ذراعه على كتفيه ونفث في وجهه دخاناً من سجائر رديئة التبغ وقال: «لدينا شيء أكثر تشويقاً هنا، هل تأتي؟ المكان هو قبو في هذا المبنى، نسمّيه "وادي نسيان الهموم"، والنساء هناك كلّهن من الطراز الأول، نَمِرات!».

دفعه وي بو بقوة وابتعد عنه قليلاً، سمعه يئنّ، كان رجلاً مريضاً، وربما كان على وشك الموت. كان يدخّن سجائر رديئة، لكنه يبيع سجائر «هونغ دا شان» من الصِّنف الأول.

ركع البائع ببطء وتناثرت السجائر على الأرض، لكنّه لم يقع، إنما ظلَّ جاثياً هناك مُغمغماً بشيءٍ ما. اتجه وي بو إليه وجمع السجائر ووضعها في جِرابه القماشي.

سمع وي بو عبر صوته غير الواضح أمله القوي. ماذا كان يتمنّى؟ تذكّر وِيّ بُو تلك الحياة الفوضوية التي يعيشها، وشعر بالفضول حيال هذا البائع المتجوّل. هذا الرجل الذي يعيش في هذا الكهف المظلم ويكتنف فؤاده توقٌ رائع.

بادَر البائع وقال: «أدّخر طاقتي ومالي».

- لماذا؟

- لأجل حياة جميلة بالطبع، إلّا أنني أفكّر في بعض الأحيان أن أدخل

السجن، ربما سيكون بوسعي التفكير في الأمر بشكل أفضل. ما رأيك في هذه الفكرة؟

- هذه فكرة جيدة. لماذا لم تخطر ببالي من قبل؟ يبدو أنني ضيّق الأفق. كان والدي رجلاً رائعاً، لا أشبهه على الإطلاق.

انتابه شعور مفاجئ بعد أن قال هذا الكلام، أنّه في طفولته البعيدة، وفي ذلك المنزل القديم حيث كان يسكن والده، قد مرَّ من قبل بلحظة مشابهة لهذه اللحظة. أي بمعنى ما، وي بو رجل نسي جذوره. وهو مغتمٌّ مؤخراً لهذه السبب. لقد نسي التوعية التي مرّرها له والده والآخرون ودفعها إلى مؤخرة عقله، وقضى أياماً عادية، من دون أن يتأمل في حياته بشكل جذري.

«ربما لن تراني هنا غداً» -قال البائع المتجوّل على نحو كئيب- «اسمي يوان خي، أعمل حارساً، لكنني على وشك أن أترك هذا العمل، وأعمل مجرماً. ما رأيك؟».

فأجاب وي بو على نحو كئيب أيضاً: «أمر مشوّق».

فجأة أظلمت السماء، وهبّت ريحٌ باردة قوية، كان تياراً هوائياً. ودّع وي بو البائع المتجوّل ليعود إلى المنزل. التفت وهو على الدرج، فرآه قد استلقى على الكرسي الخشبي. يبدو أنه لا يشعر بأي شيء إزاء المطر أو الريح، ورأى وي بو أنّه ذو عزيمة قوية.

ارتقى وي بو مئة درجة ووقف في ممرّ المشاة في الطريق العام. هبّت الريح من دون توقف، كانت ستمطر. لم يرغب في العودة إلى المنزل. كانت بوابة المسرح مفتوحة والتذاكر تُباع لعرض أوبرا «لاترافياتا». اشترى تذكرة ودخل.

دخل من الباب الجانبي في الطابق العلوي، وتلمّس طريقه في العتمة وجلس في نهاية القاعة. كانت خشبة المسرح مظلمة، وسيدة الكاميليا لا تُرى إلّا عبر مصباح صغير مُعلّق في السقف ومسلّط عليها، كانت ترتدي تنورة سوداء عكس ما كان متوقعاً. كان اللحن يؤذي السمع، كما لو كانت امرأة ريفية تبكي وتنتحب. وسأل في نفسِه: هل هذه بالفعل أوبرا «لاترافياتا»؟ إنها تغني بمفردها طيلة الوقت، ولا يفهم أيّ شيء ممّا تغنّيه، ولا يظهر ممثّلون آخرون. شعر وي بو بالضيق الشديد من غنائها، وكان ثمة عاشقان في الصفّ الأمامي، وكان الشاب يحتضن الفتاة ويهمس في أذنها بكلامٍ ناعمٍ طوال الوقت.

غرقت خشبة المسرح في العتمة ما إن انتهت سيدة الكاميليا أخيراً من غنائها، وكذلك الصالة. كانت النوافذ والأبواب موصدة، وأراد وي بو أن يغادر، لكنه لم يستطع الحركة، فقد تقافز عدّة أشخاص بين المقاعد ومضوا يطؤون جسده ويشتمونه قائلين: «ألا تموت؟!». وإذ كان يُدفع هنا وهناك من قبل هؤلاء الأشخاص، رفعه رجلٌ ضخم فجأةً وأنزله على الممرّ. فالتفّوا حوله يهتفون بمرح، وقال العديد منهم: «إنه يهرب! إنه يهرب! هاهاها!». ثم ظهر بابٌ جانبيّ صغير منخفض أمامه، فانحنى الجميع وخرجوا عبره. كان وي بو في الصف الخلفي، وحين جاء دوره، اندسّ وخرج عبر الباب أيضاً.

وقف في شارعٍ لم يطأه من قبل، وهبّت ريح قويّة جعلته يعطس عدّة عطسات.

انفضّ الحشد على الفور، ولم يبقَ غيره يفكّر مليّاً إلى أيّ جهة سيسير. لم تكن لديه أيّ فكرة، وبدا أن المكان مثل منطقة مكاتب، من دون محلات، ولا أيّ مارّة في الطريق. وإذ عقد العزم على أن يتجه يميناً،

رأى سيدة الكاميليا المتشحة بسواد تخرج من الباب الصغير. كان وجهها مصبوغاً بالبودرة، وبدت وكأنها عِفريتة. شعر وي بو بنذير شؤمٍ قادم.

قالت المرأة بعفوية متأبّطةً ذراعه: «لنمشِ معاً، أيّها الشابّ!».

رأى وي بو يداً مليئة بالتجاعيد لامرأة عجوز.

- لقد غنّيتُ أوبرا «لاترافياتا» لمدة أربعين عاماً. ما انطباعك؟

- أنا.. أنا مرتبك.. في المسرح للتوّ...

- هذا صحيح أيها الشاب! هذا انطباع جيد، إنك تحترم عملي حقّاً!

تأبّطت العجوز ذراعه وقادته إلى منتصف الطريق. كان طريقاً من دون سيارات ولا مارّة، وربما كان هذا مُرضياً جدّاً لها.

- أكثر ما أحبّه أن أتجوّل في الطريق هكذا، من دون أن أغيّر ملابسي ولا أزيل مكياجي، فأبدو كطيف. وحين أتجوّل، بوسعي أن أرى زوجي الراحل.

- كنت أفكّر وأنتِ على خشبة المسرح تغنّين منذ قليل، أنكِ قد عشتِ حياة جميلة، ولأكن صادقاً، هذا ما أدركته الآن. لم أُبدِ أيّ ردّ فعل حينذاك، فذهني متخمٌ بشتّى الأفكار العابثة، وكنت أسمع غناءك بضجر. لكن الآن، بينما نمشي في هذه الريح الباردة، تذكّرت أداءك الرائع، ووقعت في حبك! يا له من أداء يهزّ المشاعر!

أحسّ وي بو بأنه على وشك البكاء، وضرب جبينه بحسرة.

- أيّها الشاب، هل تراه؟!

- مَن؟

«زوجي الراحل! إنه يقلّب في سلّة القمامة تلك، يا له من عنيد! سيأكل ما يجده. أعتقد أنه سيظلّ يحميني» - وظهرت على وجهها ابتسامة مخيفة.

- بالطبع، لقد عشتما حياة سعيدة، لستما مثلي، نفايات عديمة الفائدة، صَدفة خاوية، لا بدّ للأشخاص مثلي أن يختفوا من العالم.

- أرجوك ألّا تتفوّه بهذا الكلام، فالمتخاذلون لا يستحقّون أن يكونوا جمهوري!

سارا في الشارع الخالي جيئةً وذهاباً، وتحدّثا عن الأداء، وبين حين وآخر كانت العجوز تسأله بحماس: «هل رأيته؟»، وكان وي بو يجيب إنه رآه بينما يتحدّث معها عن حياتها الماضية. وثمة مرات شعر فيها وي بو بأنه سيجهش بالبكاء، وحاول جاهداً ألا تنهمر دموعه. وشيئاً فشيئاً، لم يعد مستسلماً لليأس، فقد جعلته العجوز يختبر حياةً أخرى، وكان متلهّفاً للتجربة.

- أين تسكنين يا أمي؟

- هناك، أسكن في المبنى المكوّن من 15 طابقاً، كان لطيفاً السير معك!

اتجهت المغنّية إلى المبنى العالي، وهبَّ نسيم رفع تنورتها السوداء، ورآها وِيّ بُوَ تحلّق مثل طائر ضخم، وارتفعت قدماها عن الأرض. هبطت أمام بوابة المبنى وفُتِحَ الباب أوتوماتيكياً، وبدا وكأنها قفزت إلى الداخل، ثم أُغلِقَ الباب. كانت بوابة سوداء ضخمة، أعلاها حلقتان نحاسيتان تتركان انطباعاً كئيباً.

بعد قليل، تهادى صوت غنائها من النافذة، ولكن وي بو مع ذلك لم يفهم منه شيئاً. كان هناك شخص يتحدّث إليه، التفت، فرأى البائع المتجوّل الذي يرتدي قبعة القش.

- هل تعرف مَن هي؟

- لا أعرف.

- أشهر مغنّية سوبرانو في العاصمة. وهي مصابة بمرض الهوس،

وكانت في مصحّة. ودعاها مدير المسرح للعمل في ما بعد، فغيّرت اسمها وبدأت الغناء.

- وكيف تعرف هذه التفاصيل؟

- لأنني زوجها السابق.

تأمل وي بو هذا البائع، واكتشف أنه في الواقع كهل، ربما يتجاوز السبعين عاماً. وشعر بأنه يفهم معاناة هذا البائع المتجوّل بشكل ما.

- يبدو أنكما تحبان كلٌّ منكما الآخر.

- طبعاً، طبعاً. إن الهوس مرضٌ جميل. إن لم يذلّنا الزمن إلى هذا الحدّ، لم نكن لنعرف كم كان حبّنا عميقاً. هل سمعتها وهي تغنّي على خشبة المسرح؟

- سمعتها. أداء ساحر، لم أتفاعل معها حينئذٍ، لكني أدركت في ما بعد أنني لن أنساه ما حييت. إن زوجتك موهبة مذهلة.

- لكن الموهبة غير مناسبة للحب.

- ربما. لقد تأثّرت بشدّة. أعرف أنك ستتشبّث بها، عندي حدس. كيف يمكنك ألّا تحب امرأة كهذه المرأة؟! إنها خلّابة!

- نعم، أنا عاشق للجمال، وضحيّة أيضاً، وراضٍ بكَوني ضحيّة. انظُر، إنها تعيش في الطابق الـ 15، بينما أعيش في غرفة مظلمة في القبو مع هؤلاء العاهرات. أخرج لبيع السجائر كلّ يوم في الصباح الباكر، وأعود في جوف الليل، ولأن شققنا صاخبة جداً، دائماً ما تحدث جرائم قتل. وقد كبرت في السن، ولم أعد نشيطاً مثلهم، كما أحاول قدر استطاعتي أن أظلّ في الخارج. انظُر، لقد جاء صديقك لمقابلتك!

التفت وي بو، فرأى السيد يو. وأدرك أنه سار مع العجوز من دون أن

ينتبه، وأنهما وصلا إلى الشارع حيث مهاجع مصنع الصابون. التفت مرة أخرى فلم يرَ العجوز، ربما ذهب إلى الحمّام.

قال السيد يو: «إنّه مُرابٍ، في ذمّته حياة شخصين. ويُقال إنه ترك الرّبا لأجل امرأة، وبعد أن دخل السجن، أنهت المرأة زواجهما وهجرته من دون تردّد. لكنه تغيّر تغيُّراً كبيراً الآن. فقد كان يتمتع بالسلطة والجاه قبل ثلاثين عاماً في هذه المدينة!».

سأله وي بو: «هل تحسده؟».

- نعم، قليلون مَن هم مثله الآن، تماماً مثل مزهريات «لونغ تشوان». إنه بضاعة أصلية. لقد أوشك على أن يُعدَم، واقتيد إلى ساحة الإعدام ثم أُعيد مرّة أخرى. رأيت ذلك بأمّ عيني في صغري. لحقت ببعض الأشخاص لنرى تلك الجلبة، فرأيت الآخرين يسقطون ما عدا هو، فقد وُضِعَ في شاحنة، وفوجئنا بإطلاقِ سراحه في الشارع بعد ذلك.

- يا له من أمر غريب!

- أجل، كان ما حدث ذلك العام غامضاً، والأكثر غموضاً هي زوجته السابقة، فقد جُنّت بعد أن هجرته، وعاشت في مصحّة عالية المستوى في العاصمة، ولا أدري لماذا عادت إلى مسقط رأسها لتغنّي بعد أن كبرت في السن، يُقال إنها كانت على علاقة مع مدير المسرح.

تأمله وي بو وقال: «هل تشعر بالمرارة؟».

- هل كنت سآتي للبحث عنك إن لم أكن أشعر بالمرارة؟ لماذا لم يحالفني الحظ مثل هذا الشخص؟ أرى أنه يعيش مثل إمبراطور.

- كلامك صحيح يا سيد يو. إن نظرتك ثاقبة. لقد قابلته في ذلك الميدان الصغير أسفل المسرح، إنه شخص هادئ، وواسع الأفق. بالطبع لديه علّة، ولكن مَنْ مِنّا بلا علّة؟ إنه رجل شجاع ذو هدف في الحياة.

- هل ستعود إلى المنزل يا وي بو؟ من الجيد أنّ لديك بيتاً، إنه أمرٌ مستحيل بالنسبة لي، كالجنّة. وأعني أنه قد فات الأوان بالنسبة لي، لديّ موعد مع الأطياف؛ لا بدّ أن أنام كل يوم في القبور القديمة، أما أنت.. فكلّ الفرص لك .

نظر وي بو إليه، وعاد فجأة إلى ثلاثين عاماً مضت، حين كان هناك عصفورٌ يزقزق من دون توقف تحت سماء المدينة اللاهبة. أيّ توقعات كان يحملها له هذا الرجل الواقف أمامه؟ صافح السيد يو وي بو بأدب وودّعه، كان ينتظر هنا لأجل أن يقابله ويتحدّث معه عن المرارة المتأججة في قلبه. تأمّل وي بو ظهره الذي بدا كالطيف، موقناً أنه ليس شخصاً عادياً. يعرف كلّ شيء، حتى إن بإمكانه أن يسترجع حياة سيدة الكاميليا العاطفية في ذهنه في أيّ وقت. كانت فترة الشباب في حياة وي بو، كالكثير من الأشخاص، مفعمة بالشغف والحماس، إلّا أنه كان أحمقَ في تلك الفترة، وشخصاً مطروداً من الحياة. ويبدو أنه يتحلّى بشيء من الذكاء الآن، رغم أنه لا يزال يفتقر إلى القدرة على مواجهة متاعب الحياة. وتذكّر حين ذكرت تسوي لان مرّة أن السيد يو قريبٌ بعيد لها، ويعرف سرّاً ما عن حياتها. كانت تتوق لمعرفة هذا السر من دون أن تواعد هذا الرجل الغندور، والذي قال له للتو إن كلّ الفرص لـ وي بو، بينما كرّس نفسه لمهنة ما، ليس لها علاقة بالحياة اليومية. ربما كان السيد يو يعبّر عن مشاعر من صميم قلبه؟

وقف وي بو تحت شجرة صفيراء اليابان أمام منزله، وخطرت بباله تسوي لان مرّة أخرى. هذه المرأة، لَكم كانت حركتها وسلوكها تتواءمان مع ما يرغب. لماذا لا يعيش معها علناً؟ لا يعلم وي بو لماذا، يشعر فقط بأن ذلك سيكون أمراً خطيراً، ومن المحتمل جداً أن يفقدها، وليس بسببها

فحسب، بل بسبب نقائص شخصيته. كانت عيوبه الفطرية واضحة، وإلّا فلماذا يتجنّبها؟ لديه ضمير ممسوس.

كان منزله هادئاً وموحشاً، وزوجته في رحلة عمل. كان قد قام برحلة روحانية خارج المنزل وعاد من جديد، فما الذي حقّقه؟ في الإطار المعلّق على الحائط صورة والده الراحل، ينظر إليه بهدوء، وكأنه سيغطّي عينيه بقطعة القماش التي يحملها في يده. آه، يا له من أب! كان يقضي وقته في البيت، صامتاً لا ينطق بكلمة. لم يكن يتحدّث مع والدته عن مسقط رأسه، ولم يذهبا معاً هناك، ولكنه كان والداً وزوجاً طيّباً وعطوفاً. توفي قبل أوانه. يذكر وي بو أنه كان جالساً على كرسي كبير بذراعين، ثم تحرّكت شفتاه قليلاً بصمت، وأغلق عينيه بتعبير منهك. يبدو أنه كان راضياً كلّ الرضا عن حياته. وفكّر وي بو الشاب، أن رجلاً قادماً من منزل ضخم كهذا، ربما سيكون بوسعه أن يمسك زمام مصيره. وحين خطرت بباله هذه الفكرة لاح في ذهنه مشهد: زوجة عمّه الأكبر وهي تشرب الماء في كوب للفُرش مصنوع من اليَشم جالسة في زاوية الغرفة وتقول: «هذا ما يُسمّى شُربُ الحبر». هل علّمه والده بتأثير تدريجي، مهارة التغلب على الحزن، وكيف يعيش حياته وفق تصوّراته؟ لا يعرف وي بو كيف نجح الرجل على الحائط في تحقيق ذلك.

«على وشك أن أبلغ ثمانيةً وأربعين عاماً»، قال وي بو لوالده على الحائط.

بدا وكأن ابتسامة لاحت على وجه هذا الرجل. وهذا ضَربٌ من الخيال بالطبع، لأن والده كان قليل الابتسام. ماذا كان سيحدث لو تمرّد ذلك اليوم في القطار وخلع عصابةَ العين؟ كان والده متأكّداً أنه لن يفعل ذلك، فهو يفهم ابنه تماماً، ويعلم أن فضوله يتخطّى كلّ شيء. أدخل ابنه إلى ذاك

المنزل القديم، من دون أن يجعله يعرف مكانه أو هيكله الداخلي. ولهذا السبب تحديداً يحمل وي بو لوالده حباً واحتراماً عميقين.

كان ثمة أحدٌ في الخارج يتنهّد بصوت عالٍ، ويبدو أنه السيد يو. أَلَم يودّعه؟ يا له من شخص مُحيّر!

فتح الباب، فدخل السيد على الفور.

قال بوجهٍ متجهّم: «لا مكان أهرب إليه!».

حدّق إليه وي بو وقال: «سمعتُ أنك من أقرباء تسوي لان؟».

- نحن بعيدون عن كوننا أقرباء. فكّر في الأمر، كيف لأشخاص مثلي ومثلك غير قادرين على تمييز بعضنا أينما تقابلنا؟ كنتُ ووالدها في الماضي.. لا، لن أثرثر معك في هذا. أريد أن أسألك، كيف تُقّيم العلاقة بينك وبينها؟ لا تعلم؟ يا للبؤس! عليك أن تمضي في الأمر!

ضحك وي بو، فضحك السيد يو أيضاً. ثم قال بجدّية: «عليّ أن أعود الآن، هناك مجموعة تحف من عهد أسرة سونغ في المحل، والمجرمون يترصدون لها، ربما ستكون نهايتي المحتومة اليوم؟».

قال وي بو: «إن الأشخاص الذين يفشون الأسرار مثلك خطيرون للغاية».

- إنني طبعاً لستُ شخصاً يفشي الأسرار، أخبرتك أنتَ فقط.

- إذاً، هل تعتبرني من أقربائك؟

- هه! أيّ أقرباء! وي بو، هل تتظاهر بعدم الفهم أم أنك لا تفهم حقاً؟

- لا أفهم حقاً.

- إذاً لقد خذلتني أيضاً، كـ سي شيانغ وتسوي لان. سترتبك ويختلط عليك الأمر، ولا أريد أيضاً أن أخبرك بكلّ شيء. أنا شخص ميئوسٌ منه، وكلّ شيء سواء بالنسبة لي.

رحل هذه المرة بالفعل. خرج وي بو، ورآه ينعطف مختفياً في نهاية الطريق.

فكّر وي بو في كلام هذا الرجل، ورأى أنه قد خذل تسوي لان وسي شيانغ. ولم يصبح هذا النوع من الرجال الشجعان الذي كان يمكن أن يكونه، على سبيل المثال، مثل زوج امرأة الكاميليا، أو ربما مثل السيد يو. ما وضع وي بو الآن؟ لا يتعدّى كونه شخصاً يسعى لكسب منافع صغيرة تافهة. كان أقل من إصبع قدم سي شيانغ.

أحسّ فجأة بالإنهاك الشديد، فأعدّ طبقاً من الشعرية على عَجل، وذهب إلى السرير مبكراً، لكنه ما لبث أن استيقظ بعد نصف ساعة.

كان السيد يو ينادي في الخارج، وكان الظلام قد حلّ.

فتح الباب بضجر وخرج. وقف السيد يو أمامه وأحنى رأسه، وكان ثمة نتوء تورّم في الرأس.

- انظر! إن الناس الذين يعملون في تلك المهنة مثلي معرّضون للخطر في كلّ وقت.

أحس وي بو أن نبرته يشوبها مرح، فابتهج هو الآخر. غلبه الصمت، وكان متلهّفاً لأن يسمع عمّا حدث له. كان معجباً في هذه اللحظة بخبير التحف هذا.

- آه، ماذا يمكنني القول! إن الأمر دوماً هكذا، يأتون، يدفعونني، يضربونني، يحاصرونني، يبصقون عليّ، بعد ذلك، يختفي كلّ شيء، إلّا رائحتهم تظلّ عالقة في الهواء، بينما أنت تغرق في العذاب.

سأل وي بو ببراءة: «ولِمَ تتعذّب؟».

- بسبب الحبّ. ولأنني لا أطيق التخلّي عنهم.

- هكذا الأمر إذاً! ولذلك تترقّب وصولهم كلّ ليلة، أليس كذلك؟

- دائماً تخمينك صحيح. قلت من قبل إنك مطّلع. تحب أشخاصاً آخرين، وتسبب المتاعب أينما كنت، وكأنه وَسْمٌ على رأسك.

- إذاً، هل تريد أن تدخل وترتاح قليلاً؟

- لا. إن الساعة الواحدة تقريباً. تأتي مجموعات في هذه الساعة ويدقّون على خزائن العرض في الطابق الأسفل بالعصي.

غادر مرة أخرى. وخطر ببال وي أنه ربما سيتجوّل مثله في ليلة ما.

نام في السرير وأطفأ الضوء، وسرح بتفكيره في متجر تحف السيد يو؛ في تلك القاعة العالية، تلمع تحف اليَشم تلمع بخبثٍ في الظلام، وحين تداعبها أضواء السيارات العابرة، تقفز قطعة أو اثنتان، مصدرةً رنيناً. كيف يحافظ شخص على حُبٍّ استمر عقوداً في بيئة كهذه؟ أحسّ وي بو أنه يفهم قليلاً هذا الحب، لكنّه كان بعيداً عن الفهم الحقيقي. ربما لم يفهم على الإطلاق، وأن الأمر لا يعدو كونه مشاعر ما دافئة تجاه هذا الشخص؟ ألَم يجلب إلهاماً غير متوقعٍ مرّة تلو الأخرى خلال هذه الأيام التي عانى فيها وي بو أزمات عاطفية؟

عادت زوجته شياو يوان، وكان قطارها يصل دائماً في منتصف الليل، الأمر الذي كان غريباً.

«شياو يوان، هل أخذتِ ساعة الجيب الخاصة بي؟»، قال من دون أن يتحرّك.

- أجل يا وي بو. أحب أن أعرف الوقت بدقّة عندما أسافر في مهمات العمل، أحمل ثلاث ساعات على الأقل. وفي النهار لا أتوقف عن النظر إلى الشمس.

وقفت عند باب الغرفة ورفعت الساعة ليراها وي بو. كانت مُشِعّة كالشمس. كاد وي بو أن يسقط من السرير.

- الساعة هنا، سأضعها في الدولاب.

ذهبت إلى الغرفة المجاورة. رأى وي بو أن الدولاب لم يُغلَق بإحكام، وكان ثمة حزمة ضوء تسطع من داخله. جلس، وبعد تفكير، نام مرة أخرى. أفزعته هواية شياو يوان الجديدة. كيف يتطوّر هذا العالم!

في ذاكرة وي بو، كانت أشياءُ مثل ساعات الجيب، دبابيس الزينة، والعدسات المكبّرة قديمة الطراز أشياءَ غامضة ونادرة. وهذه وجهة نظره فحسب، لم يُسِرّ بها لزوجته من قبل. وذات مرة في المنزل القديم، أراه عمّه عدسة مكبّرة في غرفة المكتب. وضعها في مقابل كتاب قديم من ورق ألياف البامبو وقال: «انظُر!». نظر وي بو عبر الزجاج، فلم يرَ إلّا عيناً سوداء ثلاثية الأبعاد تتحرّك ببطء أفزعته فزعاً أخرسه. «لا تخَف! ستعتاد عليها. استرخِ، انظر إلى اليمين، هنا، جيّد!» أرشده عمّه بلطف. أنعم النظر لنحو خمس دقائق، وكان يرى العين أينما نظر، مع تباينٍ حادٍّ أسود وأبيض يفصل بين العدسة والجزء الهلامي. فاستجمع شجاعته وسأل عمّه: «هل هذه عدسة مكبّرة؟». «طبعاً عدسة مكبّرة!» -ردّ عمّه بنبرة موبّخة- «هذا ما تبدو عليه العدسة المكبّرة». ثم وضع ذاك الشيء في درج المكتب. لم يسمعه وي بو يذكر هذا الأمر مطلقاً بعد ذلك، حتى إن غرفة المكتب أُوصدت.

عندما تذكّر وي بو أمر العدسة المكبّرة، أدرك فجأةً عبارة: «عُد إلى مسقط رأسك!». الجملة التي قالها له المتشرّد الذي يُدعى «الشعر الطويل» في الزقاق إلى جانب المسرح. مسقط رأس والده، هو مسقط رأسه، هذا المكان الذي لا يمكن العثور عليه على الخريطة، على الأرجح بدأ كلّ

شيء من هناك. أحسّ وي بو مؤخراً أن كلّ من حوله يحنّ إلى الماضي. كانت القوة الهائلة لذكريات الماضي تخترق الحياة الحالية، وتُعرّي حُكم كلّ شخص وبضمنهم هو. وسمع منذ وقت طويل أن عمّه وزوجته قد توفّيا، فلا بدّ أن يكون البيت القديم قد هُدم منذ وقت طويل أيضاً.

سأل زوجته بينما يتناولان طعام الفطور: «هل ذهبتِ إلى المسرح وشاهدتِ أوبرا "لاترافياتا"؟».

– بالطبع. سمعتها ثلاث مرات، إنها امرأة مذهلة!

– ولكن يُقال إنها مجنونة.

– وماذا في ذلك؟ كلّنا مجانين!

لاحظ وي بو مرة أخرى أن شياو يوان امرأة شديدة الذكاء.

– لم أذهب إلى المسرح منذ أكثر من عام. وعندما ذهبت البارحة، لاحظت أن تغيُّراً قد حدث، ولا يمكنني تحديد من أيّ ناحية تغيّر، لكنّي جلست هناك، وكلّ شيء حولي بعث فيّ الذهول.

عبست شياو يوان، وأحنت رأسها لتنظر إلى ساعة الجيب.

– تسطع مثل شمسٍ فجأةً.

قال وي بو مشيراً إلى الساعة.

نادى عليه السيد يو من الخارج، فهرع وي بو إليه.

بدا السيد يو مثل زومبي بعد ليلة من المعاناة. كان رباط حذائه مفكوكاً، وبدا وكأنه سيتعثّر به في أيّ لحظة.

– وي بو يا وي بو! لماذا لا أدركهم ولو مرّة واحدة؟

قال ذلك وتابع سيره إلى الإمام على غير هدى.

عاد وي بو إلى المنزل ووجد زوجته تحدّقُ في ساعة الجيب.

- هذه الساعة تعمل منذ أن كان والدك شاباً، ألا ترى أن هذا أمر غير طبيعي؟ لها رائحة النهر، كان والدك يحبّ الأنهار والبحيرات.

- لم أعرف ما إن كان يحب الأنهار والبحيرات أم لا، فقد كان رجلاً قليل الكلام.

- ألَم أخبرك من قبل إنني أحمل على الأقل ثلاث ساعات حين أذهب في مهمّة عمل؟

- أخبرتِني البارحة.

- لأنني حين أكون في الخارج، يصبح كلّ شيء رقيقاً. أحياناً يكون حرّاً كتحليق في السماء، إلى الجنوب، إلى الغرب.. لا أحب الحرّية المفرطة.

قالت بينما ترفع الساعة، وتؤدي حركة متظاهرة بأنها ستكسرها، ثم وضعتها بحذر في الدولاب.

- رأيتُ امرأة الكاميليا حين كانت في العاصمة.

«ماذا!»، ردّ وي بو بذعر.

- هذا حقيقي. تعيش في مصحّة.. ويا لها من مصحّة! تمتلئ حديقتها بأشجار عتيقة ذاوية، تنمو على أغصانها نتوءات، وأعلى النتوءات تنمو أوراق حمراء بأشكالٍ عجيبة. وكان ثمّة نوعٌ من الطيور لم أرَه من قبل، يحمل في منقاره خطافاً، يجثم على تلك النتوءات وينقر بقوة مُطلقاً صرخات حادّة مستمرة. كانت امرأة الكاميليا ترتدي تنورة بيضاء وتجلس بين الأشجار، وبدت مستغرقة في النوم. وحين اقتربتُ منها سمعتها فجأة تقول: «هناك مَن يناديني فاستيقظت. هل هو ضيف عزيز قادم من مسقط رأسي؟!». عرّفتُ بنفسي، وأنصتت لي بصدق، وهي تشدّ على يدي. قالت إنها تجلس بين الأشجار بانتظار حبيبها، لكن ضيفاً عزيزاً من مسقط

رأسها جاء عوضاً عن ذلك. كانت عيناها تنظران إليّ ولا ترياني، لديها بصرٌ ثاقب، شعرت أنها نفذت داخلي ووصلت إلى مكانٍ ناءٍ جداً. قالت إنها تريد الغناء، فغنّت، وأيّ غناء! كان صراخاً. وبعد فترة صمتت، وخلا وجهها من أيّ تعبير. وقد نسيَتْ أنني هناك. لديها قوة ما تجعلك مذهولاً، ولا أعرف أيّ نوع من القوى تلك. التفتُّ وخرجت من المصحة، ثم بحثت عن مكاء ناءٍ وبكيت بمرارة. كان هذا قبل عشر سنوات.

- هل هي امرأة الكاميليا بالفعل؟

- من الصعب القول. كان وجهها غريباً وجميلاً. أظنّ أنها هي. مَن عساها تكون غير ذلك؟ بالطبع يمكن ألّا تكون امرأة الكاميليا، وقد اعتبرتها هي وكفى.

- هذا أمرٌ مرعب.

- حقّاً؟ إنني شجاعة جداً.

طفت شياو يوان أمامه، ففرك عينيه ليتأكّد من أن قدميها تلمسان الأرض. وبعد قليل رنّت من حوض المطبخ أصوات عصيّ الطعام والأطباق.

- 3 -

مسعى السيدة لونغ سي شيانغ الداخلي

بعد أن لفظ طفلها نفسه الأخير، سقطت لونغ سي شيانغ مغشيّاً عليها على أرضيّة المستشفى الخشبية.

استيقظت بعد يومين وليلتين، ووجدت نفسها في غرفة الطوارئ، وإبرة مغروسة في يدها تنقل المحلول، وكان هناك رجلٌ كطيف يدير ظهره لها ويقف عند الباب.

لم تعرف كم مرَّ من الوقت حتى أدركت أن هذا الرجل هو زوجها شياو وو.

قالت بوَهَن: «شياو وو، شيا وو، إيّاك أن تلتفت وتنظر إليّ!».

فخرج الرجل بإذعان من الغرفة.

عادت لونغ سي شيانغ إلى منزل أهلها بعد أن أحرقت ابنها، وسكنت في مستودع صغير إلى جانب غرفة والديها. وعادت إلى عملها في مصنع غزل القطن. كان ابنها الميت يلازمها ليلاً ونهاراً مثل روح شريرة. أصبحت وجنتاها غائرتين، ونظرات عينيها مثل مريضٍ نفسيّ. في تلك الفترة، خبّأ والداها أيّ شيء يُذكّرها بابنها، حتى إنهما لم يسمحا لزوجها أن يدخل المنزل، وليس لأنهما لا يحبّان زوج ابنتهما قويّ الجسد، بل لأنهما

يدركان نيّتها. كما أنها لم ترغب في رؤيته لأنه سيذكّرُها بابنها، ومن ثم ستُجنّ حتماً. كان وجهها شاحباً طيلة النهار فيما بدا أنها قد انهارت كُلّياً.

بعد ستة أشهر، قرّرت لونغ سي شيانغ أنها ستنفصل عن شياو وو، لتدفن ابنها تماماً في عمق ذاكرتها. إلّا أنه لم يوافق، وظلَّ مُتشبّثاً برأيه لفترة، ثم وافق في النهاية. وأحسّ أنه أصبح منحوساً ومسلوباً لفقدانه زوجته وابنه دفعة واحدة.

لم يجرؤ أحد على مواجهتها سواء في ورشة العمل أو في المطعم، فقد أخافت نظراتها العديد من الأشخاص. وقد أصبحت هذه المرأة الشابّة غريبة بالنسبة إلى زملائها.

ومهما يكن، فالزمن يداوي أيّ جرح.

رأت ذات يوم، بعد خروجها من المطعم، شابّةً في غاية الحسن تلعب لعبة الريشة الطائرة على الأرض الأسمنتية، وكلّ مَن حولها يتفرّجون عليها بانبهار، وكانت لونغ سي شيانغ من بينهم.

توقفت الشابة ذات التسعةَ عشرَ عاماً وذهبت إلى لونغ سي شيانغ وأمسكت يدها، وقالت بخجل: «الأخت الكبيرة سي شيانغ، سمعتُ أنكِ تلعبين أفضل مني بكثير!».

- لا، لستُ بمهارتِك.

- إن الأخت سي شيانغ شديدة التواضع. هل يمكن أن أزورك في منزلك مساء اليوم؟

- لا، لا تأتي! ليس لديّ منزل، المكان الذي أعيش فيه مثل بيت كلب.

في مساء ذلك اليوم، جلست لونغ سي شيانغ لبعض الوقت بعد تناول العشاء، وعندما فكّرت أن تنام، ظهرت الآنسة سي أمام نافذتها. سمعت

صوت خفقان قلبها. ولأنها لم ترغب في أن يتدخّل والداها في شؤونها، خرجت مسرعة إلى الظلام. أمسكت يد الآنسة سي بيدها المتجمّدة، وقالت بصوت خفيض ولاهث: «آه، سي شيانغ، سي شيانغ، لقد قطعتُ مشواراً طويلاً طويلاً حتى وجدتك».

– ماذا تقولين يا آسي؟

مكتبة
t.me/t_pdf

– أتحدّث بصدق.

– يدك باردة جداً!

– لأن لديّ قلباً ضعيفاً، لن أعيش طويلاً.

– هش! لا تتفوّهي بالهراء! لقد رأيتك تلعبين بالريشة وأعرف أن لديكِ قلباً قوياً.

– إنه صورة زائفة، مثل الأخت سي شيانغ.

– أشعر بالثقة في نفسي من دون سبب لقولك هذا.

– وهكذا سنظلّ على قيد الحياة.

راحت الاثنتان تسيران جيئةً وذهاباً في الحارة الصغيرة المظلمة يداً بيد، وشعرت كلٌّ منهما بحماس بالغ. وكان الأمر بالنسبة لـ لونغ سي شيانغ التي لم تتواصل مع أحد منذ مدة طويلة، وكأن أحداً شغّل غراموفون. وانطلقت من فمها أفكارٌ وتصوّراتٌ غريبة. ولم تعرف لماذا داهمتها رغبةٌ في احتضان تلك الفتاة. أخبرتها، فاحتضنت كلٌّ منهما الأخرى. كانت هناك قطّة على السور تموءُ مواءً كبكاءِ رضيعٍ أثناءَ عناقِهما، فلمعت في ذهنها فكرة: هل عاد ابنها؟ أشارت آسي إلى زهرة ياسمين في شعرها.

زارتها آسي مساء اليوم التالي أيضاً. وتوقّعت لونغ سي شيانغ مجيئها، لذلك خرجت منذ فترة وانتظرتها. جاءت الفتاة تنهج من الركض.

- أيتها الأخت الكبيرة سي شيانغ، سأناوب غداً في فترة العمل الوسطى، لذلك كان عليّ أن آتي اليوم. لماذا اليوم؟ لأن هناك ثلاثة رجال يريدون مواعدتي في الوقت ذاته، يتفرّق ثلاثتهم ويعترضون طريقي حين أذهب إلى المطعم أو المهجع، ولا يتركونني وشأني، لكني لا أستطيع أن أقرّر، لذلك جئت إليكِ طلباً للنصيحة.

- ليذهبوا إلى الجحيم! لديّ عصا حديدية أُبقيها خلف الباب، يمكن أن أعطيها لكِ.

- أضربهم بالعصا؟ هناك واحد منهم يعجبني قليلاً!

- عليكِ أن تضربيه بالعصا إن كان يعجبكِ!

أعطتها لونغ سي شيانغ العصا، وودّعتها بنظراتها إلى أن ابتعدت، ثم عادت إلى غرفتها. وحين فكّرت في ما حدث للتو، ضحكت حتى انحنت من شدّة الضحك.

قالت والدتها وهي تصفّق: «حَسنٌ! حَسنٌ! لقد شفيت ابنتي من جنونها، إن للسماء حكمتها! ولا بدّ أن يُجزَى المحسنون».

كان قد مرَّ على وفاة ابنها ستة أشهر، وقد تزوّج شياو وو من جديد. كانت لونغ سي شيانغ وحيدة. ورغم حبّها لوالديها، إلّا أنها عقدت العزم سراً على الانتقال من المنزل. وبدت تلك الأمنية مستحيلة في ذلك الوقت. لم يكن في مهاجع المصنع سكنٌ فرديّ، وبالنسبة لعاملة مثلها كان العثور على غرفة مثل محاولتها الصعود إلى السماء. كانت تعلم أن جمالها يتبدّد شيئاً فشيئاً، بسبب إنجابها في سنٍ متأخرة، وبسبب العمل الشاقّ والمنهك، وبسبب تلك الكارثة المرعبة. نظرت في المرآة، إلى وجهها الشبيه بخيار خريفي، وسرت برودة في قلبها.

لم تخضع لونغ سي شيانغ للشيخوخة، فقد كانت مقتنعة أنها لا تزال شابة، ونوت أن تنتظر الفرصة السانحة لتبدأ حياة جديدة. ولكن أيّ فرصة تلك؟ كانت مهارتها الوحيدة هي غزل القطن، حتى إنها لا تجيد أشغال المنزل، ولم تكن مؤهّلة للزواج لأجل أن تكون ربّة منزل. وإضافةً إلى ذلك فهي لن تبيع نفسها من أجل زواج دون حب. ما ترغب فيه هو حياة يملؤها الحب، وكانت لديها ثقةٌ شديدة في نفسها في ما يخص العلاقات الجنسية.

استعادت صحتها تماماً بعد مرور شهرين آخرين، وكانت مستعدّة للمواعدة.

كانت مواردها محدودة، تتمثّل في عدّة عمّال من المصنع تعرفهم جميعاً. لم يكن هناك سوى قليلين ممّن في سنّها وغير متزوّجين. وبسبب تكيّفهم مع كِبر السن، كانوا راغبين في تكوين أسرة ولا يريدون علاقات غرامية. تأملت لونغ سي شيانغ كلّاً منهم، وقرّرت التخلي عن أمر المصنع والبحث عن مسالك أخرى خارجه.

ثم قامت بمحاولتين بين جيران منزل والديها، إلّا أنها باءت بالفشل. كانت في أعين الكثيرين امرأة غير جميلة وغير شابة، بل وفقيرة أيضاً. ولم يرغب في مواعدتها إلّا الرجال الفاشلون؛ منهم مَن يبحث عن ربّة منزل، ومنهم مَن يريد شخصاً يؤنس وحدته ويتحدّث معه لصرف الوقت الطويل. لم يكونوا كذلك مهتمّين بالجنس، وقدراتهم سيّئة إلى حدٍّ ما. وهدف لونغ سي شيانغ هو العثور على رجل تتواءم معه في الجنس.

وبعد هذه الإخفاقات، بدأت لونغ سي شيانغ في إعمال ذهنها. وفكّرت في احتمال عملها بغيّاً. إلّا أن هذا العمل ليس أمراً يُمكن القيام به كيفما اتفق، فلا بدّ أولاً أن تملك شقّةً خاصة بها، وثانياً أن يُعرّفها أحدٌ

على الزبائن، وأيضاً أن تكون لديها علاقة جيدة بأفراد الشرطة، وكلّ هذه الأمور تُشكّل عوائق بالنسبة لها. واحدة من زميلاتِها في العمل كانت مُطلّقة واسمها جين تجو، وهي على علاقة طيّبة معها. كانت جين تجو معتلّة الصحة، مصابة بمرض في الرئة، لكنها تفكّر في الرجال دائماً، وقد لاحظت لونغ سي شيانغ رغبتها، لذلك كانت تُعرّفها بأصدقائها الذكور في بعض الأحيان. لم تتناقشا عن الرجال وهما معاً، فكلّ امرأة تفهم رغبة الأخرى وتوقَها.

ثم مرَّ عامان آخران، وخلال تلك الأيام المظلمة المريرة، كانت المرأتان على حافة اليأس من الحياة، رغم ازدهار مهنة الدعارة في المدينة في تلك الفترة. في البداية كانت سرّيّة، ثم أصبحت على نحو مكشوف بمرور الوقت، وانضمّت العديد من العاملات في مصنع القطن إلى هذه المهنة، ولا سيما اللواتي يتمتّعن بقليل من الجمال، وكانت الآنسة سي أول مَن شقّت طريقها في المهنة.

كانت لونغ سي شيانغ وجين تجو تذهبان تقريباً في كلّ يوم عطلة إلى بيوت الدعارة. لم يكن لديهما أيّ مال، وكانت غايتهما فقط البحث عن عمل. تفحّصتهما نظرات القوّادين العابرة المزدرية، ولم يقبل أحدٌ توظيفهما.

قالت لونغ سي شيانغ بأسى: «جين تجو، هل تعتقدين أننا كبرنا في السن؟!».

– يا سي شيانغ، إنكِ في عيني أكثر جاذبية من أيّ امرأة، علينا ألّا نتراجع. أعتقد أن ثمة أشياء جميلة يخبّئها هذا العالم لنا.

تأملت لونغ سي شيانغ وجهها بإعجاب عندما قالت ذلك، ورأت أن

هذا الوجه الشاحب المعتل بمرض الرئة يلوح ببراءة الفتيات، وداهمتها رغبةٌ في البكاء. لكنها كبحت نفسها، وتذكّرت عدة أخبار مختلفة عن مهنة الدعارة مؤخراً؛ أُصيبت بعض النساء بأمراض جنسية، وأخريات بأمراض عُضال، اكتُشفَت جثة فتاة في مكان خفيّ، عاهرة قتلت كلّ زبائنها الذين تكرههم، وغيرها وغيرها من الأخبار. كانتا تدركان أنها مهنة محفوفة بالمخاطر، وكما يقول الجميع، إنها مهنة أخطارها أكثر من أرباحها. لكن عندما يتذكّرن كلّ الأيام الأسوأ من الموت، فماذا لديهما لتخسراه؟ والعمل في مصنع غزل القطن سينتهي بموتٍ مبكر بلا شك، ولا تجيد المرأتان أيّ شيء فيما عدا غزل القطن، كما أنهما غير راغبتين في تعلّم أيّ حرفة أخرى، إذ كانتا موقنتين أنهما ستموتان قبل أن تتقناها.

كانتا تتجوّلان معاً كلّ صباح في المدينة لبعض الوقت، قبل أن تذهبا إلى بيوت الدعارة. وبدا جليّاً أن المرأتين تفكّران في الأمر ذاته، وكانتا متعجّلتين. إلّا أن هذا الاستعجال لم يسفر عن أيّ تغيير. خطر لهما أن تطلبا المساعدة من الآنسة سي، لكنها قد أصبحت من المعروفات، وشديدة الانشغال، ولم تستطيعا رؤيتها مطلقاً.

إلّا أن القدر الماكر، الشغوف بالحِيَل، جعل هاتين العاملتين تعانيان بشدّة لأربعة أشهر أخرى. وذات يوم، صادفت لونغ سي شيانغ وي بو في منتجع الينابيع الحارة، وهكذا حانت الفرصة المواتية فجأة. وبعد تخطيط وي بو والآنسة سي المتقن، حصلتا على العمل المنشود في منتجع الينابيع الحارة، وتخلّتا عن مصنع غزل القطن الذي ابتلع شبابهما.

– أحبّكَ أكثر من أيّ وقت مضى يا وي بو. لا بدّ أن يُجزَى المحسنون. إن أُصبتَ بمرض عُضال في يوم من الأيام وعانيت، سأعتني بكَ على الفور.

- ما هذه المقارنة المشؤومة يا سي شيانغ؟

- هيه، تتشوّش أفكاري حالما أنفعل!

كان زبائن لونغ سي شيانغ جميعاً من الرجال الأكبر سناً الذين يملكون قليلاً من المال، وبشكل عام كانت قادرة على إرضائهم، ولكن في بعض الأحيان كانت تحدث بعض الأمور المزعجة. في إحدى المرات، افترى عليها رجل يرتدي نظارات، يعتدّ بنفسه أكثر من اللازم، قائلاً بعد أن نال حاجته إنها مثل جثة باردة، وتفتقر إلى الحماس في عملها، حتى إنه استدعى المدير وطالب باستعادة نقوده. اعتراها غضبٌ شديد، ودفعته إلى الخارج بركلة هوائية واحدة. شهق المدير مذهولاً، ولم تفارق ابتسامة عريضة وجهه.

- الآنسة زهرة الخوخ (كان هذا اسمها الفنّي)، هل تجيدين الفنون القتالية؟

- أجل، قليلاً.

كانت جين تجو ولونغ سي شيانغ تبحثان خلال تلك الأيام عن الفرائس في كلّ مكان، لكنّهما كانتا تفشلان مرة تلو الأخرى. كانت الحياة الواقعية مضجرة، والرجال الجيدون قليلين. وكانت كلٌّ منهما تفهم الأخرى في ما يخصّ معايير الرجال الجيدين، ولديهما ما يكفي من الصبر للانتظار، ألَم ينتظرا نصف حياتهما؟ ما المانع في أن ينتظرا لفترة أطول قليلاً؟

وذات يوم، دخل حياتهما مقاول المزارع لاو يونغ. كان عمره يزيد عن خمسين عاماً، ومدمناً للكحول. ويولي اهتماماً كبيراً للجنس، البسيط منه والمتنوّع. في البداية قدّمت له جين تجو الخدمة، وفُتِنَ بتلك المرأة المصابة بمرض في الرئة، وتُيِّمَت هي به وتمنّت أن تموت من أجله.

نبّهتها لونغ سي شيانغ قائلة: «لا بدّ أن تكوني حذرة!».

لم تكن جين تجو بحاجة إلى تنبيهات لونغ سي شيانغ، فقد تركها هذا العجوز الخائن لأجل امرأة أخرى، ولم تكن فريسته امرأةً غريبة أو بعيدة، بل كانت لونغ سي شيانغ، وقال إن طاقتها أكبر، وصحّتها أفضل.

وهكذا هُجرت جين تجو. كانت تقضي لياليَ طويلةً تكزُّ على أسنانها وتضمر داخلها نيّة القتل. خطّطت أن تتخلّص من عدوّيها ثم تنتحر، لكنها لم تعرف سبب عزوفها عن فعل ذلك، إذ كانت السكين تسقط منها كلّما أمسكتها. ومع مرور الأيام غيّرت رأيها شيئاً فشيئاً. كانت تحب هذا السكّير، وتتمنى له السعادة، وقد جعلته صديقتها المقرّبة سعيداً، وعليها أن «تتخلّى عن موقعها لشخصٍ أفضل»، هكذا تعلّمت أن تفكّر في الأمور بنفسها.

هدأت جين تجو. ورغم أنها فقدت حبيبها، إلّا أنه منحها ذكرياتٍ جميلة تكفي أن تستمتع بها طوال حياتها، وكانت تعلم أنها لن تعيش طويلاً، ولهذا السبب تحديداً كانت قنوعة، إلى جانب ذلك فهو لم يبحث عن امرأة غريبة، بل صديقتها المقرّبة.

وكانت تصادفه أحياناً حينما يأتي لزيارة لونغ سي شيانغ، وكان لا يزال يعاملها كشخص مقرّب، ويقبّل وجهها كلّ مرّة، ورويداً رويداً اعتادت ما يفعله.

وفي أكثر اللحظات المشبوبة بالعاطفة، لم توافق لونغ سي شيانغ مطلقاً على طلبه الزواج منها. كانت زوجته توفّيت بسبب المرض منذ زمن، وأولاده مستقلّين، وليس لديه أيّ عائق يمنعه من أن تعود معه إلى منزله كزوجته، إلّا أنها لا تريد أن تكون زوجة لأيّ رجل، ولا تريد أن تنجب أطفالاً. وكانت تدرك أنها إن مرت ثانيةً بكابوس فقدان طفل

فسينتهي أمرها حتماً. لا داعي للزواج من دون إنجاب أطفال. كانت في غنى عن العائلة، ولا تريد سوى البحث عن سعادتها. وإن فكّرت في إنشاء عائلة، أَلن يكون شياو وو مناسباً أكثر من هذا العجوز؟ ويخبرها حدسها أنها حالما تتزوّج لاو يونغ، ستنخفض جاذبية العلاقة إلى النصف، حتى إنها ستتلاشى تماماً. الكلّ يتغيّر، فإن لم يتغيّر لاو يونغ، ستتغيّر هي، لذلك يظلّ وضعها الحالي مثالياً: لاو يونغ قلبه معلّق، وقَلِق من أن تبحث عن زبائن آخرين، لكنّها في الوقت ذاته تراقبه عن كثب، وتخشى أن يجد متعته عند امرأة أخرى. وبالطبع لقد حدث هذا الأمر من قبل، وتشاجرا، وفي النهاية تصالحا وتراجع كلاهما عن كلامه، لأنها يدركان أن كلّاً منهما يحتاج إلى الآخر.

كانت لونغ سي شيانغ متوهجة مثل زهرة أقحوان خريفية متفتّحة. وفي الخريف ذهبت مع لاو يونغ إلى الجبل لمشاهدة أوراق الشجر الحمراء، وتعانقا بجنونٍ بينها، ورغب كلٌّ منهما أن يموت في حضن الآخر في هذه البقعة.

والآن جاء دور جين تجو لتنبيهها، ولم توجّه لها الكلام ذاته، إذ تعلم أن حبيبات لاو يونغ لن ينصتن إلى هذا النوع من النصائح التافهة.

- سي شيانغ، عليك أن تعودي معي إلى المنزل!

- لاو يونغ، عد إلى منزلك، وأنا سأعود إلى منزلي!

- ليس لديكِ منزل. إن منزلك منزلٌ عمومي!

- وما السيّئ في المنزل العمومي؟! أحبّ هذا الوضع.

أظلم كلّ شيء أمام عينيه بسبب رفضها.

كان كلٌّ منهما مُعذّبٌ بوهم امتلاكه للآخر، ولهذا كانا يتناكدان. وكان هذان الشخصان المشتعلان بالحيوية ينهكان نفسيهما في أغلب الأحيان.

وشيئاً فشيئاً أصبح لديها عدد غير قليل من الزبائن الجدد، واكتسبت هذه العاهرة متوسطة العمر سمعةً كبيرة في منتجع الينابيع الحارة. كان المدير يبتسم لها طوال اليوم، حتى إنه فكّر في أن يجرّب هو الآخر. وبالطبع لن تسمح له لونغ سي شيانغ باستغلالها. ولأن لاو يونغ عجز عن التكفّل بها، فلم يسعه إلّا أن يهيم على وجهه بين حين وآخر مثل كلبٍ ضالّ، ويكزّ على أسنانه من شدة كرهه لها. وذات مرة سقط سكرانَ في غرفة المدير وتقيّأ في الغرفة.

«سآخذها معي بالقوة، أنا غنيّ، لديّ حمولة عربة من النقود!»، قال بحماقة.

ردّ المدير مُهدّداً: «إن مالك لا يعني شيئاً! وهي ستقاوم حتى الموت».

- مَن كان معها اليوم؟

- لصّ، ومن نوع اللصوص الذين لا ينسون عملهم، يمكنه أن يسرق أيّ شيء حتى ولو كان مع عاهرة، أنا قلق جداً.

- من الغريب أن نيّة قتلها لم تراودني أبداً، إنني رقيق القلب.

- أنت تحبّها.

- هراء، مَن هذا الذي يحبّ عاهرة!

- إلى أين أنت ذاهب؟ الساعة الآن الثانية صباحاً!

- سأذهب لأبحث عن الموت.

استلقى لاو يونغ في قناة مجاري قذرة، واكتشفه أحدهم في اليوم التالي وأُخذ إلى المستشفى.

هرعت لونغ سي شيانغ لزيارته. وابتسم بخجل حين رآها، ولم ترَ هذا التعبير مطلقاً على وجهه من قبل.

- ماذا كنت تفعل في قناة المجاري؟

- تشاجرت مع أحدهم، أخرج سكيناً، فواجهته بصدري، دخلت السكين نظيفة وخرجت حمراء.. نهاية مُرضية لهذه الحياة.

- يا لك من جبان! أليس لديك مال؟ أليس بوسعك الحصول على أيّ امرأة؟!

- أجل، أنا عجوز خَرِف.

بعد خروجه من المستشفى بوقت قصير، استأجر لاو يونغ فيلّا صغيرة في «مساكن المتزوّجين حديثاً»، وسكن فيها مع لونغ سي شيانغ لمدة قصيرة. كانت منطقة شديدة الغرابة، إذ لا ترى أيّ شخص في النهار إلّا نادراً، ورغم ذلك، تشعر في غرفتك وكأنك مراقب. كان ثمة شَرّ يُثقلُ الغرفة المضيئة، وعبر النافذة تأتي أصوات حيوانات غريبة. لم تستطع لونغ سي شيانغ الاعتياد على المكان، وشعرت كأنها سافرت إلى بلد غريب. واستيقظت عدة مرات هي ولاو يونغ من أحلامهما، وظنّت أنها هربت مع هذا الرجل، وأنهما يبيتان في نُزلٍ بسيط على جانب الطريق. كانت تلحّ عليه باستمرار ليغادرا الشقة، لكن لاو يونغ سئم إلحاحها.

وحينما تلحّ عليه لونغ سي شيانغ بمغادرة البيت، يبعد يدها، ويذهب إلى النافذة حافي القدمين ويفتح الستارة، فيغمر نور الشمس الغرفة، وتصبح أصوات الحيوانات أشد حدّة، وتشعر لونغ سي شيانغ بأن كلّ شعرة في رأسها منتصبة. كانت تحكي لها والدتها في صغرها قَصصاً عن العالم السفلي، أليس هذا المكان مثله؟ وهل جاء بها لاو يونغ إلى هنا بنيّة قتلها؟ أو العكس، هل تسكن بإرادتها في هذا المكان بنيّة قتله؟

كان هناك مَن يرسل لهما الطعام بسرّية تامة، لذا لم يكونا في حاجة للنزول إلى الطابق الأسفل. كانت لونغ سي شيانغ خائفةً من النزول، فيما

لا ينزل لاو يونغ لكي يقلع عن شرب الخمر. كانت لديه فكرة ساذجة بأنه إن أقلع عن الشرب ستعود معه لونغ سي شيانغ إلى بيته. ورغم أنها سخرت مراراً من فكرته، إلّا أنه رفض النزول.

وكما كان متوقعاً، سرعان ما اتخذ كلٌّ منهما من الآخر عدوّاً بسبب تلك الحياة المُقيّدة. قفزت لونغ سي شيانغ من النافذة، وكان لا يزال بوسعها الركض بعد سقوطها.

بعد هروبها من منطقة «مساكن المتزوّجين حديثاً» بوقت قصير، عادت لونغ سي شيانغ للسكن معه. ومنذ ذلك الحين، كانا يذهبان من وقت إلى آخر. لم تفهم سبب عودتها. كانت للبيوت الصغيرة المُشيّدة في ضواحي المدينة القاحلة والنائية سحرٌ غريب يسيطر عليها، سحر يتعلّق بـ لاو يونغ. وكل مرّة يقترح أن يذهبا هناك، تدهمها لهفةٌ عارمة، فإلامَ كانت تتلهّف؟ عجزت عن معرفة ذلك رغم سيطرته على تفكيرها. وبالطبع، لن تستطيع العيش هناك طويلاً مع هذا الرجل، فسوف تشتدّ نزعة القتل. فهي تخشى أن يقتلها، أو أن تقتله هي.

تشاجرا في إحدى المرات، وجلس لاو يونغ في ذاك الصندوق الخشبي (لم تفهم سي شيانغ السبب وراء وضع صندوق خشبي كبير هنا، فأخبرها لاو يونغ أنه التابوت الذي جهّزه لنفسه)، ثم قلّب عينيه الجاحظتين، وتنهّد قائلاً:

- سي شيانغ، لأكن صريحاً معكِ، لقد وُلِدت في هذا المكان. كان في ما مضى تلة صغيرة، حفر أهالي قريتنا بعض الكهوف المصطفّة مثل «مساكن المتزوّجين حديثاً»، وفي إحدى السنوات، سافر شباب القرية جميعاً للعمل، وحين عادوا اكتشفوا أن القرية أصبحت أرضاً مستوية، وفرَّ العجائز والأطفال إلى القرى المجاورة. شعرنا بالسعادة لأن القرية سوّيت

بالأرض، فأقمنا خياماً واشتغلنا في زراعة الأرض البور، فمَن كان يتوقع أن يتفشّى وباء الكوليرا؟ بعد ذلك مات الجميع، ولم يبقَ غير أربعة أفراد من أهالي القرية. وهذه هي قصة «مساكن المتزوّجين حديثاً».

جلست لونغ سي شيانغ على السرير مرتعبةً ممّا سمعته، ثم خلدت إلى الصمت.

كانت هبّات الريح تتتابع في الخارج، وفي جوفها صوتٌ معدني. وأسفل الضوء، كان الجدار يتحرّك ببطء، وفي زاويته المعتمة لمع بمكرٍ خنجران.

قالت ببطء: «لاو يونغ، لماذا لا تثق بي؟!».

- هذا قدر محتوم يا سي شيانغ. هل بوسعك تصديقي؟

ضحكت سي شيانغ وقالت: «لا أستطيع. كلامك صحيح، إنه قدر محتوم. وفي الواقع إن حياة الكهوف أفضل بكثير، أنت قريب مني، وأنا قريبة منك، نستمع معاً إلى الصوت القادم من الأرض. لكن الناس يسأمون، فيسوّون التلال بالأرض، ويركضون هنا وهناك مثل بنات عِرس».

- أحنّ إلى الكهوف القديمة. كان كهف عائلتي عميقاً لدرجة أنني كلّ مرّة أدخل فيه من البوابة يداهمني إحساس وكأنني لن أخرج مرّة أخرى. وكنا ننام في الليل نوماً عميقاً.

- أجلس هنا وأفكّر في تلك الحياة التي كنتم تعيشونها، وانصرف تفكيري في الحال إلى مصنع غزل القطن الذي كنت أعمل فيه. ففي هذا الصندوق الكبير الخانق، سمعت أيضاً الدويّ القادم من جوف الأرض.

سمعَتْ أثناء حديثها صوت حيوان يخربش الباب، لكن الباب لم يُفتح، وبطريقة ما دخل الحيوان إلى الغرفة. كان كبيراً كماعز، لكنه ليس ماعزاً. دخل الغرفة ووقف ساكناً، بدا بهيئةٍ عنيدة جداً.

همست له: «هل هو مؤذٍ؟».

ضحك لاو يونغ وقال: «ما الذي تقولينه؟ إنه والدي!».

ذُعَر الحيوان من ضحكته، وفرَّ إلى الخارج، وصفق الباب خلفه بشدّة. وبدا وكأن هناك قطيعاً في الردهة يهبط إلى الأسفل بالتتابع.

- أخبِرني الحقيقة يا لاو يونغ، هل أهالي القرية جميعاً مدفونون بالأسفل؟

- لِمَ سأكذب عليكِ في شيء كهذا؟ كلّ الناس الذين يعيشون قريباً من هنا يعرفون هذا الأمر.

نزلت لونغ سي شيانغ من السرير، واستلقت إلى جانبه في الصندوق الخشبي الكبير.

احتضنته بشدّة، وهمست في أذنه: «هل ستنام هنا بعد موتك؟».

لم يجبها لاو يونغ. كانت ترتجف، وكان يرتجف هو أيضاً. أحسّ الاثنان ببردٍ نافذ ينتقل إلى جسد الآخر كلّما تعانقا أشدّ. أرخت لونغ سي شيانغ ذراعيها أولاً، ثم تركها هو الآخر بعد ذلك.

قالت: «الثالث عشر من أكتوبر هو ذكرى رحيل طفلي».

ردّ لاو يونغ: «أريد أن أشرب موتاي، إن متّ لن أستطيع شربه».

- هناك زجاجة إلى يمينك، وضعتها هناك.

- انتبهت للزجاجة منذ فترة قصيرة. لا أستطيع الشرب، إن شربت سأموت. يا لكِ من امرأة ماكرة! أنصتي إلى زقح القرود في الجبل.

تحدّثا إلى أن أُنهكا من الكلام، فاستغرقا في نوم عميق. حلمت لونغ سي شيانغ أنها سقطت في كهف جليدي، واستنجدت بـ لاو يونغ حين رأته. لم يقفز لإنقاذها، بل جذبها إلى الأسفل. كانت المياه شديدة البرودة، وأحست أنها تموت على مهل.

نامت لونغ سي شيانغ في الكهف الجليدي لمدة طويلة، ربما أسبوعاً؟ وشعرت بشكل مبهم طوال هذه المدة أن لاو يونغ في الماء، في مكان أعمق أسفلها. عجزت عن الخروج بنفسها، لذلك لم تستطع إنقاذه. كانت ثمة فكرة تداعب ذهنها من وقتٍ إلى آخر: «هل هذا هو الموت؟». رغبت في المقاومة، لكنها كانت خائرة القوى.

وخزها شيء مثل سيف في جبهتها. «آه!» صرخت وفتحت عينيها. لم يكن إلّا ضوء الشمس.

اختفى لاو يونغ، وخيّم على الغرفة صمتٌ مطبق.

كان الخنجران معلّقين في الزاوية، وانطفأ بريقهما، ولم تعد تثير الانتباه.

«مَن هناك؟!» صرخت بحدّة.

ردّ صوت جين تجو بصوت خفيض: «مَن؟ لا أحد هنا».

– آه، أنتِ! جين تجو، سأموت.

– أنا مستعدّة للموتِ بدلاً عنك، لكن للأسف لاو يونغ يرفض.

– أنا آسفة يا جين تجو. لا، عليّ ألّا أتفوه بهذا الكلام، لا يوجد شيء نأسف عليه.

خرجت جين تجو من العتمة، وسحبت لونغ سي شيانغ من الصندوق الخشبي، وأمرتها أن تستحمّ وتتزيّن، وقالت إن الظلام يهبط، وأرادت أن تذهبا معاً في نزهة، وقالت إن السيارة التي استأجرتها تنتظر في الأسفل.

استرجعت لونغ سي شيانغ أثناء استحمامها كلّ أحداث الأيام الثمانية السابقة، ولم تتوقف عن الارتجاف رغم أن الجو لم يكن بارداً.

سألت نفسها: لعلّ هذا ما كانت تتوق إليها دائماً؟ حتماً، وإذاً فلماذا

تأتي مرة تلو الأخرى إلى هذا المكان؟ هنا فقط شعرت حقّاً بعمق جذور لاو يونغ. قال لها في البداية: «أنا سكّير، وأعمل في مجال الأسمنت».

تبرّجت لونغ سي شيانغ ونزلت مع جين تجو إلى الطابق الأسفل، ثم إلى الخارج. كانت الشمس تغرق، وبدت المنطقة في الوقت ذاته وكأنها تغرق أيضاً. ورغم أنها كانت تقبض على ذراع جين تجو بشدة، إلّا أن الخوف من الموت لم يتلاشَ من داخلها.

كان السائق رجلاً أحدب، يتحدّث بطريقة لئيمة.

خرجت السيارة من المنطقة في طَرفة عين، ولاحظت لونغ سي شيانغ أن مصابيح حمراء معلّقة على بوابات الڤلل.

- أعتقد أن هذه الڤيلّا هي بيت لاو يونغ، ولم يستأجرها. فلماذا يتسلّل ويكذب؟

- بالطبع هذا بيته. لا يمكن أن يبني بيته على الجبل، ربما يستطيع فقط أن يخبّئه بين الجموع.

لم تُفاجأ جين تجو بهذا الأمر.

وصلت السيارة إلى أسفل تلة صغيرة أثناء حديثهما. نزل السائق واختفى في لمح البصر. كان أمامهما سفح تلّة مظلمة سُوِّيت أرضها. لوّحت جين تجو بذراعها في الهواء وأخبرتها أن هذا المكان مليء بالكهوف، وسألتها ما إن كانت راغبة في رؤية أحدها.

بدأت لونغ سي شيانغ ترتجف وقالت: «هل يسكنها أحد؟».

- بالطبع هي مسكونة، لكنهم يغلقون على أنفسهم في مؤخرة الكهف ولا يخرجون مرّة أخرى. لقد عرفت هذا الأمر بالمصادفة.

تنهّدت سي شيانغ قائلة: «لا عجب أنّ لاو يونغ ماكر وعنيف، إنه ناجٍ من كارثة».

لم تكن راغبة في البقاء في تلك البقعة المظلمة، فدفعت جين تجو إلى سيارة الأجرة، واندسّت داخلها هي الأخرى، وأغلقت الباب بقوة. كانت تريد العودة إلى المدينة في الحال.

انتظرت المرأتان طويلاً إلى أن جاء السائق الأحدب، وشغّل السيارة وهو يسبّ ويلعن.

قالت جين تجو: «يا للأسف، ألا تشعرين بقليل من الفضول؟ لقد وضعت أذني عدة أيام على الجدار، وسمعت لاو يونغ يتحدّث مع والده. أعتقد أن والده قد أصبح مومياء».

– هل تقصدين أن لاو يونغ يعيش في الكهف؟

– نعم، كلّ سكّان «مساكن المتزوّجين حديثاً» هكذا، يعيشون في المكانين. أليس هذا في غاية الرومانسية؟

اعترضت مجموعة كبيرة لا تحصى من الحيوانات طريق السيارة. واستطاعت لونغ سي شيانغ أن تميّز أنها مثل الحيوانات التي انسلّت إلى الطابق العلوي من قبل. كزّ السائق على أسنانه وضغط دوّاسة البنزين، فتعالت صرخات حادة من كلّ الأرجاء تشبه بكاء رُضَّع، ثم فقدت لونغ سي شيانغ وعيها.

عندما فتحت عينيها رأت جين تجو تضع منشفة مبلّلة على جبينها، وأدركت أنها تستلقي في غرفتها في منطقة «مساكن المتزوّجين حديثاً».

قالت جين تجو وابتسامة تظهر على وجهها: «حملتك على ظهري، هل ترين كم أنا قوية! أُصبتِ بالحمّى، فأتيتِ بكِ أنا وابن العم!».

– مَن هو ابن العم؟

– ذاك الأحدب، إنه ابن عم لاو يونغ، وشريكه في التجارة، وحبيبي.

ردّت لونغ سي شيانغ بكآبة: «آه، مبارك!».

- إنه رجل رائع، أخطّط للزواج منه. وهو مريض ولن يعيش طويلاً أيضاً، لذلك سنقضي ما بقي من أيامنا معاً. إن الأحدب رجل طيّب، لا تهتمّي بالمظاهر! انظري! لقد أحضر لكِ حساءً ساخناً، اشربي قليلاً!

شعرت لونغ سي شيانغ بتحسّن كبير بعد أن شربت الحساء.

- هل ستسكنين هنا بعد زواجك؟

- لا، لقد قرّرنا أن نعيش في كهف، واخترنا الأفضل وأثّثناه. وأردت أن أريكِ بيتي الجديد مساء أمس.

- هل ستعيشين مع هؤلاء الأموات، ألا تخافين؟

- في البداية لم يوافق الأحدب، لكنني أقنعته. ما خَطبُ الأموات؟ أَلن نموت جميعاً؟ إنني أحب هذه الكهوف، وهي دافئة حقاً. حين ننام في الداخل تراودنا أحلام سعيدة بأننا مع أهل القرية، وزهور السلجم الذهبية في كلّ مكان. سي شيانغ! سي شيانغ! لا تغاري مني، سآتي بعد يومين لاصطحابك!

قلّبت عينيها من دون اهتمام، وأحسّت أن المستقبل مظلمٌ أمامها. لقد عثرت جين تجو الآن على ملاذها، أما هي.. فتشعر بشيء من الحزن، ربما بسبب المرض. لكنها سرعان ما سيطرت على مشاعرها، وفرحت لحظّ هذه الأخت السعيد. واتفقت مع جين تجو على أن تذهب معها غداً لرؤية منزلها الجديد، وأرادت أيضاً أن تختبر المكان، لأن لاو يونغ له ذكريات هناك.

حينما همّت جين تجو بالمغادرة، جذبت لونغ سي شيانغ ذراعها بقلق وحذرتها مُكرّرة: «لا ترحلي للأبد يا جين تجو! إن الحب شيء جميل، لكنّه ليس أشدّ رسوخاً من عاطفة الأخوّة. الحبّ أمرٌ خطير. لديّ حدسٌ

بأن ثمّة سرّاً مدفوناً في كهوفكم، لكنّي لا أعرف ما هو حتى الآن، لذا توخّي الحذر!».

أنهت كلامها وأفلتت ذراعها.

واكتشفت جين تجو أنها كانت عابسة طوال الوقت.

أوصلهما الرجل الأحدب إلى الكهف، ثم استدار وقاد السيارة بعيداً.

بعد أن دخلت المرأتان تحتضن كلٌّ منهما الأخرى، شمّت لونغ سي شيانغ رائحة حامضة كثيفة، ربما منبعثة من طلاء الجدران. ورغم أن النور خافت في الداخل، إلّا أنها استطاعت رؤية أن الغرفة قد أُثّثت حديثاً. في البداية دخلت الاثنتان إلى غرفة، ثم إلى غرفة في الداخل الأعمق، ثم إلى غرفة ثالثة. وكان في الغرفة الثالثة باب مفتوح يبدو أنه يؤدي إلى غرفة رابعة في الداخل الأبعد عمقاً فدخلتا. شعرت لونغ سي شيانغ بالخوف، فتوقفت وتأملت الغرفة الرابعة المعتمة، وانتبهت إلى بابٍ موارب في الجدار يفضي إلى غرفة خامسة.

همست لونغ سي شيانغ: «يا إلهي، هل ستعيشان في بطن الجبل؟ لقد سُوّيَ بالفعل. ما هذا الصوت؟».

- آكل النمل. والآن بما أنه لا يوجد جبل، لا تزال حيوانات صغيرة مجنونة تذرع المكان ذهاباً وإياباً. سي شيانغ، اجلسي على الكنبة هناك!

جلست المرأتان مثل الأيام الخوالي متشابكتي الذراعين. لم تفارق نظرات لونغ سي شيانغ تلك الغرفة الخامسة. رأت شخصاً طويلاً ونحيفاً يدخل من الباب ثم يخرج (أو يدخل)، وبعث فيها هذا الموقف شعوراً جديداً لم تعهده من قبل، وتبدّد قلقها شيئاً فشيئاً.

وبعد قليل انطفأ الضوء، ولم يبقَ غير نور خافت ينبعث من غرفة سادسة خارج الغرفة الخامسة.

كان ثمة صوت حفيف ينبعث من الغرفة السادسة، وكأن هناك مَن يدير حجر الرحى.

مرَّ وقتٌ طويل جداً منذ أن سمعت صوت طحن القمح اليدوي، مما استدعى ماضياً بعيداً في ذهنها. وقفت هناك يدهمها تأثُّر لسببٍ ما غامض. دفعتها جين تجو إلى الغرفة الأخرى لترى ما يحدث.

أظلمت الغرفة ما إن وصلتا إلى الباب.

كان صوت الدقّ مستمراً، وهناك رجل يتكلّم.

- يا أخت جين تجو، هل تريدين وضيفتك أن تشربا شاي مسحوق العظام؟ سأجهّزه بعد قليل. لقد هطل المطر أمس وبلّل هذه العظام.

شعرت لونغ سي شيانغ بشيءٍ زَغِبٍ يلامس وجهها، فصرخت وسحبت جين تجو ولاذت بالفرار إلى الغرفة الخارجية الأولى.

وعبر الباب الزجاج بدا بريق النجوم البعيدة والضوء متداخلَين، ويا له من منظر مُلهم! تذكّرت لونغ سي شيانغ أنها جاءت في الليل، لكن ما رأته في هذه اللحظة كان الغسق. كان هناك شخص يعزف «عشاق الفراشة» على آلة أرهو في مكان قريب، فبكت لدى سماعها المعزوفة. لا تزال تسمع صوت الدقّ اليدوي، إلّا أن المشهد البديع أمامها بدّد ذعرها.

قالت جين تجو: «سي شيانغ، لقد عثرت على السعادة».

- أشعر بذلك يا جين تجو! آه، كيف لهذه الأمور الطيبة أن تهبط علينا! إنني سعيدة لدرجة لا أستطيع تحمّلها، أريد أن أبكي! انظُري إلى الفهد في السماء!

ثم اتكأت على كتف جين تجو وبكت.

- هيه! هيه! لا تحزني! ستتذكّرينني حين يهطل المطر. هذا الكهف هو ملاذي وحيث أستريح، لقد كانت رحلتنا طويلة! وإن سرنا إلى الأمام فسنجد كثيراً من الغرف، وكثيراً من الأشخاص الذين يدقّون حجر الرحى، لم أستطع معرفة عددها من قبل. أُصاب بالأرق في بعض الأحيان عندما أتذكّر الماضي، ولا أهدأ ولا أستطيع النوم إلّا حين أسمع صوت الدقّ، فهو كتهويدة. كلّ شيء هنا من ترتيب الأحدب. لم يكن غير زبوني في البداية، ثم وقعنا في الغرام وتغيّر كلّ شيء! سي شيانغ، هل ترين هذا الفهد، إنه يركض إلى «مساكن المتزوّجين حديثاً»! يا له من طقس رائع! هل تذكرين في أيّ عام رحلنا عن مصنع غزل القطن؟ أنا في غاية السعادة، حتى حين أتذكّر تلك الأيام المخيفة يملؤني الفرح. لقد قضى الأحدب نصف عمره وهو يبني هذه الكهوف التي تشبه القصر. وأخذني في إحدى المرات إلى الداخل، وظللنا نمشي إلى الأمام، ونعبر غرفة تلو الأخرى، وقال إننا قطعنا ربع المسافة، وسألني ما إن كنتُ أرغب في الاستمرار. في البداية خِفتُ كما خِفتِ للتو وتراجعت، ومنذ ذلك الوقت جرّبت مرّاتٍ عديدة، كنت أتوقف ما إن أصل إلى الغرف الخارجية. كل غرفة فيها سرير مفروش بأوراق نبتة إلشولتزية الناعمة، مريحة جداً في النوم. هل ترغبين في النوم هنا هذه الليلة؟

كانت لونغ سي شيانغ تفكّر في بنية هذا الكهف وهي تصغي إلى جين تجو. وللحظة، لمع نور في ذهنها، ثم سرعان ما انطفأ من جديد. تأملت وضعها بعناية، ثم أخبرت جين تجو بصوت منخفض أنها موافقة على المبيت هنا، لكنّها لا بدّ أن تعود إلى «مساكن المتزوّجين حديثاً» والبحث عن لاو يونغ. وأحسّت أنه ضائع ويتلمّس طريقه في هذه الغرف المظلمة، وقلبه مفعم باليأس. ولأنها حبيبته، فعليها ألّا تخيّب أمله، وإلّا ستندم طيلة

حياتها. كانت ممتنّة جداً لجين تجو، لأنها علّمتها هذه الليلة إدراك معرفة جديدة ستجعلها أكثر ثقة في حياتها القادمة.

ودّعت جين تجو على باب الكهف ثم ركبت سيارة الأحدب.

نامت في المقعد الخلفي حين سمعت الأحدب يتحدّث فجأة.

- أخشى أن عاملات مصنع القطن لا بدّ أن يقطعن آلاف الكيلومترات من حياتهن في ورش العمل. إن الكهوف التي بنيتها تشبه ورش العمل، لكن طريقة عملها مختلفة.

- أيها الأخ الأحدب، لقد فهمت الآن، لقد عثرت جين تجو بالفعل على سعادتها. لن تغرَق في الكآبة وهي تعيش مع شخص مثلك.

ظهرت «مساكن المتزوّجين حديثاً» في الأمام، وكان هناك كرنفال رائع. وشعرت لونغ سي شيانغ بلهفة شديدة للعودة. أشعل الأحدب ضوء السيارة في الداخل لعدة ثوانٍ، فرأت التجاعيد المحفورة مثل خندق على جبهته. وخلّف تعبيرٌ ما في وجهه انطباعاً مألوفاً في نفسِها.

- أيها الأخ الأحدب، هل أنت ابن عمّ لاو يونغ حقّاً؟

ردّ بنبرة ثابتة: «لا، إنه أخي الصغير. لقد أخبرت جين تجو أنه ابن عمي خشية أن تسأل عن أمور أخرى، أمور محرجة».

- أي أمور؟ هل يمكنك أن تخبرني؟

- بالطبع، أنتِ امرأة قوية، وصحتك جيدة. هذا ما حدث: حين كنت في الثانية عشرة، دفعني أخي الصغير في بئر، لأنه أراد أن يستحوذ على منجلٍ جميل يُستخدم لقطع الخشب، صنعه أفضل حدّاد خارج القرية. كُسر عمودي الفقري لكنني لم أغرق، أليس هذا غريباً؟

- هل تكرهه؟

- لا. كان الجميع يشعر بالأسف تجاهه. وخشي الجميع طوال هذه

السنين أن يموت بسبب الإفراط في الشرب. ونحن مطمئنون الآن لأنه معك. إنه محظوظ للغاية.

- أنتَ محظوظ أيضاً، أيّها الأخ الأحدب.

- أجل. إن جين تجو لا تراني شخصاً معاقاً أبداً. لقد وصلتِ يا آنسة سي شيانغ، اعتني بنفسك جيداً!

نزلت لونغ سي شيانغ من السيارة ودخلت المنزل، وصعدت إلى الأعلى من الخلف وجلست على السرير. كانت الأضواء تلمع خارج النافذة، حتى إنّ هناك عدّة كشّافات أيضاً. حاولت أن تفكّر ملياً لتعرف أيّ عيدٍ هو اليوم. عادت إلى هذا المكان من جديد. نظرت إلى الصندوق الخشبي الخاوي أمامها، وكان فيه قميص قديم لـ لاو يونغ. كان الوقت منتصف الليل، وداعبت ذهنها فكرة بأن لاو يونغ سيظهر إلى جانبها بصورة مفاجئة، لكن بعد مرور وقت طويل لم يأتِ، وشعرت بأنّ فكرتها مضحكة بعض الشيء. أخذت علبة حليب من الثلّاجة وتناولت بعض البسكويت.

ظلّت تتجوّل في الغرفة، وتنظر إلى تموّجات الضوء على الأرضية. رأت نفسها مثل فيلٍ في غابة، مثل أنثى فيل ذات روحٍ غنيّة، وطبع رصين. ثم سقطت متعبة على السرير في النهاية، وهي تتخيّل سعادة السباحة في محيط من النور.

لم يأتِ لاو يونغ في اليوم التالي، وفكّرت لونغ سي شيانغ: إنّه قد خمّن معرفتي بسرّ حياته وأصيب بصدمة، لذلك لم يأتِ!

أوصل لها صبيّ وجبة غداء شهيّة في منتصف الظهيرة. فأمسكت الطفل الذي كان يحاول الهروب، وأمرته أن يعترف بالحقيقة وإلّا فلن تطلق سراحه.

- هل تسألين عن جدّي؟ لقد ذهب إلى الجنوب للاهتمام ببعض أعمال التجارة، وسيبقى هناك لأكثر من شهر، وأخبرني أن أجلبَ لكِ الطعام كلّ يوم إن لم تغادري.

- هل هو جدّك الحقيقي؟

- لا. إنني أجلبُ الطعام لكلّ الزوّار هنا. وقال جدّي إنكِ تعانين من مشكلة عاطفية، وعليّ أن أمنع دخولَ الخراف إلى شقّتك. لذلك أبعدتها كلّها، لكنّي لا أفهم المنطق وراء ذلك.

حدّقت لونغ سي شيانغ إلى هيئته الجادّة، ورأت أنه ناضج بالنسبة لعمره. تركته وأشارت له بشرود أن يرحل. فغادر بهدوء مثل قطّة.

كانت ناقمة على لاو يونغ.

نزلت إلى الطابق السفلي ووقفت عند المدخل. خيّم صمتٌ مطبق على الأرجاء، وتلاشت أنوار الأمس البرّاقة. أين اختفت تلك الأضواء؟

خرجت امرأة من الڤيلّا التي على الجهة اليمين، وسارت برشاقة ودلال صوب لونغ سي شيانغ.

«هل تنتظرين حبيبك؟»، سألتها وهي تطرف بعينيها الكبيرتين.

ردّت لونغ سي شيانغ بكآبة: «ومَن عساي سأنتظر في مكان كهذا؟».

حدّقت في لونغ سي شيانغ بجدّية وقالت: «كان ينتظرك هنا منذ وقت غير طويل، وواصل القول إنك ستأتين قريباً، ورفض أن يغادر المكان للحظة واحدة. أين كنتِ آنذاك؟».

لم تردّ لونغ سي شيانغ على سؤال هذه الفتاة المزعجة فابتعدت عنها، وأشارت إلى سيارة أجرة.

سمعت الفتاة تهتف خلف سيارة الأجرة قائلة: «لقد عاد، لكنّكِ رحلتِ، يا للسخافة!».

عادت لونغ سي شيانغ إلى غرفتها المتواضعة في منتجع الينابيع الحارة.

لا تعرف كم مرَّ على غيابها، ولكن على كلّ حالّ مرَّ وقت طويل جداً.

طرق مدير الفندق على الباب، فأطلّت برأسها وسألته عمّا يريد.

- أيتها الآنسة زهرة الخوخ، ما دمتِ عملتِ في المهنة، فليس لديكِ سبب لتشنقي نفسك على شجرة. إلى جانب ذلك، لا داعي لأن أتحدّث كثيراً عن شخصية لاو يونغ هذا، فأنتِ تعرفين. ما الذي لا يجرؤ على بيعه؟ لقد باع حتى والده ليسدّد دينه.

كان يختلس نظراتٍ إلى جسدها أثناء حديثه.

- أيها المدير، لقد وصلتُ إلى طريق مسدود، ماذا أفعل؟

نظرت إليه وعيناها مغرورقتان بالدموع.

«أجل، ما العمل؟» -واغتمّ المدير هو أيضاً- «في العادة عندما يحدث هذا الأمر بين موظفينا والزبائن، تكون النتيجة سيّئة. وأنا المَلوم أيضاً، كان عليّ أن أحذّرك. هيه، أخبريني! هل بوسعك القتل؟!».

- لم أجرّب من قبل، على الأرجح لن تكون هناك مشكلة.

- حَسنٌ إذاً. في أسوأ الأحوال سيموت أحدٌ ما، وهذا الأمر يحدث دائماً.

ترك المدير بابها، وسار في الردهة التي تفضي إلى قاعة الاستقبال، ورأت أنه بدا من الخلف شديد الوحدة، وكأنه شريد لا مأوى له. تأملت كلامه لفترة طويلة. بالطبع لم يقصد أن لاو يونغ سيقتلها، إذاً، هل كان يُلمّح إلى أنها ستقتله؟ ذكّرها هذا السؤال القديم بما حدث في «مساكن المتزوّجين حديثاً»، وبدت وكأنها ترى نفسها تقف على جرف. هل وصلت

إلى هذه النقطة؟ أم المدير يبالغ في الحقائق؟ حتى جين تجو تجد أن لاو يونغ رجل حنون، رغم أنه يكون سريع الغضب في بعض الأحيان، ومهما حدث فلن تستطيع أن تربط بينه وبين الصبي الذي وصفه أخوه الكبير. يبدو أنه لا يجوز الحكم على المرء من مظهره. إذاً ماذا عن لونغ سي شيانغ، أيّ نوع من الأشخاص هي؟

حلمت حلماً غريباً عند الفجر: أن مُجرماً يحاول أن يقتل آسي بسكين. ولأنه قد مضى وقت طويل منذ أن رأت آسي، أصابتها الدهشة؛ لماذا تبدو هكذا؟ لم تكن قبيحة فحسب، بل كان سلوكها سوقيّاً أيضاً. وحين عبرت من أمام لونغ سي شيانغ، كان المجرم على وشك أن يدركها، فاعترضت طريقه وأصاب الخنجر صدرها. فقالت بهدوء وكأنها تخفّفت من حِملٍ ثقيل: «هذا أنا، قتلت نفسي!». تفجّر دمها غزيراً ولزجاً، وكان المجرم يترنّح أمامها، وبدا مثل زوجها السابق شياو وو، وفي عينيه نظرة رعب.

طرق أحدهم الباب بحذر، كان زبونها، عامل ديكور خجول متوسّط السنّ.

فتحت لونغ سي شيانغ الباب، فدخل.

- الآنسة زهرة الخوخ، ظننت أن مكروهاً أصابك، قال المدير إنك عدت إلى مسقط رأسك.

- لا يمكنك أن تصدّق كلام المدير، إنه دائم الكذب.

- الآنسة زهرة الخوخ، أخبِريني: أنا متزوّج لكنني أفكّر فيكِ، ولا أستطيع منع نفسي من المجيء إلى هنا مهما حاولت. أخبريني: هل أنا شخص سيّئ؟!

- لا يوجد شخص جيّد يأتي إلى هذه الأماكن.

- فهمت.

تضاجعا مضاجعة كئيبة. كانت نظرة عينيه تشبه عيني المجرم في الحلم. أصبح جسدها راضياً. سألت العامل: «لن تستمرّ في تعذيب نفسك، أليس كذلك؟».

- أعتبر نفسي روحاً ميّتة.

ظلّت لونغ سي شيانغ مستلقية في السرير لفترة طويلة بعد رحيله، تنصت إلى الأصوات القادمة من المنتجع، فيما بدا أن هناك الكثير من الرجال والنساء يلعبون في الماء، أصواتهم مختلطة وتصدر بين حين وآخر صرخاتٌ مبالغ فيها. كان مشهداً زائفاً من الإثارة.

انضم إلى مكتبة .. امسح الكود

- 4 -

شياو يوان زوجة وي بو

تركت شياو يوان مهنة التدريس منذ سنوات طويلة، واشتغلت في عمل يجمع ما بين الإدارة والتجارة، وكانت مهمّتها الرئيسة هي السفر في رحلات عمل.

تعرّفت شياو يوان على الدكتور ليو في إحدى رحلاتها. يعيش في مقاطعة العشّ حيث افتتح عيادةً متخصّصة في الطبّ الصيني التقليدي. وقابل شياو يوان أثناء سفره بالقطار إلى العاصمة لشراء الأعشاب الطبية. حجز الاثنان تذكرة ركوب لسريرين متقابلين. علّقت شياو يوان ساعة جيب على مقدّمة السرير، ووضعت ساعة إلكترونية ضئيلة الحجم على طاولة الشاي، وراديو إلى جانب المخدّة يومض مؤقّتُه.

كان الطبيب ليو رجلاً وسيماً، من هؤلاء المجتهدين ذوي الوجوه الجامدة الخالية من أيّ تعبير. وبالطبع رأت شياو يوان على الفور أنه في مثل عمرها تقريباً.

صدم الطبيب ساعتها الإلكترونية أثناء صبّه للشاي، فاعتذر مراراً. وكان صوته مزعجاً، فقطّبت شياو يوان حاجبيها.

وفي جوف الليل، ورغم أنه نام ووجهه إلى الفاصل بين الأسرّة، إلّا أن

مؤقّتات شياو يوان بعثت في نفسه الاضطراب، وأحسّ أن ثمّة شرّاً يحيط بتلك المرأة كهالة. كان الراكبان في السرير العلوي وفي المنتصف من ناحية الطبيب ليو قد نزلا من القطار، أما ناحية شياو يوان فكان السريران فارغين منذ البداية. وهذا يعني أنه لا يوجد غيرهما في المقصورة. جلس الطبيب متململاً، وأراد أن يغيّر موضعه لينعم بنومٍ مستقرّ، وفي تلك اللحظة تقلّبت شياو يوان في فراشها.

قالت بحدّة: «ماذا تفعل؟!».

فردّ الطبيب متلعثماً: «أنا، أريد أن أغيّر سريري!».

«ألا ترى أن الساعة الثانية صباحاً؟ هل تريد الموت؟ وأن يُقبضَ عليكِ كمجرم! يا لك من ريفيٍّ أبله!»، قالت وهي تدقّ على مؤقّت الراديو.

- إذاً لن أغيّر مكاني. سأنام هنا، من فضلك لا تغضبي!

- أغضب؟ ليس هناك ما يدعو للدهشة، أنتَ غِرّ!

غطّت شياو يوان وجهها بالغطاء وضحكت.

اختلس الطبيب نظرة إليها بطرف عينه ورآها تعبث بالراديو. كان راديو عجيباً، إذ كان بين حينٍ وآخر يذيع الوقت ذاته، الساعة الثالثة والعشرون. وفكّر الطبيب، هذا مؤسف، لا أمل في النوم هذه الليلة. ولتخفيف ضيقه، تخيّل أنّه يقطف الأعشاب الطبّية في جبال مقاطعة العشّ. كان مولعاً بعشبة طبّيّة تسمى الزراوند، وهي نبتة طريّة، لها ثمارٌ كروية وظريفة جداً. ولحُبّه لشكل هذه الثمار، كان يستخدم نبتتها دائماً لتسكين الآلام. كان هناك جرفٌ أعلى الجبل، أسفله كهفٌ تنمو فيه العشبة بغزارة. وكان الطبيب ليو يقطف قليلاً كلّ مرّة، ويجد حرجاً في قطفِ الكثير منها. وفي الواقع كان يتسلّق إلى الجرف لمراقبة هذه النبتة. يا لها من نباتات برّية بديعة! هل

السبب وراء نموها بهذه الحرية التي لا توصف أنّ المكان شديد الأمان؟ حاد الطبيب بنظره عن شياو يوان إلى ظلام السرير العلوي، فهدأ اضطرابه شيئاً فشيئاً. وكان قد ذهب لتأمّل النبتة قبل أن ينطلق إلى محطة القطار، وأمضى منتصف الظهيرة على الجرف يغمره شعور الرضا.

- هل أنت طبيب متخصّص في الطب الصيني التقليدي؟

تحدّثت شياو يوان فجأة وأفزعته.

- هذا غريب، كيف عرفتِ؟

- تفوح من أدواتك رائحة عقاقير طبّية. لا أطيق الطب الصيني التقليدي، إنه شعوذة، لا يشفي المرضى ولا يقتلهم أيضاً.

- لستُ مجرّد طبيب متخصّص في الطب الصيني التقليدي، بل أستخدم الطب الغربي في علاج المرضى بالعقاقير التقليدية الصينية.

- آه، هذا أفضل بكثير. العقاقير الصينية سحرية، تجعل المرء يفكّر في الجنس.

- هل تتردّدين على الصيدليات التي تبيع العقاقير الصينية؟

- أجل، ولا سيما القديمة منها. لا أذهب لشراء الأدوية، بل أحبّ الوقوف عند الصندوق والمشاهدة. أحبّ قراءة كتب الطبّ ومعرفة الكثير عن الأعشاب الصينية التقليدية.

- قضيت منتصف ظهيرة في الجبال قبل الذهاب إلى محطة القطار. في جبال مقاطعة العشّ أفضل الأعشاب الطبّية في العالم التي نمت لأجيالٍ متعاقبة، بالطبع لا تنمو لأجل المرضى. لكن مَن يمكنه إثبات ذلك؟

- إنك مثير للاهتمام فعلاً. أوافقك الرأي، لكلّ شيء غرضه السرّي. ما أقصده، أن الحياة، بذاتها، مُلهمة.

انتبه الطبيب أن مؤقّت الراديو لا يعلن الوقت أثناء حديثهما.

سألها بصوت منخفض: «هل تتحكّمين في مؤقّت الراديو؟».

قالت بصوت كالهمس: «أتحكّم فيه بذهني».

أقاما بعد وصولهما إلى العاصمة في منزل أخت الطبيب الصغيرة، وأنجز الاثنان أمور عملهما بسرعة. رغبت شياو يوان في الذهاب إلى مقاطعة العشّ، فعاد الاثنان معاً بالقطار إلى منزل الطبيب، أي، عادا إلى عيادته. كان يسكن في الطابق الثاني للعيادة.

وصلا إلى منزله في الصباح، وكان في انتظاره الكثير من المرضى. وبقي منهمكاً في العمل حتى حلول الليل، وكانت شياو يوان تجلس جانباً تراقبه وتراقب تلك الأدوية، والمرضى أيضاً.

- إنك توتّرينني أيتها السيدة، لا بدّ أن أعمل جاهداً كي لا أفقد تركيزي!

ذهبا إلى جبال العشّ في صباح اليوم التالي، وقضيا اليوم كاملاً في التجوّل هناك. وأثناء نزولهما من الجبل وفي طريق عودتهما إلى العيادة، شعرت شياو يوان بأن المرة القادمة التي سيلتقيان فيها ستكون في المستقبل البعيد، أو أسوأ، أنهما لن يلتقيا مطلقاً. ولتجنّب الشعور بالحزن، لم ترجع معه إلى العيادة، بل ودّعته في مفترق طرق وذهبت مباشرة إلى محطة القطار، وهي محطة صغيرة متهالكة.

كانت، ولفترة طويلة، كلّما فكّرت في الطبيب ليو، تعجز عن كشف مشاعرها الحقيقية. هل كانت تلك الأيام الثلاثة ما يسمّيه الناس: «العلاقة الغرامية»؟ ظلّت محتفظة بتذكرة القطار، وبقرنٍ صغير لوحيد قرن أهداه لها الطبيب ليو. لكن علامَ تبرهن هذه الأشياء؟ قال لها أثناء جلوسهما على سفح الجبل: «لقد فهمت، أنتِ الوقت الذي يستحيل أن يملكه أحد».

أجابه الراديو في حقيبتها: «الساعة الآن الثالثة والعشرون».

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، وانفجرا في الضحك حتى دمعت أعينهما، ثم أشاح كلٌّ منهما بنظره بعيداً بحرجٍ شديد.

لم تقابل شياو يوان الطبيب ليو منذ أن هجرته في المقاطعة، وأدركت تدريجياً أنه ينتمي إلى عالم آخر، عالم أحسّت به شياو يوان بطريقة مبهمة وأُعجبتْ به بشدة، لكنه ليس عالمها. كان منغمساً بهدوء في مملكته الصغيرة في تلك البلدة، قائلاً إنه لم يشعر يوماً بعدم الرضا، لأنه يعثر دائماً على شيء لينفّس عن طاقته المكبوتة، كما أن حياته كأعزب تثبت ذلك. كان رجلاً ودوداً ووسيماً، وليس متزوّجاً.

وترى شياو يوان نفسَها امرأةً ذاتَ ذوقٍ رفيع، فقد أحبّت زوجها وي بو، وكانا مُتكافئين ومتفاهمين. ماذا عن ذوق الطبيب ليو؟ لم تعرف شياو يوان، لأنها ما إن تفكّر في هذا الأمر حتى تغمرها أمواج من العواطف. هل الطبيب ليو مثل امرأة الكاميليا، وأن الفرق بينهما يكمن في أن أحدهما مجنون والآخر هادئ؟

في ما بعد أحبّت شياو يوان السفر في مهمّات العمل، لأن مناخ الرحلة يجعلها تستعيد ذكرى مقابلتها بالطبيب مرة أخرى، ولا سيما في الأيام الماطرة، حين تضرب قطرات المطر زجاج النوافذ في المغيب. يا للغرابة! تذكر أن المرّتين اللتين كانت معه في القطار كان الطقس صحواً.

اشترت ساعة أوتوماتيكية تطلق صوتاً نسائياً كلّ ساعتين لإعلان الوقت: «الساعة الآن الرابعة عشرة». وبما أن الطبيب ليو قد أصبح هوّة سحيقة، فقد تلاشت رغبتها في رؤيته. ولن تستطيع نسيانه كذلك، حتى من دون قرن وحيد القرن. مَن بوسعه أن ينسى هوّة تسكن قلبه؟

تعرّفت شياو يوان بعد ذلك على رجلين، حافظت على علاقة جسدية مع واحدٍ منهما، ورغم إعجابها به، إلّا أنها لم تركب معه القطار من قبل. كانت راغبة أكثر في مضاجعته.

- أودّ الذهاب معك إلى العاصمة لمشاهدة عرض «أوبرا لاترافياتا» في المسرح الوطني! متى يكون لديك إجازة؟ أُوشكُ على التحوّل إلى سمكة مجفّفة في هذه المدينة.

«ياما - كِتّان (لقب حبيبها)، لا أستطيع أن أذهب برفقتك إلى العاصمة، إنه مكان يبعث على الكآبة»، قالت له وهي تتأمل خارج النافذة بمزاجٍ مغموم.

فكر كِتّان، لَكم كانت متّقدةً في السرير للتوّ! لكنّه أحسّ أيضاً أنها لم تصل إلى الإشباع التام. هل هي من النساء اللواتي من الصعب إرضاؤهنّ؟ في المرّة الأولى التي مارسا فيها الحب، أفزعته الساعات التي وضعتها إلى جانب السرير، ولم يستطع الاعتياد عليها لوقت طويل. وعندما اعتاد عليها، بعد مشقّة، اكتشف أنها تعيش في مكانين في الوقت ذاته، وأنها مُضلّلة ومن الصعب التنبّؤ بها مثل الرجل الخفيّ. كان كتّان رجلاً شديد الحذر، لذا أحزنه عدم استطاعته الدخول إلى عوالمها. كان لديهما أمرٌ واحد مشترك: كلاهما يقدّران المُتع الدنيوية. كانت أعظم أمانيه أن يجلس في المسرح الوطني المظلم ويشاهد معها عرض «أوبرا لاترافياتا»، على اعتقاد أنه بعد أن يختبر هذه اللحظة، ستكون العلاقة الحميمة بينهما مُرضيةً في الوقت ذاته. كانت فكرته ساذجة، وقالت شياو يوان إنه «عمليّ جداً». وقالت أيضاً: «الجنس ثقب أسود، لا يستطيع أحد أن يفهم كنهه طوال حياته».

كان يعتريه قلقٌ وحزن في كل مرّة يتركها. وفكّر أن يهجرها، وحاول عدة مرات، ولكن من دون جدوى.

قالت بذهن شارد: «حين أجلس في القطار أتحوّل إلى شخص آخر. شخص لن تعرفه. إنه أمر لا يمكنني التحكّم به، لكن معك، أكون واثقة من نفسي، وأحب هذا الشعور».

كان كتّان يعلم أنها تقول الحقيقة، وأن عليه أن يذعن رغماً عنه. وكان يخطر بباله في بعض الأحيان أن طبعها المتقلّب هو ما يجذبه إليها، فلماذا عليه أن يسبر غورها؟ إن هذا يتجاوز قدرته. ويبدو جلياً أنه رجل جشع. لكن كيف للمرء أن ينفذ إلى روحه؟

قالت له منذ وقت غير طويل: «إنك تمنحني شعوراً وكأنني في بستان من الأشجار، أعبر خلالها، وأوراقها الناعمة كالريش في كل مكان، تلامس وجهي، وكأنها تريد أن تخبرني شيئاً، ثم أقول لنفسي: هذه هي السعادة».

- أظن أنك لست سعيدة بدرجة كافية.

في حالك الليل وصمته، أخرجت شياو يوان قطعة قرن وحيد القرن. لم يكن هناك شيء مميّز في هذه القطعة، فلماذا أهداها لها الطبيب ليو؟ أنعمت فيها النظر ووضعتها أسفل الضوء؛ سمعت صخب الغابات الاستوائية، ودويّ رعدٍ بعيد. انزلقت القطعة إلى أسفل السرير، وحين انحنت لتبحث عنها بكشّاف ضوئي، كان النمل يزحف عليها.

كان ثمّة شيء يتحرّك باضطراب في هوة قلبها، وارتجفت يداها من دون توقّف. ألقت نظرة فاحصة من جديد، فرأت أن هذه المخلوقات الصغيرة اختفت من دون أثر. لفّت بقايا قرن وحيد القرن، وصدرت عن حنجرتها آهاتٌ مختلفة عن صوتها الطبيعي، بدت مثل آهات حيوان غريب. ومرّت نوبة الهلوسات بسرعة.

سألت شياو يوان نفسها: هل يعذّبني الطبيب ليو؟ هل سيستمر هذا

الاشتياق اليائس، من طرفٍ واحد، إلى الأبد؟ وهل هذا نوعٌ آخر من السعادة؟ تحمّست شياو يوان لهذه الفكرة. فجأةً شعرت أنها محظوظة للغاية، وقوية جداً، وتلاشى مزاجها المغتمّ الكئيب كلياً. الطبيب ليو شخص قنوع، وعليها أيضاً أن تكون قنوعة. كل شيء مضى، لكن كلّ شيء لا يزال هنا. اتضح أن كلّ ما سعت إليه منذ البداية هو هذا الطموح! كثيراً ما تتضح أشياء عديدة بعد حدوثها! لا يمكن أن يرى المرء ما يخبّئ له هذا المستقبل الشبيه بالضباب، لكن بوسعه أن يظلّ هادئاً ويستحوذ على ما أمامه.

سمعت في منتصف الليل صوت جرسٍ يرنّ رنّة بين حين وآخر: دينغ.. دينغ. كان صوتاً قادماً من المؤقّت الضخم في السماء. كانت محظوظة بتلقّيها رسالة الوقت. لم يكن ثمة الكثير من المحظوظين مثلها في هذه المدينة.

خرجت شياو يوان إلى أسفل شجرة صفيراء اليابان عتيقة ولم ترَ أيّ شخص حولها. لكن كان بوسعها الشعور ببعض عمّال مصنع الصابون يتجوّلون في منطقة المساكن التابعة لها. كانت ليلةً هادئة من دون قمر، مفعمة بالشغف.

عثرت على زوجها وي بو جالساً إلى طاولة حجرية أسفل الشجرة.

قالت متفاجئة: «آه، هذا أنت! كيف لم أرَك للتو!».

– كنت جالساً هنا طيلة الوقت. إنه لأمرٌ مؤسف أن ينام المرء في ليلة كهذه.

ردّت شياو يوان بنبرة صادقة: «أجل. كنت أصادف أحياناً لياليَ كهذه في سفري، لكنّها الأجمل في مساكن مصنع الصابون. وإن رغبت، بوسعي

أن أسمع صوتاً ما مألوفاً، ودائماً يتجوّلون في الأرجاء. وأحياناً، أسمع أنينهم الخافت».

– اشتريتُ لكِ ساعة مكتب صغيرة من طراز جديد، وبها تقويم للتواريخ.

– آه، إنه لطف بالغ منك يا وي بو!

– إنها خفيفة الوزن ولا تُكسر بسهولة.

دخلا معاً إلى المنزل لترى الساعة الجديدة.

فتح وي بو الغلاف، فرنّت الساعة، صوت ناعم جداً، غير مزعج. دُهشت شياو يوان لأن هذا الصوت مثل الصوت ذاته الذي كان قادماً من السماء! ربما لأن هناك مَن يفكّر فيها، لذلك الوقت يفكّر فيها؟

تأملا معاً الساعة وقلباهما يفيضان بالمشاعر.

– اليوم هو يوم السنة الجديدة.

– آه!

ودخل كلٌّ منهما إلى غرفته.

خارج غرفتيهما، بدأ هؤلاء العمّال في الحديث. أصغت شياو يوان مأخوذة إلى أصواتهم المألوفة.

– إنها هي! إنها هي!

– «امرأة الكاميليا»، لقد تحوّلت إلى عمود حجري أمام مدخل المسرح.

– لنأخذ جولة أخرى وننظر من زاوية مختلفة.

– أنا منفعل لدرجة أنني لا أستطيع التقاط أنفاسي. لنذهب هناك، هناك الكثير من الناس!

دفنت شياو يوان رأسها في المخدّة وضحكت بهدوء. إنه لشعورٌ جميل

أن يكون هناك العديد من الناس يتجوّلون جيئةً وذهاباً حولها. ربما كتّان من بينهم، وإلّا، فأين سيكون؟ أرادت أن تنام لبعض الوقت، لكن لم يواتها النعاس في تلك الليلة الجيّاشة. ألَم يكن زجاج النافذة يطقطق أيضاً؟

في اليوم التالي كانت في القطار المتجه إلى الشمال الشرقي، وفي تلك المرّة، كان في السرير قبالتها رجلٌ أعمى، وطلب منها أن تناديه «الجُدجد». قال: «سمعتُ أنكِ تحملين عدة ساعات، لكن بوسعي أن أكون أدقّ منها في حساب الوقت. اسمعي: جو جو، جو جو...» - قلّد صوت الجدجد ببراعة، فجعلها تنفجر ضاحكة.

- تعلّمتُ من الجدجد العجوز الذي يقبع إلى جانب موقد منزلي. وبمضيّ الوقت أصبحتُ ساعة. ثمّة سعادة مخبّأة هنا.

كان يتحسّس صدره بيده الطويلة النحيلة في اضطرابٍ شديد.

سألته شياو يوان بدافع الضرورة: «هل تحتاج إلى مساعدة؟».

لم يردّ. وسمعت شياو يوان صوت دقٍّ مكتوم، مثل صوت طبلة صغيرة.

- هذا صوت خفقان قلبي. لطالما أردت أن يسمع أحدٌ خفقان قلبي ونجحتُ الآن. أعرف أنكِ سمعتِه، أنا في غاية السعادة!

لكنّه لم يبدُ مبتهجاً، بل بدا وكأنه ينتظر شيئاً بكآبة.

قال: «الساعة الآن الثانية وعشر دقائق واثنتا عشرة ثانية».

ردّت شياو يوان: «صحيح، ستأتي».

- مَن؟

- الشيء الذي أنت على موعد معه.

ضحك وقال: «نعم، إنها قادمة! ما رأيك بي كساعة؟».

- إنك تعمل بجِدّ أيها الجدجد! مكانك عند الموقد، لو كنت أنا، أفضّل أن أكون ناسكاً أو متشرداً مختبئاً بين الأحراج.

أظلمت السماء، وزمجر القطار وكانوا قد عبروا شين يانغ.

استعدّت شياو يوان للنوم، رأت الجدجد لا يزال جالساً بثبات. ومدّ شابٌّ مستلقٍ في السرير العلوي رأسه ونظر إلى الأسفل متظاهراً بتنظيف حلقه. وخطر ببالها أن هذا الشاب لا بدّ أنه انتبه إلى حديثهما، فأحسّت بالانزعاج. إلّا أنّ «الجُدجد» كان يجلس بوقار في مكانه، ممّا أشعرها بشيء من المهانة.

استلقت بهدوء، وقالت وكأنها تُحدّث الفراغ: «أحبّ السفر. يبدو المرء خلال الرحلة كأنه عالقٌ في مكان واحد. لكن إن استقرّ في مسقط رأسه، سيشعر وكأنه يطفو».

قال الجدجد بنبرة صادقة: «شياو يوان.. شياو يوان، إن قلبكِ كبير!».

استغرقت في النوم شيئاً فشيئاً، وسمعت بشكل مبهم إيقاع الطبلة الصغيرة المنتظم متبوعاً بصوت رذاذ المطر. يا لها من بهجة! ثم سمعت صرخة مُروّعة.

صدرت الصرخة عن المضيفة، لأن المسافر في السرير أعلى الجدجد وقع على الأرض ومات. كان الأعمى جالساً بثبات في مكانه. قال: «طلب مساعدتي في تخليصه، لم أستطع. شياو يوان، أريد البكاء!».

جاءت الشرطة والطبيب، ورُفعَت الجثة، وفاحت في الهواء رائحة مُسكرَة عفنة.

استلقت شياو يوان من جديد، ورغبت أن تستمرّ في تتبّع صوت الطبلة الصغيرة، لكنها توقفت عن سماعها.

قالت شياو يوان وكأنها تتحدّث إليه وإلى نفسها في الوقت ذاته: «في

مسقط رأسنا امرأة الكاميليا، أداؤها بالنسبة للجميع يعتبر لغزاً حتى اليوم. أداؤها ذاك هو المفضّل لي. أجلس هناك وأستمع لها، في شرود دائم، لكن بعد ذلك يظلّ غناؤها عالقاً في ذهني لأسبوع. لم تكن تغنّي عن حياتنا الماضية، ولا عن الحياة العاطفية للناس الآن، بل عن تلك الحياة التي لم تخطر على بالنا من قبل».

– مثل تلك الحياة التي نعيشها الآن في القطار، أليس كذلك؟

أُطفئ الضوء، ولم تستطع شياو يوان رؤية وجهه، لكنها أحسّت أنه يبتسم، فسرت في قلبها دفقة دفء. وفكّرت: يا لها من ليلةٍ غريبة! لكنهما سيفترقان ويذهب كلٌّ منهما في طريقه الصباح التالي. هناك بعض الأشخاص، لا سببَ لأنْ تبقى على تواصل معهم لفترة طويلة لتدركَ أنهم في قلبك منذ البداية.

كانت شياو يوان تحب التواصل مع الغرباء. لا تعطي الأمور أكبر من حجمها ولا تثير ضجّة.

– هل تنتظر دائماً؟

– لا، أحبّ أن آخذ زمام المبادرة وأغامر بمفردي. الناس مثلي محاطون دائماً بشتّى الألوان. بالطبع، لم أرَ ألواناً من قبل، إلّا في خيالي.

– هل يمكن أن تمدّ لي يدك؟

– حَسنٌ.

أحسّت بصوت دقّ الطبلة الصغيرة من رسغه.

– لا أريد أن أتركك.

سيصل القطار إلى المحطة بعد أربعين دقيقة، فقال إنه ذاهب إلى الحمّام واختفى. حينئذٍ انتبهت شياو يوان أنه لا يحمل أيّ حقائب.

كان المطر يهطل في المدينة التي وصلت إليها، الشوارع رمادية ومبتلّة، والمطاعم التي تنضح ببخار الماء مزدحمة. عثرت بسرعة على الفندق الذي حجزت فيه.

سألها العجوز الذي استقبلها: «هل أنتِ في رحلة عمل رسمية؟».

- أبحث عن شخص.

- آه، هذا سبب جيد للسفر.

وأخيراً جلست إلى الطاولة. جعلت الغرفة ذات النافذة الضخمة مزاجها رائقاً، فأخرجت الساعة الجديدة التي أهداها لها وي بو ووضعتها على الطاولة ويدها لا تتوقف عن الارتجاف. وسمعت على الفور صوت دقٍّ عنيف ما إن ضغطت بيدها بقوة على أذنها. كان صوت الدقّ يرنّ ويرنّ ويملأ الغرفة، ما الخطب؟ نهضت وركّزت انتباهها. آه، كان هناك أحدٌ يطرق الباب بإيقاع منتظم.

- عمّن تبحث؟

مدّت شياو يوان رأسها وسألته.

أنزل الشاب عينيه وقال: «أبحث عن أخي الكبير، إنه مفقود منذ خمسة أيام، هل لديك أيّ معلومات عنه؟ أنا آسف، أعرف أن حضرتك كنتِ في القطار رقم 87 فتبعتك. أخي أعمى ويواجه صعوبات عندما يخرج. بحثت عنه في كلّ مكان، وأشعر بالدوار، هل يزعجك وجودي هنا؟».

- تفضّل بالدخول والجلوس، واشرح لي على مهل!

- لا، إن لم يكن لديك معلومات عنه سأرحل.

- هل يعيش أخوك مع عائلتكم؟

- إنه يعيش بمفرده منذ وقت طويل، لكنه يعيش قريباً منا، وكان بمقدورنا أن نزوره دائماً. ولم يتوقع أحد أن يترك مسقط رأسه ويسافر،

كما أنه لم يأخذ حقائب سفر. رآه أحدهم يعيش في منزل شخص آخر في إحدى المقاطعات الصغيرة النائية. ماذا يجري بالضبط؟

- لا تقلق كثيراً! أعتقد أن معظم الناس سيحبّون أخاك الكبير. إنه رجلٌ مذهل! فأنا وقعتُ في غرامه مثلاً، أجل، وقعتُ في غرامه!

- هل ما تقولينه صحيح أيتها السيدة؟ آه، لقد خفّفتِ من ألمي! أنا أيضاً أحبّك أيتها السيدة! لنتصافح!

شدّ على يدها بقبضته القوية مثل أخيه، لكنّها من دون إيقاع الطبلة الصغيرة. ودّعته شياو يوان بنظراتها وألمٌ يَخِز قلبها.

تجوّلت شياو يوان في هذه المدينة وذهبت إلى عدة أماكن. وسألت نفسها في كلّ مكانٍ ذهبت إليه: هل سأقابل الجدجد أم لا؟ بدت خلال هذين اليومين كأنما تتجوّل كالمسرنمة.

في طريق عودتها بالقطار بلغ يأسها أشدّه، فاستلقت هناك من دون حركة، وكأن أفكارها تجمّدت بفعل قطعة جليد ضخمة. ورنّ في منتصف الليل صوت رجل من الراديو معلناً عن الوقت: «الساعة الآن الثانية وعشر دقائق وعشرون ثانية».

قالت شياو يوان لزوجها وي بو: «أحبّ شعور العودة إلى البيت في منتصف الليل. تبدو الشوارع متوارية في الضباب، وأضواؤها تومض باستمرار. وأسأل نفسي كل مرة: هل ترجّلت من القطار للتو؟ هل هذا طريق العودة إلى مسقط رأسي؟ ويكون سائقو سيارات الأجرة دائماً من خارج المنطقة، فيضاعف ذلك شعوري بالغربة. بعد ذلك، وفجأة، تجد نفسك في محيط مألوف».

ابتسم وي بو وأومأ برأسه. وفكّر، إن شياو يوان شديدة الذكاء. يا للأسف، لماذا توقّف عن حبها؟ وتوقّفت هي عن حبه أيضاً. كان يشعر بالإحساس ذاته الذي تحدّثت عنه - ربما هذا ما يعنيه «البيت»؟ كان طبعهما متشابهاً، أي هؤلاء الذين يريدون الاستحواذ على كلّ ميزة في العالم. تنهّد وي بو وتساءل عن مآل الأشخاص مثله ومثل شياو يوان. استغرق وي بو في التفكير ولم ينتبه إلى أنها جهّزت حقائبها وتستعدّ للمغادرة.

- هل ستغادرين؟ سأوصلك!

- لا، لا داعي! أكثر ما أخشاه أن يوصلني أحد، إنّه أشبه بوداع إلى الأبد. سأعود بسرعة.

هذه المرّة ركبت شياو يوان طائرة متجهة إلى الجنوب.

جلس إلى جانبها رجل عجوز بلحية بيضاء جميلة.

كان يقرأ كتاباً طبّياً عن المسّاج، فيه صور مختلفة لنقاط الوخز في الجسم البشري.

أخرجت شياو يوان كتابها عن الأعشاب الطبية، وقرأ كلٌّ منهما كتابه. تستغرق الرحلة ساعتين.

بعد ساعة من الإقلاع، أخرج العجوز إبرة فضية من حقيبة صغيرة يحملها معه، وغرسها في الجزء من الكفّ بين الإبهام والسبابة الذي يُسمّى «فكّ النمر» وثبّتها هناك، وقال بابتهاج: «يا للجمال!».

- أجل، الجسد البشري بديع.

- ربما نعمل في المهنة ذاتها؟

- لا، أنا مولعة بالنباتات فحسب. هذه الأعشاب ساحرة حقاً. هل كانت تشفي الأمراض قبل أن يوجد الإنسان على كوكب الأرض؟ على سبيل المثال هل كانت تشفي الديناصورات؟

- يخطر في بالي أسئلة مثل هذه دائماً. أنا طبيب مسّاج، وأجد نقاط الوخز في جسد الإنسان ساحرة. لكلّ حيوان نقاط وخز معيّنة، إلّا جسد الإنسان نقاط وخزه عالم صغير. كانت لديّ نزعة ضجر تجاه العالم في شبابي، لكن منذ أن عملت في هذه المهنة أحببت الحياة. انظُري إلى هذه الإبرة وخمّني ما التفاعل الذي يحدث بينها وبين أعصابي؟

سحب الإبرة وأخذ نفساً عميقاً، وبدت ملامحه وكأنه ذهب إلى الجنة. أعجبت به شياو يوان بشدّة.

- لجسد الإنسان طاقة لا حدود لها.

بدا الحزن على وجهه فجأة، وفكّرت شياو يوان أنه ربما يقصد: أن لا أحد يجرؤ على إحياء هذه الطاقة.

- تعرف حتماً الطبيب ليو في مقاطعة العش.

رفعت شياو يوان حاجبيها وحاولت أن تتظاهر بعدم الاهتمام.

- بالطبع أعرفه، إنه زميلنا في مهنة الطب الشعبي، إلّا أنني لستُ معجباً بنظرته تجاه العالم، إنه رجل أناني. أخمّن أنك اختبرتِ سحره؟

- أجل.

- إنه ساحر وعديم الإحساس أيضاً، وإلّا فلماذا يعيش وحيداً ولا يكترث سوى لنفسه؟

- كلامك منطقي.

- انتشرت الشائعات في كلّ مكان حين ماتت مريضة شابّة لأجله في سنة من السنوات. لكنّه يتمتّع بسمعة طيبة في ممارسة الطب، حتى إنّ المرضى يأتون من خارج المقاطعة لزيارته.

- إنه مُلك المرضى، ولذلك لا يمكن أن يكون ملكاً لامرأة.

- ربما ليس لديه بديلٌ آخر. لطالما رغبت أن أفهمه، إنه رجل مفعم بالطاقة.

بعد أن نزلا من الطائرة، سارا في الطريق بسرعة ودخلا إلى حارة صغيرة فيها حانة. وشربا حتى الثمالة.

صرخت شياو يوان قائلة: «ستخبره أليس كذلك؟ أشعر بالخزي! أريد أن تذهب وتخبره كم مظهري المخزي مثيرٌ للاشمئزاز».

- لا فائدة تُرجى من ذلك أيتها الفتاة! لماذا تريدين أن يراكِ هكذا؟ إن شرب الخمر من متع الحياة الكبيرة، وينشّط طاقة المرء. في صحّتك! لنشرب امتناناً لكلّ مَن منحونا شتّى المشاعر المعقّدة!

«في صحتك!»، قالت شياو يوان ثم أجهشت في البكاء.

لم تتذكّر بوضوح ما حدث في الحانة ذلك اليوم. كان ثمّة انطباعٌ واحد عالق في ذهنها: إبر مغروسة في وجه العجوز، وإبرة كبيرة مغروسة في وجهه وتخرج من قفاه، شيء مخيف. وبدا وكأن العجوز يلقي محاضرة، وهناك شابٌّ يقف أمامه ويكرّر سؤاله: «هل يستحقّ الأمر هذا العناء؟ هل يستحقّ؟ أخبِرني!».

طُرِدتْ لاحقاً. أعطاها أحدهم مقعداً صغيراً فجلست إلى جانب الطريق وبكت حتى زال مفعول الخمر. نظرت حولها وأدركت أنها لا تزال في الحارة ذاتها، لكن الحانة اختفت. عادت بذاكرتها إلى كلام العجوز لها في الطائرة، وذُهلت من سلوكها للتوّ. وخطر ببالها، هل هذه طاقتها الداخلية؟

سارت لمدة طويلة إلى أن خرجت من الحارة المعتمة إلى الشارع العام.

وأخيراً وصلت إلى الفندق، وهو عبارة عن مبنى صغير من خمسة طوابق ذي شرفات رمادية.

اصطحبها موظّف يرتدي ملابس سوداء إلى غرفة في الطابق الثالث.

في منتصف الليل، سمعت الأعمى يعلن الوقت فجأةً بصوتٍ صافٍ. فسكن اضطرابها وهدأت. وضعت الراديو إلى جانب أذنها. ومن بين أخبار عديدة، أُذيع تقرير عن تجارة تربية دودة القزّ في مقاطعة العشّ. أصغت شياو يوان إلى سرد العاملات الرقيق، واسترخت واستغرقت في نوم عميق. استيقظت مرة، نزلت من السرير، أشعلت الضوء، واتجهت إلى الجدار المكسوّ بورق الحائط، ودخلت في الجدار ووقفت هناك وعادت إلى النوم.

في اليوم التالي تناولت شياو يوان طعامها في الفندق، واستقلّت باصاً إلى مدرسة إعدادية لإنجاز بعض الأمور المتعلّقة بالعمل. أدركت أنها مُشتّتة وعاجزة عن التركيز، كما لازمها شعور بأن شخصاً يختبئ في الظلام وسيهاجمها. فمَن عساه يكون؟

المدرسة بسيطة ومتداعية، تقع في حيٍّ فقير، حتى إنها غير محاطة بالأسوار. كانت ذاهبة إلى مصنع المدرسة لشراء الأدوات الدراسية، وكان يقع في قبو مبنىً عالٍ.

كانت حجرة مدير المصنع مضاءة، وجلست شياو يوان إلى الطاولة، وأحسّت بجسدها يرتجف. كان وجه المدير طويلاً مثل وجه حصان، وأنفه وعيناه شديدة الشبه بأنفِ وعينَي حصانٍ.

- هل جئتِ بالطائرة؟

كانت عيناه الشبيهتان بعينَي الحصان تحدّقان إلى المصباح أثناء سؤالها.

- أجل، وصلت البارحة.

صفّق بيده وقال: «إذاً، جئتِ مع عجوز الإبر على الرحلة ذاتها!».

- كنت أجلس إلى جانبه. كيف عرفت؟

سرت حرارة في جسدها فجأة وتوقف عن الارتجاف.

- لأنكِ قلتِ إنكِ وصلتِ البارحة! هو، دائماً يسافر هنا وهناك، قلّما يهبط إلى الأرض. ما انطباعك عنه؟

- أظن.. أظن أنه من الأشخاص الذين بوسعك الوثوق بهم.

- صحيح! إنه هذا النوع من الأشخاص! لولاه لكان مصنعنا هُدِم منذ زمن. لقد علّمني كيف أتجنّب المصائب وأجد ملاذاً.

أراها المدير العيّنات ووقّعا العقد على الفور.

قال المدير إنّه يريد دعوتها لتناول الطعام. فلحقت به صعوداً على الدرج، لكنها طُرحت أرضاً ما إن وصلا إلى الطابق الأرضي. وكانت تفكر أثناء سقوطها أن حقيبتها لا توجد فيها نقود كثيرة لحسن الحظ.

استعادت وعيها في منتصف الظهيرة، والغريب أن حقيبتها كانت إلى جانبها من دون أن ينقصها شيء. كان رأسها فقط يؤلمها كأنه سينفجر. استجمعت قواها ونهضت وعرجت إلى المطعم. كانت الشمس حارقة والشوارع مغبرّة.

كان المطعم معتماً، وجلس المدير ذو وجه الحصان هناك.

- قلتِ إنكِ ذاهبة إلى الحمّام، لقد غبتِ طويلاً. يوجد الكثير من المجرمين والبلطجية هنا، قلقتُ عليكِ بشدّة. إن كنتِ برفقة «عجوز الإبر الفضية» فلن يكون هناك مشكلة. كيف تركتِه؟

- أنا، أنا لم أرغب في تركه، لكنّي كنتُ ثملة.

مكتبة
t.me/t_pdf

- فهمت، أنتِ تفتقرين إلى الإرادة.

طلب المدير أكلاتٍ كثيرة ودفن وجهه في الطعام.

كان مذاق الأكل شهيّاً، أكلت شياو يوان حتى شبعت، هواجسها الغامضة لم تتلاشَ كلّياً. حدّقت إلى المدير على أمل أن يقول شيئاً ما، لكنه استمرّ في تناول الطعام وشرب الخمر. كانت نظراته مشتّتة وكأنه لا يعرفها.

سألها فجأة: «شياو يوان، آه، يا شياو يوان، هل وقعتِ في حبّي؟!».

- لا لا، إنك مضحكٌ جدّاً، أيّها المدير!

تضرّج وجهها مُحمرّاً.

شعرت بضيقٍ شديد وفكّرت: «ما الذي أفعله؟».

- جيّد جيّد! لا تستائي! أنا أقول ذلك لأن هذا الأمر يحدث في منظّمتنا. أنا و«عجوز الإبر الفضية» والطبيب ليو في منظّمة واحدة، وأعضاؤها موزّعون في كلّ العالم. يقول الناس إن لأعضاء منظّمتنا سحراً نادراً، لكنّي لا أفهم ما هو على وجه الدقّة. إنني شخص من السهل أن يشعر بالذنب، فإن وقعتِ في حبّي فلن أعرف ذلك، وإن علمتُ في ما بعد سأتألّم.

- إذاً، فأنت تعرف الطبيب ليو جيداً؟

- هه، نحن أصدقاء قدامى، منذ عشرات السنوات! سمعتُ أنك كنتِ على علاقة معه.

لان وجهه الشبيه بالحصان أثناء كلامه، وبدت عيناه وكأن دموعاً ستنهمر منهما. إلّا أن شياو يوان لم تستطع أن تفهم نظراته، فقد كان ينظر إليها وكأنه لا يراها. وفكّرت؛ كيف يراها هذا الشخص حقاً؟

- في الماضي، ذهبتُ برفقة «عجوز الإبر الفضية» والطبيب ليو إلى

الجبل لجمع الأعشاب الطبية. كان جبلاً شاهقاً قمّته مكسوة بالثلوج. وفي ذلك اليوم، حلّق الطبيب ليو بمفرده إلى الجُرف، أما أنا و«عجوز الإبر الفضية» فعُدنا مغتمّين. كان أمراً مُهيناً.

- حلّق إلى الجُرف؟

- آه، هذا تشبيه فحسب! لم نقابله منذ ذلك الوقت، رغم أننا في منظّمة واحدة. لديه موهبة فريدة في جعلنا نعرف أخباره دائماً. أحياناً يكون قريباً من امرأة، لكنه يبقى وحيداً في النهاية.

كان هناك شخصٌ يقف عند الباب ويشير لها ومدير المصنع يتحدّث بطريقة قلقة. اعتذرت شياو يوان لمدير المصنع وهرعت إلى الباب.

أنعمت النظر في الرجل الذي يرتدي قبعة واتضح أنه مدير المدرسة.

قال لها بجدّية: «شياو يوان، هل نسيتِ سبب مجيئك إلى هنا؟».

- جئت لأُوقّع عقداً. هذا السيد هو...

- هشْ، لا تنظري إليه! إنه خطير! ألَم تُطرحَي أرضاً مرّةً؟ هذه تذكرة الطائرة، تقلع في الثالثة وعشرين دقيقة، أسرعي كي لا تفوتك الرحلة!

دفعها مدير المدرسة إلى الطريق على الفور من دون أن يشرح لها أيّ شيء.

عادت مرتبكة إلى الفندق وأخذت حقائبها وذهبت إلى المطار. ولم تعرف لماذا شعرت بالظلم، وداهمتها رغبةٌ عارمة في البكاء.

في رحلة العودة كانت مقصورة الطائرة خالية إلّا من عدد قليل من المسافرين. جلست شياو يوان بمفردها في مقعد النافذة تتأمل السحب البيضاء تغرق. استرجعت ما حدث خلال الأيام الأخيرة، وأدركت فجأة أنها تعيش في دائرة، حيث كلّ ما تصادفه هو كلّ ما رغبت فيه! أعلنت

الساعة في حقيبتها عن الوقت، وكانت في تلك اللحظة على بعد آلاف الأمتار في الجو. آه، إنّه هو! إنّه هو! كيف يمكن ذلك! دبّت فيها الحياة من جديد. أغلقت عينيها وتخيّلت مشهد هبوطها من الطائرة بعد قليل.

هبطت الطائرة في الرابعة والنصف عصراً. لكن لماذا يعمّ الظلام الأرجاء؟ نظرت إلى ساعتها في أضواء المطار فكانت الثانية عشرة والنصف صباحاً. وأحسّت شياو يوان أن التوقيت اليوم في فوضى. كان وجه سائق التاكسي مألوفاً.

انطلقت السيارة على الطريق السريع.

قال: «لقد أوصلتك مرّات كثيرة!».

- أجل! إنه لأمرٌ مثير أن تنطلق بالسيارة في منتصف الليل، وكأن العالم كلّه نائم وليس هناك غيرنا يُسرع جيئةً وذهاباً على الأرض. وعلى غفلةٍ منا، ستفاجئنا أُسود.

تنهّدت شياو يوان وأحنت رأسها وضحكت في سرّها.

- أودّ القول إنك من هؤلاء الأشخاص السعداء، لديك الكثير من المعارف، وبوسعك أن تستعيني بأفكارٍ من إفريقيا وأميركا الجنوبية. أليس كذلك؟

- كلامك صحيح تماماً. لكنني لا أعرف ما إن كنتُ سعيدة أم لا.

- بالطبع تعرفين، لكنك لا تستخدمين كلمة «السعادة». مَن لا يُميّز هذا الشعور؟ انظُري، إنها الساعة الواحدة صباحاً، وما زلت تتجوّلين هنا وهناك وتبحثين عن الأُسود. في رأيي، إنكِ تستمتعين بالحياة في كل دقيقة وكل ثانية.

رفع رأسه وانفجر ضاحكاً، وشعرت شياو يوان بإحراجٍ شديد.

- هل أوصلتَ «امرأة الكاميليا» من قبل؟

أرادت شياو يوان أن تغيّر الموضوع.

- بالطبع، أوصلتُها عدّة مرّات. اعتادت أن تسافر في منتصف الليل كذلك. أنتما مثل ساحر صغير أمام ساحر أعظم. في إحدى المرات ركبت السيارة وغنّت بأعلى صوتها. ولم ندهس أُسوداً، بل عدداً كبيراً من البطّ البرّي. لم أفهم لِمَ يوجد هذا العدد من البط البرّي في الطريق السريع في منتصف الليل.

- صوتها جميل!

- لا أفهم ما تغنّيه. لكنّي رغبت لو تستمر في غنائها ولا تتوقف أبداً!

- يراودني شعورك ذاته. انتظر! إلى أين أنت متّجه؟

- لا أدري، حدّدي الوجهة، وأخبريني إلى أين أذهب!

- يا لبؤسي! لا أستطيع تمييز أيّ شيء.. أيّها السائق، هل هذا طريق مسقط رأسي؟ متى تركنا الطريق السريع؟

تصبّبت جبهتها عرقاً، فأنعمت النظر من الشبّاك الخلفي. كان طريقاً من ستّ حارات تسير فيها سيارات بسرعة كبيرة أمامهما وخلفهما. فجأةً انفجرت ضاحكة ومالت إلى الوراء واسترخت أعصابها.

همست قائلة: «فهمت، أنت تستمتع بالحياة».

سَمِعَتْ الساعة في حقيبتها تعلن الوقت. يا للجمال! عبّت ملء رئتيها من نسيم الليل المنعش على أملِ أن يعلن هذا الصوت عن الوقت مرّة أخرى، لكنّه (أو الساعة) صمت.

- أيتها السيدة، لماذا تَشُكّين في أنكِ لست في مسقط رأسك؟ لم تنتَبني شكوكٌ من قبل. لقد شتّتنا سرب بطٍّ أمامنا. تحدث شتّى أنواع الحوادث في ليالٍ كهذه. انظُري، لقد وصلتِ إلى البيت!

جلست شياو يوان في غرفة المعيشة بعض الوقت لتلتقط أنفاسها. سألت وي بو: «كم الساعة الآن؟».

- السادسة وعشرون دقيقة، تناولت الطعام للتو. هل حدث شيء ما؟ أين ساعاتك؟

- آه، إنها في حقيبتي. اعتدت أن أسأل عن الوقت فحسب. أحبّ أن أسافر في الليل، لكن لا بدّ أن هذا يزعجك.

- لا، لا يزعجني على الإطلاق. لا داعي للاعتذار! إنه لأمر في غاية الجمال أن يسمع المرء في جوف الليل خطوات حبيبه في حلمه.

- آه وي بو، أحبّك!

- وأنا أحبّك يا شياو يوان!

أخرجت من حقيبتها الراديو ووضعته على الطاولة. وفكّرت في الحياة المُضطربة التي تعيشها، حلقة تتشابك في أخرى. إن كانت الكثافة هي مقياس السعادة، إذاً، السائق على حقّ، إنها إنسان سعيد. وفوق ذلك، لديها وي بو وولداها. وللطبيب ليو جبلُه الذي تنمو فيها الأعشاب الطبّية ولديه مرضاه. كانت هي مثل سيارتين انطلقتا في طريقين مختلفين واصطدمتا بالمصادفة، ثم راحت كلٌّ منهما لحالها. لكن، هذه هي السعادة.

غيّرت تردّد الراديو، وسمعت موسيقا. كان مغنٍّ عجوزٌ يغنّي أغنية شعبية بصوت بعيد وقوي.

ضغطت الراديو على خدّها، فتلاشى إنهاكها.

نامت متأخرة للغاية في تلك الليلة، لأن أحداث هذه الرحلة جعلتها في قمة الانفعال. بعد أن أطفأت الضوء رأت خيالاً نحيفاً يقف عند سريرها، وظلَّ ينحني باتجاهها. لم تسمع شياو يوان صوته، ومن دون أن تعرف

السبب، كان تتكرّر في ذهنها نبرته الإيحائية: «لديك كلّ شيء تمنّيته، لديك كلّ شيء تمنّيته...».

صاحت: «وي بو! وي بو!».

«شياو يوان، ما الخطب؟!»، سألها والنوم يغشى عينيه.

- هل ذهبت إلى المقبرة مؤخراً؟

- لا، ليس أوان التفكير في هذا الأمر، ما زلنا شباباً.

كان قد أفاق تماماً.

غطّت كتفيها باللحاف، وشعرت من جديد أنها سعيدة. وفي الظلام، انصرف تفكيرها إلى أداء امرأة الكاميليا، وأحسّت فجأة أنها تواصلت معها، في ما بدا تواصلاً مثل الحب. هل من الممكن لها أن تقع في حب امرأة أخرى؟ فكّرت في هذا الأمر مليّاً، لكنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة.

خارج النافذة، كانت ليلةٌ أخرى من دون قمر مفعمة بالعاطفة. سمعت شياو يوان أصوات عمّال مصنع الصابون يزيحون الشجيرات بنفاد صبر، وهمساتهم تُسمَع في الأرجاء.

- 5 -

مُثمّن متجر التّحف

كان السيد يو، الذي يعمل في متجر التُّحَف، في عيون زملائه وأصدقائه، لا يزال شاباّ، رغم أنه يبلغ 54 عاماً. كانت بشرته ناعمة من دون تجاعيد، وعيناه ساحرتين يشوبهما شيءٌ من الحزن.

كان شاباً وسيماً يحظى بإعجاب الفتيات في الماضي، وكان أساتذته يدلّلونه في المدرسة. ورغم أن حياته لم تكن من دون عقبات، إلّا أنه لم يمرّ بصراعات مصيرية. تشكّلت شخصيته بهدوء بعيداً عن انتباه الآخرين. ويعتبره الجميع الآن مُثمّنَ تحفٍ موثوقاً وجديراً باسمه، وجميع التحف في المدينة تقريباً تُقَيَّمُ من قِبله.

لن يستطيع غريبٌ، من النظر إلى السيد يو، أن يستشفّ من وجهه آثار السنين، لأنه يبدو في الواقع شديد الشبه بشابّ في أوائل الثلاثينيات، مَن يعرفونه جيداً فحسب بوسعهم أن يلحظوا أثر التقدّم في السنّ، مثل تسوي لان، التي رأت شيخوخته بأمّ عينيها.

قابلته بالمصادفة. كانت تتجوّل من دون هدف في ذلك اليوم، لشعورها بالضيق من مشاكل وي بو، وبطريقة ما وجدت نفسها تدخل متجر التحف. كانت القاعة الكبيرة مليئة بعيّنات من أحجار الدم وبعض لوحات فنّ الخط

والرسومات لفنّانين معروفين وتحف خزفية وغيرها. استقبلها المدير وأنعم النظر فيها، ممّا جعلها تشعر بإحراج وبشيء من الغضب. ثم قال: «جئتِ أخيراً، أيتها السيدة، إنه ينتظرك في الطابق العلوي!».

- هل تقصد السيد يو؟ لماذا ينتظرني؟!

«ستعرفين عندما تصعدين» - وأشار إلى السُّلّم.

كان الرواق في الطابق العلوي معتماً، وتردّدت تسوي لان. في أيّ غرفة يمكث السيد يو؟

شدّ حيوان صغير طرف بنطالها، على الأرجح قطّة.

«تفضّلي بالدخول!».

جاء صوت السيد يو المبحوح من جهة اليمين.

دفعت تسوي لان الباب ودخلت. بدا وكأنه كان يجلس طوال الوقت إلى جانب السرير ذاهلاً، وكان مصباح ساطع مُسلّط عليه. كان وجهه مترهّلاً، وجفناه السفليان أصبحا ككيسين، كان رجلاً كهلاً. وتساءلت تسوي لان بحيرة: كيف يشدّ بشرة وجهه معظم الوقت؟ كان أثاث غرفته متواضعاً على نحو يثير الدهشة؛ سرير وكرسيّ، وقليل من ملابسه ملقى في دولاب في الحائط بابه نصف مفتوح. كيف يعيش السيد يو دائم التأنّق في مكانٍ كهذا؟!

يبدو أنه مصاب بالبرد، إذ سعل عدّة مرات وقال بصعوبة: «لا يوجد نهر لا يمكن عبوره أيّتها السيدة تسوي لان. أنتِ تفهمين هذا المبدأ!».

وظهرت تلك الابتسامة الدميمة من جديد، فانتابها شيءٌ من التوتر.

- أنا حارس الكنوز تحت الأرض. لكن هذه الكنوز لا تحتاج إلى حراستي، فهي تقبع بانتظام في الظلام، وتسخر مني في الخفاء. تسوي لان، أنتِ الخبيرة، أخبريني ما رأيك في وضعي الحالي؟!

«لا، لستُ خبيرة، أنا أعمل في مصنع الأجهزة والعدّادات» -كانت تحرّك رأسها بصعوبة أثناء حديثها، وأزعجها سطوع المصباح الأبيض- «أرى أنّك متشائم. لا بدّ أن تخرج وتلهو وتستمتع بوقتك، إنك وسيم للغاية وكل الفتيات معجبات بك. لن تعجز عن عبور أيّ أنهار. أنتَ لست مثلي، فوضعي مُزرٍ، أشعر باليأس في الآونة الأخيرة».

- هل ترين، بوسعنا أن نبثّ شكوانا وأحزاننا هنا. كيف الطقس في الخارج؟

- الطقس صحو. ارتدِ ملابسك واذهب إلى الطابق الأسفل! سأغادر.

- انتظري! هل يمكنك أن تلقي نظرة في الدولاب من أجلي، أنا خائف.

اتجهت تسوي لان إلى الدولاب الضخم وفتحت الباب، وجعلها المشهد أمامها تتراجع خطوتين. كان ثمة امرأة في غاية الجمال تستلقي أسفل الملابس. وحين نهضت كشفت عن رقبة نحيلة بشكل غريب بها بعض الندوب.

- أنا المتشرّدة أليانغ، وأعاني من مرضٍ عضال.

أنعمت تسوي لان النظر فيها وقالت: «أهلاً بكِ يا أليانغ. وجهك مألوف!».

- أنا جارة ابن عمّك نيو يي تشنغ. لم يكن لديّ مأوى إلى أن عثرت على هذا المكان، إنّه آمن والسيد يو طيّب حقّاً.

ردّ السيد يو: «لأنني أحبّك».

رفعت أليانغ إحدى يديها إلى الضوء وحدّقت إليها وغمغمت قائلة: «أيتها الأخت الكبيرة تسوي لان، لقد فقدت مسقط رأسي. أنتِ تعرفين أن مسقط رأسنا ليس على سطح الأرض. كنت أشمّ التراب كلّ يوم هنا

وهناك إلى أن عثرت على غرفة السيد يو. أعرف أن بيتي هنا، رغم أنني سبّبت له الأذى».

نهض السيد يو وهزَّ رأسه بقوة قائلاً: «كلام فارغ، كلام فارغ!».

التفتت تسوي لان إليه وسألته: «هل بوسعي مساعدتكما؟».

- لقد قدّمتِ لنا المساعدة بالفعل أيتها السيدة.

- لا أفهم.

- لقد حملتِ لنا هواء الخارج المنعش، هذا ما كنّا نحتاجه. مَن يعيشون في متاجر التحف يعانون من مشكلة في التنفّس، لأنهم محاطون بالأشباح والأطياف دائماً.

حدّقت تسوي لان بدهشة إلى ذلك الوجه المترهّل، وفكّرتْ أن هذا الجلد يبدو وكأنه على وشك أن يتساقط ويكشف عن العظم أسفله. أشاحت بنظرها بعيداً، لكن صورة الوجه لم تتبدّد، بل ظلّت تقحم نفسها أكثر. في النهاية شعرت بدوار وأطلقت صرخة، ثم جلست على الأرض.

بعد مضيّ قليل من الوقت سمعت السيد يو يتحدّث بصوت خفيض مع أليانغ.

- القرار بيدك إن كنتِ ستعبرين النهر أم لا.

- هناك حشدٌ كبير من الناس. إن أردت عبور النهر فليكن، لن أتركك.

- سنعبر هناك ونلقي نظرة ثم نغادر. ما رأيك في هذا الحل؟

- لقد رأيت أبي، كان يمسك مكنسة ويكنس هنا وهناك ويتفحّص ما حوله.

- إن لم ترغبي في رؤية أحد من عائلتك، إذاً لن نجتاز النهر.

- حَسنٌ، لن نجتاز النهر إذاً. هناك شخص في الخارج ينادي على تسوي لان.

كان مدير المحل يناديها، فاستجابت للصوت وخرجت. قبض على يدها وسحبها إلى أسفل الدّرج.

بعد أن غادرت تسوي لان، بدأ وجه السيد يو في التحوّل، أولاً من جبهته، ومثل دودة قزّ تطرح عنها جلدها، أصبح هذا الوجه ناعماً شيئاً فشيئاً، إلى أن استعاد أخيراً هيئته الشابة التي يراها الناس في الخارج.

قال لـ أليانغ: «إن هواء هذه الغرفة سام، ما رأيك بي الآن؟».

- لا أستطيع رؤية وجهك، لا أرى إلّا كرةً من النور.

هبطا إلى الأسفل متشابكي اليدين. اجتازا قاعة المتجر وخرجا متجهين إلى المطعم المقابل. كان المدير يقف عند الباب وينظر إلى ظهريهما، فرأى ومضاتٍ من الضوء تنبعث من جسده.

طلب السيد يو عدة وجبات خفيفة، وجلسا لتناول الطعام.

قالت أليانغ: «حين كنتُ في الريف، قالوا إن حياتي تافهة، لا قيمة لها، وإنني سأقع في وكر شياطين».

- كلامهم صحيح. ألستِ خائفة أيتها الأخت الصغيرة؟

- إنني متحمّسة جداً. أحبّ هذه الحياة.

تضرّج خدّاها الشاحبان بحمرة ظاهرة.

قال السيد يو وكأنه مستغرق في التفكير: «جيّد جيّد! لستُ متيقّناً من هذه الحياة، حتى إنني لا أعرف كم سنة عشت بالضبط».

- أنا لا أخاف. لماذا تخاف من حلول الليل؟

- لأن قلبي يخفق بصوتٍ عالٍ، مُصِمٍّ مثل قرع الطبول، لا سيّما حين أكون في انتظارهم. ألم تسمعيها؟

– لم أسمع شيئاً، لا أسمع أيّ شيء، الليل هادئ. إنني قلقة بشأنك، وأريد مساعدتك، لكني لا أرى ولا أسمع أيّ شيء.

– ليس بمقدور أحد مساعدتي أيتها الصغيرة.

وضع عصيّ الطعام، وبدت على وجهه نظرة شاردة. وأشار إلى الحائط الأبيض أمامه راغباً في أن يقول شيئاً، لكنّه ظلَّ صامتاً.

جاءت مالكة المطعم وقالت لـ أليانغ وكأن شيئاً لم يكن غريباً: «لقد رأى الأخ يو ذاك النهر مرة أخرى. لا بدّ أن نتبعه، لأن حياته كانت صعبة».

قطفت زهرة زنبق من الحائط بخفّة وأعطتها له وكأنها تقوم بخدعة سحرية. قالت أليانغ: «آه!»، ومرَّ وقتٌ طويل إلى أن استعادت هدوءها.

وضع السيد يو الزنبقة في جيب بدلته، وذهب إلى الصندوق لدفع الفاتورة.

أشارت أليانغ إلى الحائط الأبيض وقالت: «أريد زهوراً أيضاً!».

– كم زهرة؟

– اثنتَين.

مدّت المالكة يدها إلى الحائط مرّتين، لكنّها عادت خالية.

قالت أليانغ بتواضع: «شكراً لكِ!».

– ثمة روح شريرة تحيط بمتجر التحف، وقد قام على حراسته لسنوات عديدة، وسينقضي عمره قريباً، إيّاكِ أن تتركيه. إن السيد يو من هؤلاء الأشخاص الذي يسيرون في درب الظلام، لقد كنا نراقبه من هذا الجانب من الشارع طوال عشرين عاماً. أُنظُري، إنه ينتظرك!

تأبّطت ذراعه وسارا بتؤدة في الشارع. كان اهتمام أليانغ منصبّاً بأكمله على الزنبقة في جيبه، تلك الزهرة النضرة. وخطر ببالها أن هذه الزهرة لا تناسب إلّا السيد يو، وابتهج قلبها.

ساراً طويلاً، إلى أن وصلا إلى الطريق المؤدي إلى الضواحي. انتابتها حيرة حيال قوّتها الجسدية. ذُهل أحد أعمامها حين رآها في الشارع لدرجة أنه توقف إلى جانب الطريق، وظلَّ واقفاً في مكانه إلى أن سارا بعيداً جداً. كان عمّها الحقيقي، ويذكر أن هذه الفتاة جُنّت قبل سنوات، لكن أليانغ التي رآها للتو بدت مثل زهرة لوتس نديّة. وشكّ أنه رأى شخصاً آخر.

- اسمع، فريق الإنتاج يقرع الأجراس!

جلسا على مقعد خشبي إلى جانب الطريق، وأراحت رأسها على كتفه.

- لقد فهمت الآن أنّ الزنبقة تتفتّح لأجلك. لدينا نحن الريفيّين خرائط طرق سرّية في أذهاننا. كنت أتجوّل ذات يوم في حارة صغيرة مجاورة لشارع مي، وكانت كلّ الحارات في هذا المكان متشابهة. في ما بعد أضاء مصباحٌ في داخلي، وواصلت السير إلى أن وصلت إلى متجرك. كنت تفحص مزهرية بالعدسة المكبّرة، ثم التفتَّ ونظرت إليّ، واصطحبتني إلى الطابق العلوي، ثم نزلت لتكمل عملك.

لم يردّ السيد يو. كان يعلم أن هذا هو الحبّ. وفكّر في مدى حمقه، وكم بدت مبادئه زائفة. أليس من المرجّح أن تموت أليانغ في أيّ وقت؟

استجمع شجاعته وقال ثلاث كلمات بجدّية: «أنا لا أستحقّ!».

مسحت أليانغ على ظهره بخفّة، وأكملت قائلة: «القنوات في القرية بها خرائط طرق كذلك. كنت أنظر إليها مراراً حتى غدت مألوفة وحفظتها في ذهني. الرجل الذي رأيناه للتو هو عمّي، كان التجوّل في القنوات والبرك أكثر ما يحبه، فتسلّلت خلفه واكتشفت السرّ. جئت إلى المدينة مرة من قبل، ليس هناك فرق بين المدينة والريف، وإن كان ثمة فرق، فسيكون أنها أكثر وحشة من الريف. بعد حلول الظلام، وحين أفكّر في تلك التحف

القديمة، أعجز عن الشعور بجسدي. ولا أناديك، أعلم أنك في مكانٍ بعيدٍ، بعيدٍ جداً».

وأخيراً استطاع الكلام: «أنتِ جميلتي، سأقاوم من أجلكِ ومن أجلي. في المرة القادمة، ناديني، وسأجيبك بأعلى صوتي!».

نهضا وعادا إلى المنزل.

حلّق طائر سنونو فتذكّرت أمها. هل كانت ستعود إلى القرية إن كانت والدتها على قيد الحياة؟ كان سؤالاً مزعجاً بالنسبة لها.

كان الليل قد حلّ حين وصلا إلى متجر التحف. فتح السيد يو الباب بمفتاح، وكان المتجر مظلماً أيضاً بسبب انقطاع التيار الكهربائي. كان أمراً يحدثُ يومياً.

قال السيد يو: «لقد جاؤوا، اختبئي!».

دفع أليانغ واختفى بين خزائن العرض المصطفّة.

سرت برودة في جسدها، أنارت في داخلها يراعة ثم انطفأت. لمست الجدار وسارت بمحاذاته إلى أن وصلت إلى مدخل السُّلّم. كان هناك شخص يجلس القرفصاء أمامه، وهو مدير المتجر.

- جئت بعد دوام العمل لتفقّد الأمر. هناك ثلاثة كهربائيين يصلحون الدائرة الكهربائية الآن.

همست أليانغ: «أيها المدير تجو، أخبِرني، هل سبّبتُ مزيداً من الفوضى للمتجر؟».

- لا، إطلاقاً. أنا لا أخشى من الفوضى. إنّ الثلاثة مرتبكون، وأقصد الكهربائيين، فالإصلاحات تزداد صعوبة، هذا النوع من العطب غير مرئي.

السيد يو مسؤول عن كلّ شيء في هذا المتجر المتهالك. هل ستصعدين؟ اذهبي إلى الغرفة وانتظري، لن يفشل السيد يو، عليكِ أن تثقي به!

وصلت أليانغ إلى الباب، لكنها لم تستطع فتحه، فجلست في الردهة. وشعرت كالعادة بسكون غريب. ورغم أن السيد يو يبثّ لها شكواه ومتاعبه بعد كلّ واقعة، ويقول إنه منهك بشدّة ولا يستطيع التقاط أنفاسه، وإنه يكاد يسقط ولا يستيقظ أبداً، إلا أنّ أليانغ لا تسمع أيّ شيء. سألته عن ذلك من قبل فقال: «هذا لأنك في قلب الفوضى!».

فجأةً، لمست نباتات رطبة على الحائط، أعدادها كبيرة، على الأرجح زهور. آه، كان الحائط بأكمله مغطّى بورود حمراء.

قالت: «يا سيد يو، اصمد، اصمد!».

قال بصوت مبهم: «أنا هنا.. إلى جانبك».

ألصقت أليانغ وجهها بالورد، ووخزت الأشواك وجنتيها. وفكّرت: «كم هذا جيد! لديّ أزهار تتفتح من أجلي أيضاً. لستُ خائفة من الموت. لا بدّ أن شعور الموت جيد حتماً».

وانصرف تفكيرها إلى عمّال الكهرباء الثلاثة القلقين، وتخيّلتهم يتسلّقون جدران القاعة مثل قرود. ضربها شخصٌ ما أو حيوان برّي من الأعلى، فتساقطت بتلات الورد على وجهها. نهضت وقلبها مفعم بالفرح.

«مَن أنت؟»، غمغمت قائلة.

«أنا ابنة عمتك» -فوجئتْ بأنها امرأة- «أعيش في المدينة منذ وقت طويل وأبيع الورد».

- آه أنتِ شياو مي. أين يقع متجر الورد الذي تعملين فيه؟

- هذا سرّ. أليس لديكِ أسرار أيضاً؟ إن الهواء هنا منعشٌ حقّاً.

سمعت أليانغ صوتها ينأى عنها شيئاً فشيئاً. كانت الغرفة على جهتها اليمنى، دفعت الباب بخفّة. كانت تعلم أن السيد يو يجلس على السرير.

- الورد.

- أجل، الورد والأرواح الشريرة. سأقاوم حتى اللحظة الأخيرة. سأنزل، إلى اللقاء.

أغلق الباب بهدوء. لم تكن الغرفة معتمة، لأن نور القمر يتخلّلها. تذكّرت أليانغ أن شخصاً أخبرها من قبل أن بعض محلّات الورد في المدينة مرابون في الأصل. ربما تعمل شياو مي في هذه المهنة، وهذا أمر شديد الخطورة.

فجأةً أضاء المصباح الأبيض، وأبهر عينيها. اعتراها خوفٌ لا يمكن وصفه. كان الباب موصداً والنافذة مغلقة، فلِمَ هي خائفة؟ لكنّها اختبأت في الدولاب رغم ذلك.

عاد السيد يو مع بزوغ الفجر. كان يحمل في يده مجمرة نحاسية مكسورة ألقاها على الأرض، ثم استلقى في الفراش على ظهره ونام.

رأت أليانغ المجمرة، لكن حين انحنت لتلتقطها اختفت، لم يكن هناك شيء على الأرض. ضحكت بصوت منخفض ووجدت الأمر مسلّياً. فتحت الباب ومدّت رأسها وبدا لها الرواق كما هو في العادة. حنّت إلى تلك الورود.

حَلم السيد يو في إحدى الغرف أنه في طريق ساحل البحر، والشمس الغاربة الحمراء تغوص في الأفق، وحشدٌ من الناس يركض. فركض السيد يو وهو يهتف باسمٍ غريب، وأحسّ من جديد أنه وصل إلى منعطفٍ مصيريٍّ. أمامه كان البحر، هل عليه أن يقفز في الماء؟ لم يسَعه التفكير في

الأمر، إذ رفعه الحشد وارتفعت قدماه عن الأرض، فامتلأ حماساً وهتف بصوتٍ عالٍ: «وو دا وي! وو دا وي!». رأى ماء البحر يفيض، وربما كان صفار بيضة البطّ المتمايلة هو الشمس.

شعر يو الشاب لسنوات طويلة بأنه كان يُنمّي طباعاً عنيفة وشرسة، ولم يعلم أحد عن هذه النزعة في شخصيته. رآه الجميع مُثمّنَ تحفٍ لبقاً، ذا حسٍّ أنثوي، مفرط الحذر وأنيقاً. كان تنضح من كفّه سخونة في معظم الأحيان وترتجف أصابعه ويجد صعوبة في التركيز، ومن هذه النواحي، لم تكن طبيعته تناسب مهنته. كان سرّه يكمن في أسنانه؛ فلديه صفّان من أنياب ذئب، لاحظتها تسوي لان بالمصادفة وفوجئت بشدّة. هذه الأنياب أكثر ما تفشي عن رغبته.

ويمكن القول إنه ولونغ سي شيانغ كانا منسجمين في علاقتهما الجسدية، لكنّهما ضجرا من الأمر في النهاية. هل ثمة موائد لا تنفض؟ منذ ذلك الحين علم يو في قرارة نفسه أنه لا يصلح لتكوين عائلة. لكنّه بالطبع لا يزال يلاحق النساء، وفيما عدا ذلك، كانت طاقته المتبقية منصبّة بالكامل على عمله. وفي ذهنه كان عمله يتألف من أشكال لا نهائية من القنوات. وشعر أنه خُلِق ليعمل في هذه المهنة؛ أن يدلف إلى التاريخ المظلم ويستكشفه ويتآلف معه، ويشكّلَه، ولا يقلّ هذا العمل تشويقاً عن جاذبية النساء. لذلك هزمَ انحطاطه ودفعه عنه مرّةً تلو الأخرى، وخلق لنفسه عالماً في العالم القابع في هوّة من الظلام. كان عمله النهاري ظاهرياً، فيما كان تجواله الليلي أساسياً. كان مدير المتجر رجلاً مطّلعاً على بواطن الأمور، وراضياً عن عمل السيد يو. قليلون في هذه المدينة مَن يعرفون هذا السرّ: أن هذه التحف حيّة، وأنها أشياء غريبة ونادرة تعتمد وتحيا على نسج المؤامرات. والغريب في الأمر أن الريفية أليانغ فهمت هذا الأمر بالفطرة.

انقسمت حياة السيد يو بعد ولعه بالتحف إلى قسمين. كان شخصاً بارعاً في مواءمة تناقضاته، لذا لم يصل أبداً إلى طريق مسدود، بل كان دائماً كما تقول القصيدة: «من وسط ظلال الصفصاف المعتمة والزهور المتفتّحة، ستظهر قرية أخرى». وأقرّ بعد عمر الخمسين، أنه كان فاشلاً إلى حدٍّ ما في ما يخصُّ النساء، رغم أنه ولحسن حظّه أحرز تقدّماً مستمرّاً في عمله.

حكى له زبون ما عن درعٍ مدفون عند حائط المدينة القديمة. اقتحم هذا الرجل المتجر في يوم ماطر. كان يرتدي معطفاً أخضر لم يخلعه حين دخل، ووقف أمام خزائن العرض من دون اكتراث، بينما مياه المطر تتناثر حوله، مصرّاً أن يسمع السيد يو ما لديه. كان صوته منخفضاً، تشوبه بحّة شديدة، وانعكس الضوء الخافت على وجهه مشوّش الملامح، والذي يبعث في المرء شعوراً مزعجاً للغاية. وتساءل السيد يو، من أين جاء هذا الشخص؟

قال فجأة: «أبي زميلك في العمل».

– ماذا؟

– كان لصّ قبور، ومدمناً على العمل، إذ عمل حتى عمر الثالثة والسبعين قبل تقاعده. توفّي مؤخراً، وكانت آخر كلماته لي هي حكاية حائط المدينة القديمة.

انتبه السيد يو إلى مدير المتجر يروح جيئةً وذهاباً أمامه، تلوح على وجهه سحابةٌ من الارتياب. كان قلقاً في سرّه، وأراد أن يغادر هذا الشخص بسرعة.

اقترب من الزبون المتطفّل وسأله: «هل تريد أن تشتري شيئاً أم لا؟».

– من المستحيل أن يكون في متجركما ما أريده. أريد الدرع الذهبي.

حدّق إلى السيد يو بثقة، وحتى بقليل من العجرفة، مما جعل الأخير يخفض عينيه.

- أنا موافق على التعاون معك. أين نتقابل؟

- مصبّ نهر شياو يوي (القمر الصغير)، عند شجرة الصفصاف الثالثة، الواحدة صباحاً.

التفت بسرعة وغادر، وخلّف مكان وقوفه بركة مياه صغيرة.

سأله المدير بقلق: «هل قطعت له وعداً؟».

- أجل.

- عليك أن تفي بالوعد! أنا قلقٌ عليك.

- لن يكون هناك مشكلة. في أسوأ الأحوال سيموت أحد.

لا يذكر ممّا حدث تلك الليلة غير سرب طيور تَدَارِج تُحلّق هنا وتقفز هناك. ولا أيّ سورِ مدينةٍ قديمة. تبع السيد يو ذلك الرجل ودخلا إلى مجرور، ثم خرجا منه وجلسا للاستراحة أسفل جسر ضخم. حين حلّق سرب طيور التّدَارج السوداء، ظنّ السيد يو أنها نسور. قال الرجل: «هذا ليس جيداً»، ثم اختفى. ولم يكن هجوم الطيور مخيفاً، إلّا أنها لوّثت جسده. كانت طريقتها الوحيدة في الهجوم أن تُلقي بذَرقها، وكأنها تعبث معه. ولم يمرّ وقت طويل حتى تحوّل إلى «رجل الذرق»، حتى عيناه تلطّختا بالذرق. صاح قائلاً: «ساعِدوني!»، لكنّه ما لبث أن رأى كم كان هذا سخيفاً، فتوقف عن الصياح. أخرج منديلاً من جيبه وغطّى وجهه وصعد الجسر، متحرّراً أخيراً من تلك الأرواح الشريرة. كانت الريح أعلى الجسر قويّة، فجفّفت ذرق الطيور على وجهه وعنقه ويديه وحوّلته إلى قشرة، سرت فيه برودة وشعر بأنه أصيب بنزلة برد. ثم أدرك فجأةً أن هذا هو الدرع الذهبي! حصل على جوابٍ بشكل ما.

بعد استحمامه، جلس في مكتب المدير الذي طلب منه أن يحاول قدر استطاعته تذكُّر ما حدث في الليل، لكنه قال إن كلّ تفصيلةٍ ثمينة، هي «حقيقة تاريخية».

قال السيد يو بحزن: «ليس هناك شيء آخر. كانت طيور التّدَارج تلعب الدور الرئيس، لم أعرف كم عددها على وجه التحديد. كان ذرقها حامضاً. هل هذا الشخص من أقاربك؟».

أجاب المدير بغضب: «هراء! إنه زعيم عصابة تسلّل من تحت الأرض، ولديه ندبة في الجانب الأيسر من عنقه، وتقول إنه قريبي!».

- أنا آسف، لكني لا أعتقد أنه زعيم عصابة، فقد كان لطيفاً ومهذباً، رغم ذلك لم أرَ وجهه ولو لمرّة واحدة ليلة أمس. خشيتُ أن أفقد وعيي ونحن في القناة.

- إنه ستار من الدخان، أولاً يجرّدك من دفاعك، ثم يفاجئك بالهجوم.

- في الحقيقة لا يمكن اعتباره هجوماً، كنتُ قلقاً بشدّة فحسب. لا بدّ أن يوسّع المرء أفقه ومسار أفكاره في الحياة، ألا توافقني؟!

- أنت على كلّ حال على قدر من الفهم. الوفاء بالوعد أهم شيء. يا يو، ألا تعتبرني مثل والدك؟ لم تُخيّب أملي طيلة هذه السنوات، ولن تخيّب أملي هذه المرّة.

حدّق السيد يو إلى مديره الذي بدا مظهره غريباً، ولم يفهم كلمة ممّا يقوله، بل شعر بنعاس شديد. كان ثمة سؤال ملحّ يدور في ذهنه: هل المدير إنسان أم قرد؟ رغم طقطقة خزائن الملفات خلف المدير، ورغم إيقاع دقّه على الطاولة بصرامة، ورذاذ لعابه، أحنى السيد يو رأسه واستغرق في النوم للمرة الأولى منذ سنوات.

لم يَلُمهُ المدير مُطلقاً على اعتذارِه بعد ذلك. قال إنه متفهّم، ويعرف أن

هذا التجوال الليلي يستنزف طاقة المرء، وأن عدداً من الموظفين السابقين في المتجر فقدوا حياتهم بسببه، لذلك هو فخور جداً بقدرته على العودة حيّاً، وجعله السيد يو يشعر بـ«السيطرة كونه سيّد المنزل».

- ماذا تعني بـ«السيطرة كونه سيد المنزل»؟

- لقد أصبحت الحامي الذي لا يُقهر لهذه المدينة، ألَم تعلم ذلك؟

- لم أعلم، ولا أهتمّ لأمرٍ كهذا.

- حَسنٌ، إن كنت تهتمّ أو لا تهتم، فأنت حامي المدينة. هل يمكن أن تترك أعمدة النور والمداخن تلك من دون حراسة؟ لقد حرستها من دون أن تعي.

لوّح له المدير بالخروج، وبدا جليّاً عدم تصديقه أن السيد يو جاهلٌ ببعض الأمور.

لكن جهل السيد يو لم يكن مُختلقاً. فطبقاً لحكمه، من خلال خبرته، كان كلّ هذا متعلّقاً بـ«تخصّصه»، إلّا أنه عجز عن فَهم العلاقة بين عمله وهذه الأمور الغريبة التي تحصل خلال الليل. وخطر بباله في بعض الأحيان أن معرفته ربما ستجعل الأمر مملّاً. حائط المدينة القديمة، الدرع الذهبي، عصر الربيع والخريف... يا لها من عبارات مغرية!

الآن يلقّبه المدير باسمٍ جديد: الحامي الذي لا يُقهر، لا يبدو مبتذلاً رغم غرابته. إذاً فأيّ نوع من الحُماة هو؟ كان يخطئ حتى الشارع الذي يسكن فيه حين يصيبه الاضطراب، ولا سيّما بعد شرب الخمر. بالطبع، هناك أساسٌ دائماً لما يقوله المدير. فعدم انتباهه إلى إنارة الشوارع لم يعنِ أن أعمدة النور استبعدته. ألَم يصطدم عدة مرات بالأعمدة؟ ألَم يحجب دخان المداخن عينيه؟ لدرجة أنه فقد بصره مؤقتاً في إحدى المرات، وقاده أحدهم إلى القطار المتجه شمالاً، وهكذا قام برحلة مفاجئة إلى

الشمال. وشعر منذ وقت مبكر أن المدير يتمتع بحكمة عظيمة ومخيفة في آن. في البداية، لم يرغب السيد يو أن يتجوّل ليلاً، كان مهتمّاً أكثر بالتواصل مع الناس، كان لديه شعور ما بالأمان بين الحشود. في ما بعد، ومن دون أن يعي، تحوّل إلى ما هو عليه الآن، وكأن هذا مصير مُثَمّن التحف المحتوم.

الليل هو موطنه الحميم، لكن كان ثمّة الكثير من الأعداء في الليل المظلم. لقد اعتاد المقاومة، أن يقاوم إلى أن تُنهك قواه. كان طيفه الأسود الفاره مألوفاً لأهل المدينة. فإن رآه الذاهبون إلى عملهم مبكراً يسير في الطريق وقت الفجر، يتوقفون ويتأملون هذا الطيف ويقولون: «إنه هو». وبعد أن يتفوّهوا بهاتين الكلمتين يلين شيءٌ ما في أفئدتهم. وقد اعتاد السيد يو أيضاً على اهتمام الناس، وكانت لديه فكرة تداعب تفكيره في الآونة الأخيرة: ربما هؤلاء الأشخاص، الذين يبدون ودودين ويتصرّفون مثل أصدقائه، هم الأعداء الذي يقاتلهم أثناء الليل؟

لا يوجد مكان لم يذهب إليه من قبل. كان يتردّد على السوق السوداء أسفل المسرح. وحين عادت امرأة الكاميليا إلى مسقط رأسها لتؤدّي عرضها من جديد، كان يذهب مرّتين في الأسبوع ليسمعها. كما كان يتردّد على أماكن تداول العملات الأجنبية المخبّأة في الأحياء الفقيرة، ويقوم ببعض الأعمال هناك. كان مقهى الشاي القريب من الميناء موقع تجمّع الأبطال، لذا كان يذهب على الأقل مرّة في الشهر. إلّا أن هذه النشاطات النهارية لم تكن ذات أهمية بالنسبة له. كان النهار وقت الانتظار. ربما سيقابل شخصاً يراقبه، مثل هذا الرجل الشجاع الذي اقتحم المتجر في العاصفة الممطرة، ثم يجري بينهما اتفاقٌ ما – اتفاق نشاطات الليل.

ازداد شعوره بالقلق لأن النهار غدا أقصر فأقصر. وسمع أن تلك المداخن ستُهدم. وكان ثمة أيام شعر فيها أن السماء تُظلم قبل أن تشرق تماماً. لم يكن هناك أحد ليواعده، فكان يجلس على سلّم المتجر مشرئبّاً بعنقه.

في الأيام الطويلة التي تمرّ من دون مواعيد، كان السيد يو يمرّ بأزماتٍ روحية، فيسأل نفسه ما إن كان عليه أن يتخلّى عن عمله، ويرحل عن هذه المدينة الممسوسة ويفتح متجراً في الأحياء الثرية في المنطقة الشرقية حيث يسكن عمّه. كان عمّه العجوز الذي يعيش بمفرده قد أخبره عدّة مرّات في مكالماته عن المستقبل المشرق هناك، آملاً أن يرث أملاكه. إلّا أن السيد يو لم يتخذ قراراً، فقد كان هناك صوت داخله يحذّره، ويخبره عن حقيقةٍ ما حول مهمته. وتشير هذه المهمة المزعومة إلى أعمدة النور والمداخن وأشياء كالتي ذكرها المدير.

سرعان ما راقَ مزاجه المتعكّر. كان دائماً بارعاً في تعديل خطة عمله، وبارعاً في العثور على طرق أخرى. اعتقد أنه واثق من نفسه، ومن الأشخاص الذين بإمكانهم الإمساك بزمام السيطرة. وفي فترة قصيرة جداً كشفت له المتشردة أليانغ عالماً جديداً، وشعر أنّ جسده وعقله مغموران في ضيائها، كما وسّعت نظرته حيال مهنته، وبوجود أليانغ، لمعت تلك المدينة المظلمة ببقع من الضوء.

أصبحت الليالي عامرةً أكثرَ من السابق، كان كلٌّ منهما يخوض مجازفاتٍ ويبدي اهتماماً بالآخر. وشعر السيد يو أنه أصبح أكثر سيطرة على النجاة من الخطر بسبب هذا الاهتمام. وذات يوم قالت له صديقته تسوي لان: «أيها الأخ يو، أنت ساحر، لدرجة أنني لا أستطيع مقاومتك!

مسقط رأسي هو موطن الفتيات الجميلات، وأليانغ جميلة من الجميلات، إن حظّك جيّد بحقّ!».

– هل تظنّين أنها ستموت يا تسوي لان؟!

– من الصعب تحديد ذلك. أَلن يموت الجميع؟ لماذا أنت مندهش من أمرٍ طبيعي؟

– كلامك صحيح، أنا مبتذل جداً.

– ليس كلّ شخص لديه الفرصة ليكون مع جمالٍ حقيقي.

عقد العزم على أن يغتنم كلّ لحظة في الحياة. كان عند النهر ذات مرة، ووقف متأملاً الضفة المقابلة، ورأى مَعلَماً بدا كأنه سينبثق – كان درعاً ذهبياً لا يُعرَف من أيّ أسرة، وكانت النقوش والكتابات عليه غامضة وبسيطة. هتف بصوت منخفض: «أليانغ! أليانغ!». ارتفع ماء النهر الأسود شيئاً فشيئاً إلى أن شكّل جبلاً حجب السماء. لم تكن أليانغ قريبة، كان يعلم أنها في مكان ما في المدينة. بعد ذلك سمع صوتاً عالياً، كصوت شلّالات، وكان هناك شخصٌ خلفه يتحدّث بقلق ويخبره أن ينظر إلى الجسر. كان الجسر هناك، وأنواره الصفراء مصطفّة في خطّ، ولا يبدو مختلفاً عن السابق. التفت ورأى رجلاً عجوزاً قصيراً يقف خلفه.

قال: «أنا أحد زبائنك. لقد أدركت هذه الحقيقة في السنوات الأخيرة: أن على الذين يعملون في مهنتنا أن يكونوا متأنّين. اُنظر، الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، لا يزال الوقت مبكراً!».

– الجسر في حالة جيدة.

– بالطبع. نحن هنا، والجسر أيضاً هنا. أَلَم يمرّ ثلاثون عاماً؟

أجاب باندفاع: «دعني أحسب!».

لكنّه خلد إلى الصمت. ماذا سيحسب؟ وكيف سيحسب؟

قال له العجوز مواسياً: «لا تتعجّل! لا يزال الوقت مبكراً. كلّ ما نسيته ستتذكّره من جديد. بعد هذه الليلة، ستحلّ ليلة الغد. لقد قلت للتوّ ثلاثون عاماً، لكن في الحقيقة، لقد مرَّ أكثر من 920 عاماً. لذلك لا داعي للعجلة. أسكن في المنزل رقم 132 شارع الكورنيش، أهلا بك!».

واختفى بين المباني. التفت السيد يو مرة أخرى ونظر إلى الجسر، كان في حالة جيدة، واجتازته عربة نقل. يبدو أن هويّته مُعترَفٌ بها عند بعض الناس، وسيحوم حوله دائماً بعض السادة المطّلعين والعاملين في هذه المهنة. وأدرك السيد يو أن مهنته قد توسّعت وتحوّلت إلى عالمٍ لا نهائي. ولم يستحوذ هذا العمل على وقته فحسب، بل شكّل حياته بأكملها.

عثر السيد يو على رقم 132 شارع الكورنيش، لكنّه لم يكن شقّة ولا بيتاً، بل صالة باتشينكو(*). رأى الناس جالسين أمام جميع الآلات حين دخل، والصالة تعجّ بالضوضاء. كان العجوز جالساً أمام الماكينة الثالثة مركّزاً انتباهه على تشغيلها. انفجر ضاحكاً حين رآه حتى سرت رجفة باردة في قلب السيد يو. انتبه إلى أن الجميع قد أطفأ الماكينة الخاصة به ووقفوا ينظرون إليه، والعديد منهم عابسون.

- شكراً لزيارتك لنا في وقت متأخر من الليل! كما ترى، الجميع منهمكٌ في العمل، لنصعد إلى الطابق العلوي، فالحديث هنا غير مناسب!

وصلا إلى غرفة من خلال سُلّم ورواق ضيّق. كانت الغرفة صغيرة لدرجة أنك لا تستطيع الالتفات، والسقف منخفضاً بوسعك لمسه. لم يكن هناك ضوءٌ في الغرفة، والمبنى العالي المقابل كان يرسل نوراً شاحباً وضبابياً إلى الداخل. لم تكن الغرفة عازلة للصوت، فبوسع السيد يو سماع

(*) هي لعبة إلكترونية، وتُعَدّ شكلاً من أشكال القُمَار. (م).

ضوضاء صالة الباتشينكو في الأسفل. جلس على كرسيّ قدّمه له العجوز، ورأى أنه إن تحرّك ستلمس ركبته ركبة مُضيفه. كان بإمكانه شمّ رائحة معدة الرجل العجوز من أنفاسه. رأى إلى جانبه سريراً صغيراً، هل ينام العجوز هنا؟ وتذكّر أنه اشترى منه لوحة معروفة غالية حين جاء إلى متجره، إذاً لا بدّ أن يكون غنيّاً. لماذا يسكن في قفص كهذا؟!

وضع العجوز يده على كتفه وقال بنبرة واثقة: «لا أشعل الضوء، أحب هذا النوع من الخصوصية. يمكن لأفكارك أن تتجوّل في المدينة بجلوسك هنا. كيف تشعر الآن؟».

حدّق السيد يو إلى النافذة الصغيرة، إذ كانت المصدر الوحيد للضوء.

– أشعر بقليل من البرودة.

وأحسّ أن صوته يشوبه شيءٌ من التذمّر.

– هذا ردّ فعل طبيعي. أريد أن أسألك سؤالاً: «لماذا خرّبت الدائرة الكهربائية في متجركم؟».

أحسّ السيد يو أن العجوز يكبت ضحكه بشدّة حتى ارتجف جسده.

– أيّ مرّة تقصد؟

– السابع والعشرين من مارس، يوم العاصفة.

– ذاكرتك مذهلة! أردت أن أفتعل حادثة، ربما ضجرت من الوحدة. خطّطت لهذه المرّة منذ فترة طويلة.

أجاب السيد يو تلقائياً. وكان يفكّر: لماذا أريد الاعتراف؟

– إنك صادق. دعنا لا نتحدّث عن هذا الأمور المزعجة! إن كنت لا تحمل أيّ كراهية تجاه زملائك في المهنة، عليك أن تأتي إلى صالتي باستمرار. يكون المكان صاخباً دائماً في هذه الساعة المتأخرة من الليل. 132 شارع الكورنيش، أحد معالم هذه المدينة. إن وقفتَ في نهاية هذا

الطريق ونظرت إلى صالة الباتشينكو، سيغمرك الإلهام. المكان هنا مفعمٌ بالحياة حقاً.

- هل تنتمون إلى منظّمة ما؟

أحس السيد يو بحلقه جافّاً أثناء كلامه.

- لا، هذا ميناء حرّ، يأتي الناس ويذهبون كما يرغبون. إلى أين أنت ذاهب؟ هل تريد ماء؟ توقف، هناك أخطار في الخارج!

لكن السيد يو خرج على الفور. تلمّس طريقه إلى مدخل السُّلّم وهبط على السلالم الضيقة. لم ينتبه إليه أحد، إذ كان الجميع يحدّقون إلى شاشات آلات الباتشينكو أمامهم.

خرج إلى الشارع، وتبعه الرجل العجوز لاهث الأنفاس وأمسك طرف قميصه، وتبعه رجلٌ وأمسك بطرف قميصه الآخر وصرخ: «أيّها المدير، هل تريد أن تلقّنه درساً؟».

- لا لا! أطلِق سراحه!

دفع كمّ قميصه بقوة، وباستياء شديد، وغمغم بشيء ثم عاد إلى الصالة. التفت السيد يو لينظر إلى مبنى رقم 132. وما كان غريباً أنه اختفى، ولم يبقَ سوى بقعة فارغة معتمة.

- مثل هذه الأماكن لا توجد إلّا إذا دخلتها.

وبدا أن العجوز يضحك مُجدّداً.

لم يقتنع السيد يو بكلامه، فعاد إلى رقم 132 وسار حتى وصل إلى تلك البقعة الخاوية. تلك المرة لم يرافقه العجوز ولم يتحرّك من مكانه.

وقف السيد يو في البقعة الخالية بين المبنيين وسمع صوت محادثة تجري في الأعلى.

قالت امرأة: «إن كنت تريده، سيكون هنا؛ لأنه يريد اللعب معك أيضاً».

ردّ الرجل: «لحُسن الحظ أنني أتيت، وإلّا فلن يكون هنا».

فكّر السيّد يو قليلاً، ولمع في قلبه بصيص نور. بحث بعينيه عن العجوز، لكنّه اختفى أيضاً، وعمَّ المنطقة صمتٌ مطبق. رفع عينيه إلى المبنى في اللحظة التي انطفأ فيها ضوء في نافذة، ربما كانت النافذة التي سمع منها صوت المحادثة. كان يعلم في قرارة نفسه أن العجوز في مكان قريب، لأن كل الأشياء التي يراها تُلمّح له بذلك. أخبره أن هذه الصالة «ميناء حرّ»، يا لها من صورة! وبما أنه قد دخل إلى هذا الميناء الحر، فهذا يعني أنه رجل حرّ هذه الليلة. إذاً، ماذا يعني أن يكون المرء حرّاً؟ ومن دون أن يعي قال سؤاله بصوت عالٍ.

«أنا حرّ! اتبعني!»، قال رجل خلفه.

التفت السيد يو ورأى الكهربائي من متجر التحف. سحب السيد يو من كُمّ قميصه إلى البقعة الخالية بحركة عنيفة، مثل سكّير يتشاجر معه. بعد أن عبرا البقعة الخالية، سمع السيد يو تغريد عندليب.

- هل هناك حديقة عامة في الأمام؟

- لا، هناك مشنقة، أريد الموت، لنذهب!

- لكنّي لا أريد الموت.

- إذاً ماذا تفعل في «الميناء الحر»؟ هذا غير منطقي!

دفع الكهربائي السيد يو فجأة، وقفز إلى الأحراج أمامه. وبعد صوت اصطدام وحفيف، اختفى جسده الضئيل النحيف بين الأشجار. بدا أن الكهربائي كان مستاءً منه. ويذكر السيد يو أن هذا العامل كان يتصرّف في متجره بخجل وتواضع، ولم يتوقع مطلقاً أن يكون قادراً على تصرّفٍ بهذا العنف.

شمّ السيد يو رائحة أرض موات. كيف توجد أرض قفر في المدينة؟

لكن المنطقة المحيطة لم تكن أرضاً مواتاً، كما أن شارع الكورنيش ليس بعيداً – ممرّ السيارات ذاك، الذي لا علاقة له بالبحر. بدت الأحراج أسفل أنوار الشارع جذّابة، وكأنها ديكور مسرح مؤقّت. اقترب السيد يو وهتف بهدوء: «شياو وو! شياو وو!».

لم يظهر الكهربائي، بل سمعه يردّ بصوت منخفض: «لا تصرخ! لا تصرخ! ارحل عني بسرعة أيها الرجل الفظيع! الآن! آه، سأفشل إن لم ترحل، حظّي سيّئ».

أحسّ السيد يو بسخونة في وجهه، وغادر الأحراج في خزي، واتجه إلى مسار المشاة في شارع الكورنيش. لماذا شعر بالخزي في تلك اللحظة؟ لم يعرف السبب، ربما كان وهماً، مثلما حدث مرّاتٍ كثيرة من قبل. حاول أن يدفع عنه الشعور بالإحراج، وأراد العودة إلى المنزل ليستريح. وحين كان على وشك الانعطاف، ظهر أمامه العجوز من صالة الباتشينكو من جديد.

– هذه المنطقة بأكملها هي أرضي. ما رأيك بها؟ لماذا أقول إنها منطقتي؟ أنا أرى أنها لي، إذاً فهي لي. لكنّي لست زعيم عصابة أو شيئاً من هذا القبيل. إن الأشخاص مثلي ومثلك يخرجون كلّ يوم في الليل، وبمرور الوقت يحدث تفاعل بين خطواتنا والأرض تحت أقدامنا. اسمع، تك، تك، تك! لديك منطقتك الخاصة أيضاً، أنا على حق، أليس كذلك؟ أعلم أنك تعتبر هذه المدينة ملكك، وفي الحقيقة أنا أيضاً.

لاحظ السيد يو أن العجوز بحذائه الجلدي ومعطفه الثقيل يسير بهيئة مهيبة كهؤلاء السياسيين، بثقة وكبرياء وفي غاية الطموح.

قال للسيد يو: «مرحباً بك في صالتنا مرة أخرى!».

فأجاب الأخير بصدق: «بالتأكيد سأزوركم. سيجمعنا لقاء المصادفة».

انطفأت أنوار الشارع، وكان الصباح يشرق. أشار العجوز بيده وركب سيارة أجرة. وقف السيد يو في مكانه مذهولاً، عاجزاً عن الكلام لبعض الوقت.

«يو، كيف لك أن تتسكّع مع شخصٍ حقير مثل هذا؟»، قال مدير متجر التحف.

وتساءل السيد يو، من أين جاء المدير؟ يبدو أنه كان مختبئاً طيلة الوقت في مكان قريب. أجابه بفظاظة: «أنا حرّ في مَن أتسكع معه».

- آه، فهمت. طبعاً طبعاً، أنا لا أعترض.

لم يستوعب السيد يو ماذا فهم المدير، ولم يكن راغباً في التفكير إذ غلبه النعاس. لماذا يصيبه النعاس كلّما تحدّث مع المدير؟

كان يسير على طريق مألوف والسماء مشرقة، ورأى على رصيف المشاة شجيراتٍ تعترض طريقه، من دون أن يعرف هل كان ذلك بسبب النعاس أم بسببٍ آخر، حتى إنه رأى شجيراتٍ وسط مسار السيارات. كان المدير يثرثر قربه قائلاً: «ما سبب وجود هذه الشجيرات الكثيفة؟ لأن هناك الكثير الذي لا يخافون الموت!».

انحنى السيد يو ناعساً إلى الشجيرات وسمع على الفور شخصاً يتحدّث.

- لستُ خائفاً من الوحدة، لا تقلق عليّ!

آه، كان الكهربائي ذاك. استقام السيد يو بقامته ودار حول الشجيرات، وسار مترنحاً إلى المنزل.

قال المدير: «سريعاً أم ببطء، ستمرّ الأيام على كلّ حال، فعِشْ حياةً مستقرة!».

بعينين مُثقلتين بالنعاس الشديد، عاد إلى المتجر بخطواتٍ متعثرة.

تبدّد نعاسه ما إن دخل المتجر، وكأنه استيقظ بعد نوم عميق. لم يتبعه

المدير، ولم يعرف إلى أين ذهب. كان مكتبه مفتوحاً، ورجلان يرتديان بذلتين سوداوين يجلسان فيه، أشار أحدهما إلى السيد يو وقال: «اُنظُر، لقد عاد!».

كان الرجلان من أفراد الشرطة. نظرا إليه بصرامة حين اتجه إليهما، ولم يتحرّكا ولم يتفوّها بكلمة.

«ما المشكلة؟»، سأل السيد يو بصعوبة.

– هناك مشكلة بالطبع. ألا تعلم كلّ شيء؟ إنه عن اختفاء الكهربائي.

تحدّث الشرطي السمين، بدا نافد الصبر وخبيثاً.

– أعلم. لقد أراد الاختفاء بإرادته، لا يمكن أن يمنعه أحد.

– لا نريد التحرّي عن هذا الأمر، فهذا ليس من اختصاصنا. نحن هنا للتحرّي عن المتشرّدة، هناك بعض الإشاعات حول التعدّي عليها.

قال السمين وألقى نظرة على السيد يو.

– مستحيل، نحن حبيبان!

– تحدث الإساءة بين الأحباب أيضاً. لا تستغلّها، أليس كذلك؟

قلّب السمين عينيه عدّة مرات. ولم ينوِ السيد يو التحدّث.

– عليك أن تراجع نفسك! إنها امرأة جميلة، وتكون مع هذا الوجه؟

نظر السمين إلى السيد يو باستهزاء، ثم ضرب الأرض بقدمه، ودفع زميله بنفاد صبر وخرجا. اقشعرّ جسده لسماعه صوت سارينة الشرطة في الخارج. صعد إلى الطابق العلوي وكانت أليانغ قد عادت، وجدها مستلقية في الخزانة تتناول شيئاً.

– ماذا تأكلين؟

– البطاطس، إنها من قريتنا. أرغب بشدّة في زيارتها.

- كثيرٌ من الناس هنا يهتمّون لأمرك.

- إنهما شخصان طيّبان، أوشكت على الوقوع في حبّ ذاك النحيف، لكنه ليس جيداً مثلك. إن عملهما في غاية النبل، حتماً تفهم ذلك، ذاك النوع من الاهتمام الحقيقي.

- أجل، أفهم ذلك. إنهما يكترثان لأمري حقاً، ربما شخص مثلي بحاجة إلى هذا الاهتمام. لكن لماذا أنا قلق؟ أخاف البرد دائماً. يجب أن أنام قليلاً.

استلقى على السرير وشدَّ اللحاف، وظلَّ وجه الشرطي السمين الخبيث يلوح أمامه، وجعله غير قادر على النوم.

- أليانغ، اذهبي غداً إلى القرية!

- لا، لديّ الرغبة في العودة، لكنّي أريد أن أظلَّ هنا.

- لماذا؟

- بسبب الحب طبعاً. أجتمع في الليل مع أهالي القرية. لديهم هناك مقهى ليليّ صغير مليء بزهور القسموس، والفئران تركض على الأرض هنا وهناك. عددنا ثمانية أشخاص، نغنّي معاً، وكلّها الأغاني التي تثير الذكريات. كانت علاقتنا سيّئة ونحن في الريف، فإحدى الفتيات أرادت أن تدفعني إلى البئر، واعترفت لي بنِيّتها في الليلة السابقة، ووصفت لي تفاصيل مؤامرتها. ولا أدري لماذا ظننت أنا وهي أنها مكيدة بارعة. الأخ يو، هل نمت؟

- مم.

- لكن لماذا أحببت مكيدتها؟ لأنها فكّرت فيها من أجلي. لم يكن أحدٌ يهتمّ لأمر شخص مثلي، لكن فجأة، اتضح أن هذه الفتاة انتبهت لي، ولم أدرك ذلك حينذاك. وشعرت بالفرح حين فكّرتُ في تسلسل

الأحداث والأسباب والنتائج. لم أكن متفائلة في القرية، لا أعرف لماذا كنت أخاف الموت هناك، ورغبت من كلّ قلبي في المجيء إلى المدينة. كنتُ جبانة وأنا في القرية، وحين أوشكت على مغادرتها اختفت من على سطح الأرض، وظللت طوال أيام أشمُّ هنا وهناك لأعثر على مدخلها، ولم أصادف أحداً من أهلها إلّا نادراً. لكن أُنظُر الآن، قابلت كثيراً منهم في وقت قصير. أصادف عديداً من الريفيين في المدينة، ربما انتقلوا إلى هنا منذ وقت طويل؟ سمعتُ أن الأنفاق تحت الأرض اختصرت المسافة، كيف سيكون الوضع إذاً؟ لا أدري. هل نمت أيها الأخ يو؟

كان السيد يو نائماً بالفعل. تعجّبت أليانغ من قدرتها على قول كلّ هذا الكلام في وقت قصير، فإن كانت قد فعلت ذلك في السابق لكانت فقدت وعيها. لكنّها الآن لم يُصبها الدوار فحسب، بل شعرت بأنها في حالة معنوية جيدة. هل شُفيت من مرضها؟ لا تزال يداها باردتين كالجليد، وثمّة ألمٌ طفيفٌ في صدرها.

زحفت من الدولاب وارتدت ملابسها، وتسلّلت إلى الردهة على أطرافِ أصابعها. رأت الكهربائي واقفاً هناك، بدا شديد الوهن ووجهه أبيضَ كورقة.

- أحبّكِ يا أليانغ!

- أعلم. لماذا أنتَ هنا؟ ألَم تعد إلى مسقط رأسك؟

- خدعتُكِ، لم أعد إلى مسقط رأسي، ذهبت باحثاً عن الموت، وتردّدت، فعدت.

«من الجيد أنك عدت، هذا ما يجب عليك فعله»، قالت أليانغ بجدية.

- سأغادر الآن، سأعود للعمل غداً.

- حَسنٌ!

ظلّت أليانغ واقفة في الردهة لبعض الوقت بعد أن رحل الكهربائي، وحين رفعت عينيها رأت الورد مرّةً أخرى. أثارتها الرائحة، وامتلأ عقلها بمشاهد الليل الصاخبة. وفي تلك اللحظة سمعت السيد يو يتحدّث.

- إنه رجلٌ مذهل، شتّانَ ما بيننا!

ذات ليلة، لم يخرج السيد يو وأليانغ، بل استغرقا في نومٍ عميق في الغرفة، ربما التجوال الليلي لأيام عديدة استنزف طاقتهما.

استيقظت أليانغ مع بداية الصباح، وسمعت أحد الريفيين يغنّي أغنية شعبية مألوفة. كان هذا الشخص يقف في الخارج.

دفعت أليانغ السيد يو دفعةً خفيفة، فقال بخمول: «اذهبي، اذهبي معها! ثمّة نفقٌ سرّيّ تحت الأرض، لقد رأيته، إنه في نهاية الردهة، إنهم يصعدون من هناك دائماً...».

فتحت أليانغ الباب ورأت شياو لان، وهي تلك الفتاة التي أرادت دفعها إلى البئر. وتولّدت لدى أليانغ عاطفة ودّية تجاهها، ونادتها بأختي الصغيرة. استمرّت في الغناء بصوتٍ شديد العذوبة، وانهمرت دموع أليانغ. وبعد أن انتهت من غنائها حدّقت فيها بصمت.

- يا أختي الصغيرة، هل تعتقدين أن بإمكاني العودة؟

- لا، لقد أُغلِقَ مدخل القرية. توقفي عن الحنين إلى تلك الأمور في القرية، تخلّي عن هذه الفكرة تماماً! انظري كم أنتِ سعيدة هنا!

جذبتها أليانغ من ذراعها واتجهتا إلى نهاية الردهة. تفحّصت أليانغ المكان ولم ترَ أيّ أنفاقٍ سرّية على الأرض أو الجدار. سألت شياو لان عن كيفية دخولها، فردّت: «تسلّقت من النافذة بالطبع، ساعدني الرجل العنكبوت».

- الرجل العنكبوت؟!

- الكهربائي الذي يعمل في متجركم. قال إنه سيقدم المساعدة في أي شيء يخص أليانغ، لأنه يسعى وراءكِ لكَسب ودّك!

- إذاً، أنتِ هنا لمساعدتي؟

- أجل، ألَم تقولي إنك تحنّين إلى مسقط رأسك؟

- لكن حنيني إلى مسقط رأسي ليس بحاجة إلى مساعدة. أردت أن أُصَابَ بالعلّة بإرادتي. حين سمعتك تغنّين، فكّرت، إن هذه متعة حقيقية. لقد أُصِبتُ بهذا المرض من أجل متعتي، ها! لذلك قلت إنني لست بحاجة إلى مساعدة، لكنّي ممتنّة لكِ، إنك لطيفة معي!

سمع السيد يو حديثهما من الغرفة، وشعر بتأثّر عميق. نهض وخرج لتحيّتهما، لكنّه رأى الاثنتين تنزلان إلى الطابق الأسفل. لمح شياو لان من الجانب، بدت جميلة وبريئة، ولم تبدُ مطلقاً مثل شخص يُضمر الشرّ. أن تأتي إلى هنا في الصباح الباكر للغناء من أجل أليانغ، فهذه ليست صداقة عادية. إذاً، ما هذا النوع من المشاعر؟

وأحسّ السيد يو أن بوسعه أن يدلف إلى عالم أفكارهما، لمّا كان في داخله طيلة الوقت. ولهذا السبب جمعته علاقة بـ أليانغ. حين فكّر في ذلك، فهم قليلاً مؤامرة شياو لان. ألَم تهجره والدته قبل سنوات في طريق ريفي؟

صعد المدير من السلالم وقال له بابتسامة لطيفة: «يو، يا لها من جنّة تعيش فيها! كلّ مَن يزُرنك نساءٌ جميلات. لو كنت مكانك، لكنتُ ممتنّاً للربّ إلى الأبد! بالطبع أنت ساحرٌ جدّاً!».

- هناك مَن يريد قتل أليانغ.

- حقّاً؟ أليانغ تاريخ الريف. هل يرغب أحدٌ في محو هذا التاريخ؟ أم

يريد أن يخرجها من الظلام إلى النور عن طريق قتلها؟ هذا سؤالٌ صعب، سأفكّر في الأمر، وسأضع مصلحتها في المقام الأول. هل نزَلَتْ من النافذة؟

- مَن؟

- شياو لان. تتسلّق صعوداً ونزولاً مثل قرد!

- لقد نزَلَتْ على السُّلّم برفقة أليانغ.

- يا لجرأتها! إن صادفتها سأسلّمها إلى الشرطة، فهي تعلم أنني منعتها من المجيء، لكنّها مع ذلك تتبختر في المكان. إنني أعجب بالأشخاص مثلها يا يو.

تساءل السيد يو: لماذا جاء المدير؟ كان يقف هناك ويتحدّث، وكأنه جاء ليرى الجلبة، وكأنه يقوم بنوع من التلخيص لما يحدث أمامه. وكان جليّاً أنه متورّط بعمق في ما يحدث بين أليانغ، وشياو لان، والكهربائي. فبعد أن جاءت أليانغ إلى متجر التحف بوقت قصير، تحوّلت إلى شخصية عامة، وهذا ما لم يتوقعه السيد يو وأليانغ نفسها. شعر السيد يو بالضيق بسبب هذا الوضع، وكان يحاول دائماً الهرب من انتباه الآخرين، لكنّه كلّما حاول جاهداً، حاصره أشخاص أكثر، حتى الكهربائي زعم أنه يحب أليانغ. وهناك أيضاً المدير، فهو على دراية تامة بوضع شياو لان، وربما كان يلعب لعبة القط والفأر مع هذه الصبيّة. جال السيد يو ببصره إلى نهاية الردهة، ورأى مدخل النفق السرّي، كان رمادياً يشوبه البياض، مثل ضبابٍ طافٍ، يجعل ما في الداخل غيرَ واضح. وخلفه، كان المدير يضحك.

قال المدير بنبرة ساخرة: «يو، هل أنت متأكّد من أنك لست مخطئاً؟».

اتجه السيد يو صوب النفق السرّي، وكان لا يزال بعيداً جداً عن نهاية

الردهة حين انكمشت كرة الضباب تلك داخل الجدار. لمسه السيد يو وشعر بوجود نباتات ذات أشواك.

– أريد أيضاً أن أنتقل إلى الريف، لكنّ القرية قد انتقلت إلى جدارنا.

جعلت نبرة المدير الساخرة وجهه يتضرّج بشيء من الحمرة. اقترب من السيد يو لدرجة أن أنفاسه لفحت وجهه، وكزَّ على أسنانه قائلاً: «هذا النوع من الممرّات يقطع قلوبنا إلى أجزاء. نذهب رائحين غادين عبره، وتصبح الأيام قصيرة أكثر فأكثر».

التفت فجأة وهبط الدّرج على عجل.

استرجع السيد يو بذاكرته سلوك أليانغ مع العاملين في متجر التحف، ورأى أنها رصينة، هادئة، غير قلقة، وكأن المتجر بيتها. كانت أعجوبة، لأنها فتاة ريفية لم تأتِ إلى المدينة من قبل، ويبدو أنها تلقى ترحيباً هنا. كما أن العاملين في المتجر لا يتعاملون معها بتحفّظ، ويعتبرونها تنتمي إلى هذا المكان. ولم يكن سلوكهم هذا بسببه مطلقاً. وقد أدرك ذلك منذ وقت وشعر بالاستياء.

وبينما كان يفكّر في الردهة، سمع صوت جدال هامساً وحماسياً بين الصبيّتين قادماً من السُّلّم. رأى أليانغ تمسك مزهرية لونغ تشوان الخزفية، ووجنتاها متورّدتان.

قالت: «هذه مزهرية لونغ تشوان خزفية أصلية».

تفحّصت شياو لان المزهرية من جوانبها وردّت: «أصلية؟ إن الأصلي في وقتنا هذا هو المزوّر».

لمعت عينا أليانغ وقالت: «ماذا تعنين؟ هل تقصدين أن المتجر يبيع تحفاً مزوّرة؟».

– أجل. هذا عمل جيد؛ البضائع الأصلية هي البضائع المزوّرة، حتى

أهالي القرية يعرفون ذلك. وكلّفني أحدهم أيضاً بأن أحمل له قطعة أو قطعتين من هنا.

- كلامك منطقي. دعيني أفكّر! الأخ يو هناك، أيها الأخ يو! هل يمكن أن تخبرنا كيف نُقيِّم هذه المزهرية؟

نظر السيد يو إليهما بابتهاج شديد وقال: «يا له من سؤال رائع لنقاشه في الصباح الباكر! ما قالته شياو لان منطقي، فالبضاعة الأصلية في يومنا هذا زائفة. لا يجرؤ على الاعتراف بذلك إلّا مَن يملك الشجاعة. مضى وقتٌ طويل منذ أن سمعت وجهة النظر هذه، إنها الحقيقة. يبدو أن الريفيين فقط مَن لديهم ذهنٌ يقظ. هل شغفَتْكُما المزهرية إعجاباً بها؟».

- أعطاها لنا المدير لنلهو بها. لقد تصالح منذ قليل مع شياو لان، وقال إن تأثيرها جيّد على المتجر. أنا سعيدة جداً، شياو لان هي سندي!

وضعت الشابّتان المزهرية على حافة الشباك في نهاية الردهة، ووقفتا هناك للدردشة.

تذكّر السيد يو أنه لم يتناول وجبة الإفطار، فاستأذن بالانصراف ونزل إلى الطابق الأسفل.

انبثق شعورٌ بالضيق من أعماق قلبه، فقد لاحظ بريق شرّ في عيني الفتاة شياو لان جعله يشعر بالتوتر. أحسّ بقوّتها رغم أنه قابلها مرّة واحدة. واعتقد أنها تريد أن تهدم العلاقة بينه وبين أليانغ، فهؤلاء الجميلات ذوات الملامح الحادّة يكنّ خبيثاتٍ في معظم الأحيان. عجز السيد يو عن تخمين أيّ خطّة شيطانية تدور في رأس المدير، الذي كان يحبّ أن يتخذ السخريةَ منه وسيلةً للسيطرة عليه.

تناول السيد يو وجبة سريعة في مقهى للإفطار، وعاد مسرعاً إلى المنزل.

رأى فور أن دفع الباب الصبيّتين تجلسان متقابلتين داخل الخزانة، وتتحدّثان كلاماً من القلب. حين رأته شياو لان طرقت على المزهرية بعود طعام وقالت: «الأخ يو، الأخ يو! إنّ عملك نبيل!».

بدا صوتها الحاد وكأنها تسخر منه. انحنى السيد يو وحدّق في وجهها، وسألها: «هل هذه المزهرية تدلّ على النُّبل في رأيك؟».

– بالطبع. أظن أن في داخلها عتمة قاتمة. اسمع، الحمام يرفرف بأجنحته!

وضعت فوهة المزهرية على أذنها، واقتربت أليانغ أيضاً لتسمع.

قالت شياو لان: «لدينا مزهريات في الريف كهذه، نضعها على الموقد لطرد الأرواح الشريرة، لكنّي لم أرَ شيئاً قديماً مثل هذا من قبل، ربما عمرها مئات السنوات؟! يمكنك أن تضع حماماً في المزهريات في ريفنا. تبدو صغيرة، لكنها شاسعة بدرجة لا توصف حتى إننا لم نستطع تخمين مدى رحابتها، لذلك نحتاج إلى مُثَمّن تحف مثلك لتقديرها. كيف استطاع الحرفيون في العصور القديمة أن يصنعوا مزهرية كهذه؟ حين أفكّر في كلّ هذا، أدرك أن عملك نبيل حقاً».

بعد أن سمع السيد يو كلامها، تلاشى حذره حيالها. وأحسّ مرّة أخرى بمدى تأثير هذه الأنفاق السرية على حياته. كانت شياو لان من هؤلاء الأشخاص الذين يتجوّلون في تلك الأنفاق، وفهمت عمله على الفور.

خرجت شياو لان من الخزانة وقالت له: «سأذهب إلى العمل اليوم، أنا مسؤولة عن تتبيل اللحوم في مطعم للمشويّات».

سألته أليانغ بعد أن غادرت: «ما رأيك في هذه الصديقة الجديدة؟».

– أعتقد أن لديها كاريزما.

– أجل. كما أنها جميلة، وصادقة.

رفعت أليانغ المزهرية وقرّبتها من أذن السيد يو، فسمع على الفور زقزقة سرب طيور، ولمعت عيناه.

«سأعيد المزهرية إلى مكانها يا سيد يو» - بدا صوتها وكأنه قادم من مكان بعيد.

أُغلق الباب بهدوء. وغامت عيناه.

كان عمر المدير أربعين عاماً وفي عنفوان شبابه حين بدأ السيد يو عمله في متجر التحف. جلس معه في المكتب في الطابق الأسفل، وكانت مزهرية لونغ تشوان الخزفية موضوعة هناك، وأصغى يو الشاب إلى التعريف بعمله الجديد. وشيئاً فشيئاً، أحسّ بالحقل المغناطيسي الضخم المحيط بمديره، وحاول عدّة مرّات في الأيام التي تلت أن يتخلّص من تأثيره. حتى إنه قام بحيلة أن يكون شخصاً مفقوداً، واختفى لشهرين، لكنّه في النهاية، وجد نفسه لا يزال عالقاً في شِباك المدير. جذبته حماسة المدير الكئيبة. وتقريباً من أول يوم، أصبحت مهنته هي مهنة السيد يو.

في الظاهر، كان يبدو متجرهم في هذا الشارع هادئاً وموحشاً، يأتيه زبائن قليلون، حتى إن القاعة يكتنفها شيء من الغموض، لكن السيد يو كان يعرف أنها تموج بإثارة لا توصف. الكلّ كان يضمر شيئاً خفيّاً، سواء أكان المدير، أم الموظفين، أم الكهربائيين، أم تلك التحف. كان يسمع في جوف الليل صوتَ صفيرٍ ينبعث من القاعة ويرتفع مباشرة إلى الغيوم، وأصبح مَعلَماً فريداً لهذه المدينة. وبعد أن بدأ العمل في المتجر بوقت قصير أصابه الأرق. وذَكَرَ المدير، في ما يبدو بالمصادفة، أنه مصاب بالأرق أيضاً، وأخبره أن الأرق يزيد من صداعه، الذي يكون حادّاً في بعض الأحيان لدرجة أنه يركب سيارته ويقود بسرعة كبيرة في

الشوارع. ولأن السيد يو لا يجيد قيادة السيارات، بدأ يتجوّل في كلّ زوايا المدينة. وهكذا، أصبح تدريجياً على دراية بقلب المدينة في الليل. وكلّما تعمّق زادت حماسته، وزاد اندهاشه من تفكير المدير. ومرّت عقود في هذه الدهشة، إلّا أن السيد يو لم يضجر، وكانت هذه النقطة تحيّره. ألا يعيش كلّ شخص في روح موغلة القدم؟ لكنّهم فقط لا يدركون ذلك، وإن كان العديد يدركون ذلك بالفطرة! مثل أليانغ، ومثل شياو لان. فتاتان تمتلكان روحاً عميقة، وفهمتا عمل متجر التحف دون الحاجة إلى التفكير، واندمجت الاثنتان في المكان على الفور.

ظهر المدير عند الباب وقال: «يو، أزهرت أشجار الليلك الهندي في الشارع».

- ألا تزهر في الربيع؟ نحن في أواخر الخريف الآن.

نظر السيد يو إليه بحيرة، فضحك المدير وقال: «زرعت هذه الأشجار منذ أكثر من عشر سنوات، ولها جدولٌ زمنيّ خاص. الصبيّتان تتّقدان بطاقة الشباب، مناخ المتجر القاتم لم يثبّط حيويّتهما. لقد رأيتهما تركضان إلى الجهة المقابلة مثل ريح. هل أليانغ مريضة حقاً؟».

سأله المدير بفضول ونظر إليه، لكن بدا أنه لم يكن مهتمّاً بالإجابة. فلوّح بيده ونزل إلى الطابق الأسفل.

بدأ السيد يو في ترتيب الحجرة؛ وضع البطانيّات في الخزانة على الرفّ، وشمّ رائحة زهور الليلك الهندي العطرة، التي تشبه رائحة شعر الصبيّتين. وتحوّل السيد يو فجأة إلى ذاك الشاب المولع بالفتيات. انحنى والتقط الوسادة الوردية، فتدحرجت منها مزهرية صغيرة جداً. كانت تشبه تلك المزهرية الأصلية تماماً، لكنّها لم تكن حتى في ربع حجمها. لم يرَ السيد يو مزهرية بهذا الحجم الصغير من قبل، هل جلبتها شياو لان من

الريف؟ قرّبها من أنفه وشمّ رائحة حطب، وتراقصت رسومات المزهرية أمام عينيه وارتجفت يده. يا للجمال!

جلس على حافة النافذة ليستريح بعد ترتيب الحجرة، عاجزاً عن الهدوء لفترة طويلة. بدأ معلّم التشيغونغ(*) في المبنى المقابل في ممارسة الفنون التقليدية، وارتجّ زجاج النوافذ الضخمة بفعل موجات الهواء الصادرة عنه، وتوقف اثنان من المارّة على رصيف المشاة ليشاهدا ما يجري بذهول.

- هل نهرب؟ هل نركض؟

- لا، هذا سخف، إنه ليس من الأرض، إنه شخص.

سمع السيد يو حوارهما بوضوح. كان دائماً ما يسمع كلاماً مثل هذا من زبائن المتجر أثناء النهار، لذا اعتاد الأمر. ربما يواجه الجميع الأسئلة ذاتها؛ هل ستهرب إن حدث زلزال؟ كان جسد معلّم التشيغونغ عبر الزجاج ينحف شيئاً فشيئاً، ويطفو، إلى أن اندمج في موجات الهواء. شعر السيد يو بالزخم من الجهة المقابلة رغم أن ثمة مسافةً تفصل بينهما، لذا نزل عن حافة النافذة وسحب الستارة.

رأى المدير يتحدّث مع أحد الزبائن بصوت خفيض عندما نزل إلى القاعة. كان ذلك الشخص الذي جاء في الليلة الممطرة، وذكر الدرع الذهبي عند حائط المدينة القديمة.

أشار المدير للسيد يو: «يو! أليس لديك وعدٌ تفي به لهذا السيد؟».

وقف السيد يو بصمتٍ تاركاً مسافة صغيرة بين الاثنين. قلّب عينيه محاولاً تذكّر الوعد الذي قطعه. ارتجفت ساقاه، وشمّ في الوقت ذاته

(*) هي رياضة تقوم على نظام شامل لتنسيق الجسم بالحركة والتنفّس والتأمل كوسيلة فعّالة للحفاظ على الصحة أو الروحانيات أو التدريب على فنون القتال. (م).

رائحة ذرق الطيور المألوفة. وضع ذاك الرجل حقيبةً قماشية إلى جانبه فيها حيواناتٌ صغيرة تتحرّك.

سأل السيد يو المدير: «هل يمكن أن تذكّرَني؟».

نهض الاثنان من على الكنبة في الوقت ذاته كأنما سمعا أمراً. سار الرجل إلى الخارج بخطوات سريعة، وعاد المدير إلى مكتبه. رآه السيد يو عبر الباب الزجاجي يستقلّ سيارة أجرة ويرحل على الفور. ثم دخل إلى مكتب المدير وكآبة تخيّم على ملامحه.

قال المدير: «إن مهنته تتطلّب شيئاً من الحساسية، لكن ردّ فعلك بطيء للغاية».

- يجب على الأشخاص مثلي أن يظلّوا في متجر التحف. إذاً، هل هو حفيد لأحد المحاربين؟ يبدو لي ذلك من هيئته، رغم زعمه أنه ابن لصّ مقابر.

- ربما لصوص المقابر محاربون. الهوية ليست مهمة، فيمكن لأيٍّ كان أن يشتغل في هذا العمل، إنه يتمتع بصفةٍ جامحة وحرّة. حتى إنني قمت بمحاولة في شبابي، لكنني هُزمتُ في النهاية. عليك أن تحمل رأسك بين يديك وأنت تسير في طريق الليل، وأن تتخلّى عن الراحة، لن يكون ثمة سقف يحميك أثناء نومك، وعليك أن تقفز في البالوعة لتنجو بنفسك.

غمره شعورٌ بالخزي والمدير يتحدّث، وتذكّر ليلة طيور التّدَارج، ومذاق ذرق الطيور الذي غطّى جسده، وسأل نفسه لماذا لم يعتَد هذه الأمور إلى الآن؟!

تنهّد المدير وقال: «لكلّ شخص موقعه الخاص. يو، لم نجمع مدّخرات ضخمة، ظلّت تلك الخطة مؤجّلة إلى المستقبل. أثناء جلوسي هنا تظهر هذه الأشياء في ذهني وكأني موجود بنفسي».

نهض المدير ووضع يديه خلف ظهره، وترنّح جسده البدين، وكأنه يحافظ على اتزانٍ صعب. وفكّر السيد يو، ماذا يا تُرى حدث لجسده؟

وفجأة سقط على الأرض مصدراً صوتاً مكتوماً، وزاويتا شفتيه ترتجفان.

جثا السيد يو وقرّب يده من أنفه.

قال بصوت رقيق كشعرة: «لا. ليذهب كلٌّ منا في طريقه!». خرج السيد يو من المكتب وأغلق الباب بهدوء. لمح الكهربائي يصعد إلى الطابق العلويّ فلحقه.

- شيء ما حدث مع المدير.

قطّب الكهربائي حاجبيه الكثيفين وقال: «ماذا؟ إنه أبٌ صالح، أليس كذلك؟ أَلست خائفاً؟».

- أخاف من ماذا؟ كلّ شيء يسير وفق خطة. آه، يا للجمال! ولا سيّما العلامات التي ظهرت البارحة والتي خُطّط لها قبل أكثر من عشرين عاماً.

توقّف الكهربائي واعترض طريقه بوقاحة، فاضطرّ السيد يو إلى الجلوس على السلالم، وجلس الكهربائي أيضاً.

سأله السيد يو بنبرة هادئة: «هل علينا إبلاغ الشرطة؟».

«بالطبع يمكننا إبلاغ الشرطة»، وضع الكهربائي يده على كتف السيد يو وأردف: «لكنّ المدير لا يحبّذ هذه الطريقة. هكذا إذاً، ساعِدني في حمله إلى السيارة!».

ذهب إلى الخارج وقاد السيارة إلى باب المتجر، ثم حملا جسد المدير الثقيل إلى السيارة، وكاد السيد يو أن يختنق. لِمَ جسده ثقيلٌ كثور؟

- إلى أين ستأخذه؟

- إلى الميدان الصغير أسفل المسرح ليتنفّس.

عاد السيد يو إلى الغرفة واستلقى على سريره، وانصرف تفكيره إلى أمر الجدول الزمني الذي ذكره المدير. للتّحَف جدولٌ زمنيّ خاص، وبوسع السيد يو أن يدرك مسار تطوّره عبر اقتفاء بعض الآثار فحسب. هل كانت إغماءة المدير منذ قليل تعبّر عن مسار ما؟ اتجهت نظراته إلى حافة النافذة، وتوقفت عند تلك المزهرية الصغيرة جداً. وتولّد عبر مدى بصره نوعٌ غريب من التواصل. فحدّث نفسه قائلاً: «هذا هو الريف الحقيقي، حيث وُلِدَت أليانغ».

«يا سيد يو، لقد عدت!»، قال الكهربائي عند الباب.

- أَلَم تذهب إلى المسرح الصغير؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- لا. لقد أفاق.

- يا له من رجل متقلّب!

اتجه الكهربائي إلى النافذة والتقط المزهرية، ثم طرق على منتصفها بأصابعه الصغيرة الغليظة، وكان عابساً.

- الإشاعات تنتشر في الريف.

- أيّ إشاعات؟

- لا أعرف التفاصيل على وجه الدقّة. فكّرْ في الأمر! هل ستختبئ أليانغ وشياو لان هنا من دون سبب؟ إن الريف شديد الوحشية.

- شكراً لك.

- إنك مغرور بعض الشيء.

- هذا أحد عيوبي. هل تعتقد أن المدير بخير؟

- بالطبع، لقد عاد إلى غرفته. يبدو أنه على علاقة بشياو لان.

جلس الكهربائي على حافة النافذة، وأرسل إشارات بالمزهرية إلى الناس في البناية المقابلة. تطلّع السيد يو مباشرةً ورأى معلّم التشيغونغ

يقف أمام النافذة الزجاجية وإلى جانبه شابّتان رشيقتان. دُهِشَ السيد يو لأنهما أليانغ وشياو لان.

صاح الكهربائي بحدّة قبل أن يندفع إلى الطابق الأسفل: «سأقتله!».

رأى السيد يو الفتاتين تلتفّان حول المُعَلّم مثل حيّتَين، وأراد أن يبعد عينيه لكنّه لم يستطع. لهث لهاثاً بطيئاً، وتشوّشت رؤيته.

بعد قليل سقط الثلاثة، ولم يعرف هل كان بسبب اقتحام الكهربائي الغرفة أم لا.

استلقى السيد يو من جديد، ونظراته مثبّتة على المزهرية الصغيرة كما كانت. في الخارج كانت عتمة الليل تهبط شيئاً فشيئاً، وتحوّلت المزهرية الصغيرة إلى ظلّ قاتم، وأظلمت نافذة معلّم التشيغونغ مثل كهف. أحسّ بنفسه يغرق في أحد الأنفاق السرية، والمخرج أمامه شديد الضيق. وإذا جعل جسده مسطحاً مثل سمكة الشبّوط الإفريقية، فسيكون بوسعه أن يسبح عبره. وكان جليّاً أنه شخص لا يبحث عن الموت بإرادته، فهو شديد التردّد. كاد أن يحسد الكهربائي، فقد أسرّ له عن قناعته ليلاً في أحراج الشارع. هل أدركت أليانغ حقيقة السيد يو؟

كان هناك طفلان يركضان في الشارع ويصيحان: «السيد يو! السيد يو!».

دخل المدير بصمت.

– يو، قلبي يستردّ قوته.

– لقد هُزمنا أيها المدير.

– أجل، سنُهزم دائماً، هذا قدرٌ محتوم.

جلس الاثنان جنباً إلى جنب كمرضى في مستشفى. وكان السيد يو مضطرباً بعض الشيء.

– من أين أنت؟

وسرت قشعريرة في جسده بعد سؤاله.

– في تلك السنوات، قامر بك والدك في إحدى المقامرات معي وخسرك، لكن هذا لا يعني أيّ شيء، أليس كذلك؟

– آه. ذكرياتٌ لا معنى لها.

كان المدير ضجراً بعض الشيء ولم يجلس طويلاً، فنهض وخرج مضطرباً.

عادت في منتصف الليل. جلست على السرير وجسدها محموم.

– أليانغ، هل أنتِ مريضة؟

انطوت على نفسها وأنّت بألم.

– أيها الأخ يو، سأنضمّ إلى شياو لان في القصور القديمة في جنوب المدينة. تلك القصور.. كيف لم تزرها من قبل؟ إنها مبانٍ زائفة، تبدو من الخارج في حالة جيدة، لكن إن دفعتها بخفّة.. عمل نمل أبيض.

– أليانغ، لنذهب إلى المستشفى!

– لا، لا أريد الذهاب. لقد أوشكت نهايتي، هذه هي السعادة. شياو لان تنتظرني هناك، ومعلّم التشيغونغ أيضاً. أصبح هذا الأمر شديد السهولة. كيف توجد مبانٍ كهذه في العالم؟ إن دفعتها إلى الجنوب، يكون لها هيكل؛ وإن دفعتها إلى الشمال، يكون لها هيكل آخر. والنمل الأبيض مذهل، لا يُقارن حتى بمعلّم التشيغونغ. أنا وشياو لان كلٌّ منا ستنزوي في قصرها الخاص، ولن نستيقظ إلى الأبد!

– لقد ظلمتكِ يا أليانغ.

– هل فعلت ذلك حقّاً؟ أنا قلقة عليك أيها السيد يو. سأغادر غداً بعد غروب الشمس. لا أستطيع دخول القصر إلّا بعد حلول الظلام.

احتضنها السيد يو من ظهرها برفق، وكأنه يحتضن طيفاً. ثم لمست يده شيئاً صلباً، كانت مزهرية صغيرة أخرى كالموضوعة على حافة النافذة، وضعتها أليانغ إلى جانب قلبها. غمغم قائلاً: «المزهريات في هذه الغرفة كثيرة».

- لقد استدعيتها كلّها. وستظلّ لفترة برفقتك بعد رحيلي حتى لا تشعر بالوحدة. لدينا هناك واحدة أعلى كلّ موقد.

خلدت إلى الصمت لبعض الوقت، وانتظم إيقاع تنفّسها، وتبدّد ألمُها.

سمع السيد يو صوتاً خافتاً لصافرة في البعيد، وعاد إلى ذاكرته فجرٌ مثلجٌ مكسوٌّ بالصقيع، ورياحٌ باردة في دربٍ ريفيّ.

- 6 -

نظرةُ الطبيبِ إلى العالم

عاش الطبيب ليو في شبابه فترةً جامحة حرّة، لكنّه رغم ذلك الجموح لم يفقد رشده. كان شخصاً صعب الإرضاء، لذا سرعان ما ضجر من هذه الحياة، وخلق لنفسه طريقةً أخرى للعيش تتمحور في ظاهرها حول تخصّصه الطبي، لكن كان لها في الواقع مدىً أرحبُ من ممارسة الطب. وقد أصبح الآن رجلاً وحيداً هادئاً وقنوعاً. وهذا لا يعني أنه استطاع «ألّا ينزعج من النساء في حضنه» كما يُقال، ولم يستطع اتباع الأعراف مثلما حدث في علاقته بشياو يوان. لكن حياته الفريدة كانت قد خُلقَت بالفعل. كانت عيادته البسيطة في مقاطعة العش مَعلَماً صغيراً، حيث يأتيه الناس لأجل تخفيف ألم أجسادهم وأرواحهم. وقد عانى بنفسه بشدّة منذ أكثر من عشر سنوات حتى كاد ألّا يرغب في العيش.

كان يرتدي معطف المختبر الأبيض من الفجر إلى المغيب تقريباً كلّ يوم، حتى لو ذهب إلى الجبل ليقطف الأعشاب الطبية، لذا كان دائماً يتعثّر بالأغصان. وبسبب عمله الدؤوب، كان أهالي مقاطعة العش ينظرون إليه بإعجاب وتقدير. وإلى جانب علاقته بالمرضى، كان لديه بعض العلاقات الغامضة بالعالم خارج المقاطعة؛ إذ يزوره عدة غرباء على الأقل مرّتين في العام، ويمكثون في النّزل القريب من العيادة، ثم يذهبون برفقته إلى الجبل

سيراً على الأقدام. يرحلون بعد يومين. وحين سأل أحدهم الطبيب عنهم، قال إنهم زملاء يأتون لإيصال اللوازم الطبية. وقال أحد المتطفّلين الذي تبعهم إنهم مملّون للغاية، يتسلّقون الجبل بدأبٍ وبصمت. وبعد وصولهم إلى القمة، يجلسون لبعض الوقت على صخرة ضخمة شاردي النظرات. ربما يراقبون ذاك النسر؟ ثم يهبطون الجبل. وقال المتطفّل، إنه من النادر أن نرى أشخاصاً مملّين إلى هذه الدرجة! كانت أحاديث السيد ليو في عيون الأهالي مفعمة بالظرافة.

كان منهج الطبيب ليو بسيطاً، ورغم براعته في تخفيف الألم، إلّا أنه لم يقطع أيّ وعود لمرضاه. وبسبب منهجه الطبي هذا، كان أهالي المقاطعة يفضّلون الذهاب إلى عيادته على الذهاب إلى المستشفيات الكبيرة. «ما فائدة المستشفيات الكبيرة؟ إن مرضنا لا شفاء منه، لا نريد سوى تخفيف الألم»، هكذا قال الجميع. وكانوا يرون أن ذهابهم إلى الطبيب ليو للعلاج أرخص وأكثر فاعلية. ورغم أنه طبيب يعتمد على الطب الغربي، فقد درس طبّ الأعشاب الصيني لفترة طويلة. وكان يشعر أن عالماً جديداً في طبّ الأعشاب الصينية لم يُكتشف بعد، وهذا العالم ينمو مثل جسد الإنسان، تربط بينهما علاقة خفيّة. وكان مُستخلَصُ الأعشاب الطبية الذي يصنعه يلقى قبولاً كبيراً.

إذاً، ماذا كانت تعني الأعشاب الطبية بالنسبة للطبيب ليو؟ يبدو جليّاً أنها لم تكن موادّ طبيةً فحسب، بل كانت تحمل معنىً أشدّ عمقاً. كان أحياناً يمدّ يديه في الهواء أثناء الليل ويلمس نباتات مزغبة، فيما يبدو أنها نَمَت على جدارٍ به الكثير من الكُوَى المجوّفة. كان يبيت أحياناً في الجبل ليختبر خصائص نبتة ما، وينام وسط الأحراج، ويلصق أذنيه بالأرض. وسمع ذات مرّة ارتجاف نبتة أرديسيا، فانتابه حماس، وظنّ أنها تفرز مادّة ما مضادّة للالتهابات.

«أيّها الطبيب ليو، صِف لي دواء قوياً، أريد التخلّص من آلام عظامي!»، قال أحد المرضى كبار السنّ.

- عليك أن تتحلّى بالصبر! إن تناول الأعشاب الطبية مثل نباتات تُزرَعُ في جسدك، عليك أن تدع جذورها تتأصّل داخلك، وهذا أيضاً مؤلم جداً. عليك أن تترك الألم الآتي يُزيل الألم السابق!

- أيها الطبيب، لقد جعلني كلامك أسترخي ولم أتناول الدواء بعد.

حدّق العجوز في الفراغ، وكأنه يرى عشبة طبّية عجيبة تنمو، وخطر بباله: «إن أعشاب الطبيب ليو الطبّية تنمو من أجلي، ومَرَضي تُربَتُها». وانتبه إلى معطف الطبيب الأبيض المغطّى بشتى أنواع البذور التي تمدّ رؤوسها لتستكشف الأرجاء.

في عالم الطبيب ليو المظلم، ينمو الإنسان والنباتات معاً. وتلك النباتات الكثيفة، وخاصة جذورها وبذورها، تسبّب أحياناً الاختناق. وحين يحدث ذلك، لا بدّ للبشر أن يُحلّقُوا، لكن البشر لا يستطيعون التحليق بالفعل، بل يظلّون عالقين في السماء القريبة جدّاً للأرض، وأجسادهم مغطّاة بالبذور، مزهوّين ومتألمين، راغبين في التحليق أعلى وأن يهبطوا إلى الأرض.

منذ فترة طويلة، سمع الطبيب ليو بشكلٍ مبهم عن الترابط العظيم للعالم. وكانت المجموعة الأولى التي جاءت إلى مقاطعة العشّ في أوائل ربيع ذاك العام تتكوّن من ثلاثة أشخاص، يرتدون أردية سوداء مغطّاة ببذورٍ عجيبة. مكثوا يوماً ثم رحلوا. شيّع الطبيب ليو الظلال الثلاثة السوداء بنظراته وفؤادُه مفعمٌ بالمشاعر. وهكذا تم الاتصال منذ تلك الزيارةَ الأولى، الاتصال بين الشخص والآخر، والاتصال بين النباتات. فكّر في أن هذا الترابط يحدث في كلّ دقيقة وكلّ ثانية، مثل عمل الرياح. وحين

وقف عند باب عيادته حينئذٍ لاستقبالهم، دخل الثلاثة بصمتٍ خافضين رؤوسهم، وكانت الريح تهبّ في الخارج تكتنفها أصوات صياح أطفال. وكان ثمة صياح أطفال في فؤاد الطبيب كذلك. جاؤوا ورحلوا، أي بمعنى آخر، خلقوا رابطاً ما بين الطبيب ليو في مقاطعة العش، والعالم.

- بدؤوا في زراعة الأعشاب الطبّية في حدائق سوجو. لكنّي أرى أنها خطوة لا داعي لها.

- من الأفضل دائماً أن تُزرع الأعشاب المستخدمة لأغراض طبّية في البراري. الأرض تعرف أيّ نباتات لا بدّ أن تنتجها.

- معظم الأنواع النادرة تختفي قبل أن يُتاح الوقت لاكتشافها.

- كيفما تطوّر العالم، فالتواصل ضروري دائماً.

- لا مناص من القول إن الأعشاب الطبية كانت موجودة قبل البشرية، ومستعدّة لظهور البشر.

كانت هذه تعليقات الثلاثة المتشحين بالسواد. كلماتهم أضاءت ووسّعت كيان الطبيب الداخلي، وبدأ منذ هذا اليوم في تمييز تلك الرسائل القادمة من الأماكن القصيّة. وفي ذاك اليوم في جبل العشّ الذي أمضاه برفقتهم، تطلّع معهم إلى البعيد، وامتدّ في مدى بصرهم جبلٌ تلو الآخر حتى الأفق. وطالع في ليلة اليوم ذاته كتاباً عن الطب، وفوجئ بعدّة أنواع من نباتات غريبة لاحت في ذهنه، ووضع خصائص نموّها ومواقعها الجغرافية. وأطلق على عشبة ذات أوراق رفيعة: «جُذامة»، وظلَّ متحمّساً طوال الليل بسبب هذه النَبتةِ المُتَخَيّلة.

كان مولعاً بالعلاج بالإبر إلى جانب الطب الصيني التقليدي. بدا العجوز يو مخيفاً عندما جاء إلى عيادته وإبرٌ مغروسة في رأسه. سار بخطوات واسعة رافعاً رأسه، يتبعه شابّان.

جلس الاثنان في العيادة وتبادلا أطراف الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل. قال العجوز يو إنّه اكتشف الطبيب ليو من خلال دراسته للعلاج بالوخز بالإبر. وإلّا، فكيف حدث هذا التفاعل المتبادل بينه هو الذي يعيش في المدينة، وبين الطبيب ليو الذي يعيش في هذه المقاطعة الصغيرة النائية؟ يرى أن الإبر حين تغوص في الجسد فإنها تغوص في الكون، حتى ولو كان يفصل بينهما الجبال والأنهار، ستتلاشى المسافة في طرفة عين. وتيقّن من هذه النقطةِ بشكل أعمق بعد سنواتٍ طويلة من الممارسة. أراه مساعدان للدكتور ليو إبرةً فضيّة طويلة جداً بطول إنسان. تأثّر الطبيب ليو فجأة لدى رؤيته الإبرة وانهمرت دموعه، وشعر بأن عقدةً في قلبه قد حُلّت.

عادا إلى النزل في جوف الليل. ذهب الطبيب إلى الطابق العلوي للنوم مفعماً بالحماس. استغرق في النوم سريعاً، إلّا أنه سرعان ما استيقظ. سمع أحدهم ينادي عليه من عيادته في الأسفل. كان الممرّ معتماً، فتلمّس طريقه نزولاً. وكان الغريب في الأمر، أن قدميه لم تكونا تدوسان بلاط السيراميك، بل تدوسان عشباً. وكان الهواء مفعماً برائحة عشب برّيّ.

سمع العجوز يو يتكلّم: «أيها الطبيب ليو، لا تتجوّل في المكان! اجلس على الأرض، واخلع حذاءك الأيسر! سأخِزُ نقطة يونغ تشوان(*)».

خلع الطبيب حذاءه، وشعر بيده الغليظة الكبيرة تقبض على قدمه. وبعد قليل، سرى تيار من الخَدَر من باطن قدمه إلى دماغه، وكاد أن يفقد وعيه.

- سأترك الإبرة في جسدك، لا يزال بإمكانك الحركة، لن تعيقك!

كان الطبيب عاجزاً عن الكلام، وأحسّ وكأنه يجلس في الجبل،

(*) الينبوع المتدفق - نصف القدم من الأسفل. (م).

وأوراق الأعشاب تخِز وجنتَيه، والعشب في كلّ مكان. الظلّ الأسود أمامه هو العجوز يو، الذي كان يخفض رأسه منشغلاً بشيء ما.

– أيها العجوز يو، هل بوسعك إخباري كيف عثرت عليّ؟

أثار الارتجاف في صوت الطبيب موجاتِ ألمٍ خَدِرٍ في جسده، بصعوبة يمكنه تحمّله. لم يستطع النهوض، فسقط على الأرض. وسمع صوت العجوز الرتيب: «لقد عثرت عليك قريباً من نقطة زو سان لي (منطقة تحت الركبة). هل تسمع ذلك؟ زو سان لي! إنها منطقة شاسعة كمقاطعة كاملة!».

كان صوته يبتعد تدريجياً بينما يواصل الكلام.

أشعل الطبيب فجأة مصباح فلورنست بحركة من يده. نهض وتأمّل بحيرة غرفة الفحص. كانت قدمه اليسرى لا تزال مخدّرة قليلاً، لكنه كان قادراً على المشي. رفع مصباح المكتب وسلّطه على باطن قدمه، ورأى في نقطة يونغ تشوان قشرة جرح قانية إلى حدٍّ ما. حين لمسها، لم يشعر بألم.

الساعة الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل، على الأرجح أنه دخلَ إلى مملكة العجوز للإبر الفضية منذ ساعتين، كان حدثاً مذهلاً. «إن أدخلَ الإبرة في قدمك اليسرى، سيكون إلى جهتك اليمنى»، قال لنفسه هذه الجملة الغامضة. حاول الطبيب ليو أن يتذكّر ما حدث للتو، وتذكّر أخيراً كلام العجوز عن نقطة وخز «زو سان لي». قال إنّ نقاط الوخز في الساق شاسعة كمقاطعة، وربما له وجهة نظر. ألَم ينتَبْهُ هذيانٌ خاطف بأنه في القطب الشمالي حين دخلت الإبرة إلى نقطة وخز يونغ تشوان؟ كما انتابه شعورٌ بأن هذا العجوز لم يأتِ من إحدى المدن الكبيرة، بل جاء من «الداخل» إليه، مثل الأشخاص الثلاثة ذوي الأردية السوداء. ربما ذكر مدينةً في الجنوب ليخفي حقيقة أنه قادم من «الداخل». أيّ مكان هو

«الداخل»؟ لا يعرف الطبيب. ربما كان له علاقة بأعشاب طبّية مثل عشبة الزراوند.

سمع الطبيب صوت خشخشةٍ في خزانة الأدوية، على الأرجح كانت هناك ديدان كثيرة تزحف. كانت الأعشاب الطبية قد جُفِّفَت وجُمِعَت، وتعبق برائحة نور الشمس المنعشة. كان بإمكانه أن يتخيّل مدى نشاط تلك الديدان! لا تترك ثقباً إلّا وتدخله، وتعيش متطفّلة في تلك النباتات. تذكّر الطبيب يو الديدان الصغيرة في جذر حشيشة الملاك، سمتها الهادئ.. ملامح قادمة من «الداخل». وكلّما كان يرى ديدان حشيشة الملاك، كان يبدو وكأنه يسمع همساتها المميّزة: «أنا حشيشة الملاك، حشيشة الملاك هي أنا!».

أضاء المصباح في الممرّ فجأة حين صعوده إلى الطابق العلوي. وشكّلت بعض الحشرات التي تحوم حول النور انعكاساتٍ جميلة. ارتخت قدماه فجلس على الدّرَج.

- العم ليو، العم ليو! سأموت من الألم!

كان الشخص في الخارج يدقّ الباب بقوة.

فتح الطبيب ليو الباب، فإذا به عامل النظافة، منطوياً على الأرض.

أعطاه الطبيب دواءً ليشربه، ورآه يستردّ قوّته شيئاً فشيئاً. ولاحظ أنه يملك ملامح وجه شخص مُطّلع. ساعده على الاستلقاء على سرير الفحص.

قال: «أريد التجوّل في أرجاء حوائط المدينة القديمة، وإلّا لن أموت بسلام».

- كلامك منطقي جداً.

ارتجفت يداه، فأمسكهما الطبيب ليو وشدّ عليهما بقوّة. وشعر بأنه

وعامل النظافة قد أصبحا واحداً، كشعور دودة حشيشة الملاك نحو مثيلاتها.

قال له الطبيب: «لم يحِن وقت موتك بعد».

- حقاً؟ لكنني ضجرت من الحياة.

- سيزورك زوج ابنتك ليحتفل بعيد ميلادك.

نظر إليه الطبيب بهدوء. ارتخت يداه المتيّبستان، وعاد إلى وجنتيه رونق الحياة، لكن الألم الحاد انقضّ عليه من جديد.

- سيخفّ ألمُك.

ترك الطبيب يده بعد لحظات، ونهض عامل النظافة.

- إنك دائماً على صواب يا عم ليو، أنا أحترمك!

خرج عامل النظافة من غرفة الفحص بخطوات متمهّلة، واختفى ظلّه في ضباب الصباح الباكر.

أخذ الطبيب ليو نفساً عميقاً. قبل عشرين عاماً شرب كأساً مع عامل النظافة في حانة صغيرة، وأدى له العامل عرض ابتلاع المسامير، ثم قال له: «لديّ منجم حديد في معدتي». واستمرّ الطبيب ليو منذ ذلك الحين في دراسة بنيته المميّزة، وأدهشته سرعة تدهور جسده. فهذا الجسد المميّز الذي استمدّ تغذيته من المعادن واجهه فجأة عائقٌ ما، وأصبح يذوي يوماً بعد يوم. وحينما راودته هذه الفكرة، تذكّر الإبرة في قدمه. منحه الدفء الخفيف في باطنها شعوراً مريحاً وحرّاً، ربما كان هذا مثل دعم منجم الحديد لجسد عامل النظافة. نظّف الطبيب عيادته بابتهاج، ووضع القِدر البخاري المعقّم على الموقد. كان مفعماً بالنشاط رغم أنه لم ينَم جيداً خلال الليل، هكذا كان دائماً.

كانت النساء يشكّلْن موقعاً شديد الأهمية في حياة الطبيب ليو، ولكن هذه المكانة تغيّرت خلال السنوات الأخيرة. وهذا لا يعني أنه فقد قدرته على حب النساء، بل لأن اهتمامه فَتُرَ بالعلاقات بين الجنسين، وأصبح خاضعاً لقَدَره بشكل ما. كان بإمكانه رؤية النهاية منذ البداية في العلاقات الجسدية، التي كانت تسبب ضرراً شديداً لرجل متوسط العمر يمارس الحب. انسلّ نوعٌ من الفتور إلى داخله مثل أفعى سامة، ورأى أنه مُدركٌ لحياته تماماً. وخشي أن النتيجة لن تكون جيدة بصرف النظر عن أيّ امرأة كان في علاقة معها.. لرجل مثله يرى عالماً ثلاثي الأبعاد ما إن يفتح عينيه، ويملك رؤية بانورامية شاملة لظاهره وباطنه. لم يخطط في الواقع أن يكون عازباً طيلة عمره، إلّا أنه كان يفهم طبعه تماماً. وفكّر في الأمر من جميع جوانبه، من دون أن ينشئ عائلة إلى الآن.

كانت هناك مريضة جميلة، عالجها من الروماتيزم بالأعشاب الطبية، ونتيجة لذلك وقعت في غرامه. كان لها اسم جميل، دان نيانغ، وعينان مسحوبتان.

«علينا أن ننجب أبناء ونعيش حياة طبيعية» -قالت له دان نيانغ في الطابق العلوي أعلى غرفة الفحص- «يمكنك أن تكرّس جزءاً من وقتك لعائلة».

رأى الطبيب ليو أنها على حق، لكن لسببٍ ما سرت برودة في عموده الفقري. أيّ نوع من الأزواج سيكون؟ وأي نوع من الآباء سيكون؟ كان مجرداً من ثقته بنفسه أمامها، هذه المرأة الجميلة، المستبدّة، والمتّقدة بالعاطفة. تخيّل الطبيب في حلكة الليل شتّى مشاهد الحياة العائلية، وجرّب أن يُدخل نفسه خلالها، لكنّه كان يُطرد في خزيٍ كلّ مرّة. وتوصّل إلى نتيجة مفادها، أن دان نيانغ ستحوّل حياته إلى فوضى.

تعيش دان نيانغ في مدينة مجاورة، وتستقلّ دائماً أول قطار في الصباح الباكر لتأتي إليه، وتستقلّ القطار عصر اليوم التالي وتعود إلى مدينتها. رأت الباب موصداً حين وصلت إلى العيادة ذاك اليوم، وكان هناك إشعار بأن العيادة مغلقة، وكتب الطبيب ليو أسفله بأنه سيغادر لمدّة أسبوع. سقطت حقائبها على الأرض، ووقفت مبهوتة، لأنهما تحدّثا على الهاتف في الصباح.

- يا آنسة، هل ستلحقين بالقطار؟

شدّها عجوز بلحية بيضاء من طرف ثيابها.

- أجل، سألحق بالقطار، لا تزال الرحلة الأخيرة متاحة.

لم تذعن، واتصلت به في تلك الليلة على هاتفه المحمول.

كان صوته واهناً ورقيقاً، والمكالمة تنقطع بين حين وآخر، وكأنه يقف في حقل في الريح.

- دان نيانغ، أنا في الريف. المكان هنا شديد العتمة والمطر يهطل.. لن أستطيع أن أستقل عبّارة اليوم، سأشق طريقي عبر النهر.. أعرف أنكِ لم تنتظريني، وهذا أفضل. هل تسألينني عن رأيي في نفسي؟ أنا جبان، آسف!

أنهت دان نيانغ المكالمة في الظلام، وأيقنت داخلها أن هذا هو الوداع. لقد سدّ الطريق. ستقرّب من حبيبها من الآن فصاعداً من جهة أخرى، وهذا التقرّب يشبه انفصالاً دائماً.

في البداية ظلّت تراجع نفسها: ما الخطأ الذي حدث؟ ثم أدركت شيئاً فشيئاً، أنه كان مقدّراً لها السير في طريق الطبيب ليو طوال حياتها، وأن حبها له كان نقطة الانطلاق. لن يراها الطبيب ليو مرة أخرى، لكنّه حملها إلى هذا الطريق بلا عودة، وغيّر حياتها كُلّيّاً. ورأت أن الوضع مناسب لها في ما يتعلّق بمشاعرها. وتذكّرت في صغرها حين كانت تستخدم عشبة

«الغافِثِيّة» للتنجيم، لَكَم كانت تحمل توقعات كبيرة لنفسها آنذاك! لكن، لماذا لم تعد تتوقع أيّ شيء الآن؟

لم يذهب الطبيب ليو إلى الريف، بل كان في الغرفة أعلى عيادته. رأى من بعيد ظِلّ دان نيانغ الراحل، وشعر في اللحظة ذاتها أن قلبه يتحوّل ببطء إلى أحفورة موغلة في القِدم. وخطر بباله أنه استخدم الأعشاب الطبّية لعلاج هذه المرأة لأجل إقحامها في عالمه. ولم يعرف هل هذا جيّد أم سيّئ بالنسبة لها، على كلّ حال هكذا حدث الأمر. تجدد تفكيره بنبات الزراوند، كيف تطوّرت تلك الأعشاب الجميلة الوحيدة إلى ما هي عليه الآن؟ وما هي العوامل المرتبطة بتأثيرها السحري في البيئة؟ وجعلته مكالمة دان نيانغ في الليل يهذي حقّاً بأنه في حقل وسيعبر ذاك النهر. كان هذا اليأس كأنه هوّة سحيقة. لكن وجوده في هذه الهوّة بعث السكينة في نفسه، وبدأ شيء ما في شخصيّته يتكشّف.

بعد أربعة أيام (وليس أسبوعاً)، فتح أبواب عيادته، وعاد إلى طبيعته المرحة، وإلى هذا الشخص القادر على تخفيف آلام المرضى. حتى إنه ذهب ليقدّم استشارات طبّية لبعض كبار السن، وشعر بتَحَقّقٍ داخلي لتمكّنه من بعث الراحة في نفوسهم.

«نحن وأنت أعضاء في منظّمة سرّية»، هذا ما قاله عجوز يعاني من ورم وهو يضغط على يده.

ردّ الطبيب ليو: «وأيضاً تلك الأعشاب الطبية في جبل العشّ».

– أجل، ما تقوله صحيح. نحن ننتمي إلى منظّمة واحدة. حين أستيقظ متألماً في منتصف الليل، أرى رفقائي مختبئين بين الأعشاب الطبية. أعدادهم كثيرة، هنا واحد، وهناك واحد، متفرّقين في زوايا السماء

والأرض. ليو، بمعرفتك، يمكنني أن أموت من دون ندم. لقد تعلّمت منك الطريقة الصحيحة لعلاج مرضي، وعشت خلال هذه السنوات الخمس حياة مُرضية، شكراً لك!

حلّق عصفور من زاوية معتمة، وحطّ على كتف الطبيب ليو. ريشه ذو لونين: أصفر وأبيض، ومنقاره بنّيّ اللون، وعيناه تشبهان عيني دان نيانغ.

- ليو، هذا العصفور قادم من الجبل، واتخذ من منزلي هنا بيتاً له. يأتي ويذهب كيفما يشاء، أُنظر كم هو غريب!

- لا أظن أنه غريب. هل تحدّثت معه؟

- أتحدّث معه دائماً. في تلك الأوقات من الليل، حين أكون يائساً ووحيداً يمنحني مواساةً لا نهاية لها. إن له عائلة، رأيت ذلك في عينيه.

- لقد أصبحت عائلته.

طار العصفور أثناء حديثهما، وخلّف رائحة جسمه في الهواء، رائحة زكية.

- يا ليو، لديّ كلّ شيء. وبوسعي رؤية كلّ شيء رغم أنني مستلقٍ هنا غير قادر على السفر. مرَّ وقتٌ طويل منذ أن أمطرت، وكنت قلقاً على نباتات الفربيون. لكنها أمطرت أمسِ، وكانت النباتات مفعمة بالفرح.

لمعت عينا العجوز بالدموع، ورأى الطبيب ليو خيال جبال يداعب وجهه.

أصبح الطبيب في مزاج مرح غريب بعد مغادرته. ألَم يرَ دان نيانغ من جديد؟ تبدّد اعتقاده بأن حياته منقوصة. قليلٌ جداً من الناس مَن يعثر على مفاجآت تثري حياته كالطبيب ليو وذلك الرجل العجوز.

دان نيانغ في كلّ مكان. بعد أيام قليلة، رأى تلكما العينين الجميلتين

في وجه طفلة. كانت مصابة بداء الصّفَر، ويعالجها من الديدان. جاءت بها والدتها للمراجعة.

قالت فجأة: «أيّها الطبيب، لا تقتلها كلّها، اترك بعضاً منها في معدتي، إنها لا تؤلمني!».

«آه، يا لروعتها! يا لها من طفلة جميلة أنجبتِها!»، قال الطبيب لوالدتها.

غنّت الفتاة الصغيرة أغنية أطفال غريبة عند مغادرتها، بدت أنها تتحدّث عن حياة سعيدة لسحليّة. وكانت تكرّر: «عينا السحليّة، عينا السحليّة!». كانت ملامح وجهها مهيبة وكأنها تحدّق في عينَي السحلية مباشرةً. ولم يستطع الطبيب ليو منع نفسه من التفكير في أن عيني السحليّة في الحقيقة من أجمل العيون في الطبيعة، أجمل من عيني دان ليانغ.

أحسّ الطبيب حينما رأى الفتاة الصغيرة تتقافز بمرح بأن حياته تتحوّل إلى أسطورة. كان كلّ شيء مُرضياً ورائعاً! فهمه المرضى، وتواطؤوا معه في مهنته. هل يمكن للمرء أن يحظى بسعادة أعظم من هذه؟ حتى إنه شعر حينما راودته هذه الفكرة بأن دان نيانغ هي سعادة منحها له الرّب. سعادة حتى لو كانت ألماً.

وقت المغيب، وقف الطبيب ليو في الشارع أمام باب عيادته، راغباً في الشعور بنبضات هذه المقاطعة الصغيرة. وأحس أن الريح الجنوبية الشرقية تحمل بين ثناياها أخباراً كثيرة، رغم أنها غير منظّمة، فقد بدا أنها تطفو لتخلق شكلاً ما. وفي تلك اللحظة، توقفت عربة بثلاث عجلات أمام الباب.

- ليو، هل تنتظرني؟!

خلع عامل النظافة قبّعته القشية وحيّاه.

- هل جاء ذلك العصفور؟

- أجل بالطبع، جاءت خمسة عصافير، تسكن العشّ أسفل الإفريز. إن قدمي أفضل بكثير. لقد عثرت على خريطة لجدار المدينة القديمة.

- أتمنّى لك حظّاً سعيداً!

عاد الطبيب ليو إلى العيادة وأغلق البوابة، وأصبح ذهنه أكثر نشاطاً. تلقّى في الصباح مجلة «اتجاهات الطبّ» أرسلها له أحد أصدقائه في المدينة، وكانت تحمل بعض الأخبار التي جعلته متحمّساً بينه وبين نفسه. بالطبع لم يكن شيئاً حقيقياً، بل نوعاً ما من التخمين، ومن الملاحظة والتحليل العميقين. وضع الطبيب ليو المجلّة أسفل نور المصباح وقرأ عدة سطور، ثم أغمض عينيه ولاحت في ذهنه تلك الخريطة الغامضة، ورغم أنه لا يفهمها، إلّا أنه استخدم أفكاره في البحث عن موقع ما، منتشياً بتلك اللعبة. وثمّة لحظة، سمع فيها زئير أسد. «آه... آه!» أطلق صرخة إعجاب خافتة، ولاحت على وجهه ابتسامة غامضة.

ذهب الطبيب إلى محافظة في منتصف المقاطعة قبيل فصل الشتاء، ليس من أجل العمل، بل من أجل إشباع فضول ما. نشر مجمّع الطب الشعبي في تلك المحافظة مجلة عن التشيغونغ، وقد أرسل لها الطبيب مخطوطاً. كانت المجلّة ذات صيت واسع، وتبدو مدعومةً من اتحاد مالي. وكان مكتب التحرير ضخماً.

وصل قطاره في منتصف الظهيرة، وبعد أن عثر على فندق وتناول وجبة الغداء، ذهب إلى مقرّ المجلّة. كان لديه حدسٌ، بأنه سوف يقابل أحد الأصدقاء القدامى، صديقاً من زوّاره.

يقع مقرّ المجلّة في حارة قديمة نائية. عُلّقَت على بابها المقشّر طلاؤه لافتة صغيرة كُتب عليها: «مقرّ البحث عن أسرار التشيغونغ». كان الباب

موصداً، راقبه الطبيب لبعض الوقت ولم يسمع أيّ حركة في الداخل. دقّ الباب بقوة، ثم دفعه بأقصى استطاعته، وكان الصمت لا يزال مخيّماً في المقرّ. ويذكر بوضوح أن اليوم يوم عمل. حزن بشدة، وكان كلّ ما عليه فعله أن يعود إلى الفندق.

«خو غوا! خو غوا!»، صاح أحدهم خلفه بصوت مرتفع.

التفت الطبيب ليو، فرأى رجلاً قصير القامة يلوّح لشخصٍ آخرَ قادم من نهاية الحارة. وهذا الذي يدعى خو غوا (الخيار)، كان وجهه داكناً ويرتدي ملابس رثّة.

قال الرجل القصير: «هل تبحث عن خو غوا؟ إنه قادم، هو مدير المجلّة».

وتذكّر الطبيب ليو في هذه اللحظة أن لقب مدير المجلّة هو «خو» بالفعل.

أومأ برأسه ناحية الطبيب، وأخرج مفتاحاً وفتح الباب. أشار له بحركة من يده ليتبعه. عبرا باحة صغيرة عامرة بالأعشاب والزهور المتروكة من دون تشذيب، بدا مشهدها برّيّاً ونضارتها ظريفة رغم أن الشتاء على وشك الحلول.

قسم التحرير عبارة عن مبنى من القرميد الأسود مشيّد على الطراز القديم، يتكوّن من عدّة غرف، والأبواب في الطابق الأسفل مفتوحة على مصراعيها، لم يرَ الطبيب ليو أيّ شخص في الداخل. كان مكتب المدير في آخر الرواق، وبابه مفتوح كذلك. دخل الاثنان المكتب الفسيح.

قال المدير: «تفضّل بالجلوس!».

جلس الطبيب ليو على الكرسي غير المريح.

كان ثمّة مكتبٌ ضخم في وسط الحجرة، أعلاه أكوامٌ من الجرائد

والمجلّات والخطابات والمسوّدات. وفي منتصف المكتب، وقريباً من المصباح، جلس قردٌ صغير برصانة شديدة. كان القرد يحدّق في الطبيب ليو طيلة الوقت ممّا بعث فيه شعوراً بالضيق.

ابتسم المدير قائلاً: «لا تكترث له، لقد أفسدتُه بدلالي. إن مقالك جيّد، مليء بالمبادرات النظرية».

– شكراً لك. إنه لشرف كبير لي أن تقرأ مقالي بنفسك!

– ها ها! مَن سيقرؤه إن لم أقرأه أنا؟!

– أنا آسف، اعتقدت أنك تعطي المسوّدات لمساعديك المحرّرين لقراءتها.

قال المدير بهدوء تام: «لا محرّرون من بين مساعِديّ».

– لا أفهم. هل هناك سوء فهم في الأمر؟

– لا محرّرون لديّ، هذه مجلّتي الخاصة.

– سُحقاً لي! هل أسأت لك أيها المدير!

– لا، لم تُسِئ لي، إنني سعيد جداً بزيارتك المجلّة. أعلم أنك لا تصدّق أنني أدير المجلّة بمفردي، لكن هذه هي الحقيقة. لديّ مصمّم فني يعمل بدوام جزئي، هذا فقط. أما الأمور الأخرى، مثل تصحيح بروفات الطباعة، والتنضيد، وإرسال المجلّة للطباعة فأنا أفعلها بمفردي. أرى في ملامح وجهك شيئاً من خيبة الأمل، اعتقدتَ على الأرجح أن مجموعة كبيرة هنا. ولكن لا يوجد، هكذا قضاء الربّ. أنت من المنظّمة، وتدرك تماماً، أن الوحدة قدرُنا.

– من الصعب تخيُّل ذلك!

نهض الطبيب بإعجاب وصافح مدير المجلّة.

قفز القرد حينئذٍ ومزّق معطف الطبيب الأبيض.

- آه، إنه غيور. اتركه، بسرعة!

جلس الطبيب ليو، وفؤاده يموج بالمشاعر.

- لا أشعر بالوحدة رغم ذلك، هناك الكثير منا في أنحاء العالم، حتى في الخارج. ولا أعتبر نفسي شخصاً واحداً. والآن بما أنني أملك مجلّة، فأنا مجموعة، وزد على ذلك كلّ القرّاء في العالم، فقد أصبحت حشداً، هاها!

قلّب في كومة الخطابات على المكتب، وسحب مظروفاً كبيراً.

- ها، ها هو! هذه إحدى المنظّمات في قوانقشي، يناقشون مجلّتي بانتظام، ويقدّمون مقترحات وخططاً لتطويرها. المقترحات جوهرية ومثالية.. أنا متحمّس. إنّها في مخيّلتي منظّمة كبيرة. جاؤوا ذات يوم لرؤيتي مثلما فعلت. وذُهلت لاكتشافي أن القراء في قوانغشي ما هم إلّا شخص واحد، عجوز وحيد يتلقى الإعانات من الضمان الاجتماعي، وقد ادّخر حصّته المالية لأجل طلب هذه المجلّة التي يعتبرها «غذاء الروح». هل فهمت الآن يا ليو أن عملنا لا علاقة له بالعدد؟ أجل، مُعْضِلَة الروح لا علاقة لها بالعدد. أمضيت ليلة كاملة أتحدّث مع القارئ من قوانغشي، وفي تلك الليلة، كانت الأرض تدور بيننا، وريح المحيط الأطلسي تهبّ على وجهينا.

حين أعاد المدير الخطاب، التقطه القرد في الحال، ومزّقه إلى قطع صغيرة، ودفع بها إلى أسفل الطاولة بقدميه.

ضحك المدير وقال: «انظر كم هو غيور! يجيد القارئ من قوانغشي كتابة الرسائل، يكتب بأسلوب قويّ وحرّ، وبمنطق صارم. مؤسف حقّاً أنك لم تقرأ رسالته!».

اقترح مدير المجلّة أن يذهبا ويجلسا إلى جانب البئر خلف المبنى، لأنه شعر بالهواء في قسم التحرير ثقيلاً وخانقاً. انتبه الطبيب ليو إلى أن القرد لم يتحرّك من مكانه وظلَّ جالساً أعلى الطاولة.

لم يستطع الطبيب منع نفسه من سؤاله: «أظن أن لدى المدير بلا شك عدداً غير قليل من الأصدقاء؟».

اعترف المدير بصراحة قائلاً: «أجل، لديّ الكثير من الأصدقاء. لديّ ألفا مشترك من المقاطعة وما حولها، لكنهم بالطبع لا يتناقشون معي حول أمور المجلّة مثلما فعل القارئ من قوانغشي. إنهم يدعمونني لانطباعهم الجيد عني. كنت إسكافياً ماهراً قبل إنشاء المجلّة، وكان الكثير منهم يأتون لإصلاح أحذيتهم. وهم يتذكّرون وظيفتي السابقة، ويكنّون لي الإعجاب، وراق لهم أن يروا كيف يمكن لشخص عادي أن يمتلك مهارة أدبية، ويتلاعب بالكلمات. أجل، هكذا قالوا: «يتلاعب بالكلمات». أهالي هذه المقاطعة فضوليون جداً، هاها!».

وصلا إلى البئر أثناء حديثهما. كانت بئراً شديدة العمق، وكاد الطبيب أن يفقد وعيه ما إن نظر إليها، فتراجع بسرعة، حتى إنه أحسّ أن ثمة ظلالاً شرّيرة تحيط بتلك البئر.

جلس كلّ منهما على حافة من حواف منصّة البئر المستطيلة. قال المدير خو إنّ الهواء هنا أنقى بكثير. وكان شديد الحساسية تجاه الطقس لأنه يعاني من الصداع طوال العام. سأل الطبيب ليو ما إن كان قد انتبه إلى إعلاناته في المحافظة، وأخرج من جيب معطفه المنتفخ ملصقاً إعلانياً صغيراً بحجم علبة سجائر وأعطاه له، قائلاً إنه هدية. كان قد رُسم على هذه الورقة الصغيرة الملوّنة سهمٌ أسود فحسب، وفي ما عدا ذلك لا يوجد شيء آخر. قال مدير المجلّة إنه من تصميم المصمّم الفني.

- أعلّق الإعلانات يومياً لأنني أخشى أن ينسى الناس المجلّة. أعلّق الإعلانات في كل الأماكن، من المحافظة حتى الريف. ذهبت ذات مرة إلى منغوليا في مهمة عمل، وفوجئت بملصق إعلاني مثل هذا معلّق على أعمدة النور هناك. وحين اقتربت لتفحّصه، أجل، كان إعلاني، ربما علّقه أحد الأصدقاء. هذا يسمّى بـ«لديك أصدقاء مقرّبون في كلّ أنحاء العالم». أنا فخور جداً لأن مجلّتي حافظت على عدد ثابت من المشتركين لأكثر من عشرين عاماً.

- اسمح لي أن أسألك، كم عدد المشتركين؟ عددهم كثير بلا شك، أليس كذلك؟

- أجل، ليسوا قليلين، ألفان وخمسة وعشرون مشتركاً. ألفان في مقاطعتنا، وخمس وعشرون في أنحاء العالم، وبضمنهم أنت.

لاحظ الطبيب ليو ابتسامات تعلو وجه المدير حينما نطق بهذين العددين، كان في غاية الرضا. كما أنّ المدير أخبره بأن لديه قارئين في منغوليا، وقارئين صينيّين يعيشان في الخارج. تملّك الطبيب إحساس بالاحترام والإعجاب تجاهه، وانتظر ليحكي له قصة القراء، إلّا أنّ شيئاً ما وقع في قسم التحرير. سمع الطبيب صوت تحطّم زجاج نافذة وسقوطه وجلبة كبيرة في الداخل. انتفض مدير المجلّة وهرع إلى المبنى، وتبعه الطبيب. والتفت المدير فجأة عند الباب وأشار إليه بحزم قائلاً: «عد إلى الفندق في الحال! وإيّاك أن تبقى هنا. يمكنك أن تعود غداً، لن أستطيع استقبالك اليوم، أعتذر بشدّة!».

دخل المبنى، وأوصد الباب من الداخل بالمزلاج. وبعد قليل صدرت عن المدير ثلاث صرخات، من تلك التي ينسحق معها القلب. ثم خيّم الصمت.

غادر الطبيب ليو مبنى التحرير مغتمّاً. وتبعه الرجل القصير حالما خرج من مقرّ المجلّة.

كان ذا وجهٍ داكن تبدو عليه تقلّبات الزمن، وعيناه صغيرتان ماكرتان ترفّان باستمرار. وانتبه الطبيب إلى أن يديه كبيرتان كيَدي مَن يشتغل في أعمال شاقة. قال لاهثاً: «ماذا قال لك خو غوا؟ هذا الثعلب العجوز، أريد أن أعمل مساعداً له، وأشتغل في التحرير، لكنه لا يعطيني إجابة مباشرة! إنه رجل أناني، ويستحوذ على كلّ المزايا في العالم لنفسه!».

تمعّن الطبيب النظر فيه وسأله: «إذاً، هل تكرهه؟».

ذُهل الرجل للحظة ثم ردّ: «أكرهه؟ لا لا، لقد أسأت فهمي أيها الطبيب! مَن بوسعه أن يكره خو غوا؟ إنه فخر محافظتنا! انظُر إلى نفسك، لقد أتيت من مكان بعيد لزيارته. وإلّا لماذا سيأتي أحدٌ هنا؟ يزوره كلّ عام مجموعتان أو ثلاث مجموعات من الناس! وعليك أن تعرف أنه كان جارنا في الماضي، وكان والدي من علّمه حرفة تصليح الأحذية، لذا لا ينبغي أن يكون جاحداً».

رفّت عيناه الصغيرتان بشدّة، وكأنه يواجه مشكلة عويصة ومعقّدة.

«هل ستذهب غداً لزيارة خو غوا؟ تحدّث معه عن مشكلتي أيها الطبيب، أرجوك! ويرجوك والدي الراحل أيضاً!»، قال باستجداء.

– هل تحب مجلّته؟

– هه، ما الذي تتحدّث عنه! أنا لا أفهم تلك النظريات العميقة، لكنّها غذاء للروح والفكر! نحن الناس العاديين الذين نعمل لنكسب لقمة العيش بحاجة أيضاً إلى قليل من الغذاء للروح. أخبِرني، هل ستساعدني أم لا؟! فكّر في الأمر! شخص مثلي جدير بالثقة وأفهم تماماً مهنة خو غوا. حين كان يتعلّم المهنة من والدي في الماضي، كنّا كإخوة.

غمرت دفقة من الدفء فؤاد الطبيب ليو، إذ أعاده هذا الحوار البسيط إلى أيام شبابه، لكنّهما وصلا إلى الفندق، فتوقّف وصافحه قائلاً: «لا، لن أستطيع مساعدتك، لكنّك تركت لديّ انطباعاً جميلاً، إنني سعيد للغاية!».

- ها، وأنا سعيد جداً لحديثي معك! إلى اللقاء!

تناول الطبيب ليو وجبة العشاء في الفندق، ثم خرج يكتنفه قلقٌ مبهم، وسار بمحاذاة رصيف المشاة. لم تكن هذه المحافظة مختلفة عن بعض المحافظات الأخرى التي زارها، لم تكن قديمة، ولم تكن عصرية كذلك. وكانت مبانيها التي بُنيت بمواد رخيصة مبعثرة ومتناثرة، والمحلّات التجارية، والبيوت الخاصة، والملاهي الترفيهية، والمؤسسات مختلطة ومن دون نظام. وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات، وكذلك بالمشاة والمتسكّعين. تفحّص الطبيب ليو المكان حوله فلم يجد أيّ شيء يثير اهتمامه. وانصرف إلى التفكير في العلاقة التي تربط بين المدير خو ومجلّته وهذه المحافظة، ورأى أن لا شيء يربط بينهما، لكن هل من المحتمل أن يكون ما رآه مظهراً خارجياً زائفاً، وأن ثمة علاقة مثيرة، غير متوقعة، تنطوي تحت هذا المشهد العادي، المبتذل، والهادئ؟

كان هناك طفل يدحرج طوقاً على رصيف المشاة، واتجه مباشرة صوب الطبيب، الذي تحاشاه على الفور، لكن، حينئذٍ، ظهر طفلٌ آخر يدحرج طوقاً كذلك، فهرب الطبيب مضطرّاً ووقف أمام مدخل أحد المباني، لكن نافذة فُتحت، ومدَّ أحدهم رأسه وسأله: «عمّن تبحث؟»، فأدرك الطبيب أن هذه المحافظة لا ترحّب بالغرباء المتسكّعين.

أجاب بصوت مرتفع: «أنا عابر هنا فحسب، وأنا ذاهب إلى مبنى مجلّة "البحث عن أسرار التشيغونغ"».

«لا يستقبلون زوّاراً ليلاً»، نصحه هذا الشخص ثم أغلق النافذة.

نظر الطبيب ليو إلى اليمين وإلى اليسار ليتأكّد أن لا أحد على رصيف المشاة، وعاد بخطوات مسرعة إلى الفندق وكأنه هارب.

قال مدير الفندق: «هناك شخص ينتظرك في غرفتك».

- مَن؟

- صديقك، إننا نعرفه، لذلك سمحنا له بالدخول.

وجد الطبيب ليو الرجل القصير في غرفته.

- أتيتُ لإخبارك أن خو غوا تعرّض لإصابة خطيرة ولن يستطيع استقبالك، وطلب مني أن أعتذر بالنيابة عنه، ويقترح أن تغادر مبكراً.

- آه، أنا في غاية الحزن! هل إصابته بالغة؟ أين أصيب؟

- في عينه اليسرى، ربما عليه استئصالها.

- يا إلهي! سأذهب لزيارته في المستشفى.

- إياك وإزعاجه! لقد كلّفني بإخبارك ذلك. لا تقلق! إنه متفائل، وأعتقد أنه سعيد بعض الشيء. لقد أخبرني أن جرحه الجسدي قد نفذ إلى هموم فؤاده وأزاحها بسهولة. لكلٍّ منّا همومه، لذلك نحن نعرف ما يعنيه ذلك، ألا توافقني؟!

- أجل.

- أيّها الطبيب، ما هو انطباعك عن محافظتنا؟

- أشعر بالحرية هنا.

صفّق الرجل بيده وقال بحماس: «بالضبط! ما قلتَ للتو؟ أجل، حرية! إن محافظتنا حرّة. فكّر في الأمر! محافظتنا متواضعة، لكن فيها مجلّة مشهورة في أرجاء البلاد، أليس ذلك شيئاً شديدَ الندرة؟ هذا كلّه ممّا له

علاقة بوالدي، الذي كان بارعاً في قراءة الناس في الماضي، ورجلاً شديد الذكاء، لا أُقارن به».

نهض وودّع الطبيب ليو، وانتبه فجأة إلى المَزق في معطفه الأبيض.

- آه، هل هذا من فعل الملك القرد؟ فهمت، إنك سعيد الحظ حقاً!

- كم مضى على وجوده في صالة التحرير عند المدير خو؟

- لطالما كان موجوداً منذ أن صدرت المجلّة، ولم يغادر مطلقاً، إنه شريان الحياة لـ خو غوا. إن كان للمدير خو غوا أن يكون رجلاً لائقاً وجديراً بالاحترام، فهذا بفضل الملك القرد. أخبرَني ذات مرّة أنه شرب قليلاً من الخمر، فلم يستطع أن يميّز ما إن كان الملك هو القرد أم خو مديرَ المجلّة.

- إذاً، هل هاجمك من قبل؟

- لا، إنه لا يكترث لي، إن أشخاصاً مثلي ليسوا من منزلته.

شعر الطبيب أنه اقترب في هذه اللحظة من لغز التشيغونغ الكبير، لكنه سرعان ما دُفع بعيداً عنه، وكان ثمّة غمامة في ذهنه.

- نسيت أن أخبرك، لقبي تجو. سأغادر الآن، إلى اللقاء!

غادر وخلّف وراءه لغزاً.

انتبه الطبيب ليو فقط بعد استحمامه واستلقائه في السرير أن غرفته غريبة، شاسعة، لكن بها نافذة واحدة عالية وضيقة في آن. وبعد أن أطفأ الضوء، غرقت الغرفة في عتمة تامة. الليل شديد الهدوء هنا، عدمٌ حقيقي. ظنّ الطبيب في البداية أنه لن يشعر بأي شيء إذا نام، لكنه كان مخطئاً، فقد جافاه النوم رغم إنهاكه الشديد، واتخذ العدم شكلَ هاوية ملموسة. والآن إن تحرّك في الفراش يتملّكه رعبٌ شديد بأنه ينزلق إلى الأسفل.

«آه!» صرخ أخيراً.

أُضيئت كلّ الأنوار في الغرفة تلقائياً، لكن لا يزال يحيطها سكونٌ مخيف.

فتح الطبيب الباب المؤدي إلى الردهة ولم يرَ أيّ شيء، لكنه أحسّ بشيءٍ ما ينسلّ من جانب قدمه. كان الملك القرد، وظهر في عينيه ملمحُ رعبٍ. قفز إلى السرير واندسّ في اللحاف. فاض شعور بالشفقة في قلب الطبيب ليو، وحدسَ بأن أمراً جللاً قد وقع. فكّرَ في الأمر، وعزمَ على المضيّ إلى النهاية، فاستلقى في سريره للنوم.

انزلق الملك القرد المرتجف في حضنه على الفور حين اندسّ تحت الغطاء. وفي العتمة، صدر عنه صوت بكاء عجيب، فاغرورقت عينا الطبيب أيضاً بالدموع. وكان الغريب أن النعاس غلبه في غمرة تأثّره، وشعر بالسعادة لأنه استغرق في النوم.

استيقظ الطبيب مع طلوع الصباح، ولم يكن الملك القرد في الفراش. بحث عنه في الحمّام وفي كلّ زوايا الغرفة، ولم يجده. وقف هناك وشعر بكآبة مبهمة. رَغِبَ بشدة في الذهابِ إلى مقرّ المجلّة ليبحث عنه، لكنه اضطرّ إلى التخلي عن هذه الفكرة بسبب تحذير المدير خو. وحينما التفت، وجد الرجل القصير تجو يقف أمامه، لا متواضعاً ولا متعجرفاً.

قال: «خشيتُ أن تأتي للبحث عني، فجئت مبكراً».

- كنت سآتي للبحث عنك. أردت أن أسألك عمّا حدث مع الملك القرد؟

- الملك القرد؟ آه، لقد تصالح مع خو غوا. إنهما دائماً هكذا، يتشاجران كعدوّين. ولأقول الحقيقة، لقد طلب مني خو غوا المجيء. أراد مني أن أشاهدك وأنت تركب القطار، لا يريدك أن تبقى هنا، هذا ما قاله.

- كيف حال عينيه؟

- ملتهبة، سوف تُستأصل.

- أنا ذاهب إلى محطة القطار، هل سترافقني؟

- بالطبع. هذه مهمّتي.

بعد أن جلس الطبيب ليو في عربة القطار، شدّ الرجل القصير على يده بقوة.

- أيها الطبيب، أؤكّد لك، أنك منحت لي ولـ خو غوا ذكريات لطيفة. سنفكّر فيك دائماً وسنتحدّث عنك في حياتنا المقبلة وأثناء عملنا.. آه، يا له من أمر جميل! سأقول لـ خو غوا على سبيل المثال: «في تلك السنة التي مزّق فيها الملك القرد معطف الطبيب الأبيض...»، وسيفهمني خو غوا في الحال، هذا البطل ذو العين الواحدة.

رفع الرجل صوته حتى أصغى المسافرون حوله إلى ما يقوله، وكان الطبيب متأثراً بشدّة.

- إلى اللقاء يا سيد تجو! يمكنني أن أرسل للمدير خو أعشاباً طبية من هناك إن احتاجها.

- لا تفعل ذلك، ليس أمراً جيداً! سيغضب المدير خو، إنك لا تفهمه مطلقاً، أنا الوحيد الذي أفهمه، وأعلم أنه سيتحمّل وطأة الأمر بمفرده. هذه ممتلكاته السرّيّة.

ترجّل الرجل من القطار. وحين شيّع الطبيب بنظراته هذا الظلَّ الضئيل الذي اختفى في رصيف المحطة، أدرك فجأة أنه قابل هذا الشخص من قبل. آه، أجل، تلك السنة في جبل العش، ألَم يكن هو ذلك الشخص ذا المهارة المذهلة في القفز، والذي كان يقفز جيئة وذهاباً بين فجوات

المنحدر كالمجنون؟ لَكم كان قادراً على التخفّي! وهذا يعني أنه كان على علاقة غير مباشرة بالمجلّة قبل عدة سنوات، لكنه لم يعرف ذلك وقتذاك. وقال بينه وبين نفسه: «أيها المدير خو، أيها المدير خو، من أين ستهبّ رياحك هذه الليلة؟».

مدَّ الراكب في السرير العلوي رأسه وسأله بصدق: «هل جئت من أرض الثورة المقدسة أيها الطبيب؟».

- أجل. كيف عرفت؟

- من حوارك مع هذا الشخص. لقد أصبح هذا المكان موحشاً في الآونة الأخيرة، رغم أنه في غاية الجمال، وسامي المَقام. لقد جئت من هناك أيضاً. أذهب مرّة كلّ عامين. لا أدخل، بل أتأمّله من بعيد، هذا كافٍ بالنسبة لي. وفي الواقع كنت أمكث أنا وأنت في الفندق ذاته، لكنّك لم تنتبه. المغيب هناك يفوق الجنة.

وانطلق القطار. تأمل الطبيب ليو عبر النافذة تلك البيوت المتناثرة، العالية والمنخفضة، وتوقّف ذهنه عن التفكير نهائياً. وبعد قليل، اختفت المحافظة في الضباب.

عاد إلى منزله في الصباح الباكر. ورأى من بعيد العجوز لين المصاب بالورم يسترق النظر حول عيادته. كان العجوز مشرق الوجه وعيناه تلمعان. هل هي ومضة الحياة الأخيرة؟ فتح الباب ودخل الاثنان إلى العيادة. وضع الطبيب حقائبه وبدأ في التنظيف.

- ليو، لقد جاء بعائلته البارحة، ابن وابنة. قضينا الليل نتحدّث. كنت في غاية السعادة، وبدأ الألم في هذا الموضع حالما فرحت. وخطر ببالي أن ساعتي قد حانت. لكني لا أزال قلقاً، ماذا لو متُّ وأوصد الآخرون

نافذتي ولم يستطع وأبناؤه الدخول؟ فكّرت في الأمر مراراً، ولا يسعني إلّا أن أكلّفك بهذه المهمة، لا يمكنني الاعتماد على أحد آخر. هل تعدني؟ لا أبناء لي، لذا أريد بعد موتي أن يكون هذا المنزل له ولأبنائه. هل تعتقد أن هذا ممكن يا ليو؟

فكّر الطبيب وأجابه بوقار: «أجل، أعتقد أنه ممكن».

- عظيم! لقد رفعت هذه الرحلة معنوياتك وجعلتك أكثر نشاطاً، أعتقد أنك قابلته.

ذُهِلَ الطبيب وسأله: «مَن؟ مَن تقصد؟».

- أعني «هو»، بالطبع زرته هناك. زرته في شبابي أيضاً. إنه أمنيةٌ في حلم. إنني أثق فيك أكثر الآن.

أخذ بعضاً من الدواء المسكّن للآلام وغادر.

فكّر الطبيب ليو في المعجزة التي تحدّث عنها العجوز وهو يعقّم المكان، ثم ربط بين هذه المعجزة ومغامرته في اليوم السابق، ولاحت تلك الصورة الغامضة في ذهنه؛ صورة فيها بعض المتجوّلين المنهكين تظلّلهم أشجارٌ ضخمة.

وبعد أن انتهى الطبيب ليو من عمله في اليوم التالي، تذكّر العجوز لين، فحمل حقيبة أدويته وذهب إلى الشارع الصغير حيث يسكن، يدهمه قلقٌ غير مبرر كلّما اقترب من بيته.

آه، اختفى المبنى الخشبي المكوّن من طابقين. كان المكان خاوياً، لم يبقَ فيه شيء. شعر الطبيب بالوهن وارتخت قدماه، فجلس على الأرض، وقلبه يفيض بحزن شديد. كيف حدث ذلك؟ ربما هناك مؤامرة؟ دويّ بوق سيارة أجرة توقفت إلى جانبه، وخرج منها السائق لاو غو.

قال: «لماذا تجلس على الأرض أيها الطبيب ليو؟ لا داعي لهذا الحزن.

لقد مات العجوز لين في الجبل، وكنت معه حتى النهاية. كلّفني قبيل وفاته أن أبحث عمّن يهدم المنزل، لأنني قريب له من بعيد، فلم أستطع الرفض، وتحتّم عليّ تنفيذ أمره. لكن بالطبع ذهبَ الكِبرُ برُشدِه، إذ قال إنّه لا يريد أن يترك أثراً له في هذه الحياة، لأنه يحمل ضغينة في قلبه، على أنّ ما فعله خلّدَ ذكراه في قلوبنا. مات بصمتٍ في الجبل. كانت هناك طيورٌ تزقزق من بعيد، ولم تقترب. أعتقد أنه درس الأمر مليّاً. حملته بعد ذلك إلى المحرقة، حيث وُضِعَ في تلك الجرّة الصغيرة. كانت هذه البقعة الخاوية منزله، وسرعان ما سيُبنَى منزلٌ جديد، فقد جاء مندوبون من هيئة الإسكان ليفحصوا المكان. لقد حظي العجوز بثناء الجميع. اركب السيارة أيها الطبيب، سأوصلك إلى منزلك!».

جلس الطبيب في المقعد الخلفي مستمعاً إلى ثرثرة لاو غو.

- أعتقد أنّ حياتَه لم ينقصها شيء، وجعل لموته معنى. وحينما سألته لماذا يريد الذهاب إلى الجبل، أجاب بأنه لطالما شعر بأنه عصفور عليه أن يموت في الجبل، لذا كان شديد الهدوء حين وصل إلى هناك. بلّل ضباب الليل وجهه وشعره، وهتف: «حلّق، حلّق!».

كان أمام العيادة كثير من الناس يتناقشون بخصوص العجوز لين، وكلٌّ منهم يبدي إعجابه، وأحاطوا الطبيب ليو لدى خروجه من سيارة الأجرة.

- أيّ دواء أعطيته؟ أريد الموت بكرامة أيضاً!

- عليك أن تعامل الجميع بالمثل أيها الطبيب ليو!

- أنت أكثر من يُشعرنا بالطمأنينة أيها الطبيب!

ودخل الطبيب العيادة محمولاً على أكتافهم.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 7 -

وِيّ بُوَ في السجن

حُكِمَ على وي بو بالسجن ثلاثة أشهر. وزارته شياو يوان مرّةً بعد إعلان الحكم.

بدا وجهها عبر الزجاج العازل متوهّجاً، وأكثر شباباً عن المعتاد. يبدو أنها في علاقة جيدة، وكان وي بو سعيداً من أجلها.

قالت: «ستمرّ الأشهر الثلاثة في لمح البصر يا وي بو!».

غمز لها لأن الحارس كان يقف قربها.

أومأ وي بو برأسه. كان يفهم ما تعنيه، لطالما كانا يشجّع كلٌّ منهما الآخر.

لا تحب شياو يوان أن تكون عاطفية، ورأت أن اختيار وي بو دخولَ السجن، يعني أنه اختار الحياة التي أرادها.

تمثّل عمله في حمل أكياس الرمال. كان يتناول وجبة الإفطار كلّ يوم، ثم يذهب مع السجناء الآخرين إلى النهر لينقلوا الرمال من المراكب إلى الشاحنات. وفي الأيام الأولى شعر وي بو وكأنه أُرسل إلى الجحيم، لأن وقتاً طويلاً قد مرَّ منذ أن اشتغل في عملٍ شاقٍّ مثل هذا، وكان عمره يقترب من الخمسين.

في اليوم الثالث، حين كزّ على أسنانه خلال الكدح اليومي الأشبه بالتعذيب واستلقى على فراشه في الزنزانة، سرت في قلبه دفقة من السعادة. غطّى رأسه باللحاف مصغياً بانتباه إلى خفقان قلبه. وتخيّل حبيبته تسوي لان. في مكان بعيد في الخارج، كانت تتجوّل جيئةً وذهاباً بين الأشجار، بهيئتها كما الطاووس، وتضغط وجهها الجذّاب بين حين وآخر إلى جذوعها. لم يفهم وي بو معنى حركتها، لأنه لم يشاهدها تفعل ذلك من قبل. انقضّ عليه النعاس، لكن الألم الحادّ في كتفيه منعه من النوم. كان ممتناً للألم، لأنه أيقظ ذهنه، واستدعى أفكاراً أكثرَ جمالاً.

لم تكن مقابلته حتماً مع تسوي لان مصادفة بحتة. أدرك وي بو بوضوح أثناء استلقائه في الزنزانة، أن هذه المرأة هي النجم الجالب للحظ في حياته. وقال لنفسه: «وي بو، يا لك من رجل محظوظ!». ومنذ أن ذهب إلى مسقط رأسها، داهمه شعور ملحّ بأن ثمّة علاقة ما بين هذه القرية الموحشة ومسقط رأسه. بالطبع كانت مسافة كبيرة تفصل بين المكانين، كما أن المناظر هناك مختلفة كلياً، إلّا أنهما يمنحان وي بو شعوراً بـ«مسقط الرأس». ويبدو مسقط الرأس في وجدانه كهذين المكانين. وقد ذهب لزيارة مسقط رأس تسوي لان بناء على جملة قالها السيد يو، إذ قال له وقتذاك: «إن ماضي الآنسة تسوي لان استثنائي، عليك أن تعرف أن عائلتها تعيش في قرية شجر الكافور». وقع وي بو في حيرة، وعاود سؤاله: «ماذا عن قرية شجر الكافور؟»، فأجابه السيد يو كأنما شيء يجثم على صدره: «حكاية يطول شرحها، حكاية يطول شرحها!».

لذا ذهب إلى قرية شجر الكافور.

كان شعوره حيال قرية شجر الكافور مثل شعور السيد يو: «حكاية

يطول شرحها». وقد غيّرت القرية من سلوكه تجاه تسوي لان. وكان تغيّراً شديد الغرابة لم يعرف سببه أيضاً. وتمثّل التغيُّر الجذري في اختياره دخول السجن بلا شك، أو بشكل آخر، لقد دخل السجن لأنه غيّرَ سلوكه تجاه تسوي لان.

فكّر وي بو في الأمر مليّاً يغمره شعورٌ لطيف بالفرح، إلى أن استطاع أخيراً في وقت متأخر من الليل أن ينعم بنوم هادئ. ولم ينتبه خلال ستة أيام متتالية للسجناء الثلاثة في الزنزانة، وكأن مزاجه بدا مبتهجاً بشكل غريب بسبب الإنهاك الجسدي. وبدءاً من اليوم الثالث، وعندما يحلّ الليل، يسترجع ماضيه وذكرياته مع تسوي لان، وكأنه يتابع فيلماً. ورغم أنهما لم يعودا في علاقة حميمة، إلّا أن الاستغراق في هذه التخيّلات قد منح وي بو شعوراً بِرضاً روحيّ لم يعهده من قبل. ولهذا، كان يتطلّع كلّ ليلة إلى الساعتين أو الثلاث قبل نومه. ورأى أن اختياره دخول السجن كان اختياراً صائباً.

في ليلة اليوم السابع، بعد استماعه إلى المحاضرة التوجيهية، وبعد أن استحمّ واستلقى في الفراش، سمع شخصاً يتحدّث خلفه. وكان الأحول الذي ينام عند الباب.

– وي بو، أنت أيها المريض بالزهري، يا رجل عصابة ينبغي قطع رأسه، كيف تجرؤ على احتقار رفقائك! أراقبك منذ عدة أيام، لقد خيّبت أملي!

ردّ وي بو بابتسامة متواضعة: «آه، أنا آسف، لم أنتبه لذلك! كما أنك تعرف لقبي، وهذا ما لم أتوقعه أيضاً. لماذا حُكِمَ عليك بالسجن؟ وكم مدّة حكمك؟».

– ألا تخجل من سؤالك سؤالاً زائفاً مثل هذا؟ أليس من الأفضل أن

تسأل نفسك هذا السؤال؟ السبب الذي دخلت لأجله السجن، هو السبب ذاته الذي دخلت لأجله. السجن مكان جيد للتأهيل، عرفت هذا بعد فوات الأوان، وإلّا لم تكن هذه حالتي الآن. نادِني بـ لاو جانغ.

وفكّر وي بو: يا للسوء! سيفسد هذا الرجل سعادة الليل.

- وي بو، أرغب في التحدّث معك عن قضيّتك، لا تمانع، أليس كذلك؟

- شكراً لاهتمامك، لكنّي غير راغب في الحديث، أعاني من الأرق، لذا لا أستطيع التكلّم ليلاً.

- هل هذا صحيح؟

اقترب لاو جانغ منه وحدّق فيه بنظرات غريبة، ثم لمس وي بو، فرأى السكين الحادّة في يده.

- لا يا لاو جانغ، أقصد أنني لا أستطيع الكذب. إن مناخ السجن سيّئ.

ردّ بنبرة قاسية: «مَن قال إن الجوّ في السجن سيّئ؟!».

- ليس هذا ما أعنيه، بل أقصد أن نافذة الزنزانة صغيرة والهواء فاسد.

«أيها الكاذب اللعين!»، ضحك لاو جانغ ووضع السكين في جيبه.

ربّت على كتف وي بو وأشار له بالجلوس، ثم أعلن قائلاً: «الآن بما أنك دخلت السجن، فطبقاً لقوانين الزنزانة، عليك أن تفتح قلبك لنا. ينبغي عليك أن تكشف عن سبب دخولك للجميع!».

انتبه وي بو أن الشخصين الآخرين قد مدّا رأسيهما وحدّقا إليه لبعض الوقت. كان محرجاً ومستثاراً في الوقت ذاته.

- دخلت السجن لأنني كنت في علاقة غرامية بـ نيو تسوي لان. وأدركت أنه ينبغي أن أنأى بنفسي عنها لأحبّها بطريقة جيدة، وإلّا سأظلّ

عالقاً في بعض المشاكل الفظيعة. لذا ارتكبت جرماً عن عمد ذات يوم، وهكذا دخلت السجن.

«عظيم!»، أثنى الثلاثة على وي بو بصوت واحد.

– هذا ما حدث. إذاً أخبرني يا لاو جانغ، أيّ جرم ارتكبته؟

– لم أرتكب أيّ جرم، لقد أجبرتني الحياة على حمل مسدّس والهجوم على السجن، لكنّي لم أطلق النار. كانت أفكاري سوداوية. وعجزت أنا وزوجتي عن الحياة معاً، لذا خطر ببالي أن دخول السجن هو الحل الوحيد. وهكذا، أخذوا مني المسدس، وقبضوا عليّ. وأدركت مُذّاك أنّ بوسع المرء فعل ما يريده متى يشاء.

أصبحت نظراته شديدة اللطف أثناء حديثه، ومشوّشة قليلاً. تحوّل إلى شخص مختلف كلياً، أشبه بمفكّر. ثم أكمل كلامه قائلاً: «أفكاري في الحقيقة سوداوية. في الماضي لم آخذ زوجتي على محمل الجدّ، واكتشفت في ما بعد أنّ لها عشيقاً، وفي كل مرة أراهما معاً، تنتابني رغبة في قتله. وحين تنتابني هذه الرغبة، يرتجف جسدي وأخاف حتى الموت. وهكذا رأيت أن قتل نفسي أفضل من قتل الآخرين. كنت أفقد وعيي كل مرة أمسك فيها السكين وألوّح بها، وهكذا فهمت أنني عاجز عن قتل نفسي. وهُيّئ لي أن دخول السجن هو الطريق الوحيد. وهذا ما سبّب واقعة الهجوم على السجن. أدخلني هؤلاء الأشخاص بأدب، وجاءت زوجتي لزيارتي عندما حان الوقت المناسب. سألتُ نفسي ما إن كنت لا أزال أحبها، والإجابة أنني لا أحبها، رغم أنها تحبّني وتريد انتظاري. غمرني تعاطف عميق تجاهها حين سمعتها تقول إنها تحبني، ونادراً ما كنت أتعاطف مع أحد في السابق. لكني لن أسمح لها بانتظاري، أنا شيطان، قادر على القتل، وكلّما خفت اشتدّت رغبتي في القتل. لذا عقدت العزم

على المكوث هنا. وكلّما شارفت عقوبتي على الانتهاء، كنت أرتكب جرماً آخر، وأحصل على عقوبة إضافية. لقد قضيت تسع سنوات هنا وسأستمر. هذا تأثير زوجتي الجيّد عليّ، آآآه!» - أطال لاو جانغ نبرته في الكلمة الأخيرة.

- إذاً يا وي بو، لقد أثرت إعجابي بعد سماعي لقضيّتك، هل فكّرت في قتل حبيبتك من قبل؟

أحاطه الثلاثة وحدّقوا إلى عينيه، وبدوا مضطربين.

- لا. لا أجرؤ على قتل أحد ولا على قتل نفسي. أفقد وعيي حين أرى الدم.

«آه، هكذا الأمر إذاً!»، قال الثلاثة بصوت واحد، وابتسم كلٌّ منهم للآخر.

قال سجين ذو شعر مقصوص: «أنا لاو لو، لو مثل الطريق. ما رأيك في قضية لاو جانغ يا وي بو؟».

- ليس لديّ رأي في الوقت الحالي. أعتقد أنه شخص ذو شخصية قوية، وأنا معجب بحكمته. الاعتداء على السجن بمسدس، ليس بمقدور كلّ شخص أن يعتدي على سجن بمسدس؛ شخص متخاذل مثلي على سبيل المثال لا يمكنه أن يحصل إلّا على عقوبة مدّتها ثلاثة أشهر. أما بالنسبة لقضيته، فربما هي مثل قضيتي. الأطراف المعنية فقط تعرف السرّ.

«حَسنٌ يا وي بو!»، صفّق الرجال الثلاثة بابتهاج، فأفزعوا الحارس الذي دخل إلى الزنزانة بوجه مكفهرّ، وكبّل وي بو بالأصفاد، وأشار له بالخروج من الزنزانة، وركله على مؤخرته. سمع وي بو ضحكاتهم المكتومة خلفه.

أخذه الحارس إلى الدّرج، ثم قيّد يديه الاثنتين بالدرابزين الحديدي.

غادر الحارس وهو يسبّ ويلعن. كان جسده في وضعية مؤلمة، وعجز عن التفكير في تسوي لان. تخدّرت يداه بعد وقت قصير، وآلمته عظامه وكأن ديداناً تقرضها، وكان الأمر أشد ألماً من اليومين الأوّلين لحمل الرمال. وبعد نحو ساعتين من هذا العذاب رغب بشدّة أن يفقد وعيه، لكنه ظلَّ يقظاً، لدرجة أنه كان يسمع الحوار الهادئ في الزنزانة. كان من الواضح أن الرجال الثلاثة لم يناموا، وبدوا أنهم يتحدّثون حوله. لماذا؟ لماذا جعلوه يتعرّض للإهانة والتعذيب الجسدي؟ ألَم «يفتح قلبه» مثلما أرادوا؟ لم يفهم وي بو ما حدث هذه الليلة، كان ذهنه في حالة من الارتباك. بدأ يتعرّق، وراحت ملابس السجن تتبلّل وتصبح باردة على جسده.

دخل شيئاً فشيئاً في حالة من الجنون، وكان ثمة فكرة واحدة في ذهنه: لتقطع هذه الأصفاد اللعينة يديه، فهو يفضّل أن يكون مبتور اليدين على أن يموت ميتة مخزية كهذه على الدّرج! أخذ نفساً عميقاً وهو شِبه دائخ وجذب يديه بشدة.

أحسّ بأنه فقد يديه، لكنه حاز على حريته. لذا صعد إلى الطابق العلوي واتجه بسرعة إلى زنزانته ذات الضوء الخافت، وتولّاه شعور بأن مظهره الدموي سيفزع الرجال الثلاثة. لكن ما إن هبطت نظراته على يديه، حتّى رأى أنها بخير، والأصفاد لا تزال تكبّلها. كانت أصفاداً زائفة إذاً، وكان استعراضاً للقوة نفّذه الحارس لإخافته.

«عظيم!»، صاحوا من جديد.

جلس الرجال الثلاثة على أسرّتِهم ونظروا إلى وي بو بحيرة.

سأله لاو لو ذو الشعر المقصوص بصوت مرتجف: «ماذا تريد أن تفعل؟».

- أريد أن أقتل أحداً.

- اذهب إلى الفراش، لم يبقَ سوى ساعتين.

رنّ صوت لاو جانغ من جانب الباب، فأغلقه وأطفأ الضوء.

استلقى وي بو على فراشه. استغرق في النوم على الفور رغم الأصفاد في يديه، ونام نوماً عميقاً.

أيقظه الحارس بهراوته في اليوم التالي. كان الرجال الثلاثة قد غادروا، وتعمّدوا عدم إيقاظه.

خلع الحارس عنه الأصفاد وصرخ قائلاً: «اذهب إلى ضفة النهر حالاً!».

- لكنّي لم أتناول الإفطار.

- وتجرؤ على الردّ كذلك! اغرب عن وجهي!

ثم ضربه عدة ضربات بالهراوة، فغطّى وي بو رأسه وخرج.

هرع إلى ضفة النهر، وانضمّ إلى فريق حمل الرمال.

في البداية كانت حالته جيدة. وفي لحظة وقف لاو جانغ أمامه وقال له: «لقد رأيت حبيبتك، فقد جاءت لزيارتك لكنّك كنت نائماً. يا لها من امرأة جميلة!».

- إنك تبالغ في مدحها، هل قالت شيئاً؟

- سمعتها تتحدّث مع المسؤولين وتثني على السجن، قائلة إنها تتوق لأن تدخله أيضاً.

فكّر وي بو ملياً في التطورات الجديدة التي نقلها له لاو جانغ. وبعد تأمّل شعر على نحو مفاجئ، أن قلبه قريب من تسوي لان. إنها امرأة طيبة، تفهم مشاعره منذ البداية، لماذا إذاً يتصرّف بحمق؟ ثم فكّر في أنه لم يستطع مقابلتها لأنه كان نائماً، وجعلها تأتي من دون جدوى. إنه رجلٌ سخيف، ولم يعرف لأيّ سببٍ تحبّه تسوي لان.

في الجولة السابعة أو الثامنة لحمل الرمال، شعر وي بو بجوعٍ شديد وسقط مغشيّاً عليه. انطوى على نفسه وأغلق عينيه. دسّ أحدهم ماصّة علبة عصير في فمه، وسمع هذا الشخص يسأله: «هل أنت مصاب بالكوليرا؟».

فتح عينيه بصعوبة بعد شرب العصير، ورأى كل الرجال بعيدين عنه إلّا رجلاً واحداً، وهو شريك زنزانته لاو لو، وفي يده مسدّس. قال: «أنا في مهمة، أنت مصاب بالكوليرا، ممنوع التجوّل، لا تتحرّك من مكانك!».

- حَسنٌ، لن أتحرّك. هل أنا مُصاب بالكوليرا؟ لماذا لا أعاني من الإسهال إذاً؟

- بالطبع ستُصاب بالإسهال، لِمَ العجلة؟ هناك العديد من الأشياء الغريبة في هذا العالم!

بدأ لاو لو في الصراخ، لكن لم يكن أيّ أحدٍ حوله، ولم يسمعه أيّ شخص.

«لاو لو، أنا أتألم، احكِ لي عن قضيتك!»، قال وي بو مترجّياً.

- لا تقترب، أخشى أن أُصاب بالعدوى! إن اقتربت مني سأطلق النار، يمكنني فعل ذلك.

تخلّى عن الفكرة على مضض وجلس على الأرض. وقع نظره على زجاجة عصير البرتقال التي لم يُنهِ شربها، وعلى قطعة سجق يحوم حولها الذباب. وفجأة، سرت فيه شجاعة، فقبض على قطعة السجق ودسّها في فمه، وابتلعها بعد عدّة مضغات، ثم أنهى شرب العصير. وفي النهاية توقفت يداه عن الارتجاف، وأحسّ بذهنه أكثر صفاءً.

سمع لاو لو يقول: «اُنظر كم أنت شره!».

- أُصبت بالكوليرا، وسأموت في أسوأ الأحوال، فلماذا سأخاف؟

- جلوسنا هنا مملٌّ على كلّ حال، فدعني أحكي لك قضيتي!

وبدا وكأن لاو لو تأثّر بما قاله وي بو للتو، فجلس قربه، حتى إنه أنزل كمّ قميصه أثناء كلامه وألقى المسدس جانباً.

- اسمع يا وي بو. أنا... أنا دخلت السجن لأنني ضجرت من الحياة. أسأل نفسي في الآونة الأخيرة: إن كان الجميع يمرّون بأوقات عصيبة في حياتهم، فلماذا أنا الوحيد الذي يصيبه السأم على الدوام؟ إن كنتُ أكثر صبراً، كنت سأذهب إلى العمل كلّ يوم وأعيل عائلة كمعظم الناس. بالطبع لا أعني أن ثمّة شيئاً خاطئاً في دخول السجن، فقد قضيت سنوات طويلة هنا، ولا يوجد أيُّ شيءٍ سيّئ حياله. ما أعنيه، أنه ليس هناك أي شيء سيّئ في الخارج أيضاً، وإنّ بوسعي البقاء هناك. ولكن لماذا كنت أشعر حينذاك أنني عاجز عن الاستمرار ليوم واحد؟ كنت أفكّر منذ أيام في هذا السؤال؛ هل لا يزال بإمكاني الخروج والعيش؟ أعتقد أن لديّ طريقةً للخروج من هنا والمضيّ في حياتي. ومع ذلك، المكان هنا جيد أيضاً. أَلستُ أحظى بصديقٍ ذكيّ مثل لاو جانغ يعيش معي؟ ما رأيك يا وي بو؟

- لكنّك لم تخبرني عن قضيّتك!

- لقد أخبرتك، لكنّك لم تصغِ جيداً!

بدا عليه شيء من الاستياء، لكنه أكمل حديثه على مضض.

- في تلك الأوقات كنت ضجراً، ولم أستطع أن أقرّر فيما إذا كنت سأغيّر الوضع، وكدت أن أُجَنّ بسبب القلق، وكنت أطوف في كلّ مكان، إلى أن اقتحمت السجن. ويبدو أنني اقتحمت المكان المناسب، ما رأيك؟ اتسعت خبرتي منذ ذلك الوقت لأن لديّ صديقاً ذكيّاً مثل لاو جانغ. ولأكن صادقاً، فأنا لا أقدر على الرحيل، لأن الجهات المعنية وضعتني في مكانة هامة. وكما ترى، هذا المسدس الذي أعطوني إياه، مسدس حقيقي، هذه ليست ثقة عادية، أليس كذلك؟

ثم رفع المسدس فجأة، وأطلق رصاصتين في الهواء.

أصبح وجه وي بو كورقة بيضاء، وبدا كأن الدم في جسده قد تجمّد.

قال متلعثماً: «لا، لا! سأطيعك!».

- أُنظر، أنت خائفٌ من الموت مجدّداً. تغيير الجبال والأنهار أهون من تغيير طباع المرء! انهض الآن والتفت لأطلق النار، أكثر ما لا أطيقه وجوه المحكومين بالإعدام.

نظر وي بو نظرة إلى السماء الزرقاء، ورأى نسراً ضخماً يحلّق إلى وجهة مجهولة، وبدا كأنه ثابتٌ في مكانه.

نهض على مهل والتفت، ثم انطلق راكضاً كالمجنون. ركض بكلّ ما أوتي من قوة ولم يتوقف حتى كاد يختنق. وفي نوبة جنونه رأى وجهاً، وبعد ذلك رأى شيئاً أسود، ثم سقط على الأرض بشكلٍ مُخزٍ.

الوجه لا يزال وجه لاو لو، والشيء الأسود معطفه الأسود الطويل الذي استخدمه لعرقلة وي بو ليسقط على الأرض. وحينئذٍ تذكّر وي بو على استحياء أنه كان يرتدي معطفاً طويلاً أسود طيلة الوقت، مثل المعاطف التي يرتديها الشرطيّون في الشتاء.

«أين أنا؟!»، سأل وي بو ببلاهة.

- لقد ركضت في دائرة، إنك قوي. انهض بسرعة، المطعم في الأمام، والجميع ينتظرك لتتناول طعامك.

- ألستُ مصاباً بالكوليرا؟

- إنك تركض أسرع من كلب، أيّ كوليرا لعينة ستُصاب بها! إن لم تغادر بسرعة سأطلق النار!

اشتغل وي بو في حمل الرمال لما يزيد عن عشرة أيام، وتأقلم شيئاً فشيئاً مع هذه المعيشة، حتى إنه غدا مرحاً وراضياً عن نفسه، وأحسّ أنه لا يزال كفؤاً. وخلال هذه الأيام، كان قد صادق كلّاً من لاو جانغ ولاو لو. وحده شياو يان، بتعبير وجهه الغريب، مَن عجز وي بو عن الحديث معه. وبدا وكأنه لا يحب التحدّث مع أيّ شخص. إلّا أنه كلّما نظر إلى وي بو، شعر الأخير أن لديه الكثير ليحكي عنه. وكلّما همّ وي بو بقول شيء، غادر شياو يان بلا اكتراث. ورأى وي بو أن شياو يان هو الأكثر صعوبة في التواصل معه مِن بين الرجال الثلاثة.

وذات يوم حدث انهيار في الحاجز النهري، واستُدعِي لاو جانغ ولاو لو للمساعدة في أعمال الإغاثة. ولسبب لا يُعرف، أُمِرَ وي بو وشياو يان بالاستراحة ليومٍ في الزنزانة. وفكّر وي بو أنهم ربما لا يثقون بهما ويخشون هروبهما إنْ وصلا إلى الحاجز. شعر وي بو بالظلم لأنه لا يمكن أن يهرب، وكان قلقاً بشأن ما إذا كان سيُطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر. وكان يتملّكه ضيقٌ بين حين وآخر كلّما فكّر في هذا الأمر. لم يكن حَمل الرمال تمريناً للجسم فحسب، بل حسّن نومه بشكل كبير. وتذكّر وي بو فجأةً أنه بحث عن طريقة لدخول السجن بسبب معاناته من الأرق. إنه رجل ضعيف الإرادة.

ظلَّ شياو يان مستلقياً طيلة الصباح على فراشه من دون أن يتفوّه بكلمة. وكان وي بو مستلقياً في فراشه كذلك، واستغل فترة الراحة النادرة هذه ليستعيد ذكرياته مع تسوي لان. شعر بالسرور والاسترخاء. لماذا لم تغمره هذه المشاعر اللطيفة خارج السجن؟ كان وي بو ينظر بطرف عينيه بين حين وآخر إلى شياو يان في الفراش المقابل؛ كان يريح يديه خلف رأسه، وبدا هادئاً، واختفى التعبير الماكر الذي كان مرسوماً على وجهه

الأيام السابقة. خمّن وي بو أن عمره لا يتخطّى الثانية والثلاثين، أي إنه رجل في ذروة شبابه، لكنه بدا منهكاً، واهناً وهزيلاً إلى حد ما.

اكتشف وي بو اختفاء شياو يان بعد عودته من تناول وجبة الغداء، وطبقاً للقوانين عليه إبلاغ الحرّاس. فتح وي بو باب الزنزانة وذهب إلى غرفة الحارس، ورأى الحارس يانغ الذي كبّله بالأصفاد في نوبته. وكان مصدوماً من بلاغ وي بو.

سأله الحارس: «كيف كان مزاجه؟».

- كالمعتاد.

- يا لك من أحمق! بالطبع سيتظاهر بأنه كالمعتاد ما دام قرّر الهرب. اذهب إلى زنزانتك وتأمّل ما فعلته!

ثم أخرج من جيبه صافرة خضراء اللون، ورنّ صوتٌ يصمّ الآذان. غطّى وي بو أذنيه ودخل زنزانته. وبعد قليل سمع ضجّة في الخارج. كان ثمة حشدٌ كبير يعبر أمام النافذة وأشخاص يطلقون رصاصاً في الهواء، ويختلط بأصواتهم بكاء امرأة حادّ. ماذا يجري بالضبط؟ تولّاه شعور بالاضطراب، وقلق على شياو يان. على كلّ حال كان قد شاركه زنزانة منذ أكثر من عشرة أيام.

استجمع وي بو شجاعته وفتح الباب وخرج إلى الرواق، ورأى عدة رجال من الزنزانة المجاورة والمقابلة قد خرجوا كذلك، كانوا يتناقشون في أمرٍ ما، وصمتوا ما إن رأوا وي بو.

سألهم: «ما الذي يجري؟».

«يطاردون هارباً، إنها فرصة نادرة تحدث كل مئة عام، لنذهب ونتفرّج!»، قال الرجل وهو يركض إلى الخارج مع آخرين، فتبعهم وي بو غير قادر على كبح فضوله.

أصبح المشهد في الخارج شديد الغموض؛ فبعد أن اختفى الرجال الذي خرجوا للتو، لم يكن هناك أيّ شخص آخر في الملعب أمام المبنى. خيّم الصمت على المكان وكأن شيئاً لم يكن. انصرف تفكير وي بو الذي كان مندهشاً إلى ما حدث للتو. لماذا ترك الحارس يانغ الباب مفتوحاً وجعل السجناء يركضون طلقاء؟ ألا يُعَدّ هذا تقصيراً خطيراً في واجبه؟ ماذا سيحدث إن كان هؤلاء السجناء قد استغلّوا الفرصة وهربوا من السجن؟ قرّر وي بو العودة إلى زنزانته والانتظار هناك لئلا يقع في متاعب.

وحين خطا إلى الزنزانة، ضربه شخص كان منزوياً في العتمة حتى لمعت أمام عينيه نجوم. آه، كان الحارس يانغ! غمر وي بو شعور بالندم.

جلس الحارس على الأرض منهكاً وقال: «لقد انتهى أمري!».

سأله وي بو: «هل هرب؟».

«كيف له أن يهرب؟ بالطبع لن يستطيع. إلّا أننا لم نعثر عليه.. توقّف عن سؤالي، ودعني أفكّر في الأمر!»، وتحوّل صوته إلى همس. ثم فجأة علا صوته وسأل وي بو بجدّية شديدة: «أجِبني بصراحة، هل رأيت الخاتم الألماس أم لا؟».

- أيّ خاتم ألماس؟ لا أفهم!

- لديه خاتم ألماسٍ غالٍ، يحمله طيلة الوقت معه. سمعت بعض التفاصيل عن قضيته، وأعرف أن الخاتم من أجل حبيبته. يا له من ولعٍ نادر! أنا الوحيد الذي يعرف سرّه، لذلك كنت أساعده في مراقبة الخاتم سراً. آه، أنا ملعون! كيف أفشي معلوماتٍ سرّية مثل هذه لمجرم مثلك؟ اسمع، عليّ أن أعثر عليه حتى لو اختفى عشرات الأقدام تحت الأرض!

بدا وكأنه استعاد قوته، فنهض وعاد إلى مكتبه يستشيط غضباً.

كانت أبواب الزنزانات مفتوحة وفارغة. ورأى وي بو أنه لا داعي لأن يجلس في الزنزانة ويحسن السلوك، لكنه لم يرغب في أن يذهب بعيداً أيضاً خشية الوقوع في المتاعب. لذلك راح يتجوّل جيئةً وذهاباً في الردهة، ويذهب بين حين وآخر إلى البوابة الكبيرة ويتفحّص المكان. وهكذا ظلَّ السكون مخيّماً إلى هبوط الليل، بينما ظلَّ الحارس يانغ في مكتبه مستغرقاً في تفكير عميق، وحزن شديد يلوح على وجهه بين حين وآخر. لاحظ وي بو هيئته من الجهة المقابلة للردهة وتساءل: هل شعر الحارس يانغ بالتقصير تجاه شياو يان؟ هل يرى أن مشاعره تجاه حبيبته تسمو فوق جُرمه؟ يا له من حارس مذهل!

وفي ظلّ انعدام المراقبة والحراسة، ذهب وي بو إلى المطعم متبختراً، وتناول وجبته وعاد. حينذاك كان الحارس يانغ يقف شاحب الوجه أمام بوابة الزنزانات، فسأله: «هل توافق على الذهاب معي؟».

ردّ وي بو من دون تفكير: «تقصد للقبض على شياو يان؟».

- أجل.

عبر الاثنان الملعب واحداً وراء الآخر بخطواتٍ سريعة إلى قبو مبنى المكاتب الرمادي.

قال الحارس في الظلام: «إنهما في الطابق الثاني تحت الأرض، في آخر غرفة مخزن».

دخلا إلى المخزن الذي كان نوره مضاءً لكنّه خالٍ من أيّ شخص. انحنى الحارس وبحث على الأرض فترة طويلة، إلى أن عثر على خاتم الألماس في النهاية. وضع الخاتم في إصبعه الأوسط وقال بخجل: «لم أتزوّج إلى الآن. الأيام في السجن كئيبة ومضجرة، لست في حالةٍ تسمح لي بالزواج».

سأله وي بو عن مكان شياو يان، فردّ قائلاً: «وأين سيكون يا تُرى؟ في الزنزانة بالطبع. لقد جئنا متأخرين، فقد كان هنا للتوّ مع حبيبته».

دُهش وي بو من ثقته. كيف يفهم هذا الشخص شياو يان إلى هذه الدرجة؟

- هل حبيبته في الزنزانة أيضاً؟

- بالطبع لا. ألَم ترني ألتقط الخاتم؟ لقد أشبعا رغبتهما الجسدية ثم تشاجرا، وهربت الفتاة. الرقم 13 (أي شياو يان) ليس بمقدوره الاستمرار في حبّها إلّا في السجن. عليّ أن أعيد له الخاتم بأقصى سرعة خشية أن يفقد إيمانه بالحياة.

- يبدو أنك سئمت من عملك حارساً؟

- كلام فارغ. أنت يا مجرم، كيف تطلق عليّ الأحكام؟ لديّ اهتماماتي الخاصة.

خرجا من القبو وعبرا الملعب الذي كان السكون لا يزال يعمّ أرجاءه. ترك الحارس يانغ وي بو قائلاً إنه سيذهب لإبلاغ مدير الحرّاس عما حدث، وطلب منه العودة إلى الزنزانة.

دخل وي بو ووجد الرجال الثلاثة وقد عادوا، وكان ذلك التعبير الغريب لا يزال ظاهراً على وجه شياو يان.

- شياو يان، ذهبت للتو مع الحارس يانغ للبحث عنك، وقد عثر على خاتمك.

انفجر شياو يان غاضباً وقال: «خائنان! خائنان!».

وغطّى وجهه وانخرط في بكاء مرير.

أخذ لاو جانغ ولاو لو «وي بو» جانباً، وأخفض لاو جانغ صوته ووبّخه

قائلاً: «أيّ حيل تقوم بها؟ لقد ضغطتما عليه بشدة، هل تريدان موته؟ لقد وصل إلى حافة اليأس، وما زلتما تضغطان عليه! لم أظن أن قلبك بهذه القسوة، لتذهب إلى الجحيم! مَن سمح لك بالمجيء هنا وإثارة الفوضى؟ ها؟!».

ارتبك وي بو، ولم يعرف أيّ خطأ ارتكب. وفكّر ربما لم يكن ينبغي على الحارس أن يلتقط هذا الخاتم، ربما هذا الخاتم هو الشيء الذي يريد شياو يان نسيانه إلى الأبد؟ واسترجع بذاكرته سلوك الحارس، ورأى كم كان حب شياو يان مخيفاً للناس. أيّ نوع من الحب هذا؟

عاوده الأرق من جديد. أزعجته حادثة شياو يان بشكل كبير، وشعر بأن حياته أظلمت. ظنّ في البداية أن مزاجه سيهدأ بدخوله السجن، ويبدو أن حكمه كان خاطئاً. والآن لا يرى وي بو أيّ مخرج. هل وصل شياو يان إلى طريق مسدود حقاً؟ تقلّب وي بو على فراشه، وعجز عن النوم كلّما اشتد توتّره. وفي ما بعد، وعندما أوشك على النوم، رنّت الصفارة، واضطرّ إلى النهوض.

في اليوم التالي، أمر الحارس وي بو أن يذهب برفقة لاو جانغ ولاو لو للمساعدة في أعمال الإغاثة. ورأى وي بو شياو يان جالساً على فراشه ويرتجف.

انخرط الثلاثة في حَمل أكياس الرمال. وبسبب أرقه الليلة السابقة، كانت ساقاه واهنتين، وجسده ينضح بعرق بارد. وخمّن وي بو أنه سرعان ما سيسقط. وقد كان، وسقط قبل الجولة الثالثة لحَمل الرمال إلى جانب الحاجز. وفكّر: «عارٌ عليّ»، ثم سقط مغشياً عليه.

وجد نفسه ممدّداً أسفل دعامة الجسر حين استيقظ. وسمع صوت

لاو جانغ: «ماذا حدث لك أيها الرجل، هل تيأس بهذه السرعة، يا لك من جبان!».

- كم مضى على نومي هنا؟

- من الصباح إلى ما بعد الظهيرة! لولا أني خبّأتك هنا، لكانوا سيرافقونك إلى «مقعد النمر» للتعذيب.

- يا لبؤسي! كيف حال شياو يان؟ أليس أكثر يأساً مني؟

- إنه ليس يائساً على الإطلاق، يتظاهر ليحصل على مبتغاه! وردني تقرير داخلي صباح اليوم أنهم سوف يوظّفونه. أي إن عقوبته على وشك النهاية، وسيُوظَّف آمراً للسجن! أليس يعني هذا وضع الأمور في نصابها مرّةً وإلى الأبد؟ لماذا هو الوحيد الذي يحظى بالحظ السعيد؟ هل لأنه يُقبل على المخاطرة؟ ها!؟ لكنّهم لا يوظّفون رجلاً صادقاً مثلي، وغير متطرّف، بل أُدفع لإجهاد ذهني لأزيد عقوبتي، يا للظلم! ما رأيك يا وي بو؟

- أكنّ لك احتراماً كبيراً يا لاو جانغ!

- وما فائدة الاحترام؟ لا أصل مطلقاً إلى مبتغاي، ربما لم تلاحظ أنني معلّق في الهواء. لقد عادت من جديد، وأعطتني إنذاراً أخيراً.. لا بدّ أن أخرج من السجن في نهاية العام وإلّا ستؤذي نفسها. سأنهار بسبب تهديدها.

كان لاو جانغ يمدّ بصره إلى مدخنة بعيدة، حيث سرب عصافير يدور حولها، يعلو تارة وينخفض تارة أخرى. وفكّر وي بو أن أفكار لاو جانغ تحلّق أيضاً.

- هل فكّرت في العودة إلى مسقط رأسك؟

أسرّ له وي بو بما يفكّر فيه، فضحك لاو جانغ وربّت على كتفه وقال:

«أنت يا بلطجي، يا لِشدّة مكرك! لقد استخرجت أحشائي ووضعتها لتسفعها الشمس! لأكن صادقاً، فأنا أبحث عن مسقط رأسي منذ أن كان عمري خمسة عشر عاماً. لم يخبرني أحد عن موقعه، وكان عليّ الاعتماد على بعض الأدلّة المبهمة لأبحث عنه. مرّت سنوات كثيرة ولم أعثر إلّا على نتائج قليلة. إلى أن.. إلى أن دخلت السجن، وحينئذٍ تغيّرت الأمور تدريجياً. وثمة بعض التفاصيل السيئة والقاسية التي لا أريد تذكّرها مرة أخرى. وخلاصة الأمر، أنني كافحت خلال حياتي. وذات يوم، تشاجرت مع أحد السجناء وتصادمنا رأساً برأس، فوصلت مترنّحاً إلى النهر الصغير لأغتسل، وظننت أنني أُصبت بإصابة خطيرة. وفي تلك اللحظة، وأنا عند النهر الصافي، رأيت معالم مسقط رأسي، وهي تضاريس السجن الذي نحن فيه الآن. كان ثمة حسّ بالبساطة يتجلّى من تلك البيوت مختلفٌ كليّاً عن سجننا المتداعي. كيف عرفت أن هذا مسقط رأسي؟ لأنني رأيتُ والدي ووالدتي وجدّي يجلسون أمام الباب ويدخّنون الغليون! استغرق المشهد عشر ثوانٍ على الأقل حتى اختفى تدريجياً. توفّي والداي منذ زمن بسبب المرض الجسدي والعقلي، وهذا سبب أيضاً لبحثي عن مسقط رأسي. بحثت وبحثت، ووجدت أن مسقط رأسي هو السجن. ربما هذا هو السبب لاقتحامي السجن بالمسدس تلك السنة؟».

لاحظ وي بو أن لاو جانغ يحكي تفاصيل هذه الواقعة بضجر شديد، وبدا أن ذهنه منغمسٌ في حالة أخرى.. في مناخٍ مخيفٍ وجاذبيته شديدة.

ضجر وي بو ورغب في العودة إلى زنزانته للراحة بما أنه استعاد قوته. لكن يد لاو جانغ كانت تضغط على كتفه ومنعته من الحركة، فخمّن وي بو أنه لا يزال لديه ما يبوح به.

– ثمة شخصٌ واحد فقط في السجن يعرف القصة الحقيقية، وهو آمر

السجن. يبلغ عمره 85 عاماً، وأعرف أنهم لن يسمحوا له بالتقاعد. لديه في منزله بعض الصور القديمة، وشاهدت في صورة اصفرّ لونها والدي ووالدتي. كانا يقفان أمام باب المنزل والدهشة تظهر على وجهيهما.. وهو البيت المسقوف بالقرميد الأسود القريب من الملعب، والذي تحوّل الآن إلى حمّام عمومي. أخبرني آمر السجن أن والدي دفن شيئاً في السجن، لكنه رفض إخباري بمكانه. تابعت البحث في تلك الزوايا خلال هذه السنوات، حتى إنني حفرت لعمق ثلاثة أقدام، وأُضيفت ثلاث سنوات إلى عقوبتي في تلك المرّة.

- هل يمكنك أن تأخذني لزيارته؟

- لا أستطيع. إنه لا يستقبل إلّا السجناء المُتعلّمين واسعي الأفق، هو من هذا الجيل الذين لديهم رؤية محافظة تجاه العالم. لقد وافق على استقبالي بعد دخولي السجن بخمس سنوات، فكيف سيستقبلك؟ كما أنه مصاب بالربو، ويضعفه المرض. ذات مرة أصابته النوبة، فذهبت إلى منزله لرعايته، وأخبرني أنه مَن وفّر لي المسدس الذي استخدمته لاقتحام السجن. وتذكّرتُ بعد كلامه أن شاباً أصلع قد حرّضني بالفعل على اقتحام السجن، وهذا يعني أنني كنت على الطريق الصحيح منذ تسع سنوات. أنا على حق، أليس كذلك يا وي بو؟ آه، أشعر بالارتياح بعد إخبارك بكلّ هذا. هل تريد تناول الطعام؟ تريد أن أساعدك؟ يبدو أنك استعدت قوتك، بإمكانك العودة.

صعد لاو جانغ الجسر، واختفى بعد وقت قصير، وعاد وي بو إلى السجن.

عاد إلى الزنزانة بعد تناول طعامه، ولم يكن هناك غير شياو يان.

قال وي بو: «سمعتُ أن الحظّ حالفك».

- هذه أخبار قديمة، استبُدِلْتُ بشخص آخر، قالت الجهات المعنية إنني ضعيف الإرادة، وأحتاج إلى تدريبات مكثّفة، ويقصدون بذلك حادثة الخاتم. يبدو أنّ عليّ أن أتحمّلَ حبيبتي.

وظهر على وجهه أثناء كلامه ذلك التعبير الغريب، وأدرك وي بو أنه تعبير معاناة فسأله: «هل ستأتي لزيارتك قريباً؟».

- أجل. يتركها الحرّاس تتحرّك كما تشاء حين تأتي، لذا تأتي هذه المرأة المخيفة للبحث عني. وعزمت في المرة السابقة على التخلّص من الخاتم، لكنكم لم تتركوني وشأني. وهذا خطئي أيضاً، فأنا عاجز عن مقاومة إغرائها.

- حتماً هي امرأة جميلة، أليس كذلك؟

- إنها ساحرة، خفّاش ماصّ للدماء! لا أقدر على تحمّل التجربة.

ظهر الحارس يانغ أثناء حديثهما عند الباب، فأحنى شياو يان رأسه على الفور وارتجف. لم يقدر على الوقوف، واتجه إلى فراشه وجلس هناك. أزاح المخدّة بيده المرتجفة ورأى وي بو الخاتم. ظهرت على وجه الحارس ابتسامة خفيفة، وأشار إلى وي بو بالمجيء.

ذهب وي بو برفقة الحارس يانغ إلى مكتبه. كان الحارس صامتاً، ودخّن سيجارتين بالتتابع.

- لقد استدعيتني، هل تريد مساعدتي في أمر ما؟

- لا تستغرق في النوم ليلاً، هذه المهمة التي أوكلها لك. وقعت جريمة قتل في الزنزانات من قبل، وهذا لأنني أهملت واجبي. يا له من شيءٍ مُخزٍ!

- لا أعتقد أنه سيفعل ذلك.

«كيف لك أن تضمن ذلك؟ لا تظن أنك تفهمه لمجرّد أنك أكبر منه في السن» -قال ذلك ثم رفع عينيه إلى السقف، وكأن أفكاره معلّقة هناك-

«إنه لأمرٌ مخيف أن ترى حياة تنتهي، لم أنعم بنوم هانئ مذّاك... لا يسمح عملي بالهفوات. ماذا عنك؟ هل تفهم تسوي لان وضعك؟».

– أظن أنها تفهم، مقدرتها عالية.. لكن ربما كنت مخطئاً، لأنها لم تنتظرني المرة الفائتة وغادرت. لستُ واثقاً منها على الإطلاق.

«سيكون غريباً أن تكون واثقاً منها!»، قال الحارس وقد رفع صوته بحماس، ثم أكمل: «إن كنت واثقاً منها فلم تكن لتدخل السجن وتحمل أكياس الرمال. إن هذا العالم يدور وفق قوانين صارمة».

ألقى السيجارة على الأرض وداسها، وبدا وكأنه عزم على شيء ما.

– عد إلى زنزانتك يا وي بو، ولا تستغرق في النوم. أليس هناك مَثلٌ يقول: «العشّاق يتزوّجون في النهاية»؟ أريد أن أثق كلياً بأن هذا صحيح.

تذكّر وي بو في الردهة أن الحارس لم ينادِه بـ«الرقم 85» بل باسمه «وي بو»، يا له من أمر غريب مستعصٍ على الفهم! كما أنه سمّى حبيبته بـ«تسوي لان»، وكأنه ينادي صديقاً قديماً.

في الزنزانة، استلقى السجناء الثلاثة في أسرّتهم وأطفؤوا الضوء. دخل وي بو بخفّة، واستلقى في سريره بهدوء. وكان بإمكانه الشعور بأنهم مستيقظون، ينتظرون حدوث شيء ما.

اعتاد وي بو هذا المناخ الآن، حتى إنه كان مترقباً لما سيحدث، لكنّه استغرق في نوم عميق في هذه الحالة من الترقّب الفضولي. أوامر الحارس يانغ لم تفلح معه.

في الصباح، استيقظ الأربعة في الوقت ذاته على صوت الصفّارة.

لم تنحسر مياه النهر، وكان عليهم أن يكملوا حَمل أكياس الرمال. رأى وي بو السجناء الثلاثة مفعمين بالحيوية والحماس، لكنه كان يشعر

بالخمول. وظلَّ يتساءل: لماذا جاءت تسوي لان لزيارته ولم تنتظره؟ لعلّ أحداً تحدّث عنه بسوء؟

أُرسلت وجباتهم إلى موقع العمل بحلول منتصف الظهيرة، وتناولوا طعامهم واقفين. جاء شياو يان يملؤه الحماس، ويتدفق الدم في وجهه، وتبدّد سلوكه المنحطّ، وقال: «وي بو، إن هذا العمل الشاق يبعث على الإدمان حقاً! أريد أن أخضع للإصلاح لأحصل على وظيفة حارس».

بحث وي بو بعينيه عن لاو جانغ، وسرعان ما رآه يحتضن سجينة سمينة ويتجهان صوب دعائم الجسر. كان لاو لو يعبر مبتسماً ويحمل علبة وجبته، وتتبّع نظرات وي بو.

- هاها! إنهما يستغلّان الوقت المناسب لجريمتهما! لكن لا يهمّ، فهذا الأمر ليس إلّا زوبعة في فنجان! لاو جانغ هو أكثر الأشخاص الذي قابلتهم في حياتي قدرةً على التعامل مع نفسه، كما أن له علاقة شخصية بآمر السجن. وي بو، هل عرفت الآن ما هي أعمال الإغاثة؟ الإغاثة تعني العلاقات الغرامية!

سأله وي بو: «ولماذا لاو جانغ الوحيد الذي باستطاعته أن يحظى بعلاقة غرامية؟».

«صحيح!»، قال لاو لو الكلمة بنبرة طويلة، ثم أردف: «لأنها وقعت عليه. ألا تظن أن لاو جانغ مقدّرٌ له أن يحظى بعلاقات غرامية؟ إنك بليد!».

دفع وي بو ليرى مقبض المسدس الظاهر من جيبه، ثم اقترب منه وهمس: «إن أثار شياو يان جلبة في المساء، سأقتله برصاصة واحدة!».

رمق وي بو شياو يان بنظرة خائفة، وتذكّر المهمة التي أوكلها له الحارس يانغ مساء أمس. ألقى شياو يان نظرةً بطرف عينه إلى لاو لو، ورأى المسدس كذلك، لكنه بدا غير مكترث على الإطلاق. وضع علبة

الطعام في يده، وسار إلى لاو لو واحتضنه، وصرخ قائلاً: «لماذا علينا دائماً أن ننتظر قدرنا؟ ماذا لديك لتقوله؟ الحظ يأتي ويذهب، لكننا ننتظر بعناد مثل دعائم الجسر تلك. وسرعان ما سيغرقنا الفيضان».

دفع لاو لو ذراعيه عنه باشمئزاز وقفز مُبتعداً، ثم أخرج المسدس وأطلق رصاصة. صفّق شياو يان بإعجاب وقال لـ وي بو: «انظر كم هو شجاع! إن رجلاً عنيفاً مثله يجب ألّا يظلّ في السجن!».

«إذاً، أيُّ نوع من الأشخاص هم الذين ينبغي لهم أن يظلّوا في السجن؟» سأله وي بو.

- أشخاص مثلنا، نصف ميتين، متردّدين دوماً، هم فقط مَن يجب أن يظلّوا في السجن. لا أظن أن لاو لو بقي هنا من أجله، بل من أجلنا في المقام الأول.

قطّب وي بو حاجبيه وفكّر لبرهة، ثم قال: «كلامك منطقي جداً، لكن ألا تخافه؟».

- بل أتمنى أن يعتقني، لكنّه يرفض. لا تتطلّع إلى أيّ انعتاق بعد أن تدخل إلى السجن. انظر كيف تأقلم لاو جانغ مع البيئة هنا!

فغر وي بو فمه بذهول، ولم ينطق بكلمة.

في تلك اللحظة جاء الحارس السمين ليو، وطلب من وي بو الذهاب إلى غرفة الزيارة قائلاً إن زيارة خاصّة رُتّبت له.. لدافع إنساني.

- اذهب بسرعة وغيّر ملابسك، نيو تسوي لان تنتظرك!

- ليس لديّ ملابس أخرى لأغيّرها.

وفكّر وي بو في نفسه: هل يعرف كلّ شخص هنا تسوي لان. لكن كيف؟

كانت غرفة الزيارة فارغة، وأمره الحارس ليو أن ينتظر، ثم خرج.

تأمل وي بو الغرفة الصغيرة بضجر. كانت غرفة من دون نوافذ، فيها كرسيّ خشبي فقط، ولوحة زيتية معلّقة على الحائط المقابل للباب؛ اللوحة رسمٌ لشخص، لكنه يبدو كحيوان أيضاً. تولّاه شعور بالاضطراب بعد عدّة نظرات إلى اللوحة، فأشاح بعينيه على الفور. كان الباب مفتوحاً، وهناك حارس طويل يجوب الردهة جيئةً وذهاباً. في البداية جلس وي بو من دون حركة، ثم اكتشف أن الحارس يتأمله بذهول كلّما مرّ، فشعر بالحرج ونهض. لكنه لا يريد أن يرى تلك اللوحة كذلك، ولا أن يرى الحارس، فوقف في مقابل الجدار الأبيض جهة اليمين. وقف طويلاً وآلمته قدماه، فاضطرّ أن يحرّك الكرسي ويجلس مولياً ظهره للباب. ورغم ذلك، كان بوسعه الشعور بالنظرات التي تهبط على ظهره، فانتابه غضب. هناك شخص يتحدّث؛ كان الحارس الذي وقف أمام الباب يتحدّث مع شخص آخر.

- كيف المحصول هذا العام؟

- سيّئ جدّاً. لكن محصول فول الصويا كان وفيراً. لا يكون المحصول مثلما تأمل أن يكون.

التفت وي بو بالكرسي، ولاح تعبير دهشة على الوجهين في الوقت ذاته.

رأى وي بو العم الرابع لتسوي لان، ذاك الرجل الريفي.

«آه، أنت هنا إذاً!» -ابتسم العم الرابع كاشفاً عن أسنان صفراء- «لقد طلبت مني تسوي لان أن أزورك بدلاً عنها، وترغب في أن أنقل لها أخبارك، مثلاً، كيف مزاجك، هل نحفت أم لا؟!».

- أين تسوي لان؟

شعر وي بو بخفقان قلبه.

- هي في كلّ مكان، وليست في أيّ مكان. حتى أنا أعتمد على الحظ إن أردت أن أقابلها الآن. صادفتها أمام باب دار الأوبرا، كانت تخرج برفقة تلك المرأة العجوز. ارتجفت ساقاي من الذعر، إذ بدت الاثنتان كطَيفَين!

- هل كانت امرأة الكاميليا؟

- أجل، هي امرأة الكاميليا. ثم طلبت مني تسوي لان أن أذهب لزيارتك... وي بو، ماذا حدث لك؟ هذا عكس ما توقعته تسوي لان تماماً.

- وماذا توقّعت تسوي لان؟

- لا أستطيع إخبارك، فهو مختلف على كلّ حال. تحدثت عنك بخير. تبدو ذابلاً، ولم تحلق لحيتك منذ وقت طويل، كيف أصبحت مهزوماً هكذا!

«ليست هيئته على هذه الدرجة من السوء»، قاطعه ذلك الحارس قائلاً: «إنك تتوقّع منه الكثير، التوقّعات الكبيرة من المحرّمات بعد دخول المرء السجن».

«كلام هذا الأخ منطقي»، أومأ العم الرابع موافقاً، ثم أكمل: «في اعتقادي، أنت لم تنحف إلى هذه الدرجة، لكنّك فقدت النزاهة التي كانت بادية على وجهك، وتبدو عيناك غريبتَين. كيف حصل هذا؟ لقد جئت هنا من قبل لأزور شياو خِه، حبيب تسوي لان السابق، وهو على علاقة وثيقة معها في الآونة الأخيرة، لكنّهما ليسا عشاقاً بالطبع. تطلب منه تسوي لان المشورة فحسب، فدخولك السجن كان صعباً بالنسبة لها، ولن تستطيع المضيّ في حياتها إن لم تحصل على المشورة والمساعدة، ألا توافقني؟».

أخفض وي بو عينيه وقال: «أظنّ أنّ لكلّ شخصٍ ما يؤرقه. كيف حال تسوي لان؟».

- إن حياتها مذهلة! غدت أكثر تفاؤلاً عن السابق، ونشطة للغاية في

أنحاء المدينة. يقول كل أقاربها إنها «وردة تفتّحت متأخراً». وهذا بفضل تأثير وي بو.

- إذاً، يا أيها العم الرابع، هل ما تزال تعيش في الريف؟

- لا، لقد انتقلت إلى المدينة. ابنة أخي بحاجة إليّ. انظر! أَلَم آتِ بدلاً عنها لزيارتك؟! هي شخص منشغل الآن، تقوم بأعمال الخير في كلّ مكان.

«أعمال الخير؟!» - دُهِش وي بو.

- الاستماع للناس. يأتي كل مَن يعرفها ليتحدّث عن مشاكله في الحب. تركت عملها منذ فترة، فهي شديدة الانشغال. وقع أحد الشباب في غرامها عندما كانت تستمع لشكواه. وي بو سعيد الحظ لأن لديك حبيبة مذهلة كهذه.

صدمته الأخبار التي جلبها له العم الرابع.

عجز وي بو عن النوم ليلاً، وظلَّ يتقلّب في فراشه. وأثارت جلبته غضب لاو لو، الذي أخرج المسدس وأطلق رصاصة صوبه، شعر بلسع في ربلة ساقه، وسرت في قلبه دفقة من يأس، ثم صرخ متألماً: «آه.. آه!».

- إن صرخت مرّةً أخرى سأقتلك! ستموت بهدوء، وسندفنك.

غطّى وي بو ربلة ساقه المصابة باللحاف، واستلقى في فراشه من دون أن ينطق بكلمة. ماذا جرى؟ كان لا يزال في وعيه، وفيما عدا ربلته المصابة، كان كلّ جزء آخر من جسده على ما يرام. استجمع شجاعته في الظلام ولمس جرحه. جيد، لا يوجد نزيف ولا ألم أيضاً، يشعر بلسع فقط.

جاء شياو يان إلى فراشه بهدوء يحمل مصباح يد. سلّط ضوءه على الجرح وظهرت الرصاصة بوضوح، كانت مفتّتة بالكامل داخل اللحم.

وفيما عدا ذلك التجويف الصغير، كانت البشرة حوله نظيفة من دون خدش. جعله هذا المشهد يشعر بإحساس غريب وبالاشمئزاز أيضاً.

«لن تسبب لك أيّ عائق، سوف تتحسّن أكثر عندما تعتاد عليها»، قال شياو يان بصوت خفيض.

تذكّر وي بو صوت الرصاصة القوي، وعجز بعد تفكيرٍ مليٍّ أن يفهم ما يحدث.

علا شخير الرجال الثلاثة، ما عدا وي بو الذي كان متحمّساً بشدة. هل كانت تلك الرصاصة معبأة بالمنشّطات؟ أي نوع من السجون هذا الذي زُجّ فيه؟ ورغم أنه كان يتأقلم على الوضع هنا شيئاً فشيئاً، لكنّه لا يزال يعتقدُ أنه شخص غريب. ثم بدأ يفكّر في كل شخص حوله واحداً تلو الآخر: شياو يان، لاو لو، لاو جانغ، الحارس يانغ، ذلك الحارس أمام باب غرفة الزيارة وغيرهم. كان الجميع وبلا شك يستوعبون مناخ السجن. كان لكل واحد منهم بعض الأفكار والتجارب الغريبة، ولدى وي بو أيضاً بعض الأفكار والتجارب الغريبة، لكن لماذا لا يستطيع استيعاب مناخ السجن؟ وقَلِقَ حيال ردود فعله البطيئة. عاد بذاكرته إلى الماضي، إلى الإحساس الذي انتابه أثناء عبوره تلك الغرف في البيت القديم في مسقط رأسه. عثر حينذاك على علبة في خزانة بها مفرقعات، واعتزم أن يأخذها بعد تناول الطعام، لكنه حين عاد، لم يستطع العثور على هذه الحجرة رغم بحثه المتواصل. كان قلقه حينذاك مشابهاً.

حاول الاستغراق في عالم الأحلام، وعدّ الأرقام لتساعده على النوم وأوشك أن ينجح.

صوت الصافرة الحادّ كأنما سيمزّق طبلة أذنيه، حتى رأسه قفز. كان عليه أن ينهض من السرير كالآخرين. يوم جديد قد حلّ.

- 8 -

الضابط شياو خِه والحب من طرف واحد

تزوّج الضابط شياو خِه البالغ من العمر 36 عاماً منذ وقت طويل، ولديه ابن، لكنه لم يستطع رغم محاولاته نسيانَ حبّه الأول.

وحبّه الأول هي عاملة مصنع الأجهزة والعدادات نيو تسوي لان.

كانت تسوي لان في ذاكرة شياو خه أجمل امرأة قابلها في حياته، مظهراً وجوهراً داخلياً، لكنه لم يخبرها بذلك خلال الفترة القصيرة التي تواعدا فيها؛ كان شاباً خجولاً ذا شخصية ملتوية إلى حدٍّ ما. كانت علاقته الغرامية بتسوي لان مثل حلم، استيقظت هي منه بسرعة، أمّا هو، فيبدو أنه سيُحاصَرُ داخله طوال عمره. بالطبع لا يمكنه أن يُثقلَ على تسوي لان، لأنه لا يستطيع فعلَ شيءٍ يغضبها. كان كلّ ما فعله مجرد ألعاب لإسعادها. ذات مرّة على سبيل المثال، أرسل لها خمسة يوان مرفقة بملاحظة تقول إنها من أجل عيد ميلادها. شعرت تسوي لان بسعادة غامرة بعد استلام هذه النقود القليلة، فأرسلت له رسالة بذيئة ومسيئة تأمره فيها أن يحوّل لها عشرين ألف يوان إلى بطاقتها البنكية كـ«مصاريف شبابها الضائع»، كما هدّدته بإرسال بلطجية لضربه. وأُرسلت الرسالة عبر صديق مقرّب. وفي ما بعد أتاح شياو خه لـ وي بو أن يقرأ ردّها، لأنه أراد استمرار علاقة وي

بو وتسوي لان وانقطاعها في آن، وهذا التناقض في شخصيته كان السبب وراء تصرّفه الغريب. لم يعرف شياو خه نيّته الحقيقية مطلقاً.

كان معنيّاً ولسنوات طويلة بمكان تسوي لان كلّما كان لديه وقت فراغ، رغبةً منه في المحافظة على علاقة غير مباشرة بها. وكان يرى في بعض الأحيان أنه من حسن الحظ أنهما يعيشان في المدينة ذاتها. ورغم أنه لم يقابلها إلّا نادراً بعد انفصالهما لرغبته المتعمّدة في تجنّبها، إلّا أنه في الأيام الربيعية الماطرة، يخرج أحياناً مدفوعاً بفكرة خطرت له فجأة، ويذهب إلى شارع مصنع الأجهزة والعدّادات، على أمل أن يصادف حبيبته. بالطبع لم تحدث هذه المصادفة حتى مرّةً واحدة.

تحمّس شياو خه بشدّة حين علم -من دون قصد- عن علاقة تسوي لان بـ وي بو عامل مصنع الصابون. فكّر في مختلف الطرق ليتقرّب من وي بو، وتحوّل الحب داخله إلى شعور غريب بالالتزام، سيطر على ذهنه بقوة ساحقة، ممّا دفعه إلى التصرّف أمام وي بو بهذا السلوك الشائن الذي لا يمكن تفسيره. أُصيب بانهيار عصبي بعد أن قابل وي بو، وظلَّ مستلقياً في فراشه لمدة أسبوع تراوده أحلام عجيبة، مسترجعاً تفاصيل تلك الحفلة في منزل صديقه مرّةً تلو الأخرى. وبعد أسبوع، أدرك المعنى الحقيقي وراء سلوكه الغريب، وهو أنه قام بعمل نبيل. لكن ما هو النُّبل في عرضه الرسالة التي كتبتها تسوي لان على ندّه وي بو؟ على الأرجح شياو خه وحده يعرف ماهيّته. ولم يكن مكترثاً لهذه النقطة.

وفي أعماق شياو خه، كان جبل الكمّثرى رمز حلم الحب الأول. مرّت سنواتٌ طويلة ولم يرجع إلى هذا المكان إلّا في أحلامه فقط. جبل الكمثرى جبل شاهق يتكوّن من الحجارة المبعثرة، ولم يصعده مع تسوي

لان، بل تأملاه من الأسفل. وخلال هذه السنين، أدرك شياو خه شيئاً فشيئاً، أنه اختار الذهاب إلى جبل الكمثرى كتذكار بانفصاله عن تسوي لان، لأن قفر الجبل المخيف يشبه فؤاده. هل من الممكن أن يقترب المرء من الهوة السحيقة داخله في حالة العشق فقط؟ لكن في ما يتعلّق بمجاهل هذا الجبل، لا يزال شياو خه يعرف القليل. كان شخصاً مثابراً، لم ينسَ قط جبل الكمثرى الذي اقترب منه من قبل.

ظنّ في البداية أن الحياة العائلية المستقرّة ستقضي يوماً بعد يوم على شيءٍ ما داخله. كانت شخصيته في الحقيقة تُصقَلُ في ذلك الاتجاه في الأعوام الأولى من زواجه. ثم اكتشف خلال السنوات الأخيرة، أن «هذا الشيء» لا يزال كالسابق، مثل التنبّؤ الفظّ الذي توقعته والدته بشأنه: «لا يمكن للكلاب أن تغيّر من أكلِها للقذارة!».

إذاً، هل ينبغي عليه أن يوطد علاقة وي بو وتسوي لان الغرامية؟ كانت إجابة هذا السؤال مستعصية مثل جبل الكمثرى. ولم يفعل كلّ ما فعله إلّا تحت وطأة التأثّر العميق، ومنطلقاً من شغفٍ يتأرجح بين النزاهة والشرّ يدفعه إلى أن يحوم بين تسوي لان ووي بو. كان حسّاساً قليلاً تجاه الشّرّ بحُكم عمله ضابط شرطة.

لم يتوقّع شياو خه دخول وي بو السجن بشكل مفاجئ. لكنه سرعان ما أدرك طبيعة فعله مستنداً إلى حساسيته المهنية (كان يعرف أن وي بو دخل السجن بإرادته). وفاقم هذا التحوّل المفاجئ للأحداث الحماسَ المتراكم داخله بشدّة. لم يكن متأكّداً ممّا أراد فعله، لكنه شعر دائماً بأن عليه أن يفعل شيئاً. ولم يُطلع أحداً على مكنونات قلبه، حتى صديقه المقرّب يوان خي اعتمد على ملاحظته ليخمّن ما يجول في خاطره. جعل هذا الشغف المنفرد أفكاره غريبة، وكان يخاف من نفسه في الآونة الأخيرة.

قابل شياو خه تسوي لان عدة مرات بعد دخول وي بو السجن، وانتبه إلى أنها غدت أكثر هدوءاً، وبدا أنها قد اتخذت قرارها. وكان بوسعه رؤية أن حبها لـ وي بو حبٌّ حقيقي، وأنها لم تحبه مطلقاً بهذه الطريقة. وقال لنفسه: «إن الحب الذي أكنّه لـ تسوي لان عميق مثل حبها لـ وي بو»، وكان فخوراً بذلك.

– كنت أتحدّث مع وي بو عن امرأة الكاميليا عندما حاصره رجال الشرطة، كانت أشجار العَبَقة في الحديقة مزيّنة بزهورها التي تنشر رائحتها العطرة، ونبت من الأعشاب فطرٌ ناعم. نهض وي بو، ونفض عن ملابسه بذور الأعشاب وقال وهو ينظر إلى الأشجار: «سأرحل، اعتنِي بنفسِك!».

يمكن لـ شياو خه أن يروي هذا المقطع عن ظهر قلب، لأنها تحكيه كلّ مرة تقابله. كان ينظر إليها بإعجاب كلّما روته، وبعد أن تنتهي يعود بذاكرته إلى جبله الكمّثرى، إلى تلك الحجارة المقفرة. كان يعلم ألّا أشجار عبقة تنبت هناك، لكن تسوي لان لم تكترث حينذاك.

قال لها: «أعتقد أن عليكِ أن تنقلي له أخبار حياتك في الخارج باستمرار. يمكن للسجن أن يغيّر المرء».

– آه، شياو خه! ستكون حياتي في فوضى لولا صداقتك.

– إذاً، فلتكن حياتك في فوضى! هذا ما يرغب وي بو في رؤيته.

– هل أنت متأكّد؟

– أجل متأكّد.

في طريق عودته إلى المنزل، فكّر شياو خه بارتباك في ما قاله لتسوي لان. كانت تعتمد كثيراً على حُكمه الآن، أو ربما تتظاهر بالاعتماد عليه من

أجل أن تعطيه انطباعاً جيداً ليلاحقها أكثر؟ كان يفتقر إلى الثقة في نفسه، واستند قوله لهذا الكلام على هاجس غامض. أحسّ أن تسوي لان أدركت قصده حين قال للتو: «السجن يغيّر المرء». هل لأنها تحاول بكلّ جهدها أن تتغيّر؟

كان إرسال العم الرابع لزيارة وي بو من تخطيط تسوي لان وشياو خه. كان تفكيره في البداية في هذه المكيدة نابعاً من كرهه لـ وي بو، وحين جلس مع تسوي لان في مقهى شاي ليُخطّطا الأمر، أثّر فيه ذاك التعبير العميق على وجهها، فارتبك وفقد تفكيره المنطقي. لذلك تغيّر الأمر وأصبحت خطة الزيارة من تدبير تسوي لان بمفردها. غمرها الإلهام في لحظة، وفكّرت في طرق جيدة لتتلاعب بـ وي بو.

قالت: «هذا كله بدافع الحب أليس كذلك؟».

- أشعر بالخزي الشديد يا تسوي لان.

- لا داعي للشعور بالخزي. ألسنا نتعلّم من الحياة؟

- كلامك صحيح، أنا أيضاً أتعلّم.

تبادلا النظرات لعدةِ ثوانٍ وضحكا كأنهما وحدهما يعلمان أمراً مشتركاً. ولم يسَع شياو خه إلّا أن يتعجب في سرّه: لَكَم الحياة جميلة! ما الذي فعله ليستحقّ هذه الجائزة؟

قالت تسوي لان بصدق: «إن أفكارك تلهمني دائماً إلى أقصى حدّ. وأعتقد أنك تفهم كل شيء، وبوسعك التغلّب على أيّ شيء».

- في الحقيقة، مَن يفهم كلّ شيء هو أنتِ يا تسوي لان!

رأى شياو خه ذاته في تعبير عينيها، رأى ذاتاً أخرى. حدث مثل هذا الأمر منذ سنوات مضت، لَكَم كان شابّاً حينذاك! رأى نفسه كشجرة عليلة متعفّنة من جذورها، لكن وجود تسوي لان لم يُقيّده، بل جلب لتعفّنِه

الحظّ السعيد أيضاً. مثلما جرى للتو، ألَم تتحوّل فكرته الحمقاء إلى فعل نبيل؟ العم الرابع أنسب مرشح بالفعل. روحٌ انبثقت من المقبرة في مسقط رأسها، وأنسب شخص لينقل حبها.

بدّدت تسوي لان الثِقل الغامض الجاثم على قلبه حين وصلت إلى المقهى. انكشفت الحقيقة جليّةً الآن، ورغم أنه شعر بشيء من الحزن، إلّا أنه كان أكثر راحة. كان كلّ شيء بسيطاً هكذا.

«شياو خه، من أين جئت؟»، سأله يوان خي بوجهٍ تبدو عليه التعاسة.

– من مقهى الشاي. كنت أقابل صديقاً قديماً.

– ليس لديّ أصدقاء، حياتي بائسة.

– أَلستُ صديقَك القديم؟ يا لك من أحمق!

– وهذا صحيح. لنشرب كأساً!

تسلّل الحزن إلى قلبيهما مُجدّداً وهما يشربان.

جلس قبالتهما في تلك الحانة المعتمة رجل وامرأة أولَياهما ظهريهما، وبدا أنهما يبكيان. وأحسّ الاثنان على الفور ببؤسهما الذي لا مفرّ منه.

«أَلن نبكي؟»، سأله يوان خي بهدوء وبوجهٍ عابس.

– لا أستطيع البكاء.

جاءت الكؤوس، فأفرغا كأسيهما بصمت. وشرب كلٌّ منهما كأسين.

استرخت أعصاب شياو خه تدريجياً، وتأمل حركات العاشقين أمامه، كانا مستغرقين في تبادل القبل.

– شياو خه، شياو خه، أجِب عن سؤالي من فضلك: هل لا تزال شجرة الكافور الضخمة خلف السجن موجودة؟ أخبِرني الحقيقة!

- لا تزال هناك، شاهدتها البارحة. أقول الحقيقة.

- هذا جيد. لا تزال موجودة سنة بعد الأخرى. هل قلقي مبالغٌ فيه يا شياو خه؟ انطلقت من منزلي في الصباح إلى كشك الشرطي لتنظيم حركة المرور، لكنّ صوراً غريبة كانت تلوح في ذهني، مثل صورة طفل يزحف بين السيارات في نهاية الشارع على سبيل المثال.

- تحدث أشياء من هذا القبيل دائماً. كانت تلك الشجرة موجودة بالفعل في الثانية بعد الظهيرة.

- شكراً لك يا شياو خه، لنتصافح، لستُ واثقاً من نفسي!

وأحسّ يوان خي بيده باردةً كالجليد.

«أنا أتحدّث عن نفسي فقط. أخبِرني كيف حالها؟!»، قال شياو خه وكآبة تُخيّم على وجهه.

- إنها تبتعد عني شيئاً فشيئاً، عليّ التدرّب لأكون عدّاء مسافات طويلة.

- سوف تفعلها، أنا واثق من ذلك. إنها مثالية. في صحتك!

«حقّاً؟ حقّاً؟»، قال يوان خي وهو يجذب ذراعه.

- بالطبع. بعد أن هجرتها في المرة السابقة على جسر المشاة، رأيتها من بعيد تقف هناك، وظلّت واقفة هناك تتأملك راحلاً، طويلاً طويلاً. كان انفصالكما من طرفها بدافع الحب.

- يا أخي شياو خه، إن نظرتك ثاقبة! لماذا لا أستطيع التفكير بهذه الطريقة؟

- مشكلتي في ناحية أخرى، مثل أن أكون في المطبخ وأغسل الخضار، فيعتريني اضطرابٌ مفاجئ، وأسأل نفسي: هل سيكون عمود الكهرباء في الشارع، وصندوق البريد ذاك المطلي بدهان أخضر موجودين في مكانهما في الثالثة صباحاً؟ كل شيء شديد الغرابة!

عندما قال شياو خه هذا الكلام بصوتٍ عالٍ، كان العاشقان أمامهما قد توقفا عن القبلات، والتفتا ونظراتهما مصوّبة إلى شياو خه.

قال الشاب: «هل ستجيب عن أسئلتنا أيها الشرطي؟ لقد تحدّثت عن علّةِ قلبينا، وحينما وصفت تلك الحالة تأكّدنا من الأمر. شكراً لك!».

جاء الشاب وتلك الفتاة الرشيقة وصافحا شياو خه، والاثنان يحدّقان إليه كأنهما يبحثانِ عن شيء ما في عينيه. ثم غادر الاثنان.

قال يوان خي: «انظر كَم تلقى ترحيباً يا شياو خه!».

قال ابن صاحب الحانة: «إنهما شابان يائسان!».

كان ابن صاحب الحانة، الذي تجاوز الأربعين بقليل، يعمل في مقاطعة أخرى، وجاء في إجازة. كان جالساً طيلة الوقت إلى الطاولة المحاذية للنافذة. نظر إلى شياو خه بإعجاب.

انتعش يوان خي، وظهرت في عينيه نجمتان، وقال بحماس: «شياو خه، من الجيد أنك قلت ذلك! لقد كنت دائماً معجباً بأفكارك غير المتوقعة! هيّا، لنشرب!».

سألهما ابن صاحب الحانة: «هل ترغبان في الذهاب إلى النهر هذه الليلة؟». ردّ الاثنان بصوت واحد: «يا له من اقتراح جيد!».

كان الليل قد حلّ حين أنهيا تلك الجملة. هبّت ريح صوب الحانة أثارت أعصاب الرجلين.

وقف ابن صاحب الحانة أمام الباب وأشار إلى سيارة أجرة، واندسّ الثلاثة داخلها.

- لا تقلقا! هذه مراكب صيد قوية، ليست مثل المراكب الترفيهية في الحدائق، إنها ألعاب عملية تُستخدم لكسب العيش. هل سمعت عن مركب صيد انقلب من قبل؟ لم يحدث قطّ. سأمسك الدفة، وأنتما جدّفا

في الأمام. أليس الضابط قلقاً حيال دعائم الجسر؟ يمكنك أن تفحصها عن قرب الآن. هذه الرياح الخفيفة لا تُعدّ شيئاً، ما دمت ركّزت جيداً.

لم يتوقف ابن صاحب الحانة عن الحديث في السيارة، وكان الاثنان حائرين ومترقبين في الوقت ذاته.

انطلقت سيارة الأجرة بسرعة شديدة، ثم توقفت فجأة عند ضفة النهر. كانت الريح قوية، بصعوبة استطاعوا الوقوف. ورأى شياو خه في الضوء الشاحب يوان خي يغطي أذنيه بيديه ويبدو مذعوراً. اتجه ظلٌّ أسود ناحيتهم واقترب من ابن صاحب الحانة وسأله: «ثلاثة أشخاص؟».

- أجل، ثلاثة أشخاص.

- متأكّد؟

- أجل.

سار الصياد ورفع المرساة، وقفز الثلاثة إلى المقصورة.

لم يعرفوا كيف استطاع الصياد أن يصل بسرعة إلى قلب النهر. كانت المرة الأولى التي يجدّف فيها شياو خه ويوان خي. كان ابن صاحب الحانة يدير الدفة في الخلف، ويوجّه الاثنَين من نهاية القارب. جدّف الاثنان كيفما اتفق، والهلع يموج داخلهما.

«يوان خي.. يوان خي!» - كان صوت ابن صاحب الحانة كأنه قادم من أرض برية بعيدة.

صاح يوان خي بصوتٍ عالٍ: «شياو خه، هل نحن في مأزق؟!».

لم يُجِبه شياو خه، لأن تلك الاضطرابات القوية سبّبت له ضيقاً واضحاً، حتى كاد أن يختنق من فرط التوتّر، واختفت تلك الهلوسات التي راودته في الحانة دونما أثر.

ضربت الأمواج المركبَ وغمرته بالمياه. تبلّل حذاء يوان خي، وكان ثمّة فكرة واحدة في ذهنه: لعلّ هذه هي النهاية؟ لم يكن مُستعدّاً على الإطلاق.

كان المركب يدور في منتصف النهر، وتغمره المياه أكثر فأكثر. لم يرَ شياو خه ويوان خي ابن صاحب الحانة، لعلّه كان يدير الدفّة على كلّ حال. لم يكن ثمّة شيء يُرى في النهر في ليلة كهذه. جُنّ يوان خي، ومضى يصرخ حتى بُحّ صوته: «شياو خه، واحد، اثنان، ثلاثة! واحد، اثنان، ثلاثة!».

لم يعرف كم مضى على صراخه هكذا حين اتّزن المركب فجأة. وبتلك الطريقة تعلّم الاثنان التجديف بمفردهما، ومن دون معلّم. كانا يرتجفان وأقدامهما غارقة في الماء. الأمر الغريب، لماذا لم يكن بدناهما دافئين رغم الجهد الكبير الذي بذلاه؟ رأى شياو خه الظلال الضخمة لدعائم الجسر. مدّ يده ولمسها، وأحسّ بدفء الأسمنت الخام القوي، الذي ذكّره بموقد حفرة النار في مسقط رأسه في الشتاء.

علا صوت يوان خي مصحوباً ببكاء: «لا أريد الموت! أريد أن أستمرّ في مواعدتها! شياو خه، هل تسمعني؟».

- أسمعك يا يوان خي! أي موت تتحدّث عنه! لقد عبرنا دعائم الجسر، لمستها للتو، إنها هناك حقّاً! مَن كان ليتوقّع ذلك في ليلة كهذه؟!

أصبحت الرياح أكثر خفّة، وجدّف الاثنان بإيقاع جيد، وتقدّم المركب ببطء في خط مستقيم، لكن لم يكن باستطاعتهما رؤية الشاطئ، أو رؤية أيّ علامة أخرى، كان بوسعهما فقط الوثوق في المجاديف في أيديهم، والشخص الذي يدير الدفة. «جدّف، جدّف، دائماً سيطلع النهار!» قال شياو خه لنفسه.

- شياو خه، إن صدمنا زورقٌ بخاريّ، سنسقط في النهر.

- هش، لا تبدّد طاقتك! لا بدّ أن تتقن عملك مثل روبوت في أوقات هكذه. وبعد عودتنا سأحفظُ في ذاكرتي: في قلب النهر، في الليل، تبقى كلّ الأشياء في مكانها. يوان خي، ألا تعتقد أننا حظينا بحياة لائقة؟

ردّ يوان خي بصوت منخفض: «أجل، لائقة بشكلٍ كافٍ».

- عندما نصل إلى الشاطئ، سنذهب إلى الحانة ونشرب كأساً.

حاول الاثنان قدر استطاعتهما الكلام والتجديف لمقاومة النعاس. حكى يوان خي عن حبيبته الناضجة، حارسة السجن؛ تحدّث شياو خه عن جبل الكمّثرى، كما تحدّث عن عادات المدينة في الماضي. ورغم الألم الشديد في ذراعيه كما لو كانتا ستُقطعان، إلّا أن ذهنه كان نشطاً بشكل غير طبيعي. وفجأة عاد بذاكرته إلى ذلك الماضي، حين كانت خطوط عبور المشاة في شوارع المدينة المرصوفة مصنوعة من قطع البورسلين، وكان خلف المصنع الذي تعمل فيه تسوي لان مقلى يبيع الفول السوداني بالبهارات الخمسة. كان يشتري كيساً من الفول السوداني كلّ مرّة يقابلها.

- شياو خه انظر بسرعة! هل هذا جبل؟ أرى...

اصطدم المركب بشيء ما قبل أن ينهي يوان خي جملته، وأحدث صوتَ ارتطامٍ ضخم. واتضح أن المركب رسا على الشاطئ. ظهرت ملامح المدينة في الصباح الباكر أمامهما، شعرا أن هذه المدينة غريبة، وأنهما لم يريا هذه المعالم من قبل.

خطر ببالهما ابن صاحب الحانة في الوقت ذاته، الذي اقترح هذا النشاط. ألقيا نظرة في مؤخرة المركب وكان خالياً، لا يوجد له أي أثر. بحث عنه يوان خي في المقصورة الخلفية ولم يجده أيضاً.

قال يوان خي غاضباً: «لقد تلاعب بنا! مهارته في السباحة ممتازة، وعاد

إلى المنزل منذ وقت طويل، هذا المنحطّ! لقد غمرت المياه المقصورة الخلفية، وسيغضب صاحب المركب، لنرحل بسرعة!».

ألقيا المرساة على الشاطئ وسارا بخطوات سريعة.

قال يوان خي إنه يشعر بفرح شديد، ولا بدّ أن يذهبا إلى الحانة.

«شياو خه، عليّ أن أكون مثلك في المستقبل!»، أَقسَم قائلاً.

عادا إلى مناخهما المألوف؛ تلك السيارات، المارّة الذاهبون إلى عملهم الصباحي، دكاكين الباوتزي(*) التي تعجّ بطلاب المرحلة الإعدادية، بائعو حليب الصويا في الشوارع، كلّ هذا جعلهم يشعرون بأنفاس الحياة. ورغم أنهما مبلّلان، إلّا أن موجة دافئة سرت في قلبيهما.

كان ابن صاحب الحانة يجلس مبتهجاً في مكانه السابق، وصاح في والِده: «اثنان جين من خمر شاو شنغ، قلوب خنزير، فول سوداني!».

ظهرت على شفتي يوان خي ابتسامة متهكّمة، ورفع كأسه بيديه الاثنتين وشرب نخباً مع شياو خه.

بعد أن أنهى شياو خه شرب نخبه، اتجه إلى ابن صاحب الحانة ورفع رأسه قائلاً: «يا سيد هوانغ، اسمح لي أن أشرب معك نخباً!».

لذا ابتهج يوان خي.

- في صحّتك! في صحّتك! إنكما بطلا مجتمع اليوم، وتختاران اختيارات مذهلة. تذكّرت بفضلكما الأشياء التي اعتدت فعلها أثناء عملي في محميّة للحياة البرية. قضيت ليلةً في الجبل مع خنزيرٍ برّي، وكم كانت ليلةً بديعة! إن اختيارات الحياة التي تختارانها مذهلة حقاً!

وفكّر يوان خي: كيف يعرف الاختيارات التي يختارانها؟

(*) هي معجّنات تكون محشوّة باللحم أو الخضار، وتُطهى عادةً على البخار. (م).

المكان السرّي الذي يتقابل فيه شياو خه وتسوي لان هو مقهى في قبو، حيث لا يوجد هناك غيرُ خمس طاولات فقط، يفصل بين كلّ طاولة وأخرى ساتر أسود مخملي.

«شياو خه، أنا أستسلم!»، قالت تسوي لان وهي تجلس.

حدّقت إلى كوب القهوة بعينين خاويتين، وشفتاها ترتجفان.

- لا تقلقي، أخبِريني!

- قال للعمّ الرابع: ما دمت جئت أيها العجوز، فلماذا أنا متردّد؟ سأفنى في السجن! لم أتوقع أن يكون هذا مآل الأمور.

- وماذا عن مآل الأمور؟ كل شيء طبيعي. وي بو يشجّع نفسه.

- لكنّني ما زلت أفكّر في أنه غيّر موقفه.

- من الأفضل أن يكون لديك هذا الشعور، سوف يستمرّ الحب بينكما ما دامت السماء والأرض باقيتين.

رفعت تسوي لان رأسها، ورأت وجهاً قبيحاً يظهر من فوق الستار المخملي.

«آه!»، صرخت بذهول.

اتضح أن النادل جاء لتقديم المقبّلات، وكان زيّه والستار مصنوعين من القماش المخملي ذاته. ابتسم فجأةً، وكشف عن نابين.

- ليس من الآمن الخروج في يومٍ ماطر كهذا، ما طلبكما؟

كان ثمة غمامة أمام عينيها، لكنّها سمعت ما قاله.

قال شياو خه: «أريد ناباً، هل أنت قويّ بما فيه الكفاية لاقتلاعه؟».

حين سمعت تسوي لان صوته، أحسّت بملمس مخلب يكسوه الفراء في ظهر يدها.

«اذهب! اذهب!»، صرخت تسوي لان بأقصى ما استطاعت. لم تستطع أن ترى الشاب بوضوح.

قال شياو خه بهدوء: «الصراخ سيجعل الوضع أفضل. أعيش مؤخراً قريباً من حقول الفول السوداني، هناك الكثير من الأرانب البرية التي أسمعها تركض أثناء نومي، ويكون القمر جميلاً. وي بو في الداخل، وفي حالة مزاجية جيدة، إن هذا الرجل ذكيّ حقّاً. الكثير من الناس ينقلون له الأخبار، الشاب الذي كان هنا للتو هو أحدهم».

فتحت تسوي لان عينيها بصعوبة، وقالت بوهن: «بعض الناس يختبئون خلف الستار، لماذا يختبئون؟».

- بحكم غريزتهم الطبيعية، بعض الأشخاص يحبون لعب الغميضة.

- آه، يا له من أمر مخيف!

- تسوي لان، سأوصلك، لا تهتمّي بآراء الآخرين. ما رأيك أن نذهب إلى المسرح؟

- لا، سأغادر بمفردي. سأذهب أولاً، انتظر هنا قليلاً!

وغادرت.

جاء النادل من خلف الستار، وقال لشياو خه بوجه عابس: «لقد غادرت. الوضع في الخارج ليس آمناً، اسمع صفّارات إنذار الشرطة!».

- لا تقلق عليها! إنها مستقلّة للغاية، عكس ما يبدو عليها. المكان رائع هنا، والديكور مبتكر، مَن مديركم؟

- سأذهب لإحضارها.

جاءت المديرة، وكانت امرأة مكتنزة. قالت بمودّة: «حبيبتك جميلة، شياو جينغ مفتون بها».

ردّ شياو خه: «حبيبها في السجن».

- خمّنتُ ذلك عندما جئتما المرة السابقة. هذا الحبيب في المكان الذي ينبغي أن يكون فيه. أنا سعيدة جداً لأنك لست في السجن. لكنك تبدو شديد الخواء! لماذا؟

- لأن ذلك الحبيب في السجن. أمدّ يدي، ولا أستطيع لمس رأسي... هل تظنّين أن هذا المكان الذي ينبغي أن يكون فيه؟

شدّ شياو خه أذنيه.

- إنها قصة مذهلة، ومقنعة أيضاً. يبدو أن لا فرصة لشياو جينغ. شياو جينغ!

«ضاعت فرصتي، وسأعيش في عزلة»، قال شياو جينغ بوجهٍ متجهّم.

طلبت منه المديرة أن يذهب معها إلى الغرفة لتُريه شيئاً.

كان هناك مصباحٌ أحمر مضاء في الغرفة المعتمة، يبعث الخوف في المرء.

أنعمت المديرة في عينيه، وقالت كلمة كلمة: «هل تريد مساعدته، أم قتله؟».

«أريد الاثنين»، قال شياو خه، وأدار رأسه.

- أنت صادق يا شياو خه. أريد أن أقول لك: إنك شاب جيد، اذهب إلى أوبرا امرأة الكاميليا، ستساعدك في اتخاذ قرارك بسرعة.

لم يذهب شياو خه إلى المسرح، بل سار بمحاذاة النهر، وغناء امرأة الكاميليا يرنّ في أذنه. وفكّر في مديرة المقهى، وكم هي امرأة تفهم ما يفكّر فيه الناس، وأنها هي التي دفعته لأن يستغرق في تخيّلات جميلة. كان أهالي هذه المدينة في الأصل كلٌّ بمفرده، وحيدين تماماً، لكن غناء امرأة

الكاميليا خلق استجابة بينهم. كيف لمدينة موحشة خاملة أن يكون فيها شخص متقد مثل النار كامرأة الكاميليا؟ جلس شياو خه على مقعدٍ حجريّ عند الشاطئ، وداعب نسيم النهر وجهه.

«لقد دمّرتم مقصورة مركبي!»، قال الصياد، وقد وقف أمامه.

أحنى شياو خه رأسه في استحياء وقال: «أنا آسف. هل يمكن أن أعوّضك؟!».

- لا داعي للتعويض، أنا سعيد لإنقاذ حياة شخص.

- شكراً لك!

سار الصياد باتجاه النهر حيث كان يعيش على المركب. كان مركبه يرسو هناك بثبات، مثل حوتٍ مُروّض.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 9 -

التربية العاطفية

تجلس آسي ويوان خي الآن على المقعد الحجري الذي جلس عليه شياو خه من قبل. يبدوان كحبيبين رائعين ومتكاملين رغم أنهما انفصلا منذ سنوات.

- آسي، إنه غريب حقاً أنني لم أقابلك حتى مرّةً واحدة ونحن نعيش في المدينة نفسها؟ ظننتُ أنك تختبئين في قاع النهر مثل حورية البحر!

- ربما لأنني أعيش حياة ليلية، لا أخرج كثيراً في النهار.

- يبدو أن أيامك مفعمة بالنشاط. مَن هو حبيبكِ الآن، هل يمكنك إخباري؟

- بالطبع، تاجر أفيون يعيش حياة متخبّطة. لا أعرف ما إن كان يحبّني حقاً، ربما يحبّ التهريب أكثر.

- مَن بوسعه ألّا يحبّ آسي الجميلة؟!

- هو. ربما هذا ما يجعله جذّاباً.

- فهمت.

- أصبحتَ أكثر حكمة عن ذي قبل. امرأةٌ ما غيّرتك. كيف هي؟ لا بدّ أنها جذّابة، يوان خي محظوظ.

- إنها جذّابة حقاً، لكنّها تحاول دائماً التخلّص منّي. لقد أُصبتُ بانهيار عصبي.

- النساء المستقلّات هنّ الأجمل، أنتم الرجال تتفقون على هذا.

- آسي تفهم معنى الحياة.

اتجه الصياد الذي قابله يوان خي وشياو خه في تلك الليلة ناحيتهما، فقال يوان خي لآسي: «انظري، لقد جاء قاضي مصائرنا!».

ألقى الصياد عليهما نظرة، ثم التفت عائداً إلى ضفة النهر، وصعد مركبه.

«هذا ليس مركب صيد حقيقياً، بل سفينة قراصنة أُعيد بناؤها»، قالت آسي.

- وكيف تعرفين ذلك؟

- أعرف هذا العجوز. ظلَّ يحرس ضفة النهر لأكثر من عشر سنوات. إنه رجل شجاع وذو خبرة كبيرة. كان يقود السفن العابرة للبحار في الماضي. يوان خي، سأغادر الآن، رأيت أحد زبائني المعتادين ينتظرني عند ناصية الشارع، وأشار لي ثلاث مرات.

- آه، آسي! لقد تقابلنا للتوّ. أين أعثر عليك لاحقاً؟

- كما تشاء. أكون عادة في مكانين، إما «مجمّع الكاميليا السكني»، أو منتجع الينابيع الحارة.

هبَّ نسيم النهر، وسارت آسي في كنفه كفراشة.

أطرق يوان خي رأسه واتجه إلى مركب الصيد يجرّ أذيال الخيبة. عَبَر اللوح الخشبي ودخل المقصورة. كان العجوز جالساً في العتمة يفتل حبال القنّب.

- هل غادرت؟ هذه الفتاة جديرة بالثقة، كيف تركتها ترحل؟

- لقد أسأت الفهم، انفصلنا منذ عشر سنوات.

- يا لك من أحمق!

- كلامك صحيح. لكنّي متورّط في أمر أحمق آخر.

- إذاً، أصبحت أكثر ذكاء.

- يا عمّي، أخبِرني، لماذا النساء هكذا؟

- لا تسأل هذا النوع من الأسئلة. استلقِ إن كنت متعباً، يوجد لحاف هنا.

استلقى يوان خي. ولم يستطع فتح عينيه ما إن استلقى، وشعر بتأرجح المركب. لم يعرف كم مرَّ من الوقت، لكنّه لم يحلم. سمع العجوز يشعل مصباح كيروسين، وسمعه بعد ذلك يتحدّث مع امرأة خارج المقصورة. كان صوته شديد العذوبة، وكأنه مغنٍّ من طبقة الباس تتناغم جمله في إيقاع. حاول يوان خي التعرّف على صوت المرأة، لكنه لم يستطع سماع إلّا بضع كلمات غير مكتملة. عزم على مقاومة النعاس وجلس فجأة. رأى الرجل يضع طعام العشاء على طاولة صغيرة، فسارع إلى مساعدته.

- يا عمّي، سمعتك تتحدّث مع امرأة للتو!

- إنها آسي. لديها مشكلة. أعتقد أن بإمكانها التعامل معها.

- هل هي حبيبتك؟

- آسي بمنزلة ابنتي!

أضاء مصباح الكيروسين السمك، والفلفل والخضراوات الموضوعة على الطاولة الصغيرة. وشرب يوان خي الخمر مع العم غو. رأى ظلّهما يتأرجحان في المقصورة، ويتمايلان مع تيار المياه. كان العم غو متحدّثاً جيداً، لكن حكاياته غير واقعية، ممّا أصاب يوان خي بقليل من الضيق.

قابل العم غو آسي قريباً من هنا. كانت قد تدحرجت من أعلى السد الرملي، وجرحت وجهها ويديها، ونزفت. رفضت الذهاب إلى المستشفى، لذا دعاها العم غو إلى مقصورته، فوافقت على الفور. استلقت يومين في المقصورة مصابة بالحمّى. وقد جرحت نفسها أثناء لحاقها بتاجر الأفيون الذي هجرها. صعد الرجل زورقاً بخارياً ورحل من دون أن يلتفت إلى الوراء.

«أحبّك يا عمّ!»، قالت آسي وهي تمسك اليد التي ضمّدها لها.

- آسي، عليكِ أن تثقي بنفسك.

- أنا أثق في نفسي. أريد العيش معك.

وعاشا معاً على المركب لمدة شهر.

وفي أحد الأيام باعا كلّ السمك وعادا إلى المركب. حدّق العم غو إلى خط الغروب المتراقص على سطح المركب، وميّز شيئاً ما مألوفاً عبر الضوء. لذا قال لها: « آسي، لقد عاد!».

- كلام فارغ!

- عليكِ أن تغادري! لقد وعدتُ ابن أخي أن باستطاعته البقاء في المقصورة لعدّة أيام. إنه عاملٌ شابّ وهو هنا في إجازة.

انفجرت آسي في البكاء، وتجاهلته بعد بكائها، وقفزت إلى الشاطئ بمفردها، ورحلت.

حين وصل في حكايته إلى هنا، لاحت ابتسامة على وجهه المتغضّن، وصبّ لنفسه كأساً أخرى.

«آه!» تنهّد وأكمل: «أخبرني يا يوان خي، إن كنت مكاني، هل بوسعك أن تترك حياة كالتي أعيشها؟».

«بالطبع لا!» -تململ يوان خي في جلسته بضيق- «إنك تعيش كخالدٍ. يخفق قلبي بلا توقف كلما رأيت مركبك يرسو هناك. لماذا لا أستطيع التأمل في المشاكل مثلك؟ أنت على حق، أنا أحمق!».

- ذلك لأنك لا تثق بنفسك. تثق بنفسك الآن، صحيح؟

- أجل! في صحّتك!

- في صحّتك! أُبحر غداً إلى بحيرة دونغ تينغ، وسأعود بعد خمسة أيام.

- ألا تأخذ إجازة أبداً؟

- أرتاح ليوم أو يومين على أقصى حدّ. أحبّ عملي.

ارتقى يوان خي الحاجز الرملي في الظلام. أراد أن يلقي نظرة عن كثب على مركب العم غو، لم يره بوضوح، ربما بسبب الضباب على صفحة النهر. بدت المراكب مشوّشة المعالم، مثل حيوانات جاثمة عند الشاطئ، ومصابيحها مثل عيون الحيوانات.

نزل إلى الطريق الذي اكتشف أن أعمدة إنارتِه مطفأة. صدمه رجل قادم ناحيته، ثم أمسك كتفه قائلاً: «132 شارع الكورنيش، يوجد هناك صالة باتشينكو. اذهب وجرّب حظّك!».

قال ذلك بسرعة، ثم تركه ورحل.

كانت صالة الباتشينكو صاخبة. جلس يوان خي أمام آلة، وظهر على الشاشة حيوان عجيب، فتح فمه الدامي مبتسماً. وبعد عشر دقائق، كان الحيوان لا يزال على الشاشة، ولم تستجب الآلة لأوامره.

نهض يوان خي واتجه إلى الداخل أكثر. سار في رواقٍ ضيّق على

جانبيه آلات، يجلس أمام كل آلة زبون يحدّق بتركيز إلى الشاشة. سار وسار، وفوجئ بأن لا نهاية لهذه الغرف، ولم يعرف إلى أين يفضي الرواق. ثم قابل ذاك العجوز الذي صادفه في الشارع للتو.

ربّت على كتف يوان خي وقال: «ما رأيك في صالتنا؟».

- هل هذه أكبر صالة باتشينكو في العالم؟

- أجل. هل ترغب في مواصلة التجوّل في ليلة عاصفة كهذه؟ هنا «الميناء الحرّ»، يمكن لأيٍّ كان أن يتجوّل كيفما شاء. أُنظر، لقد جاءت صديقتك!

تنحّى العجوز إلى جانبه، فرأى يوان خي آسي.

- يوان خي، إن حظّي سيّئ، لكنّه تغير الآن لأنني قابلتك. يا له من شيء رائع أن أقابلك في «الميناء الحرّ»!

- آسي، أعيش في هذه المدينة منذ وقت طويل، ولا أعرف أن هناك صالة باتشينكو موجودة هنا.

- ذلك لأنه لم يحن الوقت الذي تهتم فيه بهذا النوع من الأمور. ستظهر لك عندما يحين الوقت.

- أشعر وكأن قدمي تطأ جسراً عائماً.

- يبدو أنك لم تتأقلم بعد مع المكان هنا. لنذهب ونشرب القهوة.

ما إن قالت آسي هذه الجملة، حتى رأى يوان خي الباب.

سمع يوان خي بوضوح صوت فرقعة بعد خروجهما عبر الباب الزجاجي، وكأنما فقاعة ضخمة انفجرت. سألها عن مصدر الصوت، فقالت إنها الموادّ الحرّة في الهواء.

- هل انتبهت إلى عين المدير؟ عينه اليسرى زائفة، إنها كاميرا مصغّرة.

آه، إنه رجل دمث ومهذب! إنه لأمر شديد الصعوبة إدارة صالة باتشينكو مثل هذه، تختفي من مكان إلى آخر، وكأنها ليست موجودة على الأرض. مَن بوسعه فعل هذا؟ شُفيت جروحي حين دخلت الصالة، وشعرت بالخجل الشديد.

بعد أن قالت هذه الكلمات، تخفّف يوان خي من حزنه أيضاً.

«مَن يستحقّ الحرية؟»، سألته آسي بصوت خفيض في الظلام.

«لقد تعلّمتُ الكثير اليوم»، قال يوان خي بصدق.

بحثا عن مقهى، لكن الوقت كان متأخراً، وقد أُغلقت كل المقاهي.

- آسي، لنعد إلى «الميناء الحر»! أشعر أن لديّ الشجاعة الآن.

- متأكّد؟

- أجل.

- إنك ظريف حقاً يا يوان خي. إن «الميناء الحر» ليس بالمكان الذي بوسعك الذهاب إليه وقتما رغبت. لم يعد المكان موجوداً بعد أن خرجنا. ألا تعتقد أن هذا فخّ ذكي؟ لم أعلم بوجود صالة الباتشينكو تلك حين كنت أعمل في مصنع غزل القطن في الماضي، علمت عنها عندما عشت لفترة على مركب العم غو. وبعد دخولك، لن يكون بوسعك التيقّن من أي شيء إن لم تخرج من هناك على وجه السرعة. لقد سرت إلى الداخل، إلى الداخل، ماذا رأيت؟ يوان خي، ماذا رأيت؟

«رأيتُ آسي»، ردّ يوان خي بطريقة حالمة.

انفجرت آسي ضاحكة.

- إذاً، هل تقصدين أنني لن أجد صالة الباتشينكو تلك إذا جئت ليلة الغد؟ لكن من الواضح أنها هناك، قريباً من منطقة الأحياء الفقيرة.

- جرّب بنفسك إن لم تصدّقني! هذا النوع من الأمور محفوف بالمخاطر. إلى اللقاء يا يوان خي، سأقابلك قريباً، لأننا نبحث عن الشيء ذاته!

انعطفت إلى حارة صغيرة قريبة. في البداية تبعها يوان خي بدافع الفضول، لكنه لم يمشِ طويلاً حتى ظهر في النور الخافت رجل طويل مثل برج، وسدّد له لكمة فسقط. وحين ارتطمَ رأسُه بالأرض، سمع صوت بوق سونا(*) مدوٍّ.

فقد يوان خي وعيه، ثم ما لبث أن أفاق وجلس، ورأى ذلك الرجل لا يزال أمامه.

سأل الرجل: «هل تريد الذهاب إلى صالة الباتشينكو مرة أخرى؟».

- أجل.

«إذاً، الضربة التي تلقّيتها للتو ستمحو أوهامك»، قال الرجل بصوتٍ عالٍ.

- هل خالفت التعليمات؟

- لا ينجح مَن يبادر بالبحث عن الموت.

صدرت عن الرجل ضحكة هازئة مخيفة، ثم سار في الزقاق.

غمره الإنهاك الشديد بعد هذه الأحداث، وأراد العودة إلى المنزل والنوم.

رنّ جرس الهاتف ما إن دخل المنزل. كانت حبيبته فيّ شيا، آمرة السجن، وهي أرملة ولديها ابنتان.

(*) بوق سونا هو آلة موسيقية صينية. (م).

- يوان خي، أنا في مزاج سيّئ مؤخراً، لا يمكنك القدوم إلى منزلي. ابحث عن مخرج آخر!

- فيّ شيا، شكراً على اتصالك. لكن أنا.. ليس لديّ مخرج آخر!

- إذاً عليك بالبحث! على سبيل المثال، ابحث عن مكان مثل حائط المدينة القديمة.

- فهمت.

وضع يوان خي الهاتف، غير قادر على استيعاب أيّ شيء، وأزعجته بلادته وبطء رد فعله. حائط المدينة القديمة؟ يُقال إن ثمة حائط مدينة قديمة في المدينة، لكن لم يرَه أحدٌ من معارفه. وخطر في باله أن فيّ شيا ربما تطرح سؤالاً جاداً.. هل تريده أن يبحث عن روحه؟

استلقى يوان خي في سريره مثبط العزيمة، وقد تبدّد نعاسه، ورأى إشراقة الصباح خارج النافذة.

أصبحت الأيام أكثر عذاباً. لم تكن فيّ شيا راضية عنه، وتراه رجلاً ضعيف الرأي، وأنه لا يليق بأن يكون عشيقها. وقد رأى يوان خي نفسه عديم الرأي كذلك عند مواجهة الأمور. مثال على ذلك، بدت آسي أكثر اتزاناً وهدوءاً منه حين كان في صالة الباتشينكو البارحة، وهذا بالطبع ممّا له علاقة بكونه لم يذهب إلى هذا النوع من الأماكن من قبل. ويبدو أن فيّ شيا تريده أن يتردّد أكثر على أماكن مثل حائط المدينة القديمة، وصالة الباتشينكو وغيرها من الأماكن المشابهة، وأن يعثر هناك على ثقة الرجال. وخلال الثلاثين عاماً التي عاشها، لم يعرف بالضبط الوضع في تلك الأماكن في المدينة، حتى إنه لم يذهب من قبل، فما السبب؟

رتّب يوان خي أفكاره بروّية. وفكّر أن آسي شخص يعرف بواطن

الأمور، وأن لقاءها مرّتين في ذلك اليوم لم يكن مصادفة، وأنها كانت على الأرجح تتجوّل قريباً منه طيلة الوقت. ألَم تقل إنها تبحث مثله عن حل للمشكلة ذاتها؟ وفي هذه الحالة، عليه البحث عن آسي، وبعثوره عليها سيعثر على «المخرج». وقرّر الذهاب إلى «مجمّع الكاميليا السكني» (يا له من اسم جميل!) وكان عليه أن ينتظر حلول الليل، لأنها قالت إنها تعيش حياة ليلية.

لكن يوان خي لم يدخل إلى المجمّع، لأنه تلقّى مكالمة آسي عند وصوله البوابة. قالت: «يوان خي، لا تأتِ، سيعود حبيبي اليوم، ولن أستطيع استقبالك!».

يا للغرابة! كيف علمت آسي أنه عند بوابة المجمّع السكني؟ يبدو أنها عثرت على حلّ لمشكلتها. اجتاحه شعور مفاجئ بالثقة، وما دام يمكن لمشكلة آسي أن تُحَلّ، إذاً، يمكن لمشكلته أن تُحَلّ أيضاً. حدّق يوان خي في أضواء الشوارع الوامضة المتداخلة، وظهر مخرج ما بشكل غامض عبرها. سمع ضربات قلبه تخفق مع وقع خطواته، وتغدو أشدّ شيئاً فشيئاً. قال لنفسه: «يوان خي لن يستسلم، يوان خي لديه القدرة». كان شديد الامتنان لآسي. فهي، وشياو خه، أخذاه إلى هذا المكان الذي كان عليه أن يذهب إليه منذ زمن طويل. والآن، كان شديد التوق إلى هذا العالم المجهول، وكان لهذا التوق معنى ملموس، مثل توقه ولهفته إلى فيّ شيا. وأحسّ أن شبابه الذي مرّ قبل أوانه عاد من جديد.

سار يوان خي باتجاه النهر بعد اتخاذ قراره. كان قد مشى مسافة قصيرة حين ظهر أمامه صاحب صالة الباتشينكو، وفوجئ بأنه يحمل مصباح طوارئ، تاركاً النور الأبيض الباهر يتأرجح. قال لـ يوان خي: «فكّرْ في الأمر، كَم شخصاً يهيم في المدينة في هذه الليلة المعتمة؟».

«لا بدّ أن هناك الكثير» -شعر يوان خي بإثارة غامضة- «وهناك مَن نجح».

«وما كُنه هذا النجاح؟ أن ينقل الميناء الحر إلى منزله؟»، قال بنبرة تشوبها سخرية.

- لست متأكّداً. هل أنت هنا لتقابلني، أنا القط الضائع؟

- أجل. عليك أن تنعطف إلى اليسار هذه الليلة، وتذهب إلى القبو أسفل دار الأوبرا.

أطفأ العجوز المصباح، وغرق في الظلام.

عبر يوان خي الشارع وعاد أدراجه. واصطدم به ظلٌّ أسودُ أثناء سيره على الرصيف المهجور، وارتمى بين ذراعيه.

«يوان خي، يوان خي!»، قالت لاهثة.

فوجئ بأنها فيّ شيا. كان جسدها القوي ساخناً، احتضنها يوان خي بقوة، وتبادلا أطول قبلة، وشعر أن جسدَه سينفجر.

- يوان خي، هذه ليست أنا، إنها بديلتي!

أفلتت منه وهربت. لم يعرف يوان خي إلى أين اتجهت، لأنه لم يرَها ولم يسمع صوت خطواتها.

كان صاحب صالة الباتشينكو ينتظره حاملاً مصباح الطوارئ حين وصل إلى دار الأوبرا.

كان لدار الأوبرا بابٌ جانبيّ مفتوح، فتبع يوان خي العجوز. وأثناء نزولهما الدرج المؤدي إلى القبو، قال له العجوز: «كلّ مَن في الغرفة زبائني، لن تصادف أحداً تعرفه، عليك أن تسترخي. انظر، إنهم يخلقون جوّاً دافئاً!».

فتح العجوز الباب، ودفع يوان خي إلى الداخل. كانت غرفة شاسعة، من دون ضوء. أحدٌ أحاطه من خصره، وجعله يجلس معه على مقعد خشبي طويل، وبدا من صوتها أنها صبية. أطفأ العجوز المصباح، وأظلم المكان.

- رأيتك تدخل للتو مع صاحب الصالة، وكنت أفكّر أن يوان خي رجل وسيم! اعتقدت أنك رجل متوسط السن يتجاوز الأربعين عاماً.

كان صوتها عذباً كأغنية.

- عمري 32 عاماً، هل تحدّث المدير عني؟

- لا، بل أخبرتني آسي. أنا وأنت في القارب ذاته. أمسِكْ يدي من فضلك! أمسِكها بقوة، وأمسِكها بقوة أكثر، لا أخشى الألم!

لمس يوان خي الجلد الخشن في راحة يدها، وبدت كيَدِ شخصٍ يعملُ في أعمالٍ شاقة.

- أشتغل في أعمال البُرادة، أصنع قوالب السّبك. اضغط بقوة أكثر، وإلّا فلن أشعر بوجودي. جيد، جيد، شكراً لك! لقد سقط حبيبي في مسحاج آلي، وقال زملاؤنا إنه كان يلعب في الآلة، لكنني رأيتُ جسده يُسوّى بأمّ عيني. اسمي تشان(*)، اسم زائل، كحياةٍ قصيرة.

- هل كلّ هؤلاء في الغرفة يأتون بسبب المشاكل العاطفية؟

- هؤلاء؟ لا، لا يوجد في الغرفة سوانا. هذه الأصوات التي تسمعها إما هلوسات أو أصوات قادمة من الخارج. اعتدتُ في أحيانٍ كثيرة على سماع الأصوات.

قال يوان خي بحزن: «لكن حبيبتي على ما يرام، لقد صادفتها منذ قليل».

(*) معنى الاسم: حشرة السيكادا - زيز الحصاد. (م).

– آه، أنا آسفة، لم أقصد أن أسبّ حبيبتك. نحن جالسان هنا للحديث عن الحب.

ردّ يوان خي على مضض: «حَسنٌ».

– هل أنت مستاء؟ هذه فرصة نادرة.

– لا، أنا مسرور للغاية. ليس لديّ ما أفعله الآن على كل حال، وقلبي شديد الخواء.

تركت تشان يده ونهضت، وسمعها يوان خي تبكي.

بكت لفترة طويلة، ولم يعد يوان خي بوسعه التحمّل أكثر من ذلك، فسألها: «هل أنتِ هنا للبحث عن مخرجٍ أيضاً؟ جاء بي مدير صالة الباتشينكو إلى هنا، تراودني شكوكٌ حياله. هل يمكن أن تكون حيلة؟».

– لا! لا!

توقفت تشان عن البكاء فوراً، وضربت قدميها بالأرض بقوة.

ضحك يوان خي وقال: «لقد ضايقني بكاؤكِ بشدّة، فغيّرتُ الموضوع متعمّداً».

دخل شخص، وسمع الاثنان دخوله الغرفة. جلس القرفصاء في الزاوية اليمنى ولم يتكلّم. وبعد قليل، أشعل عود كبريت؛ رفعه، ثم ألقاه بعيداً. وبصعوبة رأى يوان خي أنه رجل.

اقتربت تشان منه وهمست: «إنه حبيبي!».

ظلَّ الرجل جالساً هنا لفترة، ثم نهض وخرج.

سألها: «هل هجرتِه؟».

– أهجره؟ ليس بوسعي أن أهجره. لقد أخبرتك منذ قليل، لقد مات مرة. هذا من أكثر الأشخاص يأساً؛ إذ ليس بوسعكَ اعتباره ميتاً ولا حيّاً،

لهذا كنت أبكي. كان قريباً من هنا طيلة الوقت، هذه قلعة الحرية السرية، أَلَم يخبرك مدير صالة الباتشينكو؟ يكفي أن تُبقي المدير في مدى بصرك، وسيتحقق مبتغاك. لا أشعر بقدمي اليمنى، أمسك بيدي بقوة مرة أخرى، جيد! شكراً لك!

سألها أيضاً: «لماذا لم تذهبي إليه؟».

- لستُ واثقة من نفسي، كما أنني لا أدري ما إن كان سيموت فجأة.

- ألا تمنحك قلعة الحرية الثقة؟

«بالطبع لديّ الثقة!» -رفعت صوتها فجأة- «وإلّا فلماذا أظلّ هنا؟».

شعر يوان خي بشيءٍ طعنَ يده، وصرخ من الألم الشديد. دفع بيد تشان بعيداً وقفز، وكان الدم يسيل من راحة يده.

«عليّ أن أضمّدها!»، قال بوهن بينما يتجه إلى الباب.

- توقّف! أعدك، لن يحدث لك شيء!

- لماذا تخبّئين شفرةً في يدك؟

- ليس عن عمد، هذه طبيعتي. لا تعلم بَعد، كل الذين يجيئون من الميناء الحر لديهم هذا الجزء في شخصياتهم. لن تموت، دعني أضمّد لك جرحك بهذه القماشة!

لم يعرف يوان خي من أين أتت بالقماشة، ربما تحملها معها. انشغل الاثنان لبعض الوقت. ثم رأى يوان خي ظلَّ الرجل يظهر من جديد عند الباب.

قال بصوت هادئ: «لنذهب إليه!».

قبضت تشان على يده المجروحة بقوة ومنعته من الحركة. والغريب في الأمر أن قبضتها لم تؤلم الجرح في يده لهذه الدرجة. وفكّر يوان خي،

إنهما على خلاف وكلٌّ منهما يتمسّك بموقفه، بينما أُقحم هو بينهما. عليه أن يغادر. «سأغادر» همس للفتاة.

لم يستطع التملّص منها، كانت قوية بشكل لا يُصدّق.

«أيّ مسرحية تُؤدّى هنا؟»، جاء صوت صاحب مدير صالة الباتشينكو من وراءه.

اختفى الرجل ما إن تكلّم صاحب الصالة. وأفلتت تشان يدَ يوان خي.

غمر شعاع ضوء أبيض عيونهم فجأة، كان مصباح الطوارئ الخاص بالمدير. رأى يوان خي عبر الضوء وجه تشان الرزين المذعور. ركضت بأقصى سرعة لدرجة أن وقع خطواتها لم يُسمع.

- إنهما زبونان قديمان للميناء الحر. دعني أتذكّر، ربما لنحو ثماني سنوات، كان يأتي كلٌّ منهما بمفرده لقضاء الليل في صالتي. أحياناً يلتقيان هنا، لكن سرعان ما يتجنّب كلٌّ منهما الآخر. سأذهب للاعتناء بزبائن آخرين، ابقَ هنا!

أطفأ المصباح، وخرج بسرعة.

يوان خي بمفرده في الغرفة الآن. وفكّر في أن المدير لديه أسبابه ليطلب منه البقاء. سيشعر بالحزن إن عاد الآن على كلّ حال. من الأفضل أن يرى كيف ستسير الأمور. أراد في هذه اللحظة أن يقابل تشان وحبيبها مرة أخرى. أيّ نوع من الحب تكنّه لرجل مات في مسحاج آلي وعاد إلى الحياة من جديد؟

تجوّل يوان خي في الغرفة الخالية يملؤه شعورٌ بالتعاسة، وكان ثمّة شعاع نور لا يدري من أين يتسلّل. لمس الجدار فوجده رطباً. أخذ نفساً عميقاً، وكان للهواء طعمٌ مرّ، هل خلّفه العاشقان للتو؟

كان هناك شخصٌ يسير في الردهة متجهاً إلى غرفته، فسار يوان خي تلقائياً إلى الباب لملاقاته.

- هل غادرت؟ سأدخل عندما تغادر. لكنّي منهَك، أريد النوم قليلاً على هذا المقعد. يوجد مقعد آخر هناك، يمكنك أن تستريح.

كان حبيب تشان، ورأى أن الرجل يبدو يقظاً تماماً.

سأله يوان خي: «هل تلعبان الغمّيضة؟».

لطالما كانت علاقتنا هكذا. خلفيتي العائلية سيّئة، لا يمكنها أن تقبلني. فأنا لقيط، أُلقيتُ في قبو لتخزين البطاطا الحلوة، وهي لم تنسَ وصمة ولادتي. لا عجب أنها ترى رجلاً أُلقي في قبوٍ للبطاطا الحلوة بعد ولادته بفترة قصيرة بغيضاً للغاية.

- أنا معجب بكما. انظر، أنا هنا بمفردي، ولم تخرج حبيبتي في الليل للبحث عني ولو لمرّة!

- مستحيل. إلّا أنها حتماً تعلم أنك هنا حتى لو لم تأتِ. أعتقد أنها هي التي أرادت منك المجيء إلى هذه الأماكن.

سأله يوان خي متفاجئاً: «كيف علمت؟».

- هنا «الميناء الحر»، الذين يأتون هنا هم، هم... أوه، نسيت تلك الكلمة! إن المكان هادئ حقاً...

وبدأ في الشخير. غطّ في نومٍ عميق، لا بدّ أنه منهك حقاً.

تأجّجَ حماس يوان خي، فخرج إلى الردهة.

تلمّس طريقه عبر الردهة ووصل إلى الدّرج، وأعلاه كان ثمة آلة باتشينكو، شاشتها مضاءة، وداخلها حيوان غريب يفتح فمه الدموي ويكشّر عن أنيابه ضاحكاً. هزّ الصوت القبو كلّه، فوهنت ساقاه، وكاد أن

يسقط على الدّرج. لكنّه صعد رغم ذلك. وعندما وقف أمام الآلة، كان الحيوان قد تراجع في زاوية الشاشة وظلَّ صامتاً، وخرج صاحب صالة الباتشينكو من خلفها وسأل يوان خي: «هل تريد أن تجرّب القمار؟».

- لا أقامر، لديّ طرق أخرى.

أطفأ الآلة، واقترب من يوان خي وقال بهدوء: «أصغِ جيداً!».

في البداية لم يسمع يوان خي شيئاً، ثم سمع بعد ذلك، وبشكل غير واضح، صوت غناء امرأة الكاميليا المألوف يتهادى من الأعلى، ويغدو أوضح شيئاً فشيئاً. ما الذي تغنّيه؟ لم يكن غناؤها مخيفاً ويقشعرّ له البدن هكذا من قبل. لم يشعر يوان خي أنها تغني على مسرح، بل داخل مبنى ضخمٍ خالٍ. ورغم أن يوان خي لم يسمع هذه الأغنية من قبل، إلّا أنه اعترف بأن أداءها عظيم. وقف في الظلام وعيناه تذرفان الدموع، وأثناء بكائه اتخذ قراراً.

خيّم الصمت على القبو بعد أن انتهت من الغناء، واختفى صاحب صالة الباتشينكو.

تلمّس يوان خي طريقه إلى الباب، وخرج إلى ميدان صغير، وأحسّ فجأةً باختناق في صدره وصعوبة في التنفّس، كان بوسعِه فقط أن يلهث بفمٍ مفتوح مثل سمكة خرجت من الماء. ما الذي يحدث؟ فتح ياقة قميصه، وتنفّس بمشقّة. نظر لا إرادياً إلى السماء الضيقة بنجومها القليلة، ورأى غيوماً كثيفة معلّقة على ارتفاع منخفض، وكأنها تريد أن تخبره شيئاً. وفجأة اجتاحته رغبة مباغتة في العودة إلى الميناء الحر. عاد إلى ذلك الباب مترنّحاً كمريضٍ بالربو، لكن الباب أُغلق بإحكامٍ من الداخل. ركله بقدمه، وضاعف هذا الجهد من ألمه. قبض على صدره بيديه الاثنتين، وأحسّ أن ساعته قد حانت.

ظلَّ يعاني لنصف ساعة، وأظلمت عيناه شيئاً فشيئاً، إلى أن أعتم كلّ شيء.

حين استيقظ وجد نفسه مستلقياً في سريره، وفيّ شيا تجلس إلى جانب طاولة المكتب، ولم تشعل الضوء. كان ضوء القمر يتسلّل من الخارج، وبدا وجهها شديد الشحوب مثل غايشا يابانية.

– إن قوة الميناء الحرّ مذهلة! يفقد المرء قدرته على التنفّس مؤقتاً إذا خرج من هناك. بدأت أتذكّرُ الآن، لقد اختبرتُ السعادة هناك. فيّ شيا، كيف عدتُ إلى المنزل؟ هل حملتِني على ظهركِ؟ سببتُ لكِ الكثيرَ من المتاعب!

– أجل، أنا حملتك، أنت أيها القرد النحيل المعتلّ. لتعلَم، أنا لست فيّ شيا، أنا بديلتها. سأغادر الآن، إلى اللقاء! **مكتبة**

ثم أغلقت الباب بهدوء.

نهض يوان خي من فراشه، وسلق شعرية. كان عليه أن يذهب إلى العمل في الصباح الباكر.

نظّفَ المطبخ بعد تناول طعامه، واستحمّ، ثم عاد أخيراً إلى غرفته.

وقع نظره على علبة نظارة فيّ شيا الموضوعة على الطاولة. لماذا ظلّت تقول إنها البديلة؟ كيف يشعر المرء إذا ما ظنّ أنه بديل نفسه؟ فتح علبة النظّارات، لم يكن فيها نظّارات، بل ذيل حيوان يكسوه الفراء، كان مكان القطع نظيفاً، وملطّخاً بآثار دماء. وأسفل الذيل دُسّت ورقة كتبتها فيّ شيا: «لاذت بالفرار. الليل أسود، والفرص في كلّ مكان».

تذكّر أن فيّ شيا أخبرته من قبل عن أعداد كثيرة من حيوانات صغيرة مجهولة في حائط المدينة القديمة، عاشت بين فجوات الحائط الضخمة

لأجيال عديدة. قرّب الذيل من أنفه، وشمّ على الفور رائحة زكية حلوة كرائحة الشمّام.

وضع يوان خي الذيل في وعاء النرجس على حافة النافذة، وفكّر، ربما سينمو الذيل من تلقاء نفسه. وفكّر أيضاً: هل «الميناء الحرّ» هو حائط المدينة القديمة الذي تحدّثت عنه فيّ شيا؟

- 10 -

في مقاطعة العُشّ

بعد وقتٍ قصير من دخول وي بو السجن، اختفت زوجته شياو يوان من المدينة.

كان هذا الفعل مدبّراً. اتخذت قراراً كبيراً للمرة الأولى في حياتها، إذ أرادت أن تصبح شخصاً مختلفاً عن طريق تغيير بيئتها. وفي سرعة تامة، ومن دون أن يعلم أحد، عثرت على عمل: مدرّسة جغرافيا في مدرسة إعدادية في مقاطعة العشّ. جمعت أشياءها وانتقلت إلى المقاطعة. ولم يساورها أيّ قلق، لأن وي بو وولديها لم يعودوا في حاجة إليها.

لم تكن واثقة تماماً حيال عملها المستقبلي، كانت من الأشخاص الحذرين، الذين يتخذون خطوة ثم ينظرون خلفهم قبل أن يتخذوا الخطوة القادمة. أحبّت تلك المقاطعة الصغيرة القائمة على الجبل والمطلّة على المياه، وفُتِنت بالعادات الشعبية البسيطة هنا. وسرعان ما وقع التلاميذ في حبّ هذه المعلّمة الجميلة متوسطة العمر. وكان يحيطها مجموعة منهم كلّ يوم بعد انتهاء الدرس، ويرافقونها إلى مهجعها داخل المدرسة. رأت أن هذا العمل ذو معنى أكثر من عملها السابق، ولم تتوقع أن تكون مستويات طلاب المرحلة الإعدادية في هذه المقاطعة عالية بهذا القدر. وكان الشيء الأساسي هو أن لدى هؤلاء الأطفال معرفة ثريّة بالحيوانات

والنباتات، كما أنهم مفعمون بالفضول حيال عادات الناس والبيئة الطبيعية في الأراضي الأجنبية.

أثار دهشتها أن طلابها كانوا يستعدّون قبل كل درس بشكل جيد، ونتيجة لذلك، كانت تتحوّل دروس الجغرافيا إلى مناقشة كبيرة، ويشارك كلّ طالب الجميع المعلومات الشيّقة التي يعرفها. ورغم الفوضى التي تخلّلت النظام، إلّا أن الجميع كانوا راضين بدرجةٍ ما.

ظنّت شياو يوان في البداية أن طلابها على الأرجح متلهّفون للحصول على فرصة للسفر حول العالم، وهذه فكرة شائعة تراود كلّ الطلاب المولعين بالجغرافيا. ولكن ذات يوم، غيّرت رأيَها الطالبتان اللتان جاءتا للّهو في مسكنها. وهاتان تنتميان إلى الصنف المولع بالنباتات بشكل خاص. زارتهما شياو يوان في منزلهما من قبل. كانت كلٌّ منهما تعيش في بيت من طابق واحد، له حديقة خلفية تنمو فيها مختلف النباتات والزهور العجيبة. وُضعت في كلّ حديقة رفوفٌ خشبية كبيرة صُفّت عليها قوارير زجاجية ذات فمٍ واسع مملوءة بتربة رملية نبتت فيها بعض الحشائش. وأخبرتها فتاة تدعى شياو وي أنها تزرع النباتات في زجاجات، لأنها تتيح لها مراقبة نشاط الجذور. وحينما سألت شياو وي عن رأيها في السفر حول العالم والسياحة، ردّت قائلة: «يا معلّمة، أسافر في الحديقة كلّ يوم، يوجد عالمٌ صغير هنا. حين تُطفأ الأنوار في الليل، أُصغي بعناية. سريري بجوار تلك الزجاجات الكبيرة، والرمل ناعم داخلها. أسمع جذور السرخس تنمو، وتطلق صوت أزيز. لا تملك النباتات أقداماً، لذا الزجاجات عالمُها، هكذا تسافر».

– فهمت، شياو وي، في الواقع أنتِ معلّمتي! إذاً، كيف تسافر زهور الغاردينيا؟

«زهور الغاردينيا» -أضافت شياو تشينغ- «تطوف الغاردينيا العالم برائحتها العطرة. ذهبتُ ذات مرة إلى مركز المقاطعة، ومكثت في بناية شاهقة مغلقة، وكنت أشمّ الرائحة كل ليلة. مَن يزرع زهور الغاردينيا، سيظلّ محاصراً بها طيلة حياته. أما عن نباتات الأرديسيا الطبّية المضادة للالتهابات، فأينما كنتُ، وإذا أُصبتُ بالتهاب أتذكّرها على الفور. أركّز كلّ تفكيري على هذه النباتات، فيُشفى الالتهاب. ولعلكِ انتبهتِ إلى أنني زرعت مساحة كبيرة بها في حديقتي».

أثّر اعتراف الفتاتَين في قلب شياو يوان لفترة طويلة. وعادت بذاكرتها إلى الساعات التي كانت تحملها في رحلاتها، وشعرت بأن أفعالها طفولية بعض الشيء، فالنباتات الحيّة التي تعتني بها الفتاتان هي المُؤقّتاتُ الحقيقية بالمقارنة بذلك! وما كانت ستعرف هذا السرّ مطلقاً، لو لم تأتِ إلى مقاطعة العش. هذه المقاطعة المنفتحة والمنعزلة في آن، أيّ نوع من المقاطعات هي؟ شعرت شياو يوان بالارتياح والسرور، لأن لديها نصف عمرها لتتعرف على مقاطعة العش تدريجياً، وستكتشف في الأيام القادمة تلك المُؤقّتاتِ حولها واحداً تلو الآخر. ابتسمت شياو يوان لنفسها في المرآة، أظهرت العلامات الأولى أن انتقالها كان ناجحاً. لَكَم نامت ليلاً براحة وسكينةّ في هذه المقاطعة المحاطة بالجبال! أحسّت بشعور «البيت»، هذا الشعور الذي لم تختبره منذ سنوات عديدة.

– المعلّمة يوان، إذا أردتُ أن آخذ فأري إلى هندوراس، فأين بإمكانه أن يعيش؟

المتحدّث هو طالب صفّها الخجول لُو، صبيّ قصير. كانا يخرجان من قاعة الطعام.

«لا أعرف» - فكّرت شياو يوان قليلاً ثم قالت: «اسأله، سيخبرك حتماً!».

- شكراً أيتها المعلّمة!

لاحظت شياو يوان أن الطالب لُو يركض كفأرٍ ظريف. كان يعيش في بيتٍ متداعٍ من طابق واحد في نهاية الشارع، وتعلم أن هناك جنّة الحيوانات الصغيرة. في إحدى المرّات كانت في بيته، جالسة على مقعد خشبي طويل، ورأت صرصاراً لامعاً يتسلّق بنطلونها متأرجحاً.

كانت مفتونة بعالم الأطفال، ومسرورة لحظّها السعيد. حتى إنها ذات ليلة نامت في سرير شياو وي، ونامت شياو وي على سرير مخيّم وضعته مؤقتاً. استيقظت شياو وي في تلك الليلة فجأة.

سألتها شياو يوان باستغراب وهي تنهض من الفراش: «شياو وي، إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

لم تُجبها شياو وي، وغمغمت بشيء بينما تفتح الباب المؤدي إلى الحديقة. ارتدت شياو يوان حذاءها وتبعت الفتاة، إذ خشيت أنها تسير أثناء نومها. كانت ليلة مظلمة من دون قمر، لكن شياو وي تعرف الطريق، وبدا وكأن لها عيني قطّة. أخذت منجلاً حديدياً صغيراً من الكوخ الخشبي وزجاجة من على الرفّ ووضعتهما في حقيبة قماشية وغادرت.

- يا معلّمة، لا تتبعيني، سأذهب إلى جبل العشّ. إن نباتات السرخس لا تريد المكوث هنا.

- سأكون قلقة إن ذهبتِ بمفردك، وغداً إجازة على كلّ حال، وأريد أن أذهب معك وأرى المكان.

- لن تكون سعيدة.

- مَن؟

- السرخس الصغير، عشبتي!

عادت شياو يوان إلى الغرفة على مضض. قلقت على الفتاة، وندمت لعدم إصرارها على الذهاب معها منذ قليل. وهكذا حدّقت في العتمة بعينين مفتوحتين، ولم تجرؤ على الحركة خشية أن توقظ والدي شياو وي. وفكّرت في أنه إذا أصاب شياو وي مكروه، فستموت معها. آه، أهدرت سنوات كثيرة من حياتها عبثاً، ولا تزال طائشة! تنازلت على الفور منذ قليل لأن طالبة أرادت تحقيق رغبة عشبة. كانت حياتها تسير وفق مبادئ غريبة.

ظلّت شياو يوان قلقة حتى الصباح الباكر. عادت شياو وي مع انبلاج ضوء النهار، وبدت مفعمة بالحيوية تحت نور المصباح، وكان وجهها متسخاً قليلاً.

«هذه الرحلة...»، قالت نصف جملة، ولم تكمل لشدّة حماسها.

احتضنت شياو يوان تلك الطالبة النحيلة، وكادت أن تبكي.

- سأغادر يا شياو وي. ولن أبيت في بيتك مرة أخرى. ولا تظنّي أن باستطاعتك إقناعي.

كان السبب الحقيقي وراء عملها في مقاطعة العش هو الطبيب ليو.. تلك النقطة الفاصلة في حياتها، والتي غيّرت الخطّة التي وضعتها مسبقاً. وفي ذلك الوقت، ظنّت شياو يوان أن انفصالها عن الطبيب ليو كان أبدياً، لكن تفكيرها تغيّر مع مرور الوقت. قالت لنفسها: لماذا لا أعود؟ ربما الطريق الصحيح لي هو طريق العودة! بوسعها العودة إلى مقاطعة العش، وأن تحسن التصرف عن ذي قبل. وقد تواصلت مع المدرسة الإعدادية الثانية في مقاطعة العش عبر مجموعة مِن العلاقات الشخصية غير المباشرة، ثم استقرّت هنا بهدوء. لم تكن متعجّلة للبحث عن الطبيب ليو،

قرّرت أن تتركه يعثر عليها، كما أنها لا تعرف ما إن كان للطبيب ليو عشيقة، لذا من الأفضل أن تكون حذرة.

منحتها تلك المدينة الصغيرة تشويقاً تجاوز توقعاتها. كان كلّ شيء جديداً، وكلّ يومٍ يحدث لها شيءٌ مثير وغير متوقع. تذهب يومياً إلى الصف وتُدَرِّس، وتذهب لزيارة الطلاب في منازلهم بعد انتهاء الصفوف، ثم تجلس في وقت راحتها لتشرب حليب الصويا في ظُلَّةٍ إلى جانب الطريق. شعرت أثناء فعل هذه الأشياء أنها شخص مختلف، شابّة من دون ماضٍ، ومن دون أعباء نفسية، رغم أنها تجاوزت الأربعين منذ سنوات عديدة. مما جعلها أكثر اقتناعاً بأنها حتى وإن لم تستعِدْ علاقتها للأبد بالطبيب ليو، فإن مجيئها إلى مقاطعة العشّ قرارٌ صائب. كانت المدينة في الظاهر متداعية، تجهيزاتها ومرافقها قديمة وبالية، بينما تحمل في ثناياها حيوية لا نهائية. لم تكن لتعرف هذه الأسرار لولا عيشها هنا. كان ثمة نوع من السكون الخالد، ليس سكون المياه الراكدة، بل سكونٌ ناتج عن موجات من الإثارة المتناغمة.

في عين شياو يوان، كان المدرّسون متوسطو العمر في مدرسة المقاطعة الإعدادية الثانية يتمتعون كلٌّ على حدة بسحر وجاذبية، ولهم طباع محافظة وعميقة، من النوع الذي تفضّله. كان لديهم نوع من القابلية على التركيز وقوة الإرادة -رغم أنهم يرتدون مثل الفلّاحين (ربما بسبب افتقارهم للمال)- لا تشبه البتّة الرجال في المدينة التي كانت شياو يوان تعيش فيها. علمت في نهاية المطاف أن عدداً منهم عزّاب، وراودها حدس بأنها ستكون على علاقة خاصة بأحدهم، ولم تعرف لماذا لم يحدث هذا لاحقاً. ربما السبب الفعلي أنها لا تزال تفكّر بالطبيب ليو. ذهبت إلى الشارع حيث افتتح الطبيب ليو عيادته عدة مرات، كانت تقف على

الرصيف بعيداً، وتراقب باب العيادة المطلي بالأبيض، إلّا أن محاولاتها باءت بالفشل، وكأنه يتحدّاها عن عمد، لم يكن أحد يدخل أو يخرج من الباب، وهذا بالضبط ما كانت تأمل به شياو يوان.

لَكَم كان المغيب حزيناً هنا. إذا وقفت شياو يوان وقت المغيب على الدّرج الرمادي أمام بيت منزلها، ونظرت إلى البعيد حيث جبل العش الصامت، تجتاحها رغبة في البكاء. ولأجل أن تتحكّم في مشاعرها، حفرت بقعة خلف منزلها مثل طلابها، ونثرت بذوراً خضراء وحمراء. أعطتها شياو تشينغ هذه البذور، وحين سألتها عن نوعها، تطلّعت إليها الفتاة وقالت: «لا أعلم أيتها المعلّمة. هنا تزرعين الأشياء، لكن تتخلّين عن الأمل، فلا داعي له. تسوّين الأرض، ثم تنثرين البذور في التربة وتنسينها في الحال. هذا ما نفعله جميعاً. ظننت في البداية أن البذور ستنمو إلى النباتات التي حُصدت منها، لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. انتظري وسترَين!».

- لكن هذه البذور منثورة منذ شهرين، ولم تُبرعم بعد.

هزّت شياو تشينغ رأسها وقالت بيأس: «ربما التربة غير مناسبة، وقد ماتت».

كم كانت حدائق الطلاب وارفة! الأزهار والأعشاب والأشجار تفيض داخل المنازل ببساطة، وعرائش الوستارية تتسلّق الجدران وتتكوّم على السطوح. ثمة لغزٌ غامض هنا، لغز تعجز شياو يوان عن سبر غوره، أو ربما هذه إشارة إلى أنها لم تندمج بعد في المكان.

كان أهالي المقاطعة نادراً ما يخرجون منها، كانوا شديدي الرضا بحالهم. وكانت شياو يوان تشعر بالخجل أمامهم دوماً. وخطر ببالها أن الوضع سيتحسّن بمرور الوقت.

قالت شياو يوان لوالدتها على الهاتف: «هذا مكان يلامس روحي. لم أكن شغوفة بالحياة هكذا من قبل. لا، لا تأتي! سيخيب أملك، لا شيء يُرى هنا. كل شيء هنا خفيّ، خفيّ للغاية، تقريباً رتيب... وأنا أقصد الظاهر. آه، لا تشبه أيّ مقاطعة داخل البلد، بل مثل أرض غريبة. إنني في غاية السعادة هنا، من فضلك صدّقيني! إلى اللقاء!».

وضعت الهاتف، وفؤادها يفيض بذلك الشعور، ذلك الشعور المألوف، الذي يلازمها منذ أن جاءت إلى مقاطعة العش، مثل الشعور حين التقطت عصفوراً جريحاً في صغرها ورعته. شعورٌ يسكنُ الروح.

أنهت المكالمة مع والدتها، وفؤادها يفيض بالمشاعر. كانت قد قرّرت منذ البارحة زيارة أستاذ الرياضيات الذي يدرّس للمرحلة ذاتها. أنبأته بزيارتها ووافق بوجهٍ جامد خالٍ من أيّ تعبير. لقب عائلته جونغ، وهو أعزب، ولا يعيش في مهجع المدرسة، بل في الضواحي. أخبرها عن محلّ إقامته قائلاً إنه يعيش في منزل من الطين.

قال الأستاذ جونغ: «بوسعك رؤية المنزل عند وصولك إلى شجرة الخوخ الثالثة العتيقة».

- لماذا تسكن خارج المدرسة؟

- لأنني أربّي النحل.

لم تكن المقاطعة كبيرة، لذا سرعان ما عثرت شياو يوان على شجرات الخوخ الثلاثة.

كان المنزل الطيني واطئاً. وفكّرت شياو يوان، أن رجلاً طويل القامة مثل الأستاذ جونغ عليه أن يحني رأسه عند دخوله المنزل.

كان يجلس عند الباب ويشرب الشاي، ويحمل في يده قاموساً وضعه على دكّة خشبية حين رآها. اتجه ناحيتها، وقال إن بيته في الحقيقة بسيط

وخشن، وإنه من الأفضل أن يجلسا في الخارج ويتبادلا حديثاً لطيفاً. مدّت عنقها وألقت عدة نظرات إلى البيت، لكنها لم ترَ شيئاً، إذ كان البيت شديد العتمة في الداخل.

جلست على كرسي صغير بذراعين وضعه لها الأستاذ جونغ. دخل ليجلب الشاي، وبالطبع كان عليه أن يحني رأسه.

- أيها المعلّم جونغ، أين تضع المناحل؟

«المناحل، لا ضرورة لها»، ردّ بشكل مبهم.

انتبهت شياو يوان إلى أن عينيه شديدتا اللمعان، من النادر أن ترى عينين كهاتين بين أهالي مدينتها. ربما لأنه يعيش في مكان نقيّ الهواء طوال العام؟

اصطحبها الأستاذ جونغ في جولة حول المنزل. كانت تظهر أمامها أشجار برّية ونباتات شيح بطول خصرها، وأزهار برية كثيرة، وفراشات تحلّق، لكنّها لم ترَ أيّ نحل أو مناحل، ربما مزرعة النحل ليست أمام منزله. آه، تلك الفراشات، ليست فقط أنواعها مختلفة، بل ألوانها زاهية أيضاً!

عاد الاثنان وجلسا أسفل إفريز المنزل، وأفصحت عن سؤالها: «لماذا تعيش بمفردك في منزل كهذا، ولا يوجد قرية أو وحدة عمل هنا؟».

- آه، تريدين معرفة السبب؟! هذا منزل والديّ!

دخل الأستاذ إلى المنزل لإعداد الشاي، فاستغلّت شياو يوان الفرصة وتبعته.

استغرقت عيناها وقتاً إلى أن اعتادت الظلام في الداخل. كان منزله منعشاً وبسيطاً، فيه عدد من قطع الأثاث موضوعة بترتيب في الغرفتين الأولى والثانية، وتغطي سريره الخشبي الواسع ناموسية، وعلى الطاولة راديو ترانزيستور. لاحظت شياو يوان أن هذه جدران طينية حقيقية، تنتشر

منها برودة، بينما المطبخ في كوخ خلف المنزل، وفيه موقد، وهناك كان الأستاذ جونغ يعدّ لشياو يوان «شاي الزهور» الذي شربته من قليل، وهو شاي يتكوّن من مجموعة مختلفة من الزهور.

أعدّ الشاي على الفور، وحملته شياو يوان على صينية ووضعته على طاولة الشاي في الخارج. قالت: «إنك سعيد حقاً يا أستاذ جونغ!».

- وكيف عرفتِ أنني سعيد بهذه السرعة؟

كانت عيناه المشرقتان شاردتين قليلاً وتتطلّعان إلى البعيد.

- لو لم يكن لديّ حبيبٌ بالفعل، كنت تزوّجتك!

ضحك أخيراً وقال: «هاها! إنكِ تشجّعينني!».

- إذاً، حدّثني عن تربية النحل!

- في الحقيقة، لا أعلم لماذا لا يوجد نحل هنا، ويوجد كثير من الزهور. إن كنا في الربيع، ستتضاعف كمية هذه الأزهار التي ترينها الآن. لا أريد أن أجذب النحل من الأماكن الأخرى، هذا غير أخلاقي. لذلك أجلس في البيت وأتخيّل تلك النحلات التي ينبغي أن تأتي ولكن تأخرت في مجيئها إلى المستقبل. حتى إنني أسجّل مذكّرات عن هذه التخيّلات، انظري كم أنا سخيف! والآن لديّ مفكّرة سميكة عن النحل. لنتحدّث عنكِ يا أستاذة يوان! هل تسجّلين مذكّرات عمّا ينقصك في حياتك؟

«أنا؟» -أشاحت بعينيها باضطراب بعيداً عن وجهه- «لا أكتب مذكّرات. لكن، لديّ كثير من الساعات. عندما كنت أذهب في مهمات عمل... لكن لا أستخدمها الآن، لقد أصابها عطبٌ هنا. آه، مقاطعة العش مكان عجيب! لكن أنتم حتماً ترون أنفسكم عاديين جداً، أليس كذلك؟ تفعلون أشياء ككتابة مذكّرات عن النحل مثلاً؟».

- كلامك صحيح، إنني بالفعل شخص عادي.

- هل كبرتَ في هذا المنزل؟

- أجل. حين كان والداي هنا، كنّا عائلة مضيافة. وكان لعائلتنا علاقاتٌ جيدة رغم أنه لم يزرنا الكثير من الضيوف. اشترى والداي هذا المنزل من فلّاح، واختارا هذا المكان قليل السكّان لأنهما كانا بحاجة إلى الوحدة أحياناً كثيرة. هل ترين؟! لقد ورثت عنهم طبعهم أيضاً، ومع ذلك يا أستاذة يوان، أنا سعيد بمجيئك اليوم حقّاً!

- ماذا تفعل عادةً في الإجازة؟

- أنا؟ هوايتي هي الاستماع إلى الراديو وسط طنين النحل في منتصف الليل. ستشعرين في ذلك الوقت بأنكِ على اتصال حقيقي بالعالم. مميّزات هذا الراديو جيدة للغاية، يمكن أن أستقبل كلّ المحطات من جميع أنحاء العالم. أستمع وأستمع إلى أن يطلع الصباح في بعض الأحيان.

- سمعتُ أنك تحلّ لغزاً عالمياً في الرياضيات.

- هذه لعبتي، تبعث فيّ الفرح.

رأت شياو يوان الشمس تغرب شيئاً فشيئاً عبر أوراق وأغصان أشجار العنّاب، وخيّم على الأرجاء سكون لا يوصف، حتى تلك الفراشات توقفت عن التحليق. شعرت حقاً بسحر هذا المكان، فخلدت إلى الصمت. لم يتحدّث الأستاذ جونغ كذلك. وخطر ببالها أنه ربما يحلّ تلك المشكلة العويصة في هذه اللحظة. رأت نظرته الصافية وقد غامت، ولم تحتمل إزعاجه.

فاحت رائحة الزهور بينما جلست شياو يوان على الكرسي، وبدا أنها تفكر في كثير من الأمور الماضية. كان ثمة ظلٌّ يعبر جيئةً وذهاباً في شبكة أفكارها، وانبثقت فرحة من أعماق قلبها. لم تعرف كم مرّ من الوقت عندما سمعت صوت الأستاذ جونغ فجأة.

- الصداقة عظيمة!

تطلّع إليها مبتسماً.

- أحبّك يا أستاذ جونغ، لكن عليّ أن أغادر.

- وأنا أيضاً أحبّك. دعيني أوصلك.

أوصلها الأستاذ جونغ إلى أشجار الخوخ العتيقة، وأكملت شياو يوان الطريق بمفردها إلى محطة الباص. ثم توقفت بعد عشرين خطوة ونظرت إلى الوراء بفضول. كان الأستاذ قد اختفى. غريب حقاً، كانت الأرجاء خاوية، ربما اختفى تحت الأرض؟ لم ترغب في التفكير في الأمر لئلا يتعكّر مزاجها، وكانت في هذه اللحظة مفعمة بشتّى المشاعر.

بعد عودتها إلى المدرسة وتناول الطعام في المطعم، كان الظلام قد حلّ. وصادفت الطالب لُو مرّةً أخرى عند خروجها.

سألتْ الصبي: «لماذا أنت مضطرب هكذا؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

- جئت إلى المطعم للبحث عن أصدقائي، حملة مكافحة القوارض على وشك البدء، يجب أن أطلب من بعض الأشخاص أن يأخذوا ثمانية فئران عندي في المنزل، ويبقى خمسة من دون مكان تذهب إليه.

- هل عثرتَ على أصدقائك؟

- لا. لم يتناولوا طعامهم هنا.

انزلق ظلّه الظريف على طول الجدار كفأر كبير.

حضّرت شياو يوان دروسها في المنزل لبعض الوقت، لكنها لم تستطع التركيز، فكلّ ما حدث اليوم كان مشوّقاً. سارت إلى الخارج بخطوات

بطيئة، وتأملت الغيوم الأرجوانية في السماء، وعادت بذاكرتها إلى الوقت القصير الذي قضته هنا برفقة الطبيب ليو. كانت هذه المرة الأولى التي تتذكّر فيها هذا الأمر منذ أن جاءت إلى هنا، لأنها كانت منشغلة على الدوام، ولم يكن لديها متسع من الوقت لاستيعاب كل هذه الأشياء الجديدة. وفي الحقيقة، إنها لم تنتبه إلى أيّ شيء مطلقاً ذاك اليوم في مقاطعة العش، رغم أنها تجوّلت برفقته وارتقت الجبل. كان انطباعها حول المقاطعة أنها عادية، ريفية ومتداعية. لكن لماذا ظلّت تفكّر في هذا المكان بعد عودتها؟ يبدو أن الانطباع الذي يكوّنه المرء استناداً إلى الظاهر لا يعوّل عليه، وأن ثمّة أشياء قد تسلّلت إلى ذهنها من دون أن تدركها بوضوح. وبالطبع تلك الأشياء على الأرجح لها علاقة بالطبيب ليو، ولكن من غير الممكن أن تكون كلّها مرتبطة به. وكانت قد اتخذت قرارها بالمجيء إلى هنا تقريباً في لحظة، ثم بدأت في التنفيذ.

«هل عثرت على أصدقائك أيها التلميذ لو؟»، سألته شياو يوان بصوت عال.

«لا، لا.. لم أعثر عليهم!»، قال الصبي وهو يهرب، على الأرجح لم يتوقع أن تكون شياو يوان مختبئة في ظلال أشجار الموز.

– تمهّل، أريد أن أسألك سؤالاً.

«أيّ سؤال؟» – اتجه صوبها.

– لماذا لا تنمو براعم البذور التي زرعتها مطلقاً؟

– هذا طبيعي جداً، تجاهلي الأمر! هذا شأنٌ يخصّ النباتات، هي وحدها ستقرّر. هي تقرّر أمورها ونحن نقرّر أمورنا. ولكنّنا في بعض النواحي نشكّل عائلة كبيرة واحدة مع النباتات والحيوانات. لا أستطيع

شرح هذا الأمر أيّتها المعلّمة، ستفهمين عندما تعيشين هنا لفترة أطول. يسألنا الغرباء دوماً عن هذا الأمر.

كان لو قلقاً حيال فئرانه، فغادر بسرعة.

تأملت شياو يوان مليّاً في كلام الصبي، وفي ما قاله الأستاذ جونغ عن النحل، ولاحت في ذهنها أشياء غامضة، لم تستطع تحديدها بعد. وصلت إلى خلف البيت، وجلست عند البقعة التي حفرتها وهي تفكّر. وخطر ببالها أن ما قاله شياو لو صحيح، إن ترقّبها للبذور غير منطقي، كان ترقّباً يشوبه استبداد. أضاء القمر الأرض، وبدا وكأن هذه الأثلام تخبّئ أشياءَ موغلةَ القدم، ذات أشكال لا توصف. جثت شياو يوان لتنظر، لكنّها لم ترَ إلّا التربة. هل ينبغي أن تسجّل مذكرات عن هذه النباتات المجهولة، التي لم تنمُ بعد؟

استيقظت شياو يوان في وقت متأخر من الليل، وخرجت مرة أخرى. ظهر لو من جديد، مثل حيوان صغير يطوف في الليل.

- شياو لو، لماذا لم تنم إلى الآن؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- أرسلتُ فأراً، لكن لا يزال معي أربعة.

- هل تنتظر أحداً؟

- أعتقد أن أصدقاء سيمرّون من هنا. سمعت أحدهم قادم إلى هنا.

كانت رائحة العرق تفوح من عنقه، وتخيّلت المجهود الذي بذله خلال اليوم. مدّت يدها وداعبت رأسه المستدير، إلّا أنه بدا شارداً ولم ينتبه لها. وفجأة، وكأنما سمع إشارة، قفز وركض بعيداً.

شعرت شياو يوان أنها انقطعت عن حياتها السابقة تماماً منذ أن جاءت إلى مقاطعة العش. كانت الطبيعة والعادات المحلية للمكانين مختلفة تماماً

في جميع النواحي. وقد سافرت شياو يوان إلى أماكن كثيرة داخل البلاد، ولم تكن من الأشخاص الذي يُفاجَؤون بالأشياء الصغيرة، لكن مقاطعة العش كانت تبعث الذهول في نفسها باستمرار. ولم تشعر قط بوجود طاقة هائلة في طلابها كما الآن رغم أنها اشتغلت في التدريس في الماضي. وقد تبادلت معهم الأماكن حالياً، إذ أصبحت طالبة حقيقية.

ذات يوم، كانت تعطي درساً عن تضاريس صحراء غوبي. انتبهت إلى أن عدداً قليلاً من الطلاب يستمع لها. كان الجميع شاردين، حتى إن عدداً منهم كانوا يتهامسون. ماذا يجري يا تُرى؟ لعلّ صحراء غوبي في شينجاينغ ليست أجمل مكان في البلاد؟ أم أنهم مهتمّون في هذه اللحظة بأمر آخر؟ توقفت عن الشرح، وجلست بغضب شديد على منصّة الصف.

نهضت شياو تشينغ وقالت:

- هل لي أن أبلّغ المعلّمة؟ توجد مسألة هنا، وهي أن طلاب الفصل قد حضروا هذا الدرس منذ فترة طويلة، وسجّل معظمهم ملاحظات طويلة حوله.

- ما هي الملاحظات التي سجّلتموها؟

- عن صحراء غوبي بالطبع، كنّا كل يوم تقريباً نتناقش بخصوص هذا الموضوع، ونبحث باستمرار عن مواد لنتعمّق في الدراسة والبحث، ونتبادل الملاحظات، حتى وصلنا إلى درجة الإنهاك العصبي. والآن أصبحت صحراء غوبي ملعبنا المجاور.

- هكذا الأمر إذاً! حسن، مَن يودّ أن يقرأ ملاحظاته؟!

لم يردّ الطلبة، وخيّم صمتٌ على الصف، وشيء من الحَرج، ثم نهضت شياو تشينغ.

- أيتها المعلّمة، لن يرغب أحد في القراءة، لأن هذه الملاحظات

كُتبَت لأجل أن يقرأها كل طالب لنفسه، وليس من أجل قراءتها بصوت عال، فإن قُرِئَت، لن يفهمها أحد. ونحن نتجنّب حتى عائلاتنا أثناء كتابتها.

نهض الطالب لو وقال باستحياء: «أجل، ليس بوسعنا قراءتها، إن قرأناها سيُساء فهمها».

سألتهم شياو يوان: «إذاً، حول ماذا تتناقشون؟».

ردّت شياو تشينغ بجدية: «نستخدم طريقة التورية في كل مناقشاتنا. نتحدّث عن الطقس، نتحدّث عن الشطرنج، نتحدّث عن شؤون البلاد، بينما موضوعنا الأساسي هو صحراء غوبي. هل تفهمين يا معلّمتي؟».

أحسّت شياو يوان بذهنها مشوّشاً، فأومأت برأسها، وشعرت بأن جسدها يطفو.

عادت شياو يوان في هذا اليوم إلى مسكن المدرسة حزينة ومثبطة العزيمة. ورأت بعد تفكير أن طريقة تدريسها في المدرسة الإعدادية الثانية قد فشلت منذ بعض الوقت، إلّا أنها لم تلحظ ذلك في السابق. ورغم ذلك، كانت لا تزال تكنّ إعجاباً لهؤلاء الطلبة، إنهم مذهلون حقاً! ماذا عليها أن تفعل لتدخل إلى هذا العالم في أرواح الطلاب؟ فقدت شهيّتها ولم تتناول طعام العشاء.

عبر أحدهم من أمام نافذتها، كان الأستاذ جونغ.

هتفت: «الأستاذ جونغ!».

كانت تعلم أنه في طريقه إلى المنزل، إذ كان يغادر المدرسة دائماً في وقت متأخر.

«آه، المعلّمة يوان!» -استقرّت عيناه اللامعتان على وجهها- «ألَم تذهبي لتناول الطعام؟ هل هناك ما يزعجك؟».

قالت متلعثمة: «طلابي، إنهم.. غير راضين عني!».

ضحك المعلّم جونغ وقال: «سيكون كلّ شيء على ما يرام، إنهم يُحبّونك، أؤكّد لكِ! كما أنني سمعتُ درسكِ من قبل! هل يمكن أن ترافقيني الآن؟ سأصطحبك إلى مكان قريب من هنا!».

سارت برفقته وقطعا عدة منعطفات إلى أن وصلا إلى الضواحي، حيث كان ثمّة صفٌّ من بيوت ذات طابق واحد، وبركة مياه. دارا حول البركة إلى بقعة فيها ثلاث شجرات صنوبر عتيقة شاهقة، وكان أسفلها طاولة حجرية وكراسي خشبية استلقى عليه تلميذاها لو ولين بصمت. كان بصراهما شاخصَين إلى النور الذي يتلاشى من السماء. لم يدرك الطالبان أن معلّميهما يراقبانهما.

أشار لها الأستاذ جونغ فغادرت معه.

قال: «دعيني أوصلك إلى المنزل. أنتِ تركّزين بشكل كبير في الفصل، عليكِ أن تسمحي لطلابك بشرود الذهن! جرّبي هذه الطريقة؛ انضمّي إلى هذا الشرود الجماعي! فكّري في الأمر، لَكَم سيكون تواصلاً رائعاً! لستُ قلقاً عليكِ البتّة، طلابك يحبّونك، ألَم أسمع درسكِ من قبل؟ نامي جيداً! كلّ شيء طبيعي. انظري، لقد تفتّحت زهور حديقتك، هذا فأل حسن. أراكِ غداً!».

ثم غادر. ووقفت شياو يوان ذاهلة في مكانها عاجزة عن أن تفهم: كيف عرف أن زهور حديقتها تفتّحت؟!

دارت حول المنزل، آه! يا لها من زنابق كثيرة، نبتت مباشرةً ولم تمرّ بطور البراعم، كان جمالها في آخر شعاع شمس المغيب يؤلم القلب. بدا المشهد كأنه سحر. وبعد تفكير، اتّضح حقّاً أنها لم تنتبه إلى الحديقة منذ عشرة أيام، فهل يمكن للزنابق أن تنمو وتتفتّح زهورها خلال عشرة أيام؟

ربما هذا توقيت مقاطعة العش المتفرّد. وقت الروح في غنىً عن العيون، لا عجب أن الأستاذ جونغ رأى الزهور.

جلست شياو يوان القرفصاء إلى جانب الزنابق مفعمةً بامتنان، وخطر ببالها أن هذه مكافأة الطلاب لها. ورغم أنها لم تمنحهم أيّ فائدة كبيرة لأذهانهم، إلّا أنها تحبّهم حقاً، وتستكشف أشياء جديدة دائماً برفقتهم. اهتزّت الزنابق بخفّة في نسيم الليل، ورأت شياو يوان عبرها عالماً غامضاً. في تلك اللحظة، لم تعد تأمل في دخول عالم الطلاب على الفور، يمكنها الانتظار، ما دامت ستركّز على هذه النقطة. ما قاله الأستاذ جونغ صحيح، لا داعي للقلق، كل شيء سيكون على ما يرام، لقد بدأت للتو!

شعرت بالجوع حالما نهضت، لذا ذهبت لتناول الوانتون.

«هناك مَن يسأل عنكِ أيتها المعلّمة يوان!»، قالت صاحبة المطعم مبتسمة.

- مَن؟

- إنه المُحسن لطفلي، الطبيب ليو.

- آه، عرف أنني جئت؟

- لقد لعب دوراً كبيراً في نقل وظيفتك، سمعته يتناقش مع مدير المدرسة حول هذا الأمر هنا في مطعمي. قال الطبيب ليو إنّ خبرتك ستزدهر هنا. يبدو أنكِ لا تعرفين شيئاً عن الأمر إذاً؟!

- لا أعرف شيئاً على الإطلاق.

«يا له من طبيب جيد! وكم هو وحيد!»، قالت صاحبة المطعم وغمزت لها.

أحسّت بسخونة في وجنتيها، وكان من النادر أن يحدث لها هذا. فتحت فمها تعوزها الكلمات.

سارت شياو يوان في شارع جانبي هادئ وهي تفكّر في أن لقاءها بالطبيب ليو اقترب. ولم تعرف لماذا لم تكن متحمّسة إلى هذه الدرجة، بل كانت تستوعب برويّة معنى هذا اللقاء، وذُهلت من سكينتها. هل أصبحت من أهالي مقاطعة العش خلال ثلاثة أشهر فقط؟ على أيّ حال.. لا يمكن أن يكون كل شيء صائباً أكثر من ذلك! إلى أين كانت ستذهب إن لم تأتِ إلى هنا؟ وعلى الأرجح أنها لطالما كانت تسير إلى هذه الوجهة خلال أكثر من أربعين عاماً، إلى أن وصلت إلى هنا أخيراً. وإن لم يكن الطبيب ليو، سيكون ثمة شخص آخر يتواصل معها. وعادت بذاكرتها مجدداً إلى لقائها بالطبيب، لَكَم كل شيء كان مشوّشاً؛ تحوّل المشهد إلى الليل، وأصبحت الوجوه مشوّهة، ولم يكن لتلك الليلة الدافئة في المبنى الصغير أيّ ذكرى ملموسة، في ما عدا رائحة الأعشاب الطبّية المجففة الكثيفة. وتخيّلت شياو يوان أنه لو استُبدل البطل الرئيس بالمعلم جونغ، سيكون الشعور أكثر واقعية وصدقاً. داهمها شيء من التردّد: هل تريد حقاً مقابلة الطبيب ليو؟ واست نفسها قائلة، إنها من المستحيل ألّا تصادفه وهما يعيشان في مقاطعة واحدة.

«المعلّمة يوان!»، ناداها شخص ما يقف في بقعة معتمة.

كانت صاحبة المطعم التي تبعتها.

قالت لاهثة: «إنه فاعل خير يعالج طفلي».

– شكراً لإخباري. أنا واثقة تماماً بأنه شخصٌ خَيِّر.

«وشكراً لكِ أيضاً»، قالت المرأة، ثم اختفت في الظلال القاتمة.

عادت شياو يوان إلى بيتها، ورأت حالما أشعلت الضوء أن زهور

النرجس على حافة النافذة تفتّحت، ثلاث زهرات كأنها ثلاث صبيّات. كانت هدية من شياو تشينغ، إنها فتاة لطيفة حقاً.

وحين أطفأت الضوء أخيراً، اكتشفت أن بإمكانها تحضير الدروس في الظلام. أصبح ذهنها أكثر نشاطاً.

في قاعة الدرس التي تخيّلتها، تحقَّقّ ذلك التواصل الذي لم يحدث قطّ.. وبعد ذلك نامت نوماً عميقاً. هبطت إلى قاع نهر عظيم، وسارت، وسارت. كان ثمة صوت يسألها بإلحاح: «جهة اليمين أو جهة اليسار؟ هل اتخذتِ قرارك؟».

كانت قد اتخذت قراراً. أحسّت أنها تدخل إلى عالم الطلاب، لكن التيار سريع، وكانت تقف بصعوبة، ربما تهبّ رياح قوية على النهر؟ أجابها ذلك الصوت: «هذه الحال دائماً هنا. جهة اليسار أم جهة اليمين؟». لم تستطع أن تقف بثبات أو أن تسقط.

ذهب الطبيب ليو إلى مطعم يدعى «الجسر المتهدّم»، بعد عيادته لآخر مريض في منزله. كان زبوناً دائماً.

جلس ينظر باسترخاء إلى اللوحة المعلّقة على الجدار المقابل. كانت لوحة مؤطّرة لقطّة صفراء ذات نظرات كئيبة. ربما كانت تظهر دائماً في ذهنه لأنها مألوفة للغاية. كان بانتظار فرصة طيلة الوقت منذ ذهابه تلك المرة إلى مطعم الوانتون، وتحدّثه مع صاحبته. لن يتعجّل في البحث عن شياو يوان، كان يعلم أن الفرصة قد اقتربت. وأدرك الطبيب ليو منذ أن جاءت شياو يوان للتدريس في المدرسة الإعدادية أنها حقاً المرأة التي يحب، وليست دان نيانغ. لم يفهم السبب، لكنه شعر أن بوسعه تخيُّل نوعٍ من الحياة العائلية مع شياو يوان، وبهذه الطريقة كان يشبهها ويختلف عنها.

أُحييَت شهوته الميتة، وتلهّف لخوض التجربة، حتى إنه تخيّل نموذجاً جديداً للعائلة معها شبه مستقلّ.

لمعت عينا الطبيب ليو، وسرت في قلبه دفقات من المشاعر الشديدة. وفجأة، سمع مواء القطة الصفراء في الإطار. كيف حدث هذا؟ نهض واقترب من القطة.

- الطبيب ليو يعمل بجدّ. المناخ مناسب لزرع المحاصيل هذا العام.

قالت امرأة تقف خلفه. وبسرعة، وضعت على الطاولة طبق فول سوداني وإبريق شاي أخضر، وطبقاً من الكرفس المتبّل بالصلصة.

سألها الطبيب: «كم قطّاً تربّين في المطعم؟».

- ثلاث قطط. القطة السوداء على وشك أن تنجب.

«المكان مريح هنا» - ابتسم الطبيب، وخفّت حدّة توتّره.

كانت الوجبة شهيّة. وكانت القطة الحامل مستريحة طيلة الوقت على حذائه الجلدي، فسرى الدفء المميّز للحيوانات الصغيرة إلى جسده، وجعله متأثّراً ومستغرقاً في تفكير حالم. وفي الجو الذي أشاعته القطة، تضاعف توقه إلى شياو يوان. كانا مثل أن يسير شخصان في زقاق في الليل وجهاً لوجه، ويعتمدان على وقع خطواتهما لتحديد اتجاه الآخر.

حين خرج من المطعم رأى لاو غو يقف إلى جانب سيارة أجرته ويلوّح بإشارة لتحيّته.

هتف بصوتٍ عالٍ: «أيها الطبيب ليو، هل تعاني من مشاكل في حياتك؟ أريد بذل قصارى جهدي لمساعدتك!».

- ها ها، كيف عرفت يا عمّ لاو غو؟

- مشكلتك مكتوبة على وجهك، والإجابة في سيارتي. اصعد!

- جلس الطبيب في الكرسي المجاور للسائق، ورأى صبيّاً داكن الوجه

نحيلاً يجلس في المقعد الخلفي، كان يمسك في يده فأراً، وعيناه تدوران هنا وهناك.

- لكن يا عم لاو غو، يجب أن أعود إلى العيادة، هناك مَن ينتظرني. كما أنني ما زلت أحمل حقيبة الأدوية.

- لا تقلق، لن نذهب بعيداً! هل خمّنت مَن هو هذا الصبي؟

- أظن أنه طالب في المدرسة الإعدادية الثانية في المقاطعة.

التفت الطبيب ليو وابتسم للصبي.

توقفت السيارة عند رصيف شارع قريب من محطة القطار، حيث كان ينتظر هناك صبيّان مراهقان من الويغور، يحمل أحدهما علبة خشبية، فقفز الصبي من سيارة الأجرة، وأعطاه الفأر، ثم غطّى المراهق الصندوق بحذر، ثم سار الثلاثة إلى محطة القطار.

قال لاو غو: «الصبي الذي كان في السيارة للتو هو تلميذ حبيبتك. ستشنّ المقاطعة حملة لمكافحة القوارض، لذا كان قلقاً هذه الفترة مثل نمل في مقلاة ساخنة، يبحث ليل نهار عن مأوى لحيواناته الأليفة».

- لكن كيف علمت أنها حبيبتي؟

- وكيف لا أعلم؟ ألَم تركبا سيارة أجرتي في المرة السابقة التي جاءت فيها إلى مقاطعة العش؟ إنها جميلة، ستحب مقاطعة العش حتماً. انظر، إنه يبكي، يَعزّ عليه التخلّي عن حيواناته الأليفة.

أحسّ الطبيب ليو بصدمة شديدة، لذا، عندما قال لاو غو: «وصلنا»، خرج من سيارة الأجرة وكأنه يحلم. أخرج المفتاح ليفتح باب العيادة لكنّه سقط على الأرض. مشاهد من الماضي تبدّت أمام عينيه، وعادت ذاكرته إلى الحياة.

جلس عجوز الإبر الفضية في غرفة الانتظار. كيف دخل يا تُرى؟

«هاها، أيها الطبيب ليو! لقد دخلت البارحة لكنّك لم تنتبه!» -قال العجوز بابتهاج وثقة- «لماذا لم تعد معك جميلتُك؟».

- مَن تقصد يا أستاذ يو؟

- أقصد المعلّمة شياو يوان، لقد قمنا بمغامرة على ارتفاعٍ شاهق.

- آه، هكذا إذاً! لكن أنا.. أنا خائف بعض الشيء!

- مِمّ أنت خائف؟ أليستْ شخصاً من «الداخل»؟

حمل العجوز يو صرّته القماشية البيضاء، ونهض قائلاً إنه ذاهب إلى مقاطعة أخرى قريبة سيراً على الأقدام. فنبّهه الطبيب أن الظلام قد حلّ، فردّ العجوز إنّ الليل أفضل وقت، وإنّه لَمِن الممتع السير ليلاً.

خرج من العيادة وهو يصفّرُ. تأمل الطبيب ظهره، وعاوده الشعور الذي يشبه الحلم.

عاد الطبيب إلى غرفة الانتظار حيث كان عجوز الإبر الفضية، وهو يفكّر في ما قاله منذ قليل بمزاج قَلِق. ثم سمع فجأةً صوت طائر الوقواق. كان ثمة ساعة طائر الوقواق موضوعة على حافة النافذة، وبدا جليّاً أن العجوز تركها عن قصد. ألا تكون ساعة أهدتها له شياو يوان؟ هو، العجوز يو، شياو يوان، كيف يربط خيطٌ خفيّ لا يُرى بين ثلاثة أشخاص من أماكن مختلفة؟ ربما الأمر كما قال العجوز، أن شياو يوان لطالما كانت شخصاً من «الداخل»، وربما لم تدرك هذه النقطة من قبل. ثمة كثير من الأشخاص لا يشبهونه في ما يتعلّق بالتعمّق في هذا الأسئلة في وقت مبكر، وأدركوا الحقيقة في نصف حياتهم الثاني.

وضع الطبيب الساعة بحذر في خزانة الملفات، ورعشات تسري في جسده.

لم يشعل الضوء، بل جلس في غرفة الانتظار المعتمة وهو يرتجف بقوة.

لم يعرف كم مرَّ من الوقت عندما رنّ صوت الطائر من الخزانة، واشتدّ ارتعاش جسده. هل أصابته نزلة برد؟ عثر على علبة الدواء في الظلام وتناول حبة أسبرين. ومرَّ وقت طويل إلى أن هدأ شيئاً فشيئاً. تذكّر الصبي الذي ينقل الفئران ومعاناته. والشيء الأكثر أهمية، أنه تلميذ شياو يوان! «شياو يوان، شياو يوان»، كرّرَ الطبيب قائلاً، مُثقلاً بالألم.

طرق أحدهم الباب بحذر.

لم يكن الباب موصداً، فدفعه ودخل. كان السائق لاو غو.

قال الطبيب وهو يشعل الضوء: «العم لاو غو، جئت في الوقت المناسب! السؤال الذي أودّ سؤاله لك هو: لماذا لا أستطيع أن أحظى بحياة عائلية؟».

ابتسم لاو غو، ثم أشعل سيجارة وأخذ منها نفساً ببطء.

«بسبب الحب» -بدت على وجهه علامات الحيرة- «ولكنّك سرعان ما ستحظى بفرصة لتكوين عائلة الآن، وهذا أيضاً بسبب الحبّ».

- هل أنت متأكّد؟

- أجل متأكّد. أيقنتُ في المرة السابقة أنها ستكون من نساء مقاطعتنا، مقاطعة العش.

- إذاً، أنا أعمى بالمقارنة بك.

- هذا حال العاشقين. عندما كنتُ شاباً... أسرِع وابحث عنها. يتجمّع طلاب المدرسة الإعدادية عند شجرات الصنوبر الثلاث، لديّ شعور بأنها في طريقها إلى هناك.

سار الطبيب بعجالة في زقاقٍ أعمدةُ إنارتِه معطوبة. كانت ليلة شديد الهدوء، وسمع بوضوح وقع خطواته، لكنّه لم يسمع خطا أيّ شخص آخر. ومن الواضح أن شياو يوان لم تأتِ من الجهة المقابلة. رأى بعد خروجه من الزقاق الطويل صفّاً من البيوت ذات طابق واحد، وبعد عبوره البيوت رأى البركة، وحين دار حولها، قفز أحدهم من جانبه وسار إلى الأمام، ربما هو الصبي الذي كان في سيارة الأجرة.

تسارعت أنفاسه وتعرّق.

كان ثمّة ثلاثة مصابيح معلّقة أسفل شجرات الصنوبر الثلاث، وسبعة أطفال يقفون هناك. توقف الطبيب ليو، ونأى بنفسه في بقعة معتمة، وسمع صوت طفلة يرنّ بوضوح.

- ستأخذني المعلّمة يوان في جولة في صحراء غوبي الليلة، وقالت إنها مكافأة لي لمساعدتها في حديقتها!

نظر الطبيب ليو من بين أوراق أشجار الموز، كان الأطفال السبعة قد اختفوا، وكان مكان المصابيح غارقاً في عتمة تامة إلّا من انعكاس الضوء على البركة المجاورة.

تردّد الطبيب فيما إذا كان سيبقى أو سيغادر. وفي تلك اللحظة سمع صوت جلبة. كانت هناك طفلة ترتدي ملابس بألوان فاتحة تسير بمحاذاة البركة. وعبر الضوء المنبعث من البيوت، ميّز الطبيب الفتاة الصغيرة التي يعالجها من الديدان، وتأتي كلّ مرّة برفقة والدتها. أليس خطراً أن تسير بمفردها في وقت متأخر للغاية وفي مكان مثل هذا؟ ربما منزلها قريب؟

اتجه الطبيب ناحيتها وقال بلطف: «شياو تجو (اللؤلؤة الصغيرة)، إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

ردّت بصوت عال: «إلى المنزل. هل تريد أن توصلني؟ اتبعني إذاً!».

سارت شياو تجو بسرعة كبيرة، ولم تكن خائفة من الظلام، وكأن لها عينا قطّة. سار الطبيب بخطوات متعثرة خلفها، وكان عليه أن يركّز ليستطيع اللحاق بها.

عبرا أشجار الموز إلى غابة أكثر كثافة من أشجار التنّوب، يكاد لا يكون طريقٌ واضحٌ تحت أقدامهما. لم تكن تلك البقعة من الضواحي مألوفة للطبيب، ساورته الريبة وتساءل: هل هذه الفتاة عائدة بالفعل إلى منزلها؟ لذا سألها: «هل تعيشين في الغابة؟».

- لا. بيتي في الأمام.

- هل تؤلمك الديدان في الآونة الأخيرة؟

- لا تضايقني مطلقاً، إنها مطيعة. أمي تثير المشاكل في المنزل، أريد الهرب.

شقّ الطبيب طريقه بصعوبة إلى أن خرج من غابة التنّوب، وجرحت وجهه تلك الأوراق الحادة. توقفت شياو تجو، فوقف الاثنان في أرض برية شاسعة، وكان ثمة أجمة في كلّ مكان، ولا أيّ منازل قريبة.

قال الطبيب: «شياو تجو، كيف تأتين للعب في مكان كهذا؟».

- المكان هنا جيد جداً، وهناك ثعالب أيضاً. ثم إني أمي قريبة، تخرج ما إن أصفّق بيدي. كلّ مرّة لا أستطيع فيها المكوث في المنزل آتي إلى هذا المكان.

ردّ الطبيب بنبرة قلقة: «دعيني أوصلك إلى المنزل!».

«لا، لا!»، صرخت وضربت بقدميها الأرض.

وفجأة.. انطلقت راكضة بسرعة، واختفت بين أجمة الشيح.

لحقها الطبيب لأنه لا يعتقد أنه يستطيع ترك طفلة صغيرة تسير بمفردها في هذه الأرض القفر. لا يسمع صوتها الآن، يبدو أنها في الأجمة.

تحرّرت مختلف الأصوات من الأرض فجأة عندما جثا الطبيب، أصوات مختلطة وعشوائية، حتى إنه سمع صوت حرث ديدان الأرض، وتخلُلِ قطرات المطر التربة، رغم أنه لم يهطل مطر. في السابق، اعتقد دائماً أن أرضه المباركة في جبل العش، ويبدو الآن أن ثمة حركة أشد اضطراباً تحت الأرض، ولكن لماذا؟ ربما لأن التربة والحيوانات الصغيرة وهذه النباتات قريبة جداً من البشر؟ رغبت في علاقة متناغمة مع البشر، وكان الأمر صعباً بالنسبة لها. هل كانت أجيال نبتة «جذور حشيشة الملاك» ستستمر طويلاً إن لم يتجسّس عليها في الكهف السري في الجبل؟ كان ثمة شيء يشقّ طريقه من الأسفل قريباً من نباتات الشيح حيث كان يقف.

خرج ذاك الفأر من التربة الرخوة، ولم يكن أصغر من قطة. انتبه الطبيب ليو في تلك اللحظة أن النور غمر المكان بسبب نور القمر. كان للشيء الصغير فراء رمادي غامق، ولم يكن خائفاً من الطبيب، حتى إنه رأى بريق عينيه. عينان استثنائيتان. لا تزال حدّة الأصوات المزعجة مستمرّة، وكأنها تنذر بتغيُّر حادّ، ألهذا السبب هرب هذا الفأر؟

«شياو تجو زي! شياو تجو زي!»، نادى عليها الطبيب برقّة وقلق.

وسرعان ما شعر بغرابة صوته وسط هذه الجلبة، ضوضاء متنافرة قادمة من عالم آخر. فخلد إلى الصمت خجلاً.

كان الفأر يتفحّصه بشكل واضح. وأدرك الطبيب ليو فجأة أنه كان مع شياو تجو زي، وأن هذا المكان هو الأكثر أماناً بالنسبة للفتاة، كان هو الدخيل الوحيد. ثم رنّ صوت فتاة، وكان صوت الفتاة الذي سمعه أولاً.

- معلّمتنا عاجزة عن النوم، وتتجوّل في الأرض البرية، سأراقبها حتى لا تشعر بالوحدة. لم تتأقلم مع معيشتنا بعد.

سكنت الضوضاء ما إن تحدّثت. لم يرَها الطبيب، بل سمعها تتحدّث

فحسب. وخمّن من صوتها أنها حتماً في الجهة اليمنى خلف أجمة الشيح. «ما اسمك؟»، هتف الطبيب جاعلاً يديه مثل بوق.

- اسمي شياو تشينغ. أعرفك أيها الطبيب، لكن لن أشي بك. نحن خمسة عشر شخصاً هنا في هذه الأرض البرية، ستة عشر إضافةً إلى معلّمتنا. نحن نعقد مناقشة موضوعها: تضاريس صحراء غوبي. لا أستطيع التحدّث أكثر من ذلك، عليّ إلقاء كلمة. المعلّمة يوان! المعلّمة يوان!

خفت صوتها وابتعد شيئاً فشيئاً، حاول الطبيب إدراكه لكنّه لم يستطع. شعر أنه على وشك أن يصاب بالجنون، ثم توقف عن المشي في نهاية المطاف. انبعثت الضوضاء في الأرجاء من جديد؛ كل الحيوانات تحت الأرض تصدر أصواتاً، لكنه لم يرَ أيّ إنسان. وحدّث نفسه قائلاً: «يبدو أن هذا درس الجغرافيا». انبثق من أعماق قلبه شعور باحترام كبير تجاهها. لا بدّ أنها تملك طاقة كبيرة لتعقد مناقشة في مكان كهذا! كما أن تلاميذها يحبّونها. لاح أمام عينيه بغتة عالم مجهول، وهذا العالم مُلك شياو يوان، ولا يعرف عنه إلّا القليل. ألَم يكن عاجزاً عن رؤية أي شيء؟ شياو يوان وتلاميذها حتماً رأوه طيلة الوقت.

«شياو يوان!» - لم يسعه إلّا أن يصرخ، وعلى الفور تعرّق وسرت قشعريرة في جسده.

«هش، لا تُصدر صوتاً!» -كان صوت صبي في العشب عند اليسار- «عليك الالتزام بالصمت ما دمتَ أتيت. أنا لا أعرف مَن أنت ولا يهمّ، لكن من غير المسموح الهتاف والصراخ. هنا درس جغرافيا، معلّمتنا تشرح التضاريس. التضاريس! هل تفهم؟».

لم يفهم الطبيب ليو، لكنه سمع بوضوح الحيوانات الصغيرة تحفر بقوة أكثر تحت الأرض، شتى فصائل الحيوانات الصغيرة، تُصدر مختلف

الأصوات، بعضها كان على وشك الوصول إلى سطح الأرض، جاعلة نباتات الشيح ترتجف من دون توقّف تحت نور القمر بشكل كئيب.

قال الصبي: «من الأفضل أن تغادر. أنت لم تتلقّ التدريب، ولا تفهم درسنا!».

شعر الطبيب ليو بخيبة أمل، وأدرك أنه حتى شياو تجو زي كانت في غنى عن قلقه. ثمة أشياء تحدث هنا لا يفهمها. جاء في البداية للبحث عن شياو يوان، لكن ماذا وجد؟

لم يرغب في الرحيل لأن شياو يوان هنا. تضاعفت الضوضاء حوله ومن تحت الأرض. ما هذا الصوت؟ وأخيراً أراد أن يركض، يركض إلى اتجاه آخر. لماذا ليس رشيقاً وسريع الحركة مثل شياو تجو زي؟ حاول قدر استطاعته، لكن لا يمكن اعتباره ركضاً، حتى السير أصبح صعباً. كان يتعثر في أشياء، إمّا أحجار أو حيوانات صغيرة. كان وجهه متعرّقاً، وظلَّ يدور في مكانه. اقترب الصوت شيئاً فشيئاً، صوت لم يفهمه، كإشارة صريحة. بدا أنه يفهم ولا يفهم ما يسمع في الوقت ذاته، وإن كان متأكّداً من أن الصوت قادم من تحت الأرض. تخلّى عن فكرة الفرار، وحين هَمّ بالجلوس على الأرض، جلس على رأس، فصرخ الشخص من الألم: «أنا مريضك لاو لين!».

غمر الدفء قلبه، قابل أخيراً أحداً من معارفه. تلمس باحثاً عن رأس الرجل، لكنه لم يلمس إلّا حجراً. نقله إلى جانب قدميه، ولم يبدُ مضطرباً لهذه الدرجة. سمح لنفسه بالجلوس بشكل أكثر راحة، وحاول قدر استطاعته تبنّي سلوك السير مع التيار ومجاراة الأمر. وتذكّر أنه، ولفترة طويلة، كان يتخيّل باستمرار مشهد لقائه بـ شياو يوان من جديد. وظنّ حتى وقت قصير أنه ساعدها في المجيء إلى مقاطعة العش، لأنه قابل

ناظر المدرسة الإعدادية الثانية، الذي كان أحد مرضاه. وقابل الناظر بعد أن سمع أحدهم بالمصادفة يقول إن شياو يوان قادمة إلى المقاطعة. لكن مَن يدري، ربما لم «يسمع بالمصادفة» وأن شياو يوان تتحكّمُ بكلّ شيء؟ لم يكن يعرف الشخص الذي نقل له الخبر، كان يعرف فقط أنه مُعلّم. ورغم أن عجوز الإبر الفضية قال إنها «شخص قادم من الداخل»، إلّا أن الطبيب ليو لم يكن واثقاً منها على الإطلاق. أدرك الطبيب ليو لفترة طويلة أن ثمة أشخاصاً في هذا العالم لن تعرفهم بشكل عميق مهما قضيت حياتك في محاولة لفهمهم، أشخاصاً مثل عجوز الإبر الفضية، وأضف الآن شياو يوان. لكن هذا لم يؤثّر على سحرها الكامن في قلبه، وكلما زاد عدم ثقته منها، انجذب إليها أكثر. ماذا كان يجري في مناقشتها لدرس الجغرافيا، في ليلة كهذه، وفي هذه الأرض القفر الصاخبة؟ وظهر في ذهنه قول: «مواجهة قريبة، وتهيّؤ للقتال». كانت هذه البقعة حيث تواجه الحيوانات والنباتات وتتهيأ للقتال مع سكان الأرض، وأخيراً فهم الطبيب ليو معنى هذا الدوي الصاخب المميّز تحت الأرض. تدفقت الدموع من عينيه، وفكّر في أنه كان مع شياو يوان دوماً. كان ما حدث في القطار المتجه إلى العاصمة مقدمة، ومذّاك دلف الطبيب إلى لغز ضخم داخل لغز. وظلّ مصرّاً على تصديق أن اللغز الجوهري قد ظهر كمنحنى.

«عيناك! عيناك!»، صرخت شياو تجو زي بصوت حادّ.

كانت قريبة طيلة الوقت، لكن الطبيب لم يرَها. وتساءل لماذا تنبّهه إلى الانتباه إلى عينيه؟ وتذكّر أيضاً أغنية الصبية عن عيني سحلية. طرف بعينيه ونظر إلى السماء. كانت رؤيته مشوّشة، وكأن عينيه مغطاة بغشاء. وأيقن الآن: أنه من المستحيل أن يرى أي شيء في ليلة كهذه بوضوح.

كانوا جميعاً هنا، لكنهم ليسوا على المستوى نفسه. هم أسفل الأرض يتناقشون عن تضاريس صحراء غوبي في ضوضاء الحيوانات والنباتات، كم هذا رائع! ربما كان القطار المتجه إلى العاصمة تلك المرة ينطلق في نفق يفضي إلى قلب الأرض؟ لا عجب أن شياو يوان لديها الكثير من الساعات. لكنهم الآن في مقاطعة العش. لم يلاحق الطبيب ليو من قبل امرأةً بهذه الطريقة. ألَم يكن قانطاً ولا مبالياً مؤخراً؟ ما الذي جرى له؟

فرك عينيه ورأى أن الأجمة لا تزال تهتزّ بقوّة، وحيوانات تتحرّك عند جذورها. استمرّ الصخب المميّز، وأحسّ الطبيب ليو بأنه قادر على مواجهته. لمس الأرض بيده اليمنى وأحسّ بدفئها. لَكم كان متلهّفاً لسماع صوتها! لقد تغيّر صوتها بالتأكيد، كانا معاً، لكن لا أحد منهما يسمع الآخر.

نام على الفور حين استلقى، رغم أنه لم يكن يشعر بالنعاس.

استيقظ في الصباح الباكر، ورأى سيارة العمّ لاو غو تتجه ناحيته.

قال لاو غو: «الآن أنت على الطريق الصحيح. الآن أنت على الطريق الصحيح. اصعد بسرعة!».

ركب الطبيب سيارة الأجرة، وانتابه شيء من القلق.

سأله لاو غو: «هل تتعلّم كيف تحب من جديد؟».

- أجل. أتمنى أن أكون شجاعاً. إلى أين أنت ذاهب يا عم لاو غو؟ أريد العودة الآن، لديّ الكثير لأنجزه اليوم.

لكن السيارة ظلّت تسير في الأرض البرية.

رأى الطبيب ليو بعض الأشخاص قادمين من جهة الغرب، وشيئاً فشيئاً ظهروا بوضوح. أليس هذا الصبي هو تلميذ شياو يوان الذي أرسل حيواناته الأليفة بعيداً؟ بدا مثقلاً بالهموم. خفق قلبه بشدة، لقد رآها. مدّ رأسه خارج

النافذة ولوّح لها. طلب من لاو غو أن يتوقف، وبدا أن الأخير لم يسمعه، وظلَّ منطلقاً إلى الأمام. رأته شياو يوان أيضاً، لكن لماذا كانت قسماتُ وجهها جامدة؟ بدت منهكة، وظهرت تجاعيد على وجهها. وخُيّلَ له أنها رفعت يداً، لكنّها ما لبثت أن أنزلتها. عبرت السيارة من جانبها في لمح البصر. التفت الطبيب ليو ونظر من النافذة الخلفية، فرأى الطلاب فقط، ولم تكن شياو يوان بينهم.

– يا عم لاو غو، أريد النزول!

«فات الأوان، إنها ليست هناك» – ولاحت ابتسامة على وجهه.

– وكيف ذلك؟

– الأمر دائماً هكذا. ألستَ تعتاد عليه شيئاً فشيئاً؟

خلد الطبيب إلى الصمت. وفي الواقع كان متردّداً فيما إذا كان راغباً في النزول أم لا. أحسّ في تلك اللحظة أن شياو يوان بعيدة جداً، وكأنها شخص من عالم آخر. هل هذه شياو يوان التي يعرفها؟ لكن، لأي درجة كان يفهم شياو يوان التي كان يعرفها؟ وتراءت أمام عينيه تلك الساعات، وشعر برغبة في البكاء، لكنه سيطر على نفسه في الحال.

«ما أجمل ذلك! لقد وصلت إلى المنزل»، قال لاو غو.

عاد إلى حياته اليومية المزدحمة. كان يحب هذه الحياة.

عالج شياو تجو زي من الديدان مرة أخرى. قالت له والدتها: «أيها الطبيب ليو، يراودني دائماً هذا السؤال: هل التقيتَ بها في حياة سابقة؟ إنها تشعر هنا وكأنها عادت إلى المنزل».

– هش، لا تقولي ذلك! إن ابنتك طموحة، انتظري وسترين!

حدّقت شياو تجو زي بعينيها السوداوين في الطبيب ليو الذي تذكّر

في الحال ذاك السر بينهما. ظهر على وجهها الصغير تعبير لوم، فنكّس الطبيب عينيه في حيرة. قال لنفسه إن هذه الطفلة هي دليله، وربما أيضاً وسيلة اتصال، ولن تخبر أيّ أحد عمّا حدث في تلك الليلة. رغب الطبيب بشدّة أن يعود إلى الأرض البرية، لكنه أدرك بشكل مبهم أن هذه الأمور تحدث بالمصادفة وليس بالسعي إليها. وواسى نفسه قائلاً، إن اتصاله لن ينقطع بهذا المكان ما دامت شياو تجو زي مريضته.

تابع الطبيب الأم والابنة بعينيه وهما تمضيان، وتبادرت إلى ذهنه بعض الصور القديمة.

- أيها الطبيب ليو، أريد اتخاذ ترتيبات كاملة لأيامي الأخيرة، هل لديك أيّ اقتراحات؟

كان المتحدّث هو العجوز خي، الذي كان يعمل موظف استقبال في مبنى مكتب الضرائب. نظر إليه نظرة ذات معنى، ليس وكأنما يطلب نصيحته، بل وكأنه يختبره.

- برأيي أن تفعل كل شيء وكأنه الأمر الأخير الذي ستفعله في حياتك، وحتماً ستفعل أفضل ما لديك. ألا يعتبر ذلك ترتيبات كاملة؟ لستُ متأكّداً.

- إنّ رأيك قيّم، فأنت طبيب بعد كلّ شيء، هاها!

صافحه العجوز خي عند رحيله، فكرّر الطبيب قائلاً: «لستُ متأكداً في الحقيقة».

انصرف تفكيره إلى مكان آخر، وكره رُعُونَته.

كان عامل النظافة ينظّف العيادة بعد مغادرة المرضى. حلَّ وقت المغيب، لكن النور لا يزال ساطعاً في الخارج. كان وقته المفضّل في اليوم،

وكأن الطقس المحيط يُلمّح إلى أنّ ثمّة شيئاً مثيراً على وشك الحدوث. وبالطبع لا يحدث هذا في معظم الأوقات، ولكن لَكَم كانت لطيفة ملامح تلك الأفاريز أمام عينيه! لم تكن تلك البيوت قديمة، كما أن جودة الطوب عادية، ولكن بالنسبة للطبيب ليو، كان لها بالفعل ملامح استثنائية. هل هذه البيوت الحقيقية في عين أهالي مقاطعة العش؟ ثم انصرف تفكيره مرة أخرى إلى كلام العجوز خي، وقال لنفسه لا إرادياً: «ربما كنت متأكداً بعض الشيء». **مكتبة**

كانت الليلة في الأرض البرية بالنسبة إلى شياو يوان ليلة لا تطيق تذكّرها. كان كلّ شيء ساحراً في البداية، مثل درس الجغرافيا ذاك الذي تخطّى أيّ شيء تخيّلته من قبل، ولكنّه حدث فجأة. غاصت مع طلابها إلى أعماق الأرض تحت السماء المرصعة بالنجوم، وتجوّلت هناك في الظلام ثم خرجت إلى السطح. إنه تشبيه ليس أكثر، ولكن هكذا عُقدت المناقشة. كان الكلّ متحمساً لدرجةِ أنّهم شعروا بالأرضِ تحت أقدامهم، حتى إن شياو يوان شعرت بشمس صحراء غوبي الحارقة تتدحرج ببطء على ظهرها. ألقى الشباب كلماتهم في الضوضاء التي عمّت الأرض البرية، وكانت أصواتهم تعلو وتنخفض كأمواج، وسمعت شياو يوان صوت كل واحد منهم في الوقت ذاته.

كانت تعلم أنّ التلاميذ حولها، رغم أنها لم تستطع رؤيتهم. تمنّت لو تستمرّ هذه المناقشة. حبست أنفاسها بعصبية، وروت بعض القصص الغريبة، والتي ليست لها علاقة بمحتوى درسها، بل لم تكن إلّا تخيّلاتها وارتجالها. خيّم صمت على أرجاء المكان ما إن تكلّمت، حتى الجدجد العجوز عند قدمها توقف صوته، ولم يبقَ غير صوتها في هذا المناخ

المستمر ما دامت السماء والأرض. كانت مرتعبة بعض الشيء، لكنّها بذلت جهداً لتبدو هادئة إلى أن انتهت من كلامها. هرع ثلاثة تلاميذ من خلف الأجمة واحتضنوها، وشمّت رائحة عرقهم الحادة. سمعت صوت دويّ، وغمرت الضوضاء المكان من جديد، ومضت تلك الحيوانات الصغيرة تخدش، وتحكّ، وتحفر، في محاولة مستميتة للخروج إلى السطح ورؤية ما يجري.

شاهدت الطبيب ليو عند الفجر. كان هو بالفعل الشخص الذي يشرئبّ بعنقه من نافذة سيارة الأجرة. بدا عجوزاً بعض الشيء، ولماذا كان هادئاً إلى هذه الدرجة؟ رفع يده لكنّه ما لبث أن أنزلها، وكأنه تردّد فيما إذا كان سيلقي عليها التحية أم لا. لَكَم خيبت أملها تلك النظرة الباردة في عينيه! انطلقت السيارة على الفور من دون تردّد! أحنت خصرها وكأن سكيناً قطعت بطنها.

لم تدرِ كم مرّ من الوقت إلى أن هدأت، وتعجّبت من كونها تقف بمفردها في الأرض البرية، ثم ميّزت في الحال ذلك الدرب الصغير، ألَم تمشِ برفقة الأستاذ جونغ هنا من قبل؟ إذاً، منزله قريب من هنا. كانت الزهور على جانبي الطريق أكثر نضارةً من المرة الفائتة، ولا سيما زهور الأقحوان.

«آه، لقد جئتِ، يا لها من بداية رائعة لليوم!»، قال الأستاذ.

– ألا أبدو شاحبة ومتسخة؟

– لا، على الإطلاق. لماذا تظنّين ذلك؟ تبدين بحالة جيدة، مفعمة بالحيوية والنشاط؛ لقد حصلتِ على ما ترغبين فيه. لا شيء مستحيل في مقاطعة العش.

- منحتني قوة بقولك هذا. إنك دائماً تمنح الآخرين القوة وتؤازرهم، عليّ أن أقع في حب أشخاص مثلك.

- صدّقيني من فضلك، أنتِ في أفضل حالاتك الآن!

وضع لها كرسيّاً لتجلس، وصبّ لها شاي الزهور.

«هل جاؤوا كلّهم في الليل؟»، سألها وهو ينظر في عينيها.

- جاؤوا كلّهم. كلامك صحيح، إنهم يحبّون معلّمتهم. كان تواصلاً لا مثيل له، حتى إنّني أشعر بعدم استحقاقي لهذه السعادة.

«بالطبع تستحقّينها»، ابتسم الأستاذ جونغ ثم أكمل: «لكني أشعر بأنكِ مهمومة. ذكرتُ للتو أن لا شيء مستحيل في مقاطعة العش، وإليكِ جملة أخرى: ما دمتِ حريصةً على التعلّم من التجربة».

- إذاً، هل تقصد أنني نجحت؟

- تقريباً.

شعرت شياو يوان بأنها أبصرتْ النور فجأة. ورأت أن عقل الأستاذ جونغ مثل الكريستال. بعث فيها شاي الزهور شعوراً كئيباً بالحنين إلى مسقط رأسها، كَم السماء شديدة الزرقة! تذكّرت وي بو، أبناءها، وزملاءها السابقين، والذين كانوا بعيدين عنها. ألا تزال امرأة الكامليليا تغنّي على المسرح؟

- إن في شاي الزهور سحراً، أيّها المعلّم جونغ.

- أجل. ربما لأنني أصنعه بإخلاص ومن القلب.

- هل تعتقد أنني يجب ألّا أستسلم؟

«لن تستسلمي. وكيف ذلك يا أستاذة شياو يوان؟» - ابتسم ثم رفع عينيه إلى السماء اللازوردية.

- شكراً لك يا أستاذ جونغ!

- دعيني أوصلك! يا له من صباح هادئ!

كانت شياو يوان تتكلّم وتنظر بإعجاب إليه. لقد اجتازت للتو انهياراً أرضياً، ثم وصلت فجأة إلى خليج صغير جميل. وقال الأستاذ جونغ للتو إنها مفعمة بالحيوية، وهي تشعر بهذا الآن. ألا تحكي هذه النباتات البرية على جانبي الطريق عن ألم النمو ومتعته؟

سألته شياو يوان: «هل ستكون تربية النحل جزءاً من الخطة؟».

- أجل، أنا على وشك الانشغال بالأمر. سيأتي أحد أصدقائي مربّي النحل، هو في طريقه للانتقال إلى هنا، ربما سيصل خلال أسبوع.

سألته بذهول: «هل هذه مصادفة؟».

- بالطبع لا. يمكنك فعل ما يحلو لكِ في مقاطعة العش. وأنا كذلك.

انتبهت شياو يوان أن أنواع الزهور البرية ازدادت، كما أنها مفرطة النمو، وكأنها تسابق الزمن لتزهر. لم ترَ زهوراً برية بهذه الكثرة قط. غطّت البتلات الكثيفة الطريق، وتردّدت قليلاً في وطئها.

التفتت شياو يوان ورأت الأستاذ جونغ يقف أسفل شجرة زهور مرتبكاً، وسرب حمام يحلّق فوقه.

أصبحت خطواتها رشيقة جداً، لأنه الصباح، ولأن لا أحد في الأرجاء. يفيض قلبها بالامتنان كلما فكّرت في أنها قابلت شخصاً مثل الأستاذ جونغ في صباحٍ كهذا.

عادت إلى المنزل ورأت الطالب لو يجلس على السلالم الحجرية أمام الباب. كان مُطأطئ الرأس ومستغرقاً في التفكير، ولم ينتبه لعودتها.

- شياو لو، فيمَ تفكّر؟

- أريد أن أساعد المعلّمة. لقد ركبتُ معه في السيارة، وبدا مضطرباً، ثمة ثقب أسود في قلبه. وقد رأيته في الأرض البرية ليلة البارحة مرة أخرى.

- هل تريد مساعدتي؟

- ربما ليس بمقدوري مساعدتك. أردت إخبارك، أظن أنه يبحث عنكِ لكنّه لم يستطع العثور عليكِ.

- شكراً لك شياو لو، أنا متأثرة للغاية!

أغلقت شياو يوان الباب بعد رحيله. وقرّرت الاستحمام وأخذ قسط مناسب من النوم. وقبل أن تنام أسدلت الستائر وأغلقت هاتفها المحمول.

لكنها استيقظت، ورأت رجلاً يقف في الظلام. كيف دخل؟

لم يتسنَّ لها وقت للتفكير لأنه جاء إلى سريرها.

آه، كم هذا رائع! أفضل بكثير ممّا تخيّلت.

- أخبِرني، كيف دخلت؟

- وهل هذا صعب؟ هناك العديد من الممرّات في الأرض البرية.

- هل بوسعك أن تعيش معي؟ ليس الآن، على سبيل المثال، في يومٍ ما؟

- لا أعرف. أنا خائف دائماً من شيء ما. حوصرت ليلة البارحة خارج عالمك. عليّ أن أعمل بجدّ، لستُ مستعدّاً.

- أنت تعمل بجِدّ. أهداني تلامذتي أنواعاً جديدة من النباتات والأزهار، غرسوها أسفل النافذة. تتفتح هذه الأزهار فقط حينما لا ينتبه لها الناس. لم ألاحظها إلّا حين جئت إلى مقاطعة العش. هل من بين مرضاك مَن يحب زراعة الزهور؟

«كلّهم تقريباً» -قال الطبيب ليو بانفعال وهو يرتدي ملابسه- «شياو يوان، لا أريد أن أغادر. لكن لا بأس، نحن نعيش في مقاطعة واحدة. الآن،

سأرى المساء زرقاء لامعة كلما استيقظت في الصباح، لأن بيت شياو يوان في الجنوب؛ أعبر شارعين وأمشي قليلاً ثم أصل».

اختفى بهدوء شديد مثلما دخل.

حدّقت شياو يوان في الباب مبتسمة لفترة، ثم عادت إلى النوم. ظلّت نائمة حتى وقت المغيب.

كان طلابها ينادون عليها بهدوء: «أيتها المعلّمة يوان! أيتها المعلّمة يوان!».

ومن دون أن تدرك، وجدت شياو يوان بيتها محاطاً بالزهور. كان النوع المزروع أسفل النافذة، والذي قدّمه لها طلابها، نوعاً من الكروم. تسلّقت إلى سطح المنزل بسرعة بعد هطول أمطار غزيرة لعدّة مرات، وتفتّحت في الأعلى أزهار لبلاب ذهبية ضخمة، كل زهرة أكبر من أن تكون حقيقية، كبيرة كصحن شوربة. لم يكن لتلك الزهور سوى رائحة زكية خفيفة ذكّرتها بأيام مراهقتها.

– شياو تشينغ، ما نوع هذه الزهور التي أهديتموني إياها؟

– لا أعرف. إن هذه الزهور مسلّية. أيتها المعلّمة، هل ستشتاقين لها عندما ترحلين؟

– آه، لم يخطر لي هذا الأمر من قبل.

– إنها مزدهرة لدرجة أنني رأيتها من بعيد تمدّ رؤوسها بفضول، ثمة شيء على وشك الحدوث حتماً. شيء جيّد. أهنّئك مقدّماً يا معلّمة!

– ماذا سيحدث؟

– لا أعلم.

ظلّت شياو يوان تتأمل السكّان الجدد على سطح منزلها بعد مغادرة

شياو تشينغ بفترة طويلة. وأحسّت منذ البداية أنها رأت هذه الزهور في مكان ما. آه، تذكّرت، في المصحّة في العاصمة، في المرّة التي ذهبت فيها لزيارة امرأة الكاميليا. رأت هذه الزهور ملتفّة على تلك الأشجار المعتلّة، وشعرت أن تشابك هذين النوعين من النباتات يخلو من أيّ تناغم. لم يخطر ببالها أن ستلتقي بهذه الزهرة من جديد في مقاطعة العش. بدت تائهة، وتذكّرت كم كانت قلقة في تلك الفترة الماضية، وكم كانت غير واثقة من نفسها. وينبغي القول، إن غناء امرأة الكاميليا أيقظ في داخلها نوعاً من الإرادة. لِمَ كان غريباً حين سمعته حينذاك، ومؤذياً للأذن؟ المصّحة مكان عصيّ على الفهم؛ ذاك المشهد الموحش الغريب والمُمْرِض، حيث كانت الوجوه أيضاً رمادية. ورغم الهيئة الكئيبة والمهجورة للحديقة، إلّا أنه بمقدور المرء الشعور حين يكون داخلها بشيءٍ ما يشدّ انتباهه بتعنّت، ولا يكون ثمّة مخرج سوى الاستسلام.

أبهجها عثورُها المفاجئ على الزهرة ذاتها في ذاكرتها. إذاً، فهذا هو الأمر السارّ الذي أشارت إليه شياو تشينغ. فرحت لِلَمّ شملها بالزهرة. كانت امرأة الكاميليا تشجّعها بغنائها منذ البداية، لكن شياو يوان لم تكن ناضجة بما فيه الكفاية حينذاك، ولم تفهم ذلك الغناء الذي يتغلغل في الروح. كل شيء يأتي في أوانه، ألَم تفهم الآن؟ رنّ جرس الهاتف في الغرفة.

– شياو يوان، هل تفتّحت الزهور؟

كان الطبيب ليو.

«كيف.. كيف علمت؟»، قالت وقد غصّت بدموعها.

– أنا الذي زرعتها.

– هكذا إذاً! يا لك من متلصّص! هل تعرف نوع هذه الزهرة إذاً؟! ألو، هل سمعت ما قلته؟

- لا أعرف. من المستحيل بالنسبة لنا معرفة مثل هذه الأشياء مُسبقاً هنا. إلى اللقاء يا شياو يوان.

- إلى اللقاء.

إن مدّت بصرها عبر النافذة ترى جبل العش، يبدو أن هذا البيت أُعِدّ خصيصاً لأجل شياو يوان. تركها الطبيب عندما كانا في الجبل تتفرّج على أعشابه الطبية الوحيدة: جذور حشيشة الملاك، الأرديسيا، باريس بوليفيلا - النبتة ذات السبع أوراق وزهرة واحدة. نبتت هذه الأعشاب في كهوف الجبل الخفيّة، تعطي المرء شعوراً بالقِدم. لم يتركها تمكث طويلاً قائلاً إن الأعشاب خائفة. والآن، الجبل هو ذاك الجبل، وترغب شياو يوان بشدة في التواصل معه، لكنها وجدت ذهنها خاوياً. تخيّلت الطبيب ليو في الليل يرتدي معطفه الأبيض مستلقياً وسط النباتات، وعيناه تومضان بافتتان.

تبدّد مزاجها القلق مثل سحاب ينقشع، وخرجت إلى الشارع فَرِحة.

في عيني شياو يوان، كانت المقاطعة هادئة، لها تعبير لا يتغيّر، وكأنها خجلة قليلاً. كانت تلك المباني ذات الطابقين أو الثلاثة طوابق، التي بُنيت كيفما اتفق، وعددٌ لا يحصى من البيوت ذات الطابق الواحد، مجتمعةً بفوضى في مكان واحد. وكانت تعلم أن أفضل الألعاب في الباحات الخلفية. فقدت شياو يوان طريقها ثلاث مرات في المقاطعة في ليالي الأرق، واكتشفت أنها تقف في كل مرة في باحة أحد المنازل، ولا تعلم كيف اقتحمتها. كانت الحدائق ساحرة، مساحتها شاسعة، والأشجار والزهور وارفة بشكل غير عادي، والعرائش الخضراء تمتدّ إلى السطح وتتدلّى في أكوام. وقفت شياو يوان تحت الأشجار، وأنصتت إلى كلّ

الهمسات الهادئة التي تتّقد حماسة وكأنها على وشك الانفجار. لم يكن ثمة شيء مميّز في واجهات هذه المنازل حينذاك؛ الأبواب مفتوحة على الدوام، يخرج منها أحدهم بين حين وآخر. كانت وجوه السكّان مألوفة لها بعض الشيء، فقط لم تكن تعرف أسماءهم، أما هم فكانوا ينادونها: المعلّمة يوان. ربما بعض أطفال الأُسر من طلابها.

«أيتها المعلّمة يوان، تعالي واجلسي في بيتي قليلاً!»، قال رجل عجوز ذو لحيةٍ بيضاء بنبرة لطيفة.

رأت بريقاً متّقداً في عينيه فدخلت.

كان بيتاً ذا طابق واحد بغرفة في الأمام والخلف. كان المنزل نظيفاً ومرتّباً رغم أن الرجل العجوز أرمل. سألته شياو يوان عن اسمه، فلوّح لها قائلاً: «لن أخبرك. لا داعي لأن تتذكّري أشياء كثيرة، أنا لست مهمّاً البتّة».

دعاها للجلوس في باحته الخلفية البديعة، وقدّم لها شاياً بالنعناع ذا نكهة مميزة. خرجت ثلاث قطط بيضاء صغيرة من المنزل، وراحت تلاحق بعضها حول طاولة الشاي.

مدّت شياو يوان يدها وقطفت حبة عنب من الشجرة ودسّتها في فمها، وسألته: «هل أنت مُزارع زهورٍ متقاعد أيضاً؟».

- بالطبع. معظم الناس هنا كذلك. أخبرك الطبيب ليو أليس كذلك؟ لا، لا تجيبي! قام الدكتور ليو مؤخراً بالترتيبات النهائية خاصّتي، بقي لديّ نحو شهرين.

- هل يمكنك أن تخبرني عن ترتيباتك؟

- طبعاً. هذا أكثر ما أحبّ قوله. أريد أن أموت في الخارج، تماماً حيث تجلسين، وأن أرى جبل العش عبر أوراق العنب. بالطبع قد تمطر، لذلك

سأطلب من الناس أن يضعوا لي مظلّة بلاستيكية طويلة. سيكون مكاناً مناسباً حتى وإن أمطرت.

- جيد حقاً، غاية في الجمال!

لم يسعها إلّا أن توافقه.

- سيأتي الطبيب كلّ يوم ويضع الدواء في مكانٍ أستطيع الوصول إليه.

- بالطبع سيفعل ذلك.

- أيتها المعلّمة يوان، إن طلابك يأتون دائماً لمساعدتي في الاعتناء بأحواض زهوري. هل ترين كَم أعيش حياة هانئة؟! إن أصالة مقاطعة العش لا تُرى من الخارج.

«أجل، من الحمق أن يرحل المرء عن المكان»، قالت شياو يوان بصدق.

ظهرت القطة الأم الجميلة من بين زهور الخطمى، فهرعت القطط الثلاث الصغيرة إليها في الحال.

- ستذهب القطط إلى منزل الطالب شياو لو بعد أن أموت.

لاحت ابتسامة خفيفة على وجهه.

ردّت شياو يوان بحماس: «منزل الطالب لو جنّة الحيوانات. لقد أرسل فئرانه الصغيرة بعيداً، وهكذا لن يكون هناك نزاع بينها وبين قططك».

- لا أطيق الرحيل. لكن ما العمل؟ هذا اليوم سيحين دائماً. انظري، أعطاني الطبيب ليو هذا الموبايل، وطلب مني أن أتصل به إن شعرت بالوحدة ليلاً. وقال أيضاً، إن تلقّى مكالمتي وهو في الجبل، سيصف لي منظره خلال الليل. وأنا فعلاً أضع الموبايل قرب وسادتي قبل أن أنام، لكني لم أتصل به ولا مرّة. ما إن ألمس الموبايل، حتى أسمع صوت جبل

العش على الفور! هل تعلمين، تُصدر الجبال أصواتاً دائماً في حلكة الليل. المعلّمة يوان، أعتقد أنكِ شخص سعيد.

- هذا صحيح تماماً!

تحدّثا عن أمور مختلفة، مثل جغرافيا جبل العش، تحدّث العجوز كثيراً، وتحدّثت شياو يوان قليلاً، وفي أثناء ذلك دخل أحد الجيران، وضع طبقاً كبيراً من كيكة العنّاب الأحمر على طاولة الشاي وغادر على الفور. تناولت الكيكة وشعرت بقليل من الثمالة. وقالت لنفسها: «لم أشرب الخمر».

عندما غادرت منزل الرجل العجوز وسارت في الممرّ المظلم، داعب وجهها شيء يشبه الجناح، فأجفلت قليلاً. قال الرجل العجوز خلفها: «لا تقلقي يا معلّمة يوان، هذه عمّتي تلقي عليكِ التحية!».

عادت إلى المنزل وجلست لتحضّر درسها.

كان ذهنها صافياً، وأنهت عملها من دون أدنى مجهود. لم يكن الوقت متأخراً، لكنها سمعت صوت جبل العش؛ صوت مكتوم مبهم، نغمته مخيفة ولكنّها مغرية. هل تسبّب حشوة كيكة العنّاب التي تناولتها الهذيان؟ لَكَم يستمتع أهالي مقاطعة العش هؤلاء بالحياة! أصغت شياو يوان لتتلقّى الأخبار القادمة من جبل العش، وانصرف تفكيرها إلى تلك المدينة التي عاشت فيها أكثر من أربعين عاماً، وإلى الوقت الذي قضته مع أبنائها في الماضي. كانت الذكريات شديدة الغموض، لم يكن واضحاً غير صوت غناء امرأة الكاميليا. كيف وصلت من المدينة إلى هنا خلال هذه العقود؟ ولماذا تشعر في هذه اللحظة بأن ثمة طريقاً يتسع أكثر فأكثر؟

لمحت شياو يوان في المرآة بقعاً حمراء في وجهها. اقتربت لترى بشكل أفضل وشعرت بشيء من الخوف. تذكّرت ما حصل في ممرّ منزل

الرجل العجوز ذي اللحية البيضاء وما قاله. إذاً، هل ترك أحد الأموات علامات على وجهها؟ هل كان ما لمسها هي يد تلك المرأة الخفيفة كريشة؟ وفكّرت شياو يوان أن هذه العمّة بالتأكيد شخصٌ جلب لها الحظ السعيد، لأنها شعرت آنذاك بأنها مفعمة بالحكمة. أراحتها تلك الفكرة. كم كانت الباحة الخلفية لمنزل الرجل العجوز مفعمة بالحياة! هل سيتملّكه الحزن أو الفرح حين يموت في مناخٍ كهذا؟ عجزت شياو يوان عن فهم الجيران في مقاطعة العش، لكنها كانت منجذبة لهم بشدّة، تماماً مثلما انجذبت إلى الطبيب ليو في الماضي. ربما كانت تسير صوب هذه الوجهة لسنوات عديدة، إلى أن وصلت أخيراً إلى هنا. كانت في صميمها من سكّان مقاطعة العش، لكنّها لم تدرك ذلك من قبل.

عبر شياو لو راكضاً من أمام باب منزلها. كان دائماً في عجلة من أمره، ويعيش كلّ دقيقة من حياته بتركيز ويقظة، ويا لها من حياة مكثفة! كانت شياو يوان معجبة بهذا الصبي، ورأت أيضاً أنها لا تتحمّل العيش بهذه الطريقة، تخشى أنها ستفقد وعيها باستمرار. كان ذاهباً إلى منزل الرجل العجوز ذي اللحية البيضاء، حيث هناك، أسفل كروم العنب، يحدث أجمل شيء في العالم.

«الأفضل أن تثبّت مظلّة أمطار شفافة وبلا لون» -قالت شياو يوان- «وأن تكون منحنية ، لينساب المطر من على جانبيها، تك، تك، تك تك، ويمكنه سماع صوت الجبل بوضوح أيضاً».

«لا تقلقي يا معلّمة يوان، لقد رتّبنا كلّ شيء!» - كانت شياو تشينغ تقف خلفها.

- ها، كنت أتحدّث مع نفسي، كيف تعرفين كلّ شيء؟

- هذه عاداتنا هنا. نحن نولي اهتماماً كبيراً بأن يموت كلّ شخص بكرامة. بالطبع لكل شخص رغبة مختلفة، ونحاول قدر استطاعتنا مساعدة بعضنا.

وقفت شياو يوان وشياو تشينغ أمام المنزل متشابكتي الأيدي. كانت زهور اللبلاب الضخمة لا تزال في ذروة تفتّحها، وكأنها تتسابق في ما بينها لتنفخ الأبواق صوب السماء.

- يا معلّمة يوان، هل زرعنا نحن هذه الزهور أم الطبيب ليو؟ لقد رأيته يشتغل أمام منزلك من قبل.

- ربما أنتم وهو، ما رأيك؟

- أجل، هذا منطقي. يا معلّمة يوان، سأذهب بعد غد في رحلة طويلة، جئت لوداعك. سأذهب إلى مقاطعة بعيدة في الناحية الغربية مع حبيبي.

- آه، لديكِ شريك! مبارك!

فوجئت شياو يوان.

- لن نستطيع الزواج الآن. أحب المقاطعة التي يعيش فيها. بوسعك أن تري ذئاباً حقيقية أثناء تجوالك في شوارعها، من النوع الشجاع الذي يعيش مع الناس.

- هل ستأخذين بذور بعض النباتات؟

- لا، توجد أنواع متعددة من النباتات هناك. إلى جانب ذلك، إن أرادت النباتات أن تنتقل إلى مكان آخر ستجد طريقة.

احتضنتها شياو يوان بقوة. كانت تحب هذه الفتاة، ولا تطيق فراقها.

تأملت طيفها الراحل، وغمرها شعور ساحق بالحزن. كان حزنها ممزوجاً بالفرح؛ لأن طالبتها تسير بثقة إلى حياة جديدة. وخلال تلك

اللحظة السابقة، تفتّحت زهور النرجس السبع الموضوعة على حافة النافذة مكوّنة دائرة صغيرة. كانت ترقص. ابتهج قلبها، وراودها إحساس أن الطبيب ليو سيزورها الليلة بلا شك. عليه أن يذهب أولاً إلى بيت العجوز ذي اللحية البيضاء، ثم يأتي إليها. نظرت في المرآة إلى وجهها الذي أصبح جميلاً. كل الناس، وكل الأشياء، تشجّعها وتشجّع الطبيب ليو، هل هذه هي العادة هنا؟ لطالما كانت شياو يوان ذات شخصية مستقلة وتعتني بنفسها، ولم تختبر هذا النوع من الحب من قبل. كان ثمة صوت داخلها يقول إنها يجب ألّا تفشل. ربما الفشل غير مسموح به في مكان مثل هذا. وكانت قد راقبت بانتباه وتوصلت إلى نتيجة مفادها، أن كل شخص من سكان مقاطعة العش هو شخص ناجح. ما الحياة التي تمور في هذه المدينة المتواضعة؟!

عادت الأستاذة شياو تجو التي تقطن في البيت المجاور، ورأت هي أيضاً شياو تشينغ.

قالت لشياو يوان: «لستُ قلقة على شياو تشينغ مطلقاً. قبل سنتين، مكثت تلك الفتاة مع نمر جنوب الصين في كهوف جبل العش. إنها أكثر نضجاً من الأطفال في عمرها، حقاً فتاة حكيمة قبل أوانها! رأينا جميعاً أن عليها البقاء في المدرسة والاشتغال في التدريس، لكنّ لديها طموحاتٍ أعظم وأهدافاً طويلة المدى».

تذكّرت شياو تشينغ دفء هذه الفتاة وطبعها اللطيف، وظهر على وجهها شعورٌ بالفقد.

واستها المعلّمة شياو تجو قائلة: «ستصلنا أخبارها دائماً رغم رحيلها إلى هناك».

«حقّاً؟»، سألتها شياو يوان.

- بالطبع، هنا مسقط رأسها.

- فهمت.

عادت شياو يوان إلى منزلها وبدأت في التنظيف، لأنها خمّنت أن الطبيب ليو سيأتي الليلة.

مسحت شياو يوان الأثاث كلّه، ونظّفت النوافذ حتى أصبحت لامعة. وفي غمرة انهماكها، ومض في ذهنها فجأة مشهدٌ ما: في المرة الأولى التي قابلت فيها الطبيب ليو في القطار، كانت قد نهضت من سريرها في الصباح الباكر، وكان الطبيب ليو لا يزال نائماً بعمق في الجهة المقابلة، وحين أخفضت عينيها، رأت حذاءه الجلدي موضوعاً إلى جانب حذائها الرياضي. نسيت هذا الأمر في ما بعد، لأنهما وقعا في الحب. أمّا الآن، فقد نسيت كلّ شيء حدث في علاقة الحب، إلّا هذه التفصيلة تجلّت بوضوح. حقّاً حياة سيّرتها نظرة واحدة. لكن لماذا لم تعرف ذلك حينذاك؟ كان تعلم أنها ليست شجاعة مثل شياو تشينغ، لكنها جاءت مع ذلك. وحينما عادت إلى بيتها، كان هنا أيضاً مسقط رأسها. يا له من أمر لا يُصدّق أنها قطعت مسافة طويلة حتى وصلت إلى هنا، وأنها لم تتعرّف إلى وجه مسقط رأسها الحقيقي إلّا عندما جاءت المرة الثانية! ماذا حدث أيضاً في حياتها، في الظلام؟

جلب الطبيب ليو الدواء للعجوز تجو، وجلس برفقته لبعض الوقت ودردشا عن آخر الأخبار، مثل حملة مكافحة القوارض وغيرها، ثم استأذن وانصرف. نظر إلى ساعته وكانت الواحدة وعشرين دقيقة صباحاً.

كانت هناك عربة قمامة تمرّ في الشارع. رأى الطبيب ليو طيفاً أبيض

قرب صندوق البريد في الأمام، كانت هي. وبدا وكأنه تذكّر أن لديه موعداً معها، أليس كذلك؟

قالت شياو يوان بنبرة ساخرة: «سبعة وأربعون عاماً من الانتظار ليست طويلة جداً، أليس كذلك؟».

- هي تسعة وأربعون بالنسبة لي. هل ترين صندوق البريد هذا، كان موجوداً منذ أن كنت في المدرسة الابتدائية. ثمة مقولة في جبل العش هنا: كلّ الأشياء تبقى حتى اللحظة الأخيرة.

- أريد أن أصطحبك قريباً إلى المكان الذي كبرت فيه. وعلى وجه الخصوص إلى المسرح لمشاهدة عرض امرأة الكاميليا، لم يبقَ لها أيامٌ كثيرة. هل أنت موافق؟

- أنا حقّاً أريد الذهاب، لأن امرأة الكاميليا أرشدت شياو يوان. أنا شديد الامتنان لها. أعتقد أن المؤرَّقين في مدينتك الذين يطوفون ليلاً في الشوارع حتماً تحدّثوا عني وعنك منذ وقت طويل طويل للغاية.

- من الممكن. وصلنا. انظر، الزهور التي زرعتها! تكون صامتة في هذا الوقت، لأن هناك الكثير من الأشياء التي تريد قولها.

- لم أتوقّع وأنا أنثر البذور أن تنبت أزهاراً كبيرة مثل هذه، ظننت أنها ستزهر نجوماً صغيرة بحجم الظّفر!

- هل أُسدل الستارة؟

- دعي النافذة مفتوحة! فالجبل ليس ساكناً، الليل هو وقت نشاطه.

- إنك تفكّر مثلي. إذ حتى من مسافة بعيدة، يمكن لغناء امرأة الكاميليا أن يتهادى عبر النافذة. أشعر بقليلٍ من الحنين إلى مسقط رأسي.

- 11 -

آسي الشجاعة

في اليوم الذي عاد فيه العمّ غو من بحيرة دونغ تينغ، رأى طيف الآنسة آسي الصغير يتجه إلى مركبه. علّقَ ملابسه بسرعة لتجفيفها وترجّل من المركب لاستقبالها. كان قلبه مفعماً بالبهجة لأن آسي هي بهجته. كانت معه في كلّ لحظة خلال أيامه في البحيرة، ولم يشعر بأنها فارقته.

- آسي، أحضرت جذور اللوتس الأبيض، وسمك الماندارين! ألا تريدين الصعود إلى المركب وشرب كأس؟

«حَسنٌ»، أجابت آسي باقتضاب.

رأى العم غو القلق الظاهر على وجهها.

انهمك الاثنان في المقصورة. وفكّرت آسي في سرّها: إنّ هذا المكان يبدو كبيتٍ أكثر من شقّتها، كان العم يعرف حقاً كيف يقضي الوقت! دخلت آسي عالمه شيئاً فشيئاً، ووضعت همومها في مؤخرة عقلها. وبعد أن شربت كأساً من الخمر، راودها الوهم ذاته مُجدّداً؛ ربما كانت تنتمي إلى مركب الصيد هذا.

- انطلقتُ بقارب صغير إلى البحيرة، وحين وصلت إلى هناك، كانت تلك السمكة الكبيرة جاثمة بسكون بين الأعشاب المائية، لأن هذه

منطقتها. تردّدتُ للحظة، كان لها حضورٌ قويّ. لكنّني صياد، رجل قادم ليُنهي حياتها. طعنتها بحربتي، وأعصابي مشدودة، تاركاً القارب يتبع التواءاتها إلى أن استنزفت قواها. تثير هذه المهنة اشمئزازي في بعض الأحيان، لكنها جيدة بشكل عام. وتحديداً في الصباح الباكر.

قالت آسي وكأنما تحلم: «ألن تفقد مهارتك إن لم تقتل السمك؟ ألن تذوي روحك يوماً بعد الآخر؟».

- لا أعلم. لا بدّ أن آسي حصلت على الإجابة. في صحتك! ليست هذه هي السمكة نفسها، فقد أكلتها في طريق العودة. انظري، كنت شغوفاً طوال حياتي بحياة القتل هذه، أنا ميئوسٌ منّي.

- ليس القتل فقط، بل هناك الصداقة والحب، وبهجة العمل. ألن تعيد النظر في اقتراحي يا عمّ؟

- لا، لن أعيد النظر. آسي إنك تتفوّهين بالهراء، فرجلٌ مُثقلٌ بديون الدماء مثلي، لن يسير إلّا إلى الظلام في نهاية هذا الممرّ. اشربي قليلاً من حساء السمك!

- إنني في ورطة كبيرة هذه المرة، لا مكان لي في هذه المدينة.

- كيف يكون هذا ممكناً؟ آسي، أنتِ ملكة الكاميليا في هذه المدينة. ربما أنتِ متعبة ليس غير.

ارتقى الاثنان السدّ، ووقفا هناك لتنسّم الهواء. طوّقت آسي خصر العم غو بشدّة، لكنّها عجزت عن التخلّص من الشعور بأنها معلّقة في الهواء.

لم يكن ثمة إنسان أو سيارات على طول شارع الكورنيش، وخيّم مناخٌ غريبٌ من السكون. كانت آسي في الليلة الفائتة مع تاجر الأفيون في «الميناء الحر» يلهوان طوال الليل، يسيران جيئةً وذهاباً بين الجموع لأنهما

لم يقرّرا ماذا سيفعلان، ولاحقاً ضجر تاجر الأفيون وقال إن لديه عملاً يتفاوض عليه، وتركها عند البوابة. انطلق التاجر بالسيارة، وبقيت آسي في الصالة. شعرت بالعداء يتضاعف تجاهها في الداخل، فانتابها شيءٌ من الخوف، وقرّرت أن تغادر.

«هل هذا صديقك؟» -سألها أحدهم- «يبدو كهاربٍ من الشرطة!».

حاول كثير من الأشخاص عرقلتها، وسقطت مرتين، وصدمت جبينها في الآلات. ثم دفعها أحدهم من الخلف بقوة إلى الشارع، وحينئذٍ فقط هدأت أعصابها. تذكّرت الشهور الستّة الأشبه بالكابوس التي قضتها برفقة تاجر الأفيون، وغمرها فجأة شعورٌ بالأمان، ورغم ذلك، شعرت بيأس وخواء كالموت. في ما بعد ذهبت إلى مركب العمّ غو.

- يا عمّ، كيف سيكون الوضع إن كنت لك وحدك؟

- في هذه الحالة، ستنقص هذه المدينة ملكة الزهور، وستصبحين ليمونة جافة.

تعانقا بقوة، وشيئاً فشيئاً، شعرت آسي أن قدميها تلامسان الأرض. ورأى الاثنان في الوقت ذاته شاحنة بيضاء تشبه التابوت تقف إلى جانب الطريق العام.

- إنه ينتظرك يا آسي.

مكتبة
t.me/t_pdf

- إلى اللقاء يا عمّ.

ركبت آسي تلك الشاحنة، وجلست خلف تاجر الأفيون.

سألها: «مَن هذا؟».

- إنه والدي.

- لا أظن ذلك. إنه رجل وسيم.

ضحكت آسي، وغدت ملامح تاجر الأفيون أكثر رقّة.

توقفت الشاحنة في مدخل زقاق ضيق. فاحتجّت قائلة: «اذهب إلى مجمّع الكاميليا السكني! لماذا لم تذهب إلى مجمّع الكاميليا؟!».

فتح تاجر الأفيون الباب وترجّل من الشاحنة أولاً، فتبعته آسي إلى الزقاق مذعنة.

بدا الزقاق المُحاط بحائطين خالياً. توقّف تاجر الأفيون والتفت فجأة بعد سيرهما مسافة قصيرة، وقادها إلى جهة اليمين، ودخلا في الوقت ذاته إلى أحد البيوت. عجزت آسي عن رؤية أيّ شيء لأنه كان من دون نوافذ. كانت تعلم أن هذا منزل أحد أصدقائه المُخيفين، وشعرت بندمٍ عميق.

«أنت هنا؟ من الجيد أنك جئت!»، قال رجل عجوز بنبرة جافة.

ردّ التاجر: «لن تستطيع النزولَ إلى مصرف المجاري، بوسعها أن تحرس المدخل وتنقل بعض الأشياء الصغيرة».

لمست آسي في نبرته نوعاً من التملّق، وسرت فيها رجفة اشمئزاز لا إرادية.

«لطيفة جداً!» - ضحك الرجل ضحكة مدوية.

أمسك تاجر الأفيون يدها اليمنى بقوة، وخرج الثلاثة من الباب الخلفي.

حالما خرجوا، كان الليل قد حلّ، ورأت آسي نجوماً قليلة في السماء.

كان تاجر الأفيون يجرّها تقريباً، لأنه والرجل الآخر كانا يسيران سريعاً. شعرت آسي وكأنهم يسيرون في أرضٍ بريّة، أو في مكان يعجّ بالمباني، لم يستطع رأسها الصغير تمييز البيئة المحيطة. أحسّت بالتوتر والمهانة، ولامت حبيبها في نفسها قائلة: «ألَم يستطع التفكير في شيء مسلٍّ أكثر من

هذا؟ ما حيل اللصوص هذه؟». آه، كانت تتنفّس بصعوبة! وفجأة وصلوا إلى المكان المقصود.

هبّت ريحٌ باردة من الماسورة الضخمة، جعلت آسي التي ترتدي ملابس خفيفة ترتجف حتى قدميها. اختفى الرجلان في لمح البصر وبقيت بمفردها هناك. تفحّصت المكان عبر الضوء الخافت من السماء ورأت سدّ النهر العالي، وسمعت تدفّق المياه. كان هناك مَن يتشاجر في الماسورة وقد بدا أنهما رجل وامرأة. تشاجرا وصدرت عن المرأة صرخة حادّة وكأنها جُرِحَت. أرادت آسي أن تغادر ولكنها لا تستطيع، لأنه لم يكن أمامها سوى هذا المنحدر النصف دائري شديد الانحدار من الأسمنت الزّلق الذي لا يمكن أن يكون أشدّ انحداراً. لم يكن ثمة مخرجٌ آخر. كيف وقعت في هذا الفخ؟ هل خرجت من الماسورة؟ كان صوت الرجل والمرأة يقترب شيئاً فشيئاً. سمعت صوت أنين ألم المرأة بوضوح، آه، لقد خرجا.

قال الرجل للمرأة: «انظري، امرأة تاجر الأفيون تحرس المكان كالكلب! هذا هو الحب، عطاءٌ من طرف واحد من دون انتظار أيّ مقابل!».

«إنها حثالة، سيضربها حتى الموت عاجلاً أم آجلاً!»، ردّت المرأة بغيظ.

- ماذا عنكِ؟ أيّ نوعٍ من الحثالة أنتِ؟ آه، يا خفّاشاً ساماً!

وفجأةً سقط الرجل على الأرض إلى جانب الماسورة. رأت آسي لمعان السكين، لقد فعلتها المرأة.

قالت لآسي: «هيه، يا امرأة! لن يستطيع النهوض لبعض الوقت، ساعديني وأبقي عينيك على هذا الرجل. لديّ مهمة عليّ إنجازها!».

قالت آسي: «أريد الذهاب معكِ».

ردّت المرأة باستنكار: «كفى هراءً! كيف ستدخلين من دون تصريح؟ أليس لديك عقل أم ماذا؟ أمرٌ لا يُصدّق!».

اختفت داخل الماسورة ساخطة. في البداية كانت خطوات أقدامها مسموعة، ثم اختفت. كانت آسي في حالةٍ شديدةٍ من الخوف. وفي تلك اللحظة استعاد الرجل وعيه.

قال: «آسي، دعينا نجرّب! يا لها من ليلة جميلة!».

- ألسْتَ مُصاباً؟ لا يزال ذراعك ينزف، قد تموت!

خلعت آسي ملابسها على مضض، والغريب في الأمر أن الدفء سرى في جسدها. وخطر ببالها أنها كانت في الأساس تنتظر تاجر الأفيون هنا، لكن يبدو أنها كانت تنتظر هذا الرجل! أحسّت أنها أفضل بكثير ممّا كانت عليه عندما وصلت إلى هنا، حين تشابك جسداهما، حتى هذه الرياح الباردة التي تهبّ من الماسورة أصبحت نسيم صيفٍ عليلاً. وبعد ذلك نهض الاثنان وارتديا ملابسهما.

قالت آسي: «أنت لا تعجبني على الإطلاق، الأمر دائماً هكذا الآن، هل يمكنك أن تساعدني في الخروج؟ سأجَنّ إن بقيتُ هنا!».

- بالطبع، هذا واجبي! عليّ أن أرشدك خارج هذا الطريق المسدود. من غير المعقول أن تأتي إلى هذا المكان من دون تصريح سفر، إنه انتحار. هل يريد تاجر الأفيون موتك؟

أمسك يدها اليمنى بقوة مثل التاجر، ودخلا معاً إلى الماسورة النتنة ذات الرائحة الكريهة.

ورغم تلك النتانة التي تنتشر في العتمة، إلّا أن آسي لا تزال تشمّ رائحة جسده، رائحة زهر العسل المنعشة التي لا تتواءم مع فظاظته.

سألها مُجدّداً: «لماذا يريد موتك؟».

تردّدت آسي في الإجابة وقالت: «لا أعتقد ذلك».

- يموت الكثير من الناس أحياناً حيثُ كنتِ تنتظرين، ويتحوّلون بعد عام إلى جثث جافة. هل لديه هواية جمع العيّنات؟

- ربما. إذاً دعني أسألك: ليس لديّ تصريح سفر، ماذا سيحدث إن جرى تفتيشي؟

- وماذا بوسعكِ أن تفعلي؟ اركضي بأقصى سرعة! وهذا يعتمد على حظّك. إن رغب أحد في الموت من منظّمتنا الصغيرة يأتي إلى هنا، ثم يُقبَضُ عليه.

- أيّ نوع من المنظّمات هي منظّمتكم؟

- المنظّمة ذاتها التي ينتمي إليها تاجر الأفيون. لقد حصل على تصريح السفر مؤخراً.

أصبح السير أكثر صعوبة، كانت ساقاها مغمورتين إلى نصفهما في مياه المجاري، وانتابها شعور بكارثة وشيكة. لم تستطع التقاط أنفاسها حين فكّرت في نهايتها المشينة. ترك الرجل يدها فجأة في تلك اللحظة، فبحثت في الهواء عدّة مرات ولم تلمس جسده، ثم سمعت وقع ابتعاد خطواته في المياه. حاولت قدرَ استطاعتها اللحاق به، لكنها لم تستطع، كما لم تكن متأكدة ما إذا كانت تسير إلى الأمام أم إلى الجانب، وكأنها لا تستطيع أن تلمس جدار الماسورة أياً كانت الجهة التي تسير إليها، وأسفل قدميها كانت تلك المجاري كريهة الرائحة.

أبطأت آسي خطواتها، وفكّرت أنها ستصل إلى النهاية في آخر المطاف. أخبرها ذاك الرجل للتو أن عليها الاعتماد على نفسها، وأن تقاتل من أجل الحصول على تصريح السفر، وبعد ذلك سيكون بوسعها العودة إلى منزلها من دون عناء. وحين فكّرت في ذلك، عضّ شيء ما كاحلها

الأيسر. لمسته بعد قليل ووجدت أن قدمها متورّمة. غمغمت قائلة: «من المستحيل أن أحصل على تصريح السفر». لن تستطيع الخروج من هذا المكان إن عضّتها أفعى سامة. لم تكن راغبة في الموت في هذا المكان الكريه، لكن خطواتها غدت أبطأ عن ذي قبل. استعادت ما حدث في الصباح، حين قضت مع العمّ غو وقتاً لطيفاً. قال إنها ملكة زهور الكاميليا في هذه المدينة، هل كانت جميلة في عينيه إلى هذه الدرجة؟ حتى تاجر الأفيون قال إنه رجل وسيم.. ثمّة جمال فريد يتمتّع به. كان حظها بائساً، فلا تستطيع أن تكون صيادة، ليس بمقدورها أن تكون إلّا أحد المتجوّلين في الليل، مثل هؤلاء المؤرَّقين. تشعر الآن بالبرد. ربما ستموت؟ لا، لا تزال تسير بخطوات مترنّحة. كانت تسعى لسنوات عديدة إلى شيء واحد، هل عثرت عليه يا ترى؟ سمعت آسي نفسها تضحك، كم هذا غريب! لا ينبغي عليها الضحك، لكنها لم تستطع منع نفسها. وعبر صوت ضحكاتها رأت ورشة العمل في مصنع غزل القطن. خارجها كان ذاك الطريق الأسمنتي اللامع، وعلى جانبيه أشجار صفيراء اليابان الباسقة الرائعة. كيف خرجت من هذا المكان إلى هنا؟ بذلت جهداً في التفكير. ثم شعرت بسخونة تغمر بطنها، يبدو أنها لن تموت. لماذا لم يمنحها أحد تصريح السفر؟ ربما لا تستحقّه؟ آه، كان جسدها محموماً، ولم تكن إصابة قدمها مميتة. عليها أن تصرّ على أسنانها وتتحمّل وتخرج من هذا المكان. لطالما استطاعوا الخروج، يمكنها هي أيضاً! قال تاجر الأفيون إنها «بمقدورها فقط أن تحرس المدخل وتنقل أشياء صغيرة»، ربما كان يوجّهها.

لا تذكر آسي كيف فقدت وعيها. حين أفاقت سمعت صوت تاجر الأفيون أ. يوان أعلى النقالة التي تستلقي عليها قائلاً: «لماذا لم تمنحوها تصريح السفر؟».

«لأن...»، قال ذلك الرجل في الأمام.

رغبت بشدّة في أن تعرف ماذا سيقول، إلّا أنها فقدت وعيها من جديد.

كانت في منزلها حين استعادت وعيها للمرة الثانية. كان أ. يوان جالساً في الشرفة، وبدا طيفه من الخلف وحيداً. كان يئنّ.

«أ. يوان!» - نادته.

- استيقظتِ، هذا جيد. كنت أفكّر للتو، أنه لا شخص آخر في هذا العالم يحبني أكثر من آسي. ماذا جرى لي؟ سقطتِ في مياه المجاري، وغمرت الأوساخ عنقك، لكنكِ كنت تقبضين بشدة على حقيبة المجوهرات التي أعطيتها لكِ.. وذلك العقرب، الذي كاد يقتلكِ. آسي، إن شجرة فاسدة مثلي، كان من الأفضل أن يشقّها البرق منذ زمن طويل.

- لا تستسلم وتفقد الثقة بنفسك يا أ. يوان. أيّ «مجوهرات» تتحدّث عنها؟ لماذا لا أتذكّر أي شيء؟ كان هناك ماسورة مجاري، أليس كذلك؟

- آه، لا تفكّري فيها! لقد حصلتِ على تصريح سفر من الدرجة الأولى، من الآن فصاعداً بوسعك الذهاب إلى أيّ مكان تريدينه، ستُفتَحُ لكِ كلّ الأماكن السرّية.

كان بوسعها النزول من السرير رغم قدمها المُضمّدة. أسندها أ. يوان إلى الشرفة، وجلس الاثنان أحدهما إلى جانب الآخر على كرسيّين من الخيزران. رفع زجاجة عطر أمام عينيها.

- ما هذا؟

- العقرب الأحمر. كان مُتشبّثاً بكِ حين عثرنا عليكِ، فأخذته لكِ كتذكار، ألّا ترينه جميلاً؟

- شديد الجمال. كيف أنقذتم حياتي؟!

- الأشخاص أمثالنا دائماً يحملون بحوزتهم بعض الأدوية. يُسمّى العقرب الأحمر أيضاً بـ«سبع خطوات سقوطاً»، إن قدرك ألّا تموتي. لقد وقع العقرب في غرام آسي.

حدّقت آسي إلى الحيوان الصغير، وانبثقت من أعماق قلبها عاطفة أخوية تجاهه.

- هل هو تصريح سفري؟

- أجل. ألا تعتقدين أنه يشبه أحداً؟

- أ. يوان، خذه معك وأرجِعه إلى الماسورة عندما تغادر!

كان ثمة نوعٌ من السكون الغريب المحيط بـ«مجمّع الكاميليا السكني». وأمامهما، كانت شمس الغروب الحمراء معلّقة في السماء القاتمة. لكن الساعة الآن الثانية عشرة ظهراً. سألته آسي عن الوقت، فردّ قائلاً إنها الثانية عشرة، ولم يرَ الأمر غريباً.

«كيف تغرب الشمس؟»، غمغمت آسي.

- حدث هذا الأمر عدة مرات في منطقتكم، ولا تعلمين عنه شيئاً لأنك تنامين طوال النهار. في اعتقادي أن آسي سعيدة الحظ لأنها تعيش هنا. هل ترين هذا الشخص في الحديقة، إنه يرقص بفرح، هل هو صديقك؟

- إنه جاري «المُبَلِّغ». يفرح حين أعود إلى المنزل. لندخل، أخشى أن يبلِّغ عنك!

عادت آسي إلى سريرها، وقال أ. يوان إنه ذاهب لقضاء مهمة عاجلة، وأخذ العقرب.

خطر ببالها حينئذٍ أن تتفقّد إصابتها. كان الورم قد خفّ من كاحلها تماماً، ولا يوجد أثر لجرح، وحين دقّقت النظر رأت بقعة حمراء باهتة،

ربما لم يلسعها عقرب. لكنها تذكر بوضوح أن كاحلها تورّم وهي في الماسورة، أو ربما تورّم لأسباب أخرى. لقد أراها أ. يوان العقرب الأحمر متظاهراً بالجدّية.. هذا الحيوان الصغير حقاً تحفة من تحف الطبيعة، من أين أتى به؟ كان بمقدوره اكتشاف أجمل الأشياء، وكانت بصيرته الثاقبة طاغية عليها.

نزلت من سريرها واستحمّت، وارتدت ملابس أكثر راحة، ثم تناولت من الثلّاجة بعض الأطعمة، التي جهّزها أ. يوان من أجلها. يا له من حبيب حنون!

بعد تناول طعامها، قرّرت آسي أن تبتعد عن أ. يوان لأنها لم ترغب في خوض هذه التجربة المُروّعة مرة أخرى. وقالت لنفسها: «آسي لم تعد شابة، آسي تريد أن تحظى ببضع سنوات مريحة، آسي...».

كان «المُبَلّغ» يقف عند الباب، وعلى وجهه ملمحُ ألم.

- يا آنسة سي، سمعتك منذ قليل تقولين إنكِ تريدين الراحة؟ هذا ليس من شيمك، إنك تُعتبرين شخصية هامة في مجمّعنا السكني، عليكِ واجبات، لا يمكنك أن تتبعي قلبك وتفعلي ما يحلو لكِ!

كان صوته يعلو شيئاً فشيئاً أثناء كلامه، ويلوّح بيديه، وكانت آسي تتطلع إليه بذهول والشكوك تملأ نفسها. تردّدت قليلاً ثم قالت ببطء: «من فضلك، لماذا بلّغت عني في تلك السنة واتصلت بالشرطة لاعتقالي؟».

«ما زلتِ لا تعرفين!» - تغيّرت ملامحه على الفور مُظهراً اهتمامه بهذا السؤال.

- يا آنسة سي يا آنسة سي، هل أنتِ حمقاء أم تتظاهرين بالحمق؟ حين أُرسلت إلى مركز الشرطة للتأديب، كان من أجل إعلاء مكانتك في مجمّعنا السكني! انظري إليّ، أحرس منزلك شهراً بعد الآخر، وسنةً تلو

الأخرى، وأؤدي عملي بضمير وإخلاص، من أجل ماذا؟ إن كنتِ تظنّين أنني أضمر نيّة سيّئة فأنتِ مخطئة! أخبرتك من قبل، لا شيء سيؤثّر على مكانتك في مجمّع الكاميليا السكني.

وضع باقة زهور أقحوان ذابلة على حافة نافذتها. انتابها شعور بأن بذلته المجعّدة وربطة عنقه الرخيصة ما هي إلّا تَنكُّر، هذا العجوز ليس شخصاً عادياً على الإطلاق. ربما كان تربطه علاقة بها قبل وقت طويل جداً حين كانت لا تزال طفلة، ورأت أن نظراته تُلمّح إلى هذه العلاقة. التفت وقال: «ثمة مسؤولية ما تقع على عاتق كل شخص في العالم، وعلى الآنسة سي أن تكون صارمة مع نفسها!».

أحسّت آسي أن كلامه مضحك، لكنها لم تضحك مطلقاً، بل تذكّرت إحدى الذكريات الكئيبة فجأة. حاولت قدر استطاعتها أن تستعيد هذه الذكرى بعد مغادرته. تذكّرت بحيرة، رياحاً غربية، بطاً بريّاً، وزورقاً بخارياً يختفي، لكنها عجزت عن تذكّر مع مَن كانت آنذاك. لم يكن تاجر الأفيون ولا العم غو على كل حال، لأنها كانت لا تزال طفلة. ربما كانت مع «المُبَلِّغ»؟ أيّ واجب تحمل على عاتقها؟

عادت آسي في الشتاء إلى مصنع غزل القطن. أفلس المصنع منذ وقت طويل، وكان خالياً من أي شخص، وأبواب ورش العمل جميعها مغلقة. كان ثمة شجرة بلوط أخضر صيني تحاذي النافذة، تسلّقَتها آسي، وفتحت الشباك الخشبي ببطء، ومدّت ساقها وجلست على حافته العريضة. كانت الآلات في الورش قد نُقلت، والأرض الأسمنتية تملؤها حفرٌ وشقوق. انتبهت آسي إلى حبل ثخين من ليف النخيل إلى جانبها ملفوفٍ حول عمود حديدي ومتدلٍّ على طول الأرضية، فتتبّعت الحبل.

تقف الآن في ورشة العمل المألوفة المهجورة. ألقت نظرة على مؤخرة الورشة، ورأت علّيّةً مرتفعة بُنيت هناك، فاتجهت صوبها بحذر.

كانت تلك العلّيّة في الحقيقة مرتفعة، لأن مصنع غزل القطن المبني على الطراز القديم مرتفع أيضاً. كان الدّرج متداعياً، وبدا شديد الخطورة. مَن يعيش في مكانٍ كهذا؟ كان ثمة مَن يتحدّث في الأعلى.

- أنا هونغ شينغ، موظّف الاستقبال القديم يا آنسة سي. أتودّين الصعود؟

استجمعت شجاعتها ووطِئت ذلك الدّرج القابل للانهيار وصعدت ببطء، وحين أوشكت على الوصول سحبها العجوز إلى الأعلى.

قالت آسي وقد تورّد وجهها: «شكراً جزيلاً لك، أنا في غاية الحَرَج!».

لم يكن في العلّيّة غير سرير معدني ضيق، وطاولة صغيرة وكرسيَّين. رأت آسي على الطاولة عدّة إطارات صور اصفرّ لونُها. التقطت واحدة وأنعمت النظر فيها وميّزت نفسها الشابة بين مجموعة من الناس.

- يا عمّ هونغ، ماذا تعمل هنا؟

- لقد خسرت عملي، وبنيت هذه العلّيّة لأعيش فيها، أريد أن أُسجّل تاريخ مصنع غزل القطن. هل تعلمين أن هذا المصنع يعود تاريخه إلى مئةٍ وخمسين عاماً؟

تأملت آسي وجه العجوز المتغضّن مثل لحاء شجرة وهزّت رأسها.

- وصلتُ في الكتابة تقريباً إلى جيلكم، أنتِ، لونغ سي شيانغ، جين تجو، شياو يان... حتى إنني أعطيتكن اسم «عصافير الحب». أنتِ عصفور حبّ حلّق هارباً من هذا الجحيم. ورغم أنني كبرت في السن، إلّا أنني أتحمّس للغاية كلّما سمعت خبراً عن الآنسة سي، أنتِ فخر عمّال مصنع غزل القطن!

أخرج من درج الطاولة مفكّرة ضخمة، وقلّب فيها لعدةِ ثوانٍ، ثم أغلقها. بدا وكأن حبل تفكيره انقطع، ثم استكمل من مكانٍ آخر.

- كان مدير منتجع الينابيع الحارة من عمّال مصنع غزل القطن أيضاً، على الأرجح الآنسة سي لا تعلم أليس كذلك؟ إن هذا الرجل يجيد التنكّر! فكّري في الأمر، لقد عثرتنّ واحدة تلو الآخرى على عمل هناك، هل هذه مصادفة؟ إنها حكاية في تاريخ المصنع ستتناقلها الألسن.

لم تنتبه آسي متى دخلت هذه الخفافيش، وظلّت تحوم في دائرة داخل ورشة العمل، وتصطدم بالجدار باستمرار، مصدرةً صوتاً حادّاً ومخيفاً. شدّت آسي قبضتها في توتّر شديد.

- يا آنسة سي، أنتِ من الجيل الأول الذي خاض غمار العمل، ولقد سجّلتُ بعضاً من أعمالكِ الماضية. مصنع غزل القطن على وشكِ أن يختفي من على الأرض، لكنّ تاريخه لن يختفي. وإنها لمعجزة أن ترعى ورشةَ العمل الأشبه بالجحيم امرأةٌ مذهلةٌ مثلكِ. أنتِ عصفور حبٍّ، تحلّقين أعلى فأعلى مؤخراً، ولن تسقطي بسهولة، أليس كذلك؟

وبينما كان العجوز يجلس إلى الطاولة ويتحدّث، رأت آسي وجهه المتغضّن ينكمش بحدّة، وكأنه دودة قزّ تطرح جلدها، وشيئاً فشيئاً، انكمشت حواسه الخمس وبدا وجهه ككومة مجعّدة، وكأنه قناع على وشك السقوط. كان لا يزال يتكلّم، لكن فمه لا يُرى. انقضّ عليه خفاش وصدم رأسه الأصلع ثم اختفى.

انحنى العجوز على الطاولة في تلك اللحظة وسُمع له غطيط. أرادت آسي أن ترى هل سقط جلد وجهه أم لا، لكن يده غطّت وجهه بقوة، ولم تستطع رؤية شيء. اصطدم خفّاش بوجهها تاركاً إحساساً بالخدر في نصفه. فكّرت قليلاً وقرّرت أن تغادر.

سمعت صوت العجوز حين وصلت إلى منتصف الطريق الدّرج: «يا آنسة آسي، لا تتقاعسي!».

كانت على وشك أن تتسلّق ذلك الحبل إلى النافذة حين فُتح باب الورشة فجأة.

ظهر أربعة رجال يرتدون خوذات ونظّارات سوداء وملابس واقية أمام الباب، وصرخ واحد مشيراً إليها بإصبعه قائلاً: «هذه خفافيش سامّة! انظروا إلى تلك المرأة، ما بالها؟ هل لديها مناعة مثل العم هونغ، هذا المسخ العجوز؟».

تجاهلها هؤلاء الرجال، وهرعوا إلى الدّرج وهم يكسرون كلّ شيء بهراواتهم الحديدية. دوّى صوت وتهاوت العلّيّة.

رأت آسي الألواح الخشبية مبعثرة على الأرض لكنها لم ترَ العجوز. هل دُفن أسفلها؟

وقف الرجال الأربعة هناك، مرتبكين من المشهد أمامهم. رأى رجل قصير من الرجال أنها لا تزال تقف عند الباب فسألها: «هل تحاولين وهذا الشخص عكس حكم التاريخ؟».

لم تجبه آسي، لأنها في الحقيقة لا تعلم.

قال آخر وهو يكزّ على أسنانه: «هيه، سأقبض عليه حتى لو اختبأ في الجحيم! هل يجرؤ على صنع التاريخ! انظروا إلى هذه الأخشاب البالية!».

قلّبوا بين الأخشاب مرة أخرى بهراواتهم ولم يعثروا على شيء. انتابتها رغبة في الضحك، فغطّت فمها وركضت إلى الخارج.

الشمس في الخارج مشرقة، وكان ذاك الطريق الأسمنتي الباهت قديماً بعض الشيء، فيما ظلّت أشجار صفيراء اليابان العالية على جانبيه جميلة.

التفتت آسي ونظرت عدة مرات إلى ورشة العمل التي دفنت شبابها، وذُهلت لأن سطح الورشة قد هُدم. كان في حالة جيّدة للتو! شعرت بأن ثمة خطراً في هذا المكان، وعليها أن ترحل فوراً، فبدأت تركض.

أمسك بها شخص حين وصلت أخيراً إلى بوابة المصنع، وحاولت أن تلتقط أنفاسها وترتاح. كان أ. يوان. فاحت من جسده رائحة كريهة، وقال إنه خرج للتو من ماسورة المجاري.

- أراك في «الميناء الحر» في الساعة الواحدة والنصف صباحاً!

دفعها بقوة وركب السيارة بمفرده وانطلق.

ألقت آسي نظرة أخيرة على مصنع غزل القطن، وشعرت بالخواء. تذكّرت كلام العم هونغ، وأدركت ما عناه بكلمة «التاريخ». أليس التاريخ حدثاً عالقاً في الذهن لا يُنسى؟ بدا وكأن الرجال ذوو الملابس الواقية يوجّهون تحذيراً لشخص ما. مَن هذا الشخص الذين يُحذّرونه؟ سرت برودة في عمودها الفقري، وشعرت أن هذا التهديد موجّه لها. تاريخها المُربك، الذي لا تطيق تذكّره، الذي يقلقها أحياناً في منتصف الليل، على أمل أن تعيشه مرّةً أخرى. سيكون من الجيد إن اختفى تاريخها مثل العلّيّة.

سارت آسي في الشارع بتيهٍ وشرود ذهن، وأحسّت بوحدة شديدة. ثم تذكّرت تعبيراً مجازياً: «قارب صغير كورقة شجر في الريح العاصفة والموج الهائج». هكذا رأت حياتها. لماذا لا يمحو أ. يوان وحدتها أبداً، بل على العكس، يزيدها سوءاً؟

كانت تعلم أنها مغطّاة بالتراب والأوساخ، لكنها لم ترغب في العودة إلى المنزل. لتدع معارفها يرون ملامحها الحقيقية، ليست بحاجة إلى تنكّر عديم الفائدة، بوسع الكثير من الأشخاص أن يروا عبره، مثل العم غو.

دخلت إلى مقهى، وطلبت فنجاناً كبيراً من القهوة. كان مقهى متداعياً، فيه غراموفون يذيع أغاني ثورة من الستينيات، وكان مظلماً، من دون إضاءة إلّا من خيط ضوء يتسلّل من السطح حيث تنقص عدة قطع من القرميد. وكان فيه فئران كبيرة تركض هنا وهناك.

بدا كأن هؤلاء الزبائن متحمّسون، ورغم أنه يتحدّثون بأصوات منخفضة، إلّا أنهم كان يطلقون صرخة بين حين وآخر. لم تكن آسي معتادة على هؤلاء الشباب، وكانت متعبة حقاً، فجلست هناك مذعنة لتعذيب أصواتهم. وكاد أن يتشاجر ثلاثة أشخاص على إحدى الطاولات، لكنهم سيطروا على أنفسهم وجلسوا من جديد. في أيّ يوم نحن؟ حاولت جاهدة أن تجيب عن هذا السؤال.

انقضّ عليها أحدهم كهبّة ريح، وأمسك كتفيها وهزّها بقوة.

«آسي، هذا أنتِ حقاً!» -قالت لونغ سي شيانغ بانفعال- «لقد اختفيتِ لمدّة طويلة، بحثنا عنكِ ولم نجدكِ في أيّ مكان! أنا ولاو يونغ سنتزوّج قريباً، هل وصلكِ الخبر؟!».

- مبارك! متى ستتزوّجان؟

خيّم حزنٌ على وجهها حين سألتها آسي هذا السؤال.

- قريباً. نحن نعتقد أنه يجب أن يكون قريباً، لكننا لم نحدّد اليوم بعد. آسي، هل تعتقدين أن عليّ الزواج أم العيش هكذا أفضل؟

- لستُ متأكّدة. مَن بوسعه التأكّد من أمر كهذا؟

- إنه أنتِ حقاً يا آسي! هل ستذهبين إلى «الميناء الحر» الليلة؟ سأذهب أنا أيضاً. سمعت أحدهم يقول للتو إن «الميناء الحر» سيختفي الليلة، سيتُاح لنا أن نرى هذا المشهد.

«سي شيانغ، أما زلتِ تعملين في منتجع الينابيع الحارة؟» - لم يسعها إلّا أن تسألها.

- أجل يا آسي! أظن أنني لن أغادر هذا المكان طوال حياتي.

وضعت لونغ سي شيانغ القهوة على الطاولة وغطّت وجهها وأجهشت بالبكاء.

انتظرت آسي بصبر أن تفرغ من بكائها. ولم تبكِ لمدّة طويلة على كلّ حال.

«قابلتُ رجلاً حنوناً ومناسباً جداً للزواج!» -بدا وكأن لونغ سي شيانغ تذكّرت فجأة حظها السعيد، ولمعت عيناها- «كان يأتي تقريباً كلّ أسبوع. وفي إحدى المرات ارتكبت حماقة، وكدت أوافق على عرض زواجه، وبعد أن عدتُ إلى رشدي سألتُ نفسي: "لماذا يجب أن أتزوّج؟"، لكني لم أجد سبباً، لذلك تجاهلته في ما بعد. وطبعاً، هذا الشخص لا يُقارن بـ لاو يونغ، هو فقط رجل أنسب للزواج. آسي، سأغادر، لا أستطيع تحمّل هواء هذا المقهى، له رائحة الجثث».

وخرجت مثل هبّة ريح.

غمغمت آسي لنفسها: «إن الأخت سي شيانغ امرأة جميلة». وتساءلت عن معنى التاريخ بالنسبة لـ سي شيانغ؟

جاءت نادلة طويلة القامة، وهمست في أذنها: «هل ستذهب الآنسة سي إلى الميناء الحر؟».

ردّت آسي مندهشة: «كيف عرفتِ؟».

أجابت الفتاة بهدوء: «كلّ زبائننا هنا يذهبون إلى الميناء الحر. انظري إلى الخارج، ستظلم السماء ما إن تقولي "تظلم". مديرنا يمنع فتح الأضواء، تعالي معي!».

قادت آسي ودارت الاثنتان حول تلك الطاولات. انتبهت آسي أن المكان خالٍ إلّا من وقع خطواتهما.

تذكّرت كلام لونغ سي شيانغ فسألتها: «هل هناك موتى هنا؟».

«الكثير»، ردّت النادلة بطريقة مبهمة.

تحوّلت يد النادلة إلى زوج من الكماشات، ولم تترك يدها إلّا حين صرخت آسي من الألم. وحين أفلتت يدها، اتجه طيفها جانباً واختفى.

وقفت آسي في العتمة، عاجزة لبعض الوقت عن تحديد مكانها. وبعد لحظة رأت ضفة نهر ومركب صيد، ومصباحاً في المقصورة، وطيف العم غو يقف في مقدّمته.

لم تستطع أن تصل إلى ضفة النهر أمامها. وكلّما حاولت جاهدة أن تقترب من المركب ابتعدت عنه.

تحاشت آسي المطر الغزير حين هطل عند بوابة مستودع ورق، وقد تكدّست في الداخل رزم أوراق الصحف في أكوام حتى السقف، وكان ثمة ممرّ ضيق بينها ينيره مصباح صغير. رأت عدداً كبيراً من الناس في الممرّ، ملابسهم مبلّلة، ويبدو عليهم الذعر الشديد.

قال أحدهم: «هل أُطلق سراحه؟ كم هذا مرعب!».

وفكّرت آسي أنها ليست بحاجة إلى الانعتاق، فهي تأمل أن يكون ثمة حبل يثبّتها بشدة وإحكام لكيلا تذهب بعيداً. إذاً، هل أطلق سراحها الآن؟ كان هؤلاء الناس ينظرون إليها بعيون متلهفة، وكأنهم يرجون منها شيئاً. كان جلياً أن هؤلاء الأشخاص الذين يشبهون دجاجات منقوعة في حساء لم يحصلوا على حريتهم. وانتبهت آسي إلى أن شخصاً شديدَ الشبه بـ أ.

يوان بينهم، وقفت على أطراف أصابعها لترَاه، لكنه كان يتزاحم هنا وهناك، فلم ترَه بوضوح.

ربّت أحدهم على كتفها قائلاً: «إن أردتِ أن تري المشهد من أعلى، تسلّقي أكوام الورق».

أخفضت آسي رأسها. ماذا سيعني عثورها على أ. يوان؟ لم تكن تنتمي إلى مجموعتهم، وستظلّ دائماً معزولة وتجهل ما يجري حولها.

دوى الرعد في الخارج، وأشعل البرق كومة فضلات الورق أمام البوابة. سدّ الحريق الباب، وتدفّق الدخان إلى الداخل. بدأ الجميع في السعال، وسعلت آسي أيضاً. اختنقت وحاولت أن تهرب إلى الخارج، لكن هؤلاء الأشخاص اعترضوا طريقها. كانوا يسعلون ويقولون: «تماسكي قليلاً، ستخمد النيران في مثل هذه الأمطار الغزيرة. هل نسيتِ سبب مجيئك هنا؟ فكّري قليلاً!».

لم تخمد النيران، ولم تشتعل أكثر كذلك. كان الجميع ينتظر، ماذا ينتظرون؟ أمسك شخصان طرفي ثيابها ليمنعاها من المغادرة، وفجأة ومض ذهنها وصاحت: «هذا الميناء الحر!».

سقطت كرة نارية متوهّجة على حزم الورق مع صوت صراخها، واشتعل المستودع بأكمله بعد دقائق. وكانت آسي قد اندفعت إلى الخارج قبل ذلك غير عابئة بأيّ شيء، وجلست في حديقة وسط الطريق يغسلها ماء المطر. شاهدت بعينيها عدة أشخاص يحترقون، هل أ. يوان من بينهم؟

كان المستودع يقذف بدخان أسود، لكنه لم ينهَر، ثم خمدت النار من تلقاء نفسها، وكان هذا شيئاً غريباً للغاية. سمعت آسي شخصاً يتحدّث قُربها ويلومها على أنه ما كان عليها أن تصرخ منذ قليل وتزعج الناس.

قالت ساخطة: «مَن لا يعرف أن هذا الميناء الحر؟ هل من الضروري تذكيره؟».

صاح بعض الأشخاص عند باب المستودع: «هناك جثة! هناك جثة!».

خفق قلبها، وركضت بأقصى سرعة إلى المستودع.

كان رماد الورق الخانق يملأ المكان مُسبّباً صعوبة في التنفّس. لم تحترق كل حزم الورق، لكن النار خمدت. تجمّع سبعة أو ثمانية أشخاص حول الجثة المتفحّمة. قلب أحدهم الجثة بقسوة بعصا حديدية، وأدركت آسي أنه واحد من الرجال الذين دمّروا العلية في مبنى المصنع. وحين قُلبت الجثة، قعقعت زجاجة صغيرة وتدحرجت إلى قدمي آسي. التقطتها ورأت العقرب الأحمر يحرك ذيله في اهتياج شديد.

كانت آسي في غاية الهدوء في هذه اللحظة لدرجة أذهلتها، وكأن ثلجاً غزيراً يهطل في عقلها. هذه الكآبة المُطلقة. أخرجت الموبايل واتصلت بكلٍّ من لونغ سي شيانغ والسيد يو. وأخبرتهما بما حدث وطلبت منهما المجيء إلى مستودع الورق على الفور.

انحنت وطبعت قبلة قوية على الشفتين المتفحّمتين، وشعرت أن الجلد التصق بشفتيها. وحين نظرت إلى الجثة، كان مكان الشفة بقعة سوداء. أخذت الزجاجة ونهضت وخرجت من المستودع من دون أن تنظر خلفها.

هطل المطر الغزير عليها وآلمها، لكنها لم تلاحظ ذلك. كان هناك كثيرٌ من الناس حاملين مظلّات يلحقون بها ويصيحون: «آسي! آسي!».

اعتمدت آسي على حدسها في الوصول إلى ماسورة المجاري. ودفعها نجاحها السلس إلى أن تفكّر تلقائياً في أمر تصريح السفر.

سارت إلى داخل الماسورة الذي لم يكن مظلماً تماماً، إذ تناثر ضوء

خافت هنا وهناك. شعرت بأن كل موضع يشبه المكان الذي فقدت فيه وعيها من قبل.

توقفت وانحنت، ثم فتحت غطاء الزجاجة وتركت العقرب يزحف خارجاً. في البداية ظلَّ الحيوان الصغير ساكناً، وكأنه يفكّر في الأمر. دقّت آسي بإصبعها على الزجاجة بخفّة وببطء، ونادته ببعض الأسماء المحبّبة، بعد ذلك وضعت الزجاجة على قطعة من الطوب، ورقصت رقصة من شينجيانغ في مياه المجاري، وهي تدندن برقّة أغنيةً ويغورية. وبعد أن انتهت من رقصها وغنائها التفتت، فوجدت أن العقرب الجميل قد اختفى. تنفّست آسي الصّعداء، ووضعت الزجاجة في جيبها.

رأت الشمس الحمراء ترتفع من الشرق بعد عودتها إلى الطريق العام. هل هذا يوم جديد؟ ما الذي يجري؟

«لقد حرقنا جثمانه» -قالت لها لونغ سي شيانغ- «مثلما أمرني أنا والسيد يو. وقال ألّا نتأخر للحظة. انظري يا آسي، هذا هو!».

أعطتها لونغ سي شيانغ جرّة خزفية صغيرة جداً.

- شكراً لكِ يا سي شيانغ. لماذا هو هذا القليل فقط؟

- أجل، تعجبتُ أيضاً وسألت العمّال. ربما لم يبقَ منه إلّا القليل، لأنه أنهك نفسه. كان رجلاً وسيماً حقّاً.

أخذت آسي الجرّة وتفحّصتها، وهي تئنُّ أنيناً غريباً.

سألتها لونغ سي شيانغ بقلق: «هل أنتِ بخير يا آسي؟».

- لكم كان وسيماً!

«كان وسيماً جداً. ربما كان يقف في المحرقة.. وإلّا فلماذا تَبقّى منه

هذا القدر الضئيل؟ قال العمّال إن هذا لم يحدث منذ سنوات عديدة»، قالت لونغ سي مستغرقة في تفكير حالم.

- هل قالوا هذا حقاً؟

- أجل.

كانت لونغ سي شيانغ قلقة عليها، فأوصلتها حتى منزلها في «مجمّع الكاميليا السكني»، واتصلت في الطريق بـ جين تجو بالذات. وبعد أن وصلتا إلى المنزل بفترة قصيرة، جاءت جين تجو بسيارة أجرة.

لم ترغب آسي في أن تُغرق صديقتيها المقرّبتين في حزنها، فاستجمعت شتات نفسها، وحكت لهما عن مغامرتها في ورشة مصنع غزل القطن.

قالت لونغ سي شيانغ: «سمعتُ أن العمّ هونغ كان يكتب تاريخ مصنع غزل القطن، وكنتُ أظن أن التاريخ هو تلك الأمور التافهة، كتطوير الإنتاج، التجارة، ومبيعات المنتجات وغيرها. ولم أتوقع أنّه سيكتب عنّا، أشعر بالخجل الشديد. آسي، هل دُمِّرَ كتابُ التاريخ حقّاً؟ هل ضحّى العمّ هونغ بنفسه حقّاً؟ ربما استطاع الهروب؟».

- كان بإمكاني رؤية ورشة العمل بأكملها رغم مساحتها الكبيرة، لم يكن لديه أيّ مكان يهرب إليه. أعتقد أنه قُضي عليه وعلى مفكّرته. كان عاجزاً عن مواجهة هؤلاء الأشرار الثلاثة.

صمتت النساء الثلاث. ثم قُلن فجأة بصوت واحد: «وهذا أيضاً تاريخ، من حسن الحظ أنه دُمِّر!».

ثم أضافت جين تجو: «لم تُدمَّر غير المفكّرة، قابلت العم هونغ للتو، كان هادئاً جداً، وقال إنه لن يسجّل التاريخ مرة أخرى، بل سيصنع التاريخ، لم أفهم حينئذٍ ما يعني. هكذا الأمر إذاً!».

«نحن نريد صنع التاريخ أيضاً!» -قالت آسي بحماس- «سأطبخ لكما سمكة ماندرين».

اندفع الثلاثة إلى المطبخ كهبّات ريح وانهمكن في الطهي.

كانت تتوقف بين حين وآخر خلال ذلك شاردة الذهن، وحينئذٍ تغمز لونغ سي شيانغ لـ جين تجو وتقول بصوتٍ مرتفع: «اسمعي يا جين تجو، أريد الموت بسعادة مثل تاجر الأفيون، ما رأيك، هل تعتقدين أن بوسعي تحقيق أمنيتي؟ لا أعرف!».

- وأنا أيضاً لا أعرف. هذا يعتمد على قَدَر كلّ شخص. كيف لنا أن نطالب به؟

ضحكت آسي وقالت: «لا داعي للتمثيل، سأفهم الأمر في النهاية».

شرب الثلاثة كثيراً من الخمر أثناء تناول الطعام. وضعن الجرّة الخزفية المليئة بالرماد على الطاولة، ورفعن كأساً تلو الآخر لها.

«جين تجو، سمعتُ أنكِ تزوّجتِ مؤخراً؟»، سألتها آسي بشرود ذهن.

- أجل. حصلت على السعادة. حصلنا نحن الثلاثة على السعادة، أليس كذلك؟

«في صحة سعادتنا نحن الثلاثة!»، قالت لونغ سي شيانغ.

قلن معاً: «في صحة السعادة!».

تناثر الشراب في كل مكان لارتجاف أيديهن بشدة. وسطع ضوء لامع في أفئدتهن.

دخل «المُبَلّغ» من دون أن يطرق الباب، وسار إلى طاولة الطعام بملامح صارمة، ووضع الجرّة ناحيته وانحنى احتراماً ثلاث مرّات.

«هل أنت صديق آسي ذاك؟ أعتقد أنك تغيّرت»، قالت لونغ سي شيانغ.

- إنني أكنّ الاحترام والإعجاب لهذا السيد في الجرّة.

بدت هيئته شديدة الوقار، مثل جنرال. استدار بسرعة وغادر.

قالت لونغ سي شيانغ: «عليكِ أن تضعي هذا السيد في اعتبارك لاحقاً!».

- إنه لغز بالنسبة لي في الوقت الحالي، ثمة شخص آخر أفكّر فيه.

قالت جين تجو: «على آسي أن تبحث عن سعادة جديدة».

«انظرا، إن سعادتي هنا!»، قالت آسي وهي تمسك عِصيّ الطعام وتشير إلى هيكل السمكة في طبق الحساء. نظرن إلى الهيكل الخالي من اللحم الذي يطفو في الحساء، ودار ثلاث دوراتٍ ثم استقرّ في قاع الصحن. تبادل الثلاثة النظرات بذهول.

- هذه السعادة التي بوسعنا الشعور بها فعلياً، لا علاقة لـ أ. يوان بها. وأنتِ مع أ. يوان لن تشعري بالسعادة، بل بالتعاسة فحسب. لكن، ما زلت أرغب في أن أشنق نفسي على شجرته، لماذا؟

تذكّرت آسي والدتها حين قالت ذلك، وكانت تحدّق في نقطةٍ ما في الهواء.

تنهّدت لونغ سي شيانغ وردت: «ذلك لأن في طبعنا شيئاً من الجنون»، ثم نهضت فجأةً قائلةً إنها ليست على ما يرام، وعليها أن تعود للراحةِ في المنزل.

بعد أن غادرت، أخبرت جين تجو آسي أن لاو يونغ يواعد فتاة شابّة، وأن سي شيانغ قرّرت ألّا تتزوج مطلقاً رغم إلحاحه على الزواج منها.

كانت جين تجو قلقة، وراودها شعورٌ مبهم بأنّ ثمّة منعطفاً في حياة سي شيانغ قادماً ومحفوفاً بالشرّ.

- أقسمت أنا ولونغ سي شيانغ ونحن في ورشة العمل الأشبه بصندوق مغلق أن نسعى في البحث عن سعادتنا.

رأت جين تجو أن حظّها هو الأفضل من بينهن، لذلك تشعر بأن ثمّة مسؤوليةً تقع على عاتقها في الاهتمام بأختيها. لَكَم كان صعباً الحصول على هذه الحرية التي تنعمان بها اليوم!

- جين تجو، لا تكوني مفرطة التشاؤم! حسبما أرى، فالأشخاص مثل سي شيانغ دائماً واثقون من أنفسهم. فكّري في الأمر، لقد ماتت مرّة، فهل ستجلس وتستسلم لهلاكها في الأوقات العصيبة؟

- لديك فكر ثاقب وتفكّرين في الأمور بوضوح، ربما أُفرط في قلقي.

سرى الحزن على وجهها. شربت نخباً أخيراً في صحة رماد تاجر الأفيون واستأذنت بالمغادرة، وأوصلتها آسي إلى البوابة.

استقلّت جين تجو سيارة أجرة. وحين التفتت آسي عائدةً رأت «المُبَلِّغ» من جديد.

قال: «إن رغبتِ أن تري حبيبك، بوسعك ذلك!».

«كيف؟!»، سألت آسي بصوت مرتجف.

- 132 شارع الكورنيش، إلى جانب آخر آلة في «الميناء الحر»، الساعة الثانية صباحاً.

- شكراً لك.

عادت آسي إلى منزلها، ونظرت إلى جرّة الرماد الصغيرة، واستحوذ عليها الحزن من دون أن تدرك، لكنّها لم ترغب في البكاء، ولم تعرف

السبب. حاولت جاهدة أن تتذكّر مشهد مقابلتها لـ أ. يوان أمام بوابة مصنع غزل القطن. تذكّرت فجأة التعبير القاسي الذي لاح على وجهه. ما معنى هذا التعبير؟ كانت آسي قلقةً عليه آنذاك، وخشيت أن يرتكب جريمة قتل. ولكن اتضح أن هذه القسوة كانت موجّهة لنفسه. كان هذا الحريق الغريب غامضاً، وكأنه ثمة شيء يغشاه بينما يقترب شيء آخر مروّع. وقفت آسي بين هؤلاء الناس ولم تكن خائفة. كانت هكذا دائماً، لا ينتابها الخوف حين تكون في خطر.

هل كانت ستذهب بابتهاج إلى «الميناء الحر» لو كانت تعلم خطة أ. يوان لقتل نفسه من قبل؟ ولكنّها أيضاً لم تعرف أن هذا «الميناء الحر» في البدء. وتذكّرت الآن مقابلتها، قبل هذه الحادثة، لـ سي شيانغ، التي قالت إنها ستذهب إلى «الميناء الحر» أيضاً. نسيت آسي هذا الأمر كُليّاً. ومن البديهي أن تذهب هي أيضاً إلى مستودع الورق، ربما كانت آنئذٍ برفقة أ. يوان، وربما شهدت بعينيها موته في الحريق ولم تساعده. ولماذا لم تذكر أين كانت وقت وقوع الحادثة؟ راحت آسي تفكّر مليّاً في سلوكها، وشعرت أنها كانت شديدة الهدوء، على الأرجح كانت على دراية بخطة أ. يوان. قلب الإنسان عميق لا يُسبرُ غوره! كان الجميع يعرف خطة أ. يوان، إلّا هي! هل فعل ذلك لأجل أن تنعم بحياة أكثر سكينةً في المستقبل؟ هذا ما استطاعت آسي التوصّل إليه، كما أن ذلك يتوافق مع الوقائع، أَلَم تقل لها جين تجو منذ قليل إن عليها البحث عن سعادة جديدة؟

لم تستطع البقاء في المنزل، فخرجت إلى الشارع. كان الوقت منتصف الظهيرة، وبدت المدينة خاملة، وكأن شيئاً لم يكن. تجوّلت على غير هدى، ووجدت نفسها من دون أن تعي في ذاك المقهى.

رأت من جديد تلك النادلة الطويلة. كان وجهها خالياً من أيّ تعبير،

وكأنها لا تتذكّر آسي مطلقاً. صبّت لها القهوة نادلة قصيرة ممتلئة الجسم ذات وجه حزين.

كان الغراموفون يصدح بأغاني الثلاثينيات بصوت مُتقطّع، ربما الشريط تالف. انتبهت آسي إلى أنها الزبون الوحيد في المقهى.

قالت لها الفتاة: «الأخت آسي، تذوّقي التوت الأحمر من محصول هذا العام!».

- كيف عرفتِ اسمي؟

- الجميع يتحدّث عن الحادثة، لكننا لا نُضمر أيّ نيّة سيّئة، ثقي بذلك أرجوكِ!

خيّم حزنٌ على وجه الفتاة، وكأنها على وشك البكاء. وفكّرت آسي في أنها لا تتظاهر، وإذ راودتها هذه الفكرة، سمعتها تتحدّث.

- لقد أحببتُ أنا أيضاً هذا المجرم أ. يوان. كان يتردّد على مقهانا، فكّري في الأمر، إنّ هنا موطن الدفء، فكيف لا أقع في غرامه في مناخ كهذا؟ لكنني لم أحسدكِ على علاقتكِ به يا آسي، أريد مساعدتك فقط. توجد امرأة هنا يمكنها إرشادك وتكون وسيطاً، فهي تتجوّل بين الجانبين جيئةً وذهاباً بكلّ حرية.

مكتبة
t.me/t_pdf

- عمّن تتحدّثين؟

- عن تلك النادلة على اليمين، الطويلة.

نظرت آسي إلى بقعة السماء في السقف المتداعي التي أظلمت فجأة وكأنه منتصف الليل. توقف الغراموفون ولم يصدر أيّ صوتٍ مرة أخرى. أشعلت الفتاة القصيرة السمينة شمعة صغيرة، وكانت الشعلة تتمايل. كان شعر الفتاة أشعث، وبدت مثل شبح امرأة في المسرحيات القديمة.

عميقاً وبعيداً في نهاية المقهى كان ثمة ضوء. حملت الفتاة الطويلة شمعة أيضاً، واتجهت بخطوات متمهّلة صوبهما.

«يِن تزي (فضّة)، لا تكوني متشائمة ولا تفقدي الأمل!»، قالت لها الفتاة القصيرة السمينة.

وقفت الفتاة الطويلة مشدوهة للحظة وكأنها ستلتفت وتعود، لكنّها اتجهت صوبهما. ورأت آسي أنها حقّاً شابّة، ربما لم تكمل المرحلة الثانوية.

«أنا ذاك التاريخ»، قالت لـ آسي ولاحت على شفتيها ابتسامة مريرة.

- أيّ تاريخ؟

- أنا تاريخ مصنع غزل القطن. لا تنخدعي بمظهري الخارجي. فأنا.. عمري 35 عاماً! وكنت أعمل في الماضي في مصنع غزل القطن. وذات يوم رأيتُ وفكّرتُ بصفاء، وأصبحت تاريخاً! أليس التاريخ هو الفكر الثاقب والرؤية الصافية؟ هل أنا على حق؟

ثم ألصقت الشمعة على الطاولة. ولم تجب أيٌّ منهما عن سؤالها.

انتبهت آسي إلى أن الفتاة القصيرة اختفت.

كان المقهى موحشاً وشديد العتمة.

قالت آسي: «يِن تزي، لقد تخلّصتِ من معاناتك، كم هذا رائع!».

قالت بهدوء: «آسي، المسي ذراعي!».

حين مدّت يدها، لم تلمسها، بل لمست نباتات ذات أشواك.

أطفأت الشمعة بنفخة، وجذبت آسي إلى أعماق هذه العتمة.

رأت آسي أمامها ما بدا مكاناً فسيحاً، وهناك يقف ثلاثة أشخاص على الأقل يرفعون شموعاً، والمسافة بينهم كبيرة.

سألت آسي: «ماذا يفعلون؟».

- كلّهم حُرّاس. حتماً تعرفينهم حقّ المعرفة.

- لكن، لماذا لا أميّز أيّاً منهم؟

- لأنكِ نسيتِ. لنذهب ونسأله!

اقتربتا من حارسٍ قصير، وحيّته يِن تزي.

- هل جلبتم أيّ شيء اليوم؟

- لا. نحن خاوون حقاً! ين تزي، من أحضرتِ؟

- جمال سابق. كنُ متأهّباً إذاً، لا تكن مُتردّداً!

أخذت يِن تزي بيدها وعبرتا من أمامه.

- يِن تزي، لماذا قلتِ إنني «جمال سابق»؟

- لأنكِ تاريخ، أليس كذلك؟

فكّرت آسي في الأمر لكنها لم تفهم. التفتت لتنظر إلى الحرّاس الثلاثة، لكن الشموع في أيديهم انطفأت، فلم تستطع أن ترى شيئاً.

قالت يِن تزي: «هم الثلاثة تاريخ أيضاً. انتبهي لخطواتك يا آسي! أنا أحبّكِ، ولا أرغب في سقوطك. سنذهب إلى الميناء الحر».

ردّت آسي بحماس: «الطريق مختلف كلّ مرّة أذهب إلى هناك. هل أنتِ ذاهبة للبحث عن أحد يا يِن تزي؟».

- أجل. سأذهب للبحث عن خطيبي. انفصلنا قبل عشر سنوات. تفكيره محافظ ولم يوافق أن أعمل في هذه المهنة.

- تقصدين نادلة في مقهى؟

- لا. أعمل في المهنة ذاتها التي تعملين بها. أحبّ فعل ما يحلو لي.

- يا إلهي! أشعر أنني أصبحت صورة من يِن تزي. أنتِ أيضاً هربت من

مصنع غزل القطن منذ مدة طويلة وعملتِ في هذه المهنة؟ دعيني أمسك يدك فأنا لا أرى أيّ شيء!

لمست هذه المرة يدها بالفعل. سمعت صوت خرير مياه أسفل قدميها، وبعض العشاق يتناقشون حول أمرٍ ما في الماء بحماس.

سألت آسي: «هل نعبرُ جسراً؟».

- تخمينك صحيح. هل ترين هذا الضوء الخافت جهة اليسار؟ هذا هو «الميناء الحر».

ألقت آسي نظرة صوب اليسار، لكنها لم ترَ غير بقعة مظلمة.

- لماذا يقف هؤلاء في النهر؟ أشعر أنهم يتألمون.

- ليسوا محظوظين مثلنا، لم يصبحوا تاريخاً، فهذا يتطلب خوض المصاعب والانتظار.

أجهش زوج من العشاق بالبكاء، فانتابها شيء من التوتّر.

عبرتا الجسر ووطئتا الأرض المرصوفة. دفعتها يِن تزي فجأة وصاحت: «اركضي إلى جهة اليسار».

وما كان لها إلّا أن تركض.

تولّاها شعور بالخوف، فمدّت ذراعيها وسارت إلى الأمام كالمسرنمة. اكتشفت بعد فترة ذاك الضوء الخافت؛ نقطة ضوء خضراء صغيرة كيراعة، لا تُرى إن لم تنتبه إليها. أسرعت خطاها مفعمة بالحماس.

اصطدمت بشخص ما وسمعته يقول: «أنا حارس هذا المكان، يمكنني أن أساعدك في العودة. لكنّك أثرتِ فضولي، لذا غيّرت رأيي وسأسمح لك بالمرور».

- شكراً لسماحك لي بالمرور!

وقفت أمام البوابة، كان المصباح الصغير الأخضر أعلاها، وحيّاها المدير بابتسامة.

قالت مُحرجة: «مرَّ وقت طويل منذ أن أتيت».

- لا بأس. لا يفكّر المرء في أماكن كهذه إلّا أوقات الخطر.

بدا وكأنه يقف هنا خصّيصاً لاستقبالها. تبعته آسي إلى الداخل يملؤها الحماس، وتأملت المكان حولها بعينين مفتوحتين.

كانت صالة الباتشينكو التي تألفها آسي، حيث صُفّت الآلات على جانبي الردهة الضيقة في صف طويل جداً، وأُطفئت الأضواء لأجل خلق جوٍّ من نوعٍ ما. وكانت الصور على الشاشات برّاقة وغريبة. سار المدير بخطواتٍ سريعة في البداية، ثم توقّف فجأة. ربّت على كتف أحد الأشخاص الجالسين على الجهة اليمنى، فأوقف اللعبة بحركة متشنّجة. التفت المدير وقال لها: «هذه الآلة التي كان يستخدمها أ. يوان دائماً، وحفظ عليها الكثير من الأشياء».

ثم أوصى الشاب قائلاً: «تييه تجو، هذه حبيبة أ. يوان، أَحسِن معاملتها!».

قال ذلك وسار إلى الداخل. سحب الشاب مقعداً عالياً وجعلها تندسّ إلى جانبه أمام الآلة.

- الأخت آسي، لا تعرفين كيفية استخدام الآلة أليس ذلك؟ سأساعدك. انظري، هذا أ. يوان، لقد أُصيب بجرح خطير، لكنه لم يرغب في إنقاذِه. كان شخصاً غريباً.

شرح لـ آسي بحماسٍ الصورَ على الشاشة وكأنه كان هناك، لكن الأشياء التي يصفها لم تكن ظاهرة على الشاشة. كان هناك مدٌّ من رمالٍ صفراء، وسطها كوخٌ خشبيّ متداعٍ يجثم على سطحه طائر عقعق. كانت

الصورة ساكنة، وضجرت آسي من طول النظر إليها، إلّا أن تييه تجو كان يحكي القصة بحماس بالغ. وكلما وصل إلى جزء مثير لكزها بكوعه.

– لم ينزف أ. يوان ولا نقطة دم واحدة. انظري إلى هذا العقرب الكبير، هذا حيوانه المدلّل المحبّب! لم يتحمّل العقرب درجة الحرارة الحارقة، وحاول أن يزحف ويخرج من الزجاجة. وظلَّ أ. يوان يواسيه حين أوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة! الصحراء الكبرى، الصحراء الكبرى!

– إذاً، مات أ. يوان في الصحراء الكبرى؟

– ولِمَ سأخدعك يا آسي؟ لقد تولّيت أمور جنازته بنفسي. تركت رماده في الصحراء وعُدت بالعقرب. لقد كلّفني بإعطائه لكِ.

– العقرب! غير معقول!

– هل نذهب لاستلامه؟ ألا تريدين مشاهدة الفيديو الخاص به؟

– لكنّي لا أرى أيّ شيء!

– لأنك لا ترغبين في رؤيته. سترينه إن بذلتِ جهداً ضئيلاً. آه، إن أ. يوان يختبئ في زاوية الشاشة اليمنى ويتكلّم، يقول: يا امرأة، يا امرأة! إنه يتحدّث عنك. هل رأيتِ أم لا؟ ها هو ذا العقرب، يمسكه بكلتا يديه أمام صدره.

أنعمت آسي النظر في الشاشة، لكنها لم ترَ غير الرمال الصفراء والكوخ الخشبي، وطائر العقعق الجاثم بسكون. كوّرت يديها في توتّر وتنهّدت، وفي تلك اللحظة جاء المدير.

«يا آسي، يا آسي!» –صاح وهو يركض، فنهض الجميع ونظروا إليه– «تعالي بسرعة، وصلت متعلّقات أ. يوان!».

أُضيئت المصابيح، وتبعت آسي المدير راكضةً في الردهة الضيقة إلى أعماق صالة الباتشينكو.

شعرت أنها ركضت لفترة طويلة، ووصل الاثنان في النهاية إلى بابٍ حديديّ أبيض يعكس الضوء بشدّة. ذهب المدير ليدفع الباب، وما إن لمسه حتّى رنّ صوت اصطكاكٍ معدنيّ مزعج للغاية. غطّت آسي أذنيها بيديها وكان وجهها شديد الشحوب. وأخيراً فُتح الباب ببطء، وظهرت أمامها شاحنة بيضاء صغيرة مقدمتها محترقة، ونوافذها مشوّهة بفعل الحرارة.

– هذه الشاحنة عائدة من الصحراء، لا يزال محرّكها يعمل بشكل جيد.

جالت آسي بعينيها حول المرأب، واكتشفت أن ثمّة نهراً أمامه. كان النهار مشرقاً، وهناك الكثير من الناس يغسلون الثياب عند ضفة النهر.

أصبح صوت المدير شديد الحزن: «أريد الاحتفاظ بهذه العربة. لم أنعم بنومٍ جيّد منذ عدّة أيام، كلما أغمضت عيني، تجلّت في ذهني أفعال أ. يوان. لقد سار في طريق الشجعان، أما أنا فمجرد رجل أعمال متواضع، لا أجرؤ على مواجهة المخاطر. ورغم ذلك، فالمدينة تحتاج إلى أشخاص مثلي، أليس كذلك؟».

أجابت آسي برقة: «بالطبع تحتاج إلى أشخاص مثلك. لقد صقل ميناؤك الحر شخصية أ. يوان».

– آسي، يا آسي، هل تظنّين ذلك حقاً؟! لا تعلمين كم أسعدني كلامك!

– بالطبع، هذه الحقيقة. كان مكانك لنا بيتاً، حين كنّا من دون مأوى.

– آه، أشعر بالطمأنينة، أشعر بالطمأنينة! آسي، هناك شخص على الجسر يلوّح لكِ.

لمست آسي بحذر هيكل العربة البيضاء، وفتحت الباب مرة أخرى ونظرت إلى الداخل. وكانت تردّد في نفسها من دون توقف: «إلى اللقاء، إلى اللقاء!».

– سأغادر الآن، وسأعود قريباً.

- تعالي، تعالي! إن أسهل شيء في العالم هو أن تأتي إلى «الميناء الحر». ما إن ترغبي في ذلك، حتّى تصِلي بخطوة واحدة.

خرجت آسي من المرأب، وهبَّ نسيم النهر، وشمّت رائحته المألوفة.

سرعان ما رأت الجسر بعد أن سارت مسافة قصيرة، لكنه كان خاوياً. وقفت آسي هناك متردّدة فيما إذا كانت سترتقي الجسر أم تستدير وتعود إلى المنزل.

ظهرت يِن تزي عند عمود إنارة الشارع، وكانت هيئتها مختلفة تماماً، إذ لم تبدُ مثل طالبة في المرحلة الثانوية، بل كامرأة عمرها خمسة وثلاثون عاماً كما قالت. اقتربت من آسي ببطء، وتعبير صارم يبدو على وجهها.

- آسي، لن أدعوكِ بأختي الكبيرة، لأنني أكبر منكِ سناً، كما أنّ معاناتي كانت أكثر مرارةً منكِ. كنتُ أقف على الجسر منذ قليل، وفكّرتُ في الأمر بوضوح، وهذا بفضل مدير «الميناء الحر»، إذ منحني القوة. حين وصلتُ إلى نهاية الجسر، وفي المياه العميقة أسفل قدمي، سمعت زوجاً من العشاق يتهامسان في الماء. رنّ صوت حبيبي في أذني، وأدركتُ أنه لا يزال هائماً في هذا العالم، هائماً مثلي. لذلك لا يمكنني النزول إلى المياه. وهو لم يذهب الليلة إلى «الميناء الحر»، لكنني ذهبت رغم توقعي بأنني لن أقابله، أفعل هكذا دائماً. ما أقصده هو أن بقعة السماء في قلبي مظلمة دائماً، مظلمة حتى النهاية. وقد اعتدت منذ زمن على مختلف الألعاب الصغيرة التي تحدث في الظلام الحالك كليلة شتاء، وهذه الألعاب تثير اهتمامي بالحياة. آسي آسي، ما هذا الذي أقوله؟

ردّت آسي بلطف: «إنكِ تحكين تاريخك يا يِن تزي. وأنا أسمعك!».

- عندما غادرتُ، كان وجهه المبتسم مطبوعاً في ذهني، ورأيتُ

حمامة بيضاء. وخطر ببالي أنني إذا انعطفت يميناً ودخلت سأعثر عليه. وقد فقدَ كلٌّ منّا أثر الآخر وضِعنا لأنني نسيتُ أمراً ما. ربما سأتذكّر ما هو إن دخلت من جهة اليمين. ركضتُ إلى الداخل ولم ينتبه لي أحد. بحثت في صالة الباتشينكو بأكملها، وأدرتُ وجوه هؤلاء الرجال ناحيتي لأراهم. بُصِق عليّ وشُتمتُ، وكدت أموت من شدة الحَرج. رافقني المدير، أنا هذه المرأة المجنونة، واقترح عليّ أن أذهب إلى الجسر الخشبي وأبحث هناك. وبعد ذلك صعدت الجسر، ثم نزلت عنه. هل ترين كم أنا مجنونة؟!

قالت آسي بصدق: «إنكِ حقاً سعيدة يا يِن تزي!».

– هل تقصدين أنني قد قابلتُ حبيبي بالفعل؟

– هذا ما أقصده.

خلدت يِن تزي إلى الصمت، وشدّت على يد آسي تعبيراً عن امتنانها. ومن دون أن تَعِيا، وصلت المرأتان إلى بوابة منتجع الينابيع الحارة. حكت لها يِن تزي الكثير عن حياتها، وغرقت كلتاهما في الجوّ ذاته؛ مزاج كآبة وترقّب صامت. قالت يِن تزي إنها بدأت حياتها الحرة من منتجع الينابيع الحارة، وهي من أوائل الناس الذين جاؤوا إلى هنا.

كان مدخل المنتجع هادئاً، ولا يوجد أيّ شخص. أرادت آسي بشدّة أن تدخلا معاً، لتعود يِن تزي إلى زيارة الأماكن القديمة، كما قرّرت أن تعرّفها بـ لونغ سي شيانغ.

«لا يا آسي!» –قالت يِن تزي بإصرار– «لنذهب إلى المسرح، لنذهب الآن!».

– لنشاهد عرض امرأة الكاميليا؟ سمعتُ أنها مريضة في الآونة الأخيرة.

سحبتها يِن تزي وعبرتا الطريق، وركبتا الباص.

لم يكن هناك أحدٌ آخر عدا السائق. كان يرتدي نظّارة سوداء، وبدا مظهره سوقياً.

«نريد الذهاب إلى المسرح»، قالت يِن تزي وهي تقف منتصبة عند الباب.

- أعرف، أنتما ذاهبتان إلى الغرف تحت الأرض. إن هذا المكان ينهك إرادة المرء حقاً.

شغّل الباص بقوة، ثم أوقفه بحركة عنيفة، فسقطتا كلتاهما. بعد ذلك انطلق في خطٍّ مستقيم وكأن شيئاً لم يكن. وبعد فترة قصيرة، قال بصوت عالٍ من دون أن يلتفت: «أنا أيضاً أذهب إلى بيوت الدعارة، والمرأة التي تملك قلبي تعيش في الغرفة رقم 3 في القبو».

ولمّا رأت آسي أنّ السائق مُسلٍّ، سألته: «إذاً هل نناسب نحن الاثنتين ذوقك؟».

- لا، لديّ حبيبة! نشأتُ وأنا أسمع امرأة الكاميليا.

- هذا مذهل. نحن ذاهبتان اليوم لزيارتها.

- هه!

لم يتحدّث الثلاثة حتى نزلتا من الباص.

تبعت آسي يِن تزي صعوداً إلى الطابق الأخير عبر سُلّم الحريق، ثم دخلتا من باب جانبي إلى شرفة. همست آسي حينما رأت الشرفة خاوية: «لا يوجد حاجز للشرفة».

أجابت يِن تزي بصوت عالٍ: «من الأنسب عدم وجود الحاجز، إذ قفز كثيرون من هنا!».

دعتها يِن تزي إلى أن تجلس على حافة الشرفة وتمدّ ساقيها في

الهواء. كانت آسي خائفة بشدّة وظلّت تسحب جسدها إلى الخلف قدر استطاعتها. لكن يِن تزي لم تكن خائفة البتّة، إذ كانت تتمايل بجسمها وتدندن أغنية. أصغت آسي إليها واتضح أن امرأة الكاميليا تغنّي، ويِن تزي تدندن معها. كان جسمها يتمايل مع إيقاع الأغنية. اقشعرّ بدن آسي وانتابها شعور بأن يِن تزي ستسقط ما إن تتوقف الأغنية، لذا دعت بصمت ألّا يتوقف هذا الغناء.

أدركت أخيراً آسي أن صوت الغناء ليس قادماً من المبنى، بل من السماء أعلاها. لعلّها تغني في منطاد؟

تكلّم أحدهم خلفهما قائلاً: «إنها حقاً جميلة، جميلة في أيّ مكان كانت».

- بالطبع. إنها ملكة الكاميليا في مدينتنا.

ميّزت آسي صوت الشخص الذي يتحدّث خلفها وكان العم غو، فنهضت على الفور والتفتت ناحيته. ركضت عدة خطوات تجاهه ثم توقفت، واستدارت فوجدت أن يِن تزي قد اختفت.

«يِن تزي!»، صرخت صرخة حادة.

ربّت العم غو على كتفها قائلاً: «لا تقلقي، لا تقلقي! رأيتها تغادر، لقد نزلت إلى الأسفل».

- حقّاً؟

- أقسم لكِ!

- مع مَن كنتَ تتحدّث منذ قليل؟

- لم أتحدّث.

- إذاً، قلبك كان يتحدّث. أحبّك أيّها العمّ!

– وأنا أيضاً أحبّك يا آسي. لننزل ونذهب إلى قاربي، لقد وصل ابن أخي، إنه شابٌّ وسيم.

– لا أحبّ الشاب الوسيم، بل أحبّ الصياد العجوز.

– تعالي معي إذاً!

كان وقت الأصيل قد حلّ حين عادا إلى المركب، وعند البيوت القريبة كان ثمّة رجلٌ يعزف أغنية حزينة على أرهو، دمعت عينا آسي لدى سماعها.

كان ابنُ أخيه منهمكاً في إعداد العشاء، وأخيراً جلس أمامها. كان جسمه يبدو كمبارز.

قال العم غو: «اسمه شي غوّو (الكلب السلوقي)، يا له من اسم ظريف!».

قرعوا كؤوسهم معاً. لم يكن ابن أخيه خجولاً، بل كان يضمّها بذراعه بأريحية، ويضع لها الطعام وكأنه حبيبها.

– آسي، أنتِ حبّ شي غوّو الأول. إنه يعرفك جيداً.

– أعلم أيها العمّ. يعرفني عن طريقك.

رغبت آسي أن تخرج في نسيم النهر قبل أن تنتهي وجبة العشاء تقريباً، فرافقها ابن الأخ وخرجا من المقصورة، ووقف الاثنان في مقدّمة المركب يحتضن كلٌّ منهما الآخر. سمعت آسي من جديد صوت العشاق في الماء، ورفعت رأسها إلى السماء وتذكّرت غناء امرأة الكاميليا. شعرت أن العاطفة في المياه تعلو كموجة، فسألت ابن الأخ ما إن كان راغباً في النزول معها إلى النهر، وما إن قال: «موافق» حتى قفزت، وقفز وراءها. خرج العم غو من المقصورة ووقف هناك مستغرقاً في تفكير عميق.

لا تجيد آسي السباحة، فتركت الأمواج تقودها وفمها مفتوح، وكان ابن الأخ إلى جانبها يسندها ويرفع رأسها فوق الماء. وفي تلك اللحظة هبط صوت امرأة الكاميليا من السماء.

«مَن أنت؟»، غمغمت آسي قائلة.

– أنا أ. يوان. كنت أنتظر طوال وجبة العشاء، لكنكِ لم تتعرّفي عليّ.

– لقد تغيّرت بشكل كبير. ألَم تتخلَّ عني وتذهب إلى العالم السفلي؟ والآن أنت ابن أخ العم غو، إلامَ بمقدورك أن تتحوّل أيضاً؟

– كيف بوسعي التخلّي عنك؟ إنكِ حلمي الذي أصبو إليه. وأنا حقاً ابن أخ العم غو، وهو مَن ربّاني. أنصِتي لَكَم هو باعث على اليأس هذا اللحن! في الحقيقة، رغم كل اليأس، ثمة دائماً مخرج إن اعترض جبلٌ العربة.

رفعها فجأة إلى الأعلى، فصعدت إلى سطح المركب.

– يا عمّ غو، كم مرّةً يُمكن للإنسان الموت؟

– يعتمدُ ذلك على قدراتِه. إن كانت كبيرة، فبوسعه الموت مرّات لا تحصى. آسي، هذه ملابسك، اذهبي إلى المقصورة وبدّليها!

– هل غادر؟

– أجل. لكنّكِ ستقابلينه مرّة أخرى.

– هل هو ابن أخيك أم أ. يوان؟

– الاثنان. أليس هذا أمراً جيداً؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ارتدت آسي ملابس جافة وخرجت من المقصورة، وضمّت العمّ غو بقوّة.

– أحبك أنتَ فقط أيّها العمّ!

– كلام فارغ، كلام فارغ، أنتِ ملكة الكاميليا المزهوة، أنّى لكِ أن

تراجعي؟ أنصتي إلى تلك المرأة العجوز، إنها على وشك أن تُجَن، ولَكَم ظريفٌ جنونها! لقد كنّا مُتيّمين بها في شبابنا. آسي، هل تودّين مقابلتها؟ إنها في المركب السابع من هنا.

صعدا ذاك القارب ودخلا المقصورة، ورأى الاثنان امرأة عجوزاً تضع مكياجاً ثقيلاً. كانت تجلس بمفردها إلى طاولة مربّعة صغيرة عليها مصباح كيروسين. بدا ذلك الوجه مثل قناع، حتى إن عينيها لا تتحرّكان. أشارت إليهما بالجلوس بحركة من يدها.

قال العمّ غو بأدبٍ شديد: «صوتك ربّى أجيالاً عديدة منّا».

غمرت آسي موجةٌ مفاجئة من العاطفة، ولم تستطع منع نفسها من الكلام.

- إنه مثل العودة من الموت. أجل، غمرني هذا الإحساس منذ قليل! استلقيت تحت الماء وظللت أغوص باتجاه تلك الكتلة السوداء، وفجأةً سمعتُ نداءً، وكأنما أُصبت بصدمة كهربائية، ارتعش جسدي. لا، ليس صدمة كهربائية، وصفي غير صحيح. ما أريد قوله، إنّ صوت غنائك منحني الحياة، شكراً لكِ!

«هذا نضالي الأخير» - ابتسمت امرأة الكاميليا كاشفة عن أسنان اصطناعية غليظة.

قال العم غو وقد غامت عيناه: «لقد رأيتُك من قبل في مصحّة في العاصمة، كنتِ جميلة مثل حورية، وأينما سرتِ، كانت تتساقط بتلات الزهور. أشعر أن هذا الأمر حدث منذ مدّة ليست بعيدة».

- شكراً لكما. أنتما تتحدّثان عن شخص آخر، عن امرأة الكاميليا في الماضي. لقد حطّ الدهر بها منذ أكثر من عشر سنوات. لكنّها لا تزال تقاوم.

قالت آسي: «إنّ لديكِ قوّة مذهلة. نحن نحبّك أيتها السيدة. أنتِ الجمال، نحن واثقان من ذلك من أعماق قلبينا».

ثم التفتت إلى العم غو وقالت: «أيها العمّ، لا تعلم كم أنا متحمّسة في هذه اللحظة! لقد قهرتُ أعدائي».

وقبل أن يتركا المرأة العجوز، شدت آسي بيديها الاثنتين على يدها، وصوتها يرتجف من شدة تأثّرها.

- أنتِ معجزة أيتها الجدة! عديني أنكِ ستعيشين إلى الأبد!

- أعدكِ يا آنسة آسي!

سار الاثنان على طول السدّ المُظلم. التفتت آسي ورأت أن المصباح أُطفئ في مقصورتها.

- آسي، عليكِ أن تعديني أيضاً.

- أعدُك بماذا؟

- بما وعدتكِ به امرأة الكاميليا للتوّ.

- أعدُك أيها العمّ. سأحبّك إلى الأبد!

علا صوت غناء من المقصورة المعتمة، في البداية كان مخيفاً، ثم أصبح أكثر حيوية شيئاً فشيئاً. ارتفع القمر في منتصف السماء مُرسلاً أشعّته الفضّية إلى الأرض.

- أنتِ على حقٍّ يا آسي، إنها معجزة. مَن يكون هذا الشخص في اعتقادك؟

رأت آسي رجلاً عجوزاً أحدبَ يتجه إلى مركب الصيد ذاك، أشعل ولّاعة في يده ورفعها عالياً وصنع دائرة. كان يُرسل إشارة.

- ومَن سيكون غيره؟ إنه حبيب امرأة الكاميليا.

لم يحصل الرجل العجوز على استجابة طوال المدة التي ظلَّ واقفاً فيها.

قال العم غو: «يفصل بينهما محيطٌ هادئ».

- يا لها من علاقة جميلة!

- آسي، سنفترق، هناك مَن ينتظرك في المنزل. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

رأت آسي مدير «الميناء الحر» حالما نزلت من السدّ. أنزل نافذة السيارة ولوّح لها وصاح: «ستنطلق عربة أ. يوان من الميناء الحر الليلة».

ترنّحت السيارة البيضاء ثم اختفت في لمح البصر.

أمسك أحدهم بكتف آسي وانتشرت رائحة ورد عطرة في الهواء، كانت يِن تزي.

- يِن تزي، قلقتُ عليكِ للغاية!

- أنا بطلٌ اختُبِر لمدة طويلة. أنا هنا لدعوتك يا آسي. زورينا في المقهى كثيراً. عندما تأتين إلى المقهى ستصلين إلى «الميناء الحر». بالطبع ثمّة العديد من المداخل الأخرى، إلّا أنها ليست مباشرة مثل مقهانا.

ربّتت يِن تزي ببهجة على كتفها واستدارت ودخلت المحل المجاور، واختفى ظلّها الممشوق في لحظة. كان متجراً لبيع السجائر المُهرّبة.

شعرت آسي بالفضول، فوقفت أمام نافذة العرض، وحاولت قدر استطاعتها أن تُمعن النظر إلى الداخل. إلّا أنها لم ترَ غير ما رأته في «الميناء الحر»؛ شاشة كبيرة بها بقعة من الرمال، في وسطها كوخ خشبي، وطائر عقعق يجثم على سطحه، وباب الكوخ يُفتح على مهل. فتحت آسي فمها في ترقّب، ولم يتوقف جسدها عن الارتجاف. ولكن، لم يكن هناك شيء.

صاحت: «يِن تزي! يِن تزي!».

ظهر رأس فتاة من الداخل وقالت لها بلطف: «لا تصيحي، اهدئي، هذا أفضل! هل تودّين الدخول والجلوس قليلاً؟».

سارت آسي ورافقتها الفتاة إلى الداخل.

تذكُر آسي أن هذا المكان كان متجراً لبيع مختلف أنواع الأحذية والقبعات، ولكنه خاوٍ الآن إلّا من شاشة كومبيوتر ضخمة تومض في الظلام. قالت الفتاة لـ آسي: «صديقتك هنا أيضاً».

رأت آسي امرأةً تجلس ساكنة على الكنبة.

- مرحباً، أنا حبيبة وي بو، اسمي تسوي لان. تفضّلي بالجلوس!

دفعت الفتاة آسي لتجلس على الكنبة وغادرت.

- أعلمُ أنك آسي، حبيبة وي بو السابقة. لطالما رغبتُ في رؤيتك.

- وي بو رجل طيّب، لكني لا أستحقّه. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع رؤيتك بوضوح الآن، لكني أعلم أنكِ امرأة جميلة. رؤيتك خفّفت كثيراً من ألمي.

أمسكت آسي بيدها، وأحسّت بتلك القوة التي منحتها لها رصانة هذه المرأة.

- إن رجلاً مثل وي بو يُطمئن النفس، ومن المستحيل نسيانه، لكنه يرفضك كُلياً. أليس كذلك؟

أجابت آسي: «أنتِ على صواب تماماً! ذلك لأنه يحبك! إن العلاقة بيننا كانت علاقة أُخوّة، لذا لم يرفضني مُطلقاً».

- لنتحدّث عن حبيبك يا آسي!

- حبيبي، قرّر أن يعذبني بعد موته. بالطبع، هو أفضل حبيب في العالم،

من النوع الذي يحب حتى النهاية، من دون تحفّظات. إنه في الصحراء الكبرى الآن.

- شاهدتُ منذ قليل فيديو قصيراً عنه، كان جميلاً للغاية. وأظن، برغم أنه لن يعود مرة أخرى، ورغم قراره بأن يحبك بهذه الطريقة، فإنّ على آسي أن تستجمع شجاعتها وتبدأ حياتها الجديدة. هذا ما يأمله، ما رأيك؟

- بالضبط. أنا أبحثُ الآن عن مدخل لحياة جديدة. تسوي لان، تسوي لان، وي بو محظوظٌ حقّاً. لا يزال في السجن، أليس كذلك؟

- إنه يستمتع بوقته في السجن، لن يُعامل نفسه بشكل سيّئ! كما أنه أرسل لي مع أحدهم قائلاً ألّا أنتظره، لأنه لا يفكّر في الخروج. آسي، أردتُ أن أقول لكِ بينما كنت في انتظارك هنا: لتبدأ كلٌّ منا حياة جديدة. كيف لأشخاص مثلنا ألّا يكون لهم حياتهم الخاصة؟ لنطوِ صفحة وي بو، وأ. يوان، إنهما ينتميان إلى الماضي، كلّما أسرعنا في نسيانه كان أفضل. هل توافقينني؟

- أنتِ على صواب يا تسوي لان! أنا معجبة بكِ! انظري، لقد رفعت رأسي عالياً، ودبّت القوة في جسدي. سأذهب إلى العمّ غو وأبشّره بالخبر السعيد. هل تريدين الذهاب معي؟

- سأبقى هنا وأنتظر حبيبي الجديد، إنه عائد من العاصمة. اذهبي بسرعة يا آسي، اذهبي وجرّبي حظّك!

هرعت آسي في الصباح الباكر إلى ضفة النهر. نعمت بنوم هادئ في منزلها الليلة الماضية، وأحسّت بأنّ الحيوية تدبّ في جسدها من جديد. حلمت وقت الفجر ببئر وسط الصحراء، فتحتها ضيقة، وعمقها سحيق لا يُسبر غوره. غرفت الماء بيدها لتشرب، لكنه كان يتسرّب كلّما دنا من

شفتيها. في النهاية انحنت على الأرض الحارقة ومدّت عنقها، ولعقت الماء مثل كلب. ومرَّ وقت طويل إلى أن روت عطشها، وأثناء ذلك سمعت صوت أ. يوان يرنّ في أذنها: «آسي، آسي، ماذا تفعلين؟».

بدا المركب مختلفاً بعض الشيء، آه، كان ثمة راية ذهبية ترفرف في مقدمته. صعدت المركب بحماس، ورأت رجلاً غريباً يخرج من المقصورة.

- هل تبحثين عنه؟ لقد سلّمني المركب. تفضّلي بالجلوس! أنا من أصدقائه المقرّبين، زملاء في المهنة منذ أكثر من عشرين عاماً.

رأت آسي على رأس الرجل خصلة شعر منتصبة مثل عرف ديك، وكان لديه عينان مسحوبتان، لم تبدُوَا شرّيرتين، بل مضحكتين بعض الشيء. ويبدو أنه في الأربعين من عمره.

- لدى عمّي غو أروع الأفكار! هل تعرف إلى أين ذهب؟

- وإلى أين سيذهب؟ بالطبع إلى البحر. اسمي ليو شا (الرمل المنساب)، وأعرف أن اسمكِ آسي، لنتصافحْ! أصدقاؤه هم أصدقائي. إنك جديرة بلقب ملكة زهور الكاميليا في المدينة.

كانت يده مثل مِبرد، لكن دافئة جداً.

- هل ترغبين في أن نتناول قليلاً من النبيذ الأحمر؟

- حَسنٌ.

- لنشرب نخباً في صحّة تعارفنا!

«في صحّتك! أعتقد أنني وقعتُ في غرامك!» -قالت آسي وقد تورّد وجهها لانفعالها- «لم نتعارف الآن فحسب، فقد رأيتك عدّة مرات في الميناء الحر. ولسنوات عديدة أردتُ أن أتحدّث إليك، وبدا من ملامحك

أنك تودّ الحديث معي أيضاً، لكن لماذا لم نتكلّم؟ ما السبب في رأيك يا ليو شا؟».

– في رأيي، لأنه كان لديك أ. يوان حينذاك، وكان الرجل الذي أحببتِه.

– هاه، ربما لم أغيّر مشاعري وأحبّ رجلاً آخر بسبب سلوكك النبيل وقتذاك.

– لكن لم يمرّ غير يومين على وفاة أ. يوان.

– يبدو أنني امرأة منحطّة لا سبيل لشفائها.

– كان العمّ غو على حقّ، أنتِ جديرة بلقب ملكة الكاميليا.

– أريد أن أتمشّى برفقتك على طول السدّ النهري.

طوّقت خصر ليو شا مثلما ضمّت العم غو. كان ثمة باخرة تبحر في الضباب، وجعل صوت الصافرة عينيها تغرورقان بالدموع. نظر إليها وكأنه مستغرق في التفكير. داعب كتفيها وقال برقّة: «ابكِ، ابكِ! على محاربينا أن يكونوا راضين!».

– أنت مُخطئ، أنا أبكي على العمّ غو. أنت لا تعرف كم أحبّه. هو أكثر مَن أحِبّه من بين جميع الناس. والآن لقد رحل، وأصبح الحب بيننا من الماضي. كلّهم يغادرون واحداً تلو الآخر، والآن أنتَ هنا. أحبّك، ولن أتخلّى عنك!

لاذ ليو شا بالصمت، ورأى أنّ كل الكلام فائض. كانت الذكريات تتراءى أمام عينيه. كم سنة مرت؟ ثماني سنوات؟ عشرُ سنوات؟ كان عليه فقط أن يعود من البحر ويذهب إلى «الميناء الحر»، ويجلس في تلك الزاوية منتظراً ظهورها. آسي هي الشمس في فؤاده. لم يجرؤ على النظرِ إليها مباشرةً، كان قلبه يدور حولها. في «الميناء الحر» حيث يحوم الضباب،

يطفو الناس كالظلال، ولا شيء ملموس إلّا آسي، كانت مختلفة، تحيطها هالة من الضوء.. ولم يكن ثمة وقت لم يشعر فيه بالذهول من أعماق قلبه؛ كيف لمعجزة كهذه أن تُخلق في العالم؟ والآن أصبحت هذه المعجزة واقعاً، لكن، لماذا يرتجف قلبه ولا يشعر بالسعادة؟ هل كان متوتّراً للغاية؟

- ليو شا، هل ترغب في الذهاب معي إلى «مجمّع الكاميليا السكني»؟

- أريد الذهاب بنافد الصبر. انتظرتُكِ من قبل في الحديقة أسفل منزلك سرّاً، في شتاء موحش، وفي أيام عطلتي المضجرة.

وحين وصلا أمام المبنى، وكما خمّنت آسي، كان «المُبَلِّغ» يقف أمام الباب الحديدي حاملاً في يده باقة ورد.

قال: «تهانينا يا آنسة آسي! إنه شابّ وسيم حقاً!».

فردَّ ليو شا مُصحّحاً: «شابّ في الخمسين».

تبعهما «المُبَلِّغ» إلى الطابق العلوي، ودخل المنزل، ثم وضع باقة الورد في مزهرية آسي. كانت المرة الأولى التي تكشفُ فيها عيناه عن حزنه. وكانت هناك خصلة شعر رمادية على جبينه.

- يا آنسة سي، سأختفي من المجمّع السكني. من الآن فصاعداً لديك حارس أفضل ليحرسك.

- أنت بِشارتي أيها العمّ!

احتضن كلٌّ منهما الآخر بقوة، وغادر الرجل العجوز من دون أن ينظر إلى الوراء.

كان ثمة كرسيّان من الخيزران في الشرفة، وفهم ليو شا من نظرة واحدة ما حدث هنا من قبل.

- سأعدّ لكِ الطعام يا آسي، أحضرتُ معي أجود أنواع الشامبانيا.

قال ذلك وهو يدخل المطبخ، فتبعته آسي. وعبر صوت الماء الجاري، كان فؤادها يغني مثل عصفور.

ثم رنّ جرس الهاتف في غرفة المعيشة.

- لونغ سي شيانغ؟ ماذا؟ ستذهبين إلى آيسلندا؟ هل لاو يونغ ذاهبٌ معكِ؟ عظيم! أرسلي له تحياتي! لا تعرفين هل ستعودين أم لا؟ لماذا أنتِ متشائمة هكذا؟ أصغِ إلي: لا يوجد داعٍ لذلك! ستكونين بخير.. عِديني! ماذا؟

قالت آسي بإحباط: «لقد قرّرا أن يظلّا عالقين معاً حتى الموت».

- لا، لن يحدث ذلك يا آسي، لقد رأيتُ هذا الأمر مرات كثيرة. في النهاية سيكون ثمة مخرج، «من وسط ظلال الصفصاف المعتمة والزهور المتفتّحة، ستظهر قرية أخرى». ثقي بي!

قال ذلك وعيناه المسحوبتان باسمتان.

- حَسنٌ، أصدّقُك!

قالت آسي ووقفت على أطراف أصابعها وقبّلته.

آب (أغسطس) 2012

منطقة حديقة جين بانغ في بكين

مكتبة
t.me/t_pdf

تسان شُيِّه

وُلدت تسان شُيِّه (واسمها الحقيقي دينغ شياو هوا)، في مدينة تشانغشا بمقاطعة هونان في الصين في عام 1953.

بدأت بنشر كتاباتها في عام 1985. وتُعتبر من أهم روّاد تيار «أدب الطليعة»، وهي إحدى أكثر الكاتبات الصينيات اللاتي تُرجمت أعمالهن إلى اللغات الأخرى. لها مجموعات قصصية وروايات وكتب نقدية عدّة. من أبرز أعمالها: «شارع البهارات الخمسة»، «الحبيب الأخير»، «الغيمة القديمة الطافية»، «شجرة تفاح في الممر».

تُدَرّس رواياتها في سياق دراسة الأدب في جامعات هارفارد وكورنيل وكولومبيا وجامعات أخرى في الولايات المتحدة، إضافةً إلى جامعتي طوكيو ونيهون في اليابان.

وصلتْ روايتها «شارع البهارات الخمسة» إلى القائمة الأخيرة لجائزة «نيوستاد» الدولية للأدب عام 2016، ورُشّحَت لجائزة «الرواية الأجنبية المستقلة» في لندن. كما وصلت روايتها «الحبّ في القرن الجديد» إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر الدولية عام 2019.

يارا المصري

مترجمة مصرية، درست اللغة الصينية في كلّيّة الألسن، جامعة عين شمس في القاهرة، وفي جامعة شاندونغ للمعلّمين في مدينة جينان

بالصين. نشرت قصصاً ونصوصاً شعرية ودراسات مترجمة عن اللغة الصينية إلى اللغة العربية في مجلّات وصحف عدّة. شاركت في مؤتمر المترجمين لترجمة الأعمال الأدبية الصينية الذي عُقد في الصين في عامي 2016، 2018، كما شاركت في ورشة للكتابة والترجمة في أكاديمية لوشون للأدب في بكين (2017). فائزة بالمركز الأول في مسابقة جريدة «أخبار الأدب» للشباب في الترجمة 2016 عن ترجمتها لرواية «الذوّاقة» للكاتب الصيني «لو وين فو». حائزة على جائزة الإسهام المتميّز في الكتاب الصيني عام 2019.

من ترجماتها: «العظام الراكضة» لـ آشه، «الفرار في عام 1934» لـ سوتونغ، «رياح الشمال» لـ بينغ يوان، «زوجات ومحظيات» لـ سو تونغ، «شيء اسمه حجر يليه كوكب مصر» لـ أويانغ جيانغ خي.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

مكتبة
telegram @t_pdf

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تبحث شخصيات هذه الرواية عن حياةٍ مختلفة، فتترك بعضهنّ عملهنّ في مصنع القطن ويتحوّلن إلى عاملات جنس في منتجع الينابيع الحارة، بينما يدخل واحدٌ منهم إلى السجن بإرادته باحثاً عن الهدوء، وتمضي ثالثة إلى مسقط رأسها مكتشفةً كهوفاً وأنفاقاً عجيبة، بينما تختار رابعةٌ ملاذاً لها في مقاطعة ريفية، حيث الأعشاب الصينية المستخدمة في الطب التقليدي.

تتشابك هذه الشخصيات في علاقات عاطفية وجسدية متعددة، فيما يبدو كلّ واحدٍ منهم وكأنه مرآة للآخر، إذ تبدأ حكاية كلّ واحد منهم حيث توقفت السابقة، في بنيةٍ زمنية انسيابية.

في هذه الرواية التي وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر الدولية عام 2019، تكتب "تسان شُيّه" عن مغزى الحياة في علاقتها بالحب والجنس ومسقط الرأس والعمل، وعن الحدّ المتلاشي بين الحياة والموت، وبين اليقظة والنوم، في حبكة ضبابية وهائجة مليئة بأوصافٍ حسّية واستعاراتٍ حيّة، تتردّد في جوانبها أصداء الواقعية السحرية.

ISBN 978-9933-641-26-9
9 789933 641269 >

سرد

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع